الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي

قبل قيام الدولة الأيوبية في مصر

(٤٩١-٥٦٩هـ/١٠٩٧-١١٧٣م)

تأليف

مسفر بن سالم عريج الغامدي

الناشر

دار المطبوعات الحديثة

جدة - تليفون ٦٦١٠٨٨٠

الطائف - تليفون ٧٣٢٢٥٤٤

« حقوق الطبع محفوظة للمؤلف »

الطبعة الأولى
١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م

الإهداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى من كان يحلم بأن يراني رجلاً صالحاً. إلى من بذل وقته وصحته وحياته كلها في سبيل تأمين حياة كريمة لي وللأفراد أسرتي إلى من وافته منيته ١٣٧٥هـ قبل أن أعرفه جيداً إلى والدي سالم بن عريج رحمه الله رحمة الأبرار ولكنه نسيج جفناتي.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه وأن يجعله بعيداً عن الرياء والسمعة.

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

قال تعالى:

"انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون" سورة التوبة الآية ٤٠

المحتويـــات

الموضوع	الصفحة
المقدمـــــــه : دراسة نقديه لأهم مصادر البحث	٧ ــ ٣١
الـــفصل الأول : القوى الاسلامية فى بلاد الشام والجزيرة قبل قيام الاسرة الزنكية (٤٨٥ ــ ٥٢١هـ / ١٠٩٢ ــ ١١٢٧م)	٣٢ ــ ١٠٠
ــ ضعف السلطة السلجوقى وانحسار النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام .	
ــ النزاع بين رضوان ودقاق ابنى تتش ونتائجه .	
ــ فرقة الاسماعيلية وأثرها السياسى فى بلاد الشام .	
ــ نهاية الامارات العربية فى بلاد الشام والعراق والجزيرة .	
○ المرداسيون فى حلب .	
○ بنو عقيل فى الموصل .	
○ امارة بنى مزيد فى الحلة .	
○ امارة بنى عمار فى طرابلس .	
○ امارة بنى منقذ فى شيزر .	
الـفصل الثـانى : الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين حتى قيام الاسرة الزنكية (٤٩١ ــ ٥٢١هـ / ١٠٩٧ ــ ١١٢٧م)	١٠١ ــ ١٧٢
ــ موقف الخلافة العباسية من حركة الجهاد ضد الصليبيين	
ــ موقف الخلافة الفاطمية من الغزو الصليبى لبلاد الشام	
ــ بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين قبل عمادالدين زنكى	
الفصل الثـالث : الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فى عصر عمادالدين زنكى (٥٢١ ــ ٥٤١هـ / ١١٢٧ ــ ١١٤٦م)	١٧٤ ــ ٢٣٤
ــ عمادالدين زنكى حتى ولايته الموصل سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م .	
ــ عمادالدين زنكى وبعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين .	
ــ عماد الدين زنكى والصليبيون حتى قبيل سقوط الرها (٥٢١ ــ ٥٣٨هـ / ١١٢٧ ــ ١١٤٣م)	
ــ استيلاء عمادالدين على امارة الرها الصليبية سنة	

٥٣٩هـ / ١١٤٤م .
الفصل الرابع : الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فى عصر نورالدين محمود (٥٤١ ــ ٥٦٩هـ / ١١٤٦ ــ ١١٧٣م) ٢٣٥ ــ ٣١٥
ــ تربية ونشأة نورالدين محمود فى ذروة عصر الجهاد الاسلامى
ــ نورالدين محمود والحملة الصليبية الثانية ٥٤٣هـ / ١١٤٨م
ــ جهاد نورالدين محمود ضد الصليبيين بعد فشل الحملة الصليبية الثانية (٥٤٣ ــ ٥٦٥هـ / ١١٤٨ ــ ١١٦٩م)
ــ نورالدين محمود وتوحيد القوى الاسلامية فى الشام والجزيرة .
ــ استيلاء نورالدين محمود على مصر ووضع الصليبيين بين شقى الرحى (٥٥٩ ــ ٥٦٩هـ / ١١٦٣ ــ ١١٧٣م) .
الخاتمة ..... ٣٢٢ ــ ٣٣٠
الملاحق ..... ٣٣١ ــ ٣٤٥
المصادر والمراجع ..... ٣٤٦ ــ ٣٦١

المقدمـــــة
دراسة نقدية لأهم مصادر البحث

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . وبعد . فإن الأمة الإسلامية قد ابتليت بكثير من الاعداء منذ ظهور الدعوة الإسلامية إلى يومنا هذا ، ففى أواخر القرن الخامس الهجرى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى تيسر لجحافل الصليبيين الذين خرجوا من أوروبا غزو بلاد الشام والجزيرة ، وتأسيس أربع إمارات صليبية فى قلب العالم الإسلامي في غمرة الضعف والتفكك الذى أصاب المسلمين نتيجة انصرافهم عن واجب الجهاد الإسلامى ، ودخولهم فى منازعات طائفية ومذهبية . وعلى الرغم من هذا فقد رفع المسلمون ـــ بعد فوات الأوان ـــ راية الجهاد عالية لتطهير البلاد الإسلامية من دنس هؤلاء الصليبيين .

ولما كانت البلاد الإسلامية قد انقسمت وقتذاك إلى عدد من الإمارات والدويلات الصغيرة ، والتى كانت تستظل بظل الخلافتين العباسية فى بغداد والفاطمية فى القاهرة ، فقد مرت الدعوة إلى الجهاد الإسلامى بعدة مراحل ، بدأت سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م بمحاولة كربوقا صاحب الموصل منع سقوط أنطاكية بيد الصليبيين ثم تلتها محاولات من زعماء منطقة الجزيرة وبلاد الشام ، حتى تمكن عماد الدين زنكى سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م من استرداد الرها أولى الامارات الصليبية فى المشرق الإسلامى ، بعد مرور أكثر من تسعة وأربعين عاما على استيلاء الصليبيين عليها .

وقد جاءت أهمية دراسة موضوع الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فى عصر الأسرة الزنكية من ناحيتين : الأولى أنها تلقى الأضواء على الجهود الجبارة التى بذلها مؤسس الاسرة الزنكية عماد الدين فى سبيل توحيد قوى الشام والجزيرة للوقوف فى وجه الصليبيين ، تلك الجهود التى أثمرت عن استرداد الرها من الصليبيين ، وكذلك جهود ابنه نور الدين محمود الذى نجح فى تضييق الخناق على الصليبيين وحصرهم فى المنطقة الجبلية الواقعة إلى الغرب من الأردن بعد فشل الحملة الصليبية الثانية ، ثم ماصاحب ذلك من اثارة الحماس فى نفوس المسلمين لقتال الصليبيين والتمكن منهم . ومن ناحية

ثانية جاءت أهمية موضوع هذا البحث من أن العالم الاسلامى يمر فى الوقت الحاضر بما يشبه الفترة التى أعقبت دخول الصليبيين إلى بلاد الشام والجزيرة من تعدد للقوى واختلاف فى الآراء والاهداف . فما أحوج الأمة الإسلامية إلى احياء فكرة الجهاد الإسلامى ضد صليبي القرن العشرين الذين طردوا العرب من فلسطين وسيطروا على أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين .

وقد اعتمدت الرسالة على مصادر أصلية منها كتاب ذيل تاريخ دمشق لمؤلفه أبى يعلى حمزة بن على بن أسد التميمى المعروف بابن القلانس المتوفى سنة ٥٥٠ هـ / ١١٦٠م . وينتمى ابن القلانس إلى احدى الأسر العريقة فى دمشق وكمعظم معاصريه تلقى ابن القلانس تعليما جيدا فى الأدب والفقه والشريعة[١] . وشغل ابن القلانس العديد من الأعمال الادارية فى دولة ظهير الدين طغتكين وخلفائه بدمشق ، حتى أصبح مسئولا بديوان الرسائل . وقد أتاح له هذا المنصب الاطلاع على كثير من أسرار السياسة عن طريق الوثائق المحفوظة بهذا الديوان[٢] .

جعل ابن القلانس كتابه ذيل تاريخ دمشق ، ذيلا على كتاب المؤرخ المشهور هلال الصابى الذى ينتهى بحوادث سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦م ، ومن الملاحظ أن تاريخ ابن القلانس لم يقتصر على تاريخ مدينة دمشق بل عالج فيه كثيرا من الحوادث السياسية التى وقعت فى الشام والعراق والجزيرة ومصر ، ولكنه عالجها بصورة مقتضبة[٣] . هذا فضلا عن اهتمامه بأحوال الامارات الصليبية في بلاد الشام وماكان بينها وبين القوى الإسلامية في الموصل وحلب من نزاع مستمر[٤] . وقد أفاد البحث من كتاب ذيل تاريخ دمشق لابن القلانس عند دراسة تفكك و حدة السلاجقة فى الشام عقب وفاة تاج الدولة تتش سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥م ، وقيام النزاع بين ولديه رضوان في حلب ودقاق في دمشق ذلك النزاع الذى لم يقف عند حد الخصومة الشخصية بينهما ، وانما تعداها إلى أن هذا النزاع اصبح نزاعاً بين حلب ودمشق وما سببه هذا النزاع من أثر في نجاح الحملة الصليبية الأولى[٥] . واستفاد البحث من تاريخ ابن القلانس ايضاً عند الحديث عن بعث

---

(١) Gibb, Damascus Chronicle of the Crusades, p.p. 7-8.

(٢) ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٣٣ ، شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون ، جـ ٢ ، ص ٣٢٧ .

(٣) انظر ابن القلانسي ، ص ٨٦ ، ٢٦٣ .

(٤) Gibb, op.cit, p.p. 10-11.

(٥) انظر ابن القلانسي ، ص ١٣٠ — ١٣٢ .

فكرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والجهود التى بذلها طغتكين فى الانضمام إلى زعماء منطقة الجزيرة كمودود سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣م ، ونجم الدين ايلغازي سنة ٥١٣ هـ / ١١١٩م[١] .

ولم تقف فائدة ذيل تاريخ دمشق لابن القلانس عند هذا الحد بل أمدنا بمعلومات قيمة عن الجهود التى بذلها فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس فى الدفاع عنها ومنعها من السقوط بيد الصليبيين ، وما قام به من محاولة الاستعانة بالقوة الإسلامية كطلب المساعدة من ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق ، وذهابه إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية السنيه لطلب المساعدة منها[٢] . كما أمدنا ابن القلانس بمعلومات قيمة ونادرة عن فرقة الاسماعيلية والدور الذى قامت به فى بلاد الشام وما أحدثته من فرقة بين صفوف المسلمين ، والعلاقات الوطيدة التى كانت بين زعماء هذه الفرقة والصليبيين[٣] . وعند دراسة موضوع الجهاد الإسلامى فى عصر عماد الدين زنكى أمدنا ابن القلانس بمعلومات قيمة عن الدور الكبير الذى قام به عماد الدين زنكى فى سبيل توحيد القوى الإسلامية فى بلاد الشام ، وما بذله من جهود جبارة فى سبيل ضم دمشق إلى حكمه[٤] . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فقد أمدنا ابن القلانس بمعلومات قيمة عن جهود عماد الدين ونائبه فى حلب سوار بن ايتكين ضد الصليبيين تلك الجهود التى أثمرت عن استرداد الرها من الصليبيين سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤م وقد أفاض ابن القلانس فى الحديث عن هذا الحدث الهام ، وما ترتب عليه من نتائج هامة كان لها الأثر الكبير على الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين وكذلك عن الحملة الصليبية الثانية سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م وفشلها فى استرجاع الرها . وأمد ابن القلانس البحث أيضا بمعلومات وافية عن جهود نور الدين محمود فى سبيل توحيد بلاد الشام وضمها تحت لوائه مثل استيلائه على دمشق سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م[٥] .

ومن المصادر الأصلية التى أفاد منها البحث تاريخ العظيمى لمؤلفه أبو عبدالله

---

(١) أنظر مايلى ص ١٤٥ ومابعدها .

(٢) انظر ابن القلانسي ، ص ١٥٦ ، ١٦٠ — ١٦١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٢٠ — ٢٢٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٧٠ — ٢٧٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٧٩ — ٢٩٩ .

محمد الرئيس أبى الحسن على بن محمد بن أحمد التنوخى المعروف بابن العظيمى الحلبى ، ولد سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م ومات بعد سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م[١] . وينتمى العظيمى إلى أسرة تنوخية شارك معظم أفرادها فى حوادث حلب السياسية ، بينما تولى هو التدريس فى احدى المدارس بحلب ، فى الوقت الذى لم يشغله ذلك عن طلب العلم . ولما أنس العظيمى فى نفسه القدرة على قرض الشعر سافر إلى دمشق وتعرف بها على ابن عساكر صاحب كتاب تاريخ مدينة دمشق ، ثم سافر إلى بغداد وتعرف على السمعاني. وكان العظيمى من شعراء الاراتقة اذ أعجب بجهود بعض زعماء هذه الاسرة وما بذلوه فى جهاد الصليبيين ، كما مدح آقسنقر البرسقى صاحب الموصل وحلب . ولم يقف العظيمى عند هذا الحد بل اتصل بعماد الدين زنكى ومدحه بأشعار كثيرة[٢] .

وتاريخ العظيمى تاريخ عام مختصر سار فيه مؤلفه على طريقة الحوليات[٣] . ورغم الاختصار الذى سلكه مؤلفه فقد احتوى على معلومات قيمة أفادت البحث فى بعض فصوله كالدور الذى قام به كل من جكرمش وسقمان بن أرتق سنة ٤٩٧هـ / ١١٠٣م وهزيمتهما للصليبيين فى حران ، وما قام به نجم الدين ايلغازى سنة ٥١٣هـ / ١١١٩م من هزيمة للصليبيين فى دانيت بالقرب من حلب[٤] . كما أمد تاريخ العظيمى البحث بمعلومات قيمة عند دراسة الدور الذى قام به عماد الدين زنكى فى بعث حركة الجهاد الاسلامى وقيامه بتوحيد الجبهة الاسلامية ، وعند دراسة العلاقات البيزنطية الصليبية زمن عماد الدين زنكى وما قام به عماد الدين زنكى ونائبه فى حلب سوار بن ايتكين من جهود جبارة فى صد الصليبيين عن شيزر سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٧م[٥] .

ولم تقتصر فائدة كتاب العظيمى عند هذا الحد بل أمدنا بمعلومات طيبة عند

---

(١) شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون ، جـ ٢ ، ص ٢٣٩ .

(٢) انظر العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٣هـ وسنة ٥٢٧هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٥٥ ، ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٦ص ٨٠ .

(٣) نشر المستشرق كلودكاهن C. Cahen ، القسم الاخير من كتاب العظيمى وهو يشمل حوادث السنوات ٤٥٥ — ٥٣٨هـ فى المجلة الاسيوية Journal Asiatique Tome, cc XXX (1738) p.p. 353-448. ، العرينى ، مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ١٩٤ ، شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون ، جـ ٢ ، ص ٢٣٩ .

(٤) أنظر مايلى ص ١٤٢ .

(٥) أنظر مايلى ص ١٣٤ .

الحديث عن جهاد نور الدين محمود ضد الصليبيين واستيلائه على دمشق سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م[١] . وعلى الرغم من فائدة تاريخ العظيمى للبحث ، الا أن الاختصار الشديد فى المعلومات التى أوردها لاتفى أحيانا بما يحتاجه البحث من التفصيل مما يضطر الباحث معه إلى الرجوع إلى مصادر أخرى قد يكون أصحابها قد اعتمدوا على تاريخ العظيمى كابن العديم وابن الأثير . واذا كان الحال هكذا فلا يستبعد أن يكون العظيمى قد اختصر كتابه الذى بين أيدينا عن كتاب آخر مفقود هو أكبر حجما وأغزر مادة[٢] .

ومن أهم المصادر التى أفاد منها البحث كتاب الاعتبار لمؤلفه أبوالمظفر مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى الشيزرى . ولد سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م وتوفى سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨م . وكانت لاسامة اليد الطولى فى الادب والكتابة والشعر والفروسية . جمع اسامة إلى الفروسية حب المغامرة والصيد بالاضافة إلى حبه فى العمل بالسياسة[٣] .

عاش أسامة فى كنف اسرته العربية التى استطاعت الحفاظ على شيزر من السقوط بيد الصليبيين ، وصرف اسامة معظم ايام شبابه بشيزر خلال امارة عمه أبو العساكر سلطان حيث جرت معظم الحوادث التى دونها اسامة بن منقذ فى مذكراته وهو شاهد عيان[٤] . وفى سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨م استوحش اسامة من عمه أبي العساكر سلطان فغادر شيزر إلى دمشق ومكث بها عدة سنوات فى كنف اسرة طغتكين والقائم على أمر هذه الأسرة ــ وقتذاك ــ معين الدين أنر . ولما اشتهر به اسامة بن منقذ من البراعة فقد

---

(١) أنظر مايلى ص = ٢٧٧ ــ ٢٧٨ .

(٢) انظر العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث السنوات ٥٣٣ ــ ٥٣٤ ، وعن اعتماد ابن العديم وابن الاثير على تاريخ العظيمى ، انظر : ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٣ ، ورقة ٢٧١ ب ، ٢٩٠أ ،وابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٥٥ .

(٣) ابن ابيك الدوادارى ، درر التيجان وغرر تواريخ الزمان ، ورقة ١٦٥ب ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ١ ص ١٩٥ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ١٠٧ ، ياقوت ، معجم الادباء ، جـ ٢ ص ١٨٧ ــ ١٩٦ ، الاصفهانى ، خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء الشام ، جـ ١ ، ص ٤٩٧ ، اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، مقدمة المحقق ، ص ر ــ ز .

(٤) انظر اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٠٠ ، ١٢٦ .

استطاع خلال اقامته بدمشق الاشتراك فى كثير من حوادث دمشق ، الا أن اقامته بدمشق لم تطل فقد غادرها فى سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٤م إلى مصر حيث مكث بها فترة من الزمن استطاع خلالها أن يكسب عطف حكام القاهرة الفاطميين ، الا أنه لم يلبث أن حامت حوله الشبهات فغادر مصر إلى الشام خوفا من القتل[١] .

وكتاب الاعتبار قل ان تجد مايشبهه من كتب التاريخ فى العصور الوسطى إذ يتضمن خلاصة تجارب اسامة ، وكل ماصادفه فى حياته من حوادث سواء منها ماكان فى الصيد او السياسة أو النكتة مع تصوير رائع للحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية وهى معلومات قل أن توجد فى كتب التاريخ[٢] . وترجع أهمية كتاب الاعتبار لموضوع الرسالة ان مؤلفه كان شاهد عيان لكثير من حوادث بلاد الشام فى الفترة التى تضمنها موضوع البحث بالاضافة إلى أن مؤلفه كان قد اشترك فى صنع كثير من الحوادث السياسية سواء منها ماحدث فى بلاد الشام أو الجزيرة أو مصر[٣] .
وقد أفاد البحث من كتاب الاعتبار عند دراسة علاقة امارة شيزر ببقية القوى الاسلامية فى بلاد الشام والجزيرة . وأمدنا اسامة بن منقذ ايضا بمعلومات كان لها الفائدة فى معرفة ماكان بين أمراء شيزر وبين الصليبيين من علاقات حملت زعماء بنى منقذ على القيام بدور الوساطة بشأن اطلاق سراح بلدوين الثانى ملك بيت المقدس من أسر زعماء حلب سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م[٤] .

وعند الحديث عن بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين قبل عماد الدين زنكى فقد زودنا اسامة بن منقذ فى كتابه الاعتبار بمعلومات فى غاية الاهمية عن دور عمه أبي العساكر سلطان بن منقذ فى الوقوف إلى جانب شرف الدولة مودود صاحب الموصل وظهير الدين طغتكين صاحب دمشق سنة (٥٠٦ ــ ٥٠٧هـ / ١١١٢ ــ ١١١٣م)[٥] . ولم تقتصر فائدة كتاب اسامة بن منقذ عند هذا الحد بل أمدنا

---

(١) انظر اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٤ ، ٦ ، ٣٥ ، العرينى ، مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ١٩٦ .
(٢) انظر العرينى ، مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ١٩٦ ، شاركر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون ، جـ ٢ ص ٢٤٤ .
(٣) اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٠ ــ ٣٠ .
(٤) انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٢٢ ، انظر مايلى ص ١١٨ ــ ١١٩
(٥) أنظر مايلى ص = ١٤٧ ــ ١٤٨ .

بمعلومات عن محاولات عماد الدين فى الاستيلاء على دمشق وضمها إلى حوزته ، ولم يقف أسامة عند حد ذكر ذلك بل كان له دور بارز فى الوقوف إلى جانب حكام دمشق لمنع عماد الدين من الاستيلاء على دمشق[١] .

وعند دراسة موضوع الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فى عصر نور الدين محمود وما صاحب تلك الفترة من تقلب للأوضاع السياسية فى مصر ، أمدنا أسامة ابن منقذ بمعلومات ذات أهمية فى معرفة ضعف الخلافة الفاطمية ، وبصورة عفوية أوضح أسامة دوره فى تلك الحوادث التى أدت إلى خروج عسقلان آخر المعاقل الفاطمية فى بلاد الشام إلى الصليبيين سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م[٢] .

أما أوجه القصور فى كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ فهو عدم مراعاة مؤلفه للترتيب الزمنى وعدم اخضاع معلوماته لاى ضابط أو سلطان ، بالاضافة إلى أنه من الصعب على الباحث استخراج المادة التاريخية دون عناء ومشقة ، وهذا راجع إلى أن أسامة لم يدون هذه المذكرات للتاريخ فى حد ذاته[٣] .

ومن المصادر الهامة لموضوع الرسالة كتاب المنتظم فى تواريخ الملوك والامم لابى الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن على بن محمد المشهور بابن الجوزى . ولد ببغداد سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م وتوفى سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م ، ويعتبر ابن الجوزى من كبار العلماء المسلمين ، صنف تصانيف كثيرة فى شتى أنواع العلوم كالتفسير والحديث والفقه والوعظ والزهد ، والطب ، والفلك ، والتاريخ وغير ذلك ، وتصانيفه فى التاريخ تعد بالعشرات من المؤلفات[٤] .

وكتاب المنتظم فى تواريخ الملوك والامم كتاب تاريخ اسلامى عام على نظام الحوليات ، يقع فى عشرة مجلدات النصف الأول منها لا يزال مخطوطاً ، بينما طبع النصف الاخير الذى يتناول التاريخ العباسى . ولا تظهر فى كتاب ابن الجوزى علامات

---

(١) أنظر مايلى ص ٢١٢ .

(٢) اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٠ ــ ١٦ ، وانظر مايلى ص ٣٥٦

(٣) انظر اسامة بن منقذ ، الاعتبار ص ٩٠ ، ٩٣ ، العرينى ، مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ١٩٦ .

(٤) ابن خلكان ،وفيات الاعيان ،جـ ٣ ص ١٤٠ ــ ١٤٣ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ١٧٤ ــ ١٧٥ ، شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون جـ ٢ ص ١٠٨ .

الشمولية لتاريخ البلاد الاسلامية ، بل تظهر جهوده واضحة فى تاريخ بغداد وكل ماله صلة بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية[١] .

ولما كانت عناية ابن الجوزى قد تركزت على تاريخ بغداد ، فقد أمدنا بمعلومات قيمة عند الحديث عن الخلافة العباسية ودورها فى جهاد الصليبيين حيث أفاد البحث مما ذكره ابن الجوزى عن السيطرة السلجوقية على الخلافة العباسية ، وانشغال الخلافة العباسية بفتنة دبيس بن صدقة سنتى ٥١٤ ــ ٥١٧هـ / ١١٢٠ ــ ١١٢٣م مما أدى إلى اضعاف الخلافة العباسية والحيلولة دون قيام الخلافة بواجبها فى جهاد الصليبيين[٢] . واستفاد البحث أيضا من كتاب المنتظم عند دراسة دور الخليفة المسترشد بالله فى النهوض بأمر الخلافة العباسية ومحاولة التخلص من سيطرة السلاجقة إلى أن راح ضحية طموحاته سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٥م[٣] . وعند دراسة موضوع بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين قبل عماد الدين زنكى أمدنا ابن الجوزى بمعلومات هامة عن علاقة بعض زعماء منطقة الجزيرة بالسلطنة السلجوقية وما كان لها من أثر كبير فى تشجيع هؤلاء الزعماء كشرف الدولة مودود وآقسنقر البرسقى[٤] . وأفاد البحث أيضا من كتاب المنتظم لابن الجوزى عند تتبع خطوات عماد الدين زنكى قبل وصوله الى ولاية الموصل[٥] .

ومن المصادر الهامة التى أفادت البحث مؤلفات العماد الاصفهانى وهو أبو عبدالله محمد بن محمد بن حامد بن عبدالله الاصفهانى المعروف بالعماد الكاتب ، ولد العماد الكاتب سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م بأصبهان ونشأ بها فى أسرة عريقة ، ولى أكثر أفرادها وظائف هامة فى الدولة السلجوقية والخلافة العباسية . قدم إلى بغداد سنة ٥٣٤هـ / ١١٣٩م ودرس فى المدرسة النظامية على أساتذتها حتى نبغ فى نظم الشعر والادب وصناعة الكتابة ، ثم عمل فى بعض وظائف الخلافة العباسية كالنظر فى واسط والبصرة

---

(١) انظر شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون ، جـ ٢ ص ١٠٨ ــ ١٠٩ .
(٢) أنظر مايلى ص ٧٥ .
(٣) أنظر مايلى ص ١٠٩ .
(٤) أنظر مايلى ص ١٤٤ .
(٥) أنظر مايلى ص ١٨٥ .

سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م[١] . ثم مالبث العماد أن انتقل إلى دمشق زمن نور الدين محمود بن زنكى سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٧م ، وهناك تعرف على صلاح الدين الايوبى ومكث بدمشق حتى وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م ، عاد بعدها إلى بغداد . ولكنه لم يطل المقام بها حيث عاد إلى الشام حين سمع بقدوم صلاح الدين إليها من مصر سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م . وفى دمشق إلتقى بالقاضى الفاضل ، فقدمه لصلاح الدين وظل ملازما له فى سفره وحضره حتى توفى صلاح الدين الأيوبى ، ثم استقر بدمشق حتى وفاته سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م[٢] .

وللعماد مؤلفات تاريخية منها البرق الشامى وقد اختصره الفتح بن على البندارى من مؤرخى القرن السابع الهجرى وسماه سنا البرق الشامى ، استهل العماد حديثه فى هذا الكتاب بالحديث عن نفسه وتاريخ حياته ونشأته وشئ من سيرة نور الدين محمود بن زنكى واتصاله به[٣] . ومن مؤلفات العماد الاصفهانى تاريخ دولة آل سلجوق اختصار الفتح بن على البندارى ، وهو المصدر الذى استفاد منه البحث رغم اعتماد الاصفهانى فيه على الكثير من المحسنات البديعية واللفظية . وهذا الكتاب عن تاريخ دولة آل سلجوق ووزرائها ابتدأه العماد بالحديث عن أصل السلاجقة ، ودخولهم بغداد سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م ثم تعرض للكثير من تواريخ السلاجقة وعلاقتهم بالخلافة العباسية ، بالاضافة إلى الحديث عن وزراء دولة السلاجقة[٤] . وتتركز أهمية هذا الكتاب فى أن مؤلفه عاصر جزءا من الفترة التاريخية التى يشملها البحث مع التركيز على تاريخ السلاجقة الذين لعبوا دورا بارزا فى عصر الحروب الصليبية . وأمد هذا الكتاب البحث بمعلومات قيمة عند الحديث عن الخلافة العباسية والدولة السلجوقية ، اذ أوضح العماد مدى سيطرة السلاجقة على الخلافة العباسية ودور امارة بنى مزيد فى الحلة فى تعكير

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ٥ ، ص ١٤٨ ، السبكى طبقات الشافعية جـ ٦ ص ١٧٨ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ص ١٧٨ ، العرينى ، مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ٢٣٧ .

(٢) العمرى ، مسالك الابصار ، جـ ٧ ، ورقة ٣٧٢ أ ب ،سبط ابن الجوزي ،مرآة الزمان جـ ٨ ق ١ ص ٣٢٩ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ،جـ ٥ ، ص ١٤٩ ، العرينى ، مؤرخو الحروب الصليبية ص ٢٣٧ ــ ٢٤٠ ، شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون ، جـ ٢ ص ٢٤٦ ــ ٢٤٧ .

(٣) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ٥ ، ص ١٥٠ ، العرينى ، مؤرخوالحروب الصليبية ، ٢٤٣ .
انظر العماد الاصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٥ ، ٧ ، ١٢ ، ٨٢ ، شاكر مصطفى ، التاريخ العربى

(٤) والمؤرخون جـ ٢ ص ٢٤٦ ــ ٢٤٧ .

صفو الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية[1] . ومن أوجه القصور فى هذا الكتاب أن العماد ركز اهتمامه على تاريخ السلاجقة ، ولم يسهب فيه بمزيد من التفصيل عن الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين مثلما فعل فى كتابيه الفتح القسى فى الفتح القدسى ، والبرق الشامى .

ويأتى كتاب الكامل فى التاريخ ، وكتاب التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية لابن الاثير الجزرى (٥٥٥ ــ ٦٣٠هـ / ١١٦٠ ــ ١٢٣٢م) فى مقدمة المصادر الاصلية من حيث أهميتها لموضوع الرسالة . وابن الاثير هو عز الدين أبوالحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيبانى المعروف بابن الاثير الجزرى نسبة إلى جزيرة ابن عمر الواقعة فى شمال العراق . نشأ ابن الاثير فى كنف الزنكيين حيث كان يعمل والده فى خدمة عماد الدين زنكى ، حظى بمكانة سامية بالموصل طرف الزنكيين . وقد تتلمذ ابن الأثير على أشهر علماء عصره ورحل كثيرا فى طلب العلم . وقد شغف بحب التاريخ وكتب فيه كتبا عديدة جعلته يقف فى مصاف كبار المؤرخين المسلمين[2] .

وكتاب الكامل فى التاريخ يعتبر بحق من أهم كتب التاريخ الاسلامى العام ألفه ابن الأثير على طريقة الحوليات . ابتدأ فيه بأول الزمان وانتهى عند آخر سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م . وقد اوضح ابن الأثير فى مقدمة كتابه الكامل الحافز الذى دفعه إلى تأليفه ، وهو أنه تفحص معظم مؤلفات المؤرخين المسلمين فوجدها غير متناسقة فهى اما ان تكون تاريخا محليا مع إهمال اخبار البلاد الأخرى ، واما ان تكون تاريخا عاما ، بيد أن اصحابها شغلوا بتوافه الأمور عن كثير من الحوادث الهامة ، او قيام المؤرخ اذا كان شرقيا بالتركيز على اخبار المشرق والاختصار المخل عند الحديث عن اخبار الغرب والعكس بالعكس[3] .

تحرى ابن الاثير فى كتابه الكامل الدقة والحقيقة فيما كتب فضلا عن التزامه بتماسك المعلومات وسلامة الاسلوب ، وقد تجنب الأسهاب وكثرة الروايات والاسانيد .

---

(١) أنظر مايلى ص ٧٤ .

(٢) انظر ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ٣ ، ص ٣٤٨ ــ ٣٥٠ ، السبكى ، طبقات الشافعية ، جـ ٨ ص ٢٩٩ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهر ، جـ ٦ ، ص ٢٨١ ــ ٢٨٢ ، سعيد عاشور ، دراسة حول الكامل لابن الاثير فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٣٩٣ ــ ٣٩٤ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١ ، ص ٢ ــ ٥ ، شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون ، جـ ٢ ، ص ١١٢ ، العرينى ، مؤرخو الحروب الصليبية ص ٢٠٦ .

كما راعى فى كتابه الكامل التوازن فى اخبار اقاليم العالم الاسلامى فلم يدع اخبار اقليم تطغى على اقليم آخر . ولم تقف أهمية كتاب الكامل لابن الأثير عند هذا الحد بل تتضح أهمية الكتاب فى أن مؤلفه قد اعتمد فى جمع مادة كتابه على اصدق المصادر وأوثق الكتب كالطبرى وابن القلانس والعظيمى والعماد الكاتب وغيرهم من المؤرخين ، بالاضافة إلى أنه قد توافر لابن الاثير كثيرا من المادة التاريخية التى أفاد منها فى كتابية الكامل والباهر ، بفضل صلته الوثيقة بالادارة فى الموصل ، وبفضل اسفاره العديدة فى طلب العلم والاضطلاع بمهام سياسية رسمية من قبل الزنكيين فى الموصل ، يضاف إلى ذلك ماكان لأخويه مجد الدين وضياء الدين من مكانة فى الموصل ودمشق[1] .

وقد استفاد البحث من كتاب الكامل لابن الاثير فى دراسة القوى الاسلامية فى بلاد الشرق الاسلامى قبل قيام الاسرة الزنكية ، اذ أمدنا ابن الاثير بمعلومات فى غاية الاهمية وبخاصة فيما يتعلق بتفكك وحدة السلاجقة والخلاف الذى دب بين افراد البيت السلجوقى فى اعقاب وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م ، ثم فى دراسة النزاع الذى قام بين ابناء تاج الدولة تتش عقب وفاته سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م واثر ذلك النزاع على نجاح الحملة الصليبية الأولى[2] . وعند الحديث عن بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين قبيل قيام الاسرة الزنكية أمدنا ابن الاثير بكثير من المعلومات عن ضعف الخلافة العباسية الامر الذى جعلها غير قادرة على الاستجابة لصرخات الاستغاثة التى انطلقت تباعا من حكام بلاد الشام خصوصاً بعد سقوط بيت المقدس فى ايدى الصليبيين سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٨م ، واثناء حصار الصليبيين لطرابلس سنة ٥٠١هـ / ١١٠٨م ومضايقتهم لحلب سنة ٥٠٤هـ / ١١١٠م وسنة ٥١٣هـ / ١١١٩م[3] . كما أمدنا ابن الاثير بمعلومات هامة عن الجهود التى بذلها زعماء اقليم الجزيرة امثال كربوقا وجكرمش وسقمان بن ارتق وما بذلوه فى سبيل صد الصليبيين ومنعهم من التوسع على حساب المسلمين سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م ، وسنة ٤٩٧هـ / ١١٠٣م والمحاولات التى قام بها شرف الدولة مودود صاحب الموصل للاستيلاء على الرها ومقارعة

---

(١) أنظر مايلى ص ٣٦ ــ ٣٧ .

(٢) انظر مايلى ، ص ٣٥ ــ ٣٦

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، حوادث السنوات ٤٩٢هـ ، ٥٠١هـ ، ٥٠٤هـ ، ٥١٣هـ . وانظر مايلى ص ٥٨ ــ ١٠٧ ــ ١٠٩ ــ ١٢٨

الصليبيين فى وسط بلاد الشام ، والتحالف الذى تم بينه وبين ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق . وانفرد ابن الاثير بمعلومات وافية أفادت البحث عند دراسة جهود نجم الدين ايلغازى فى ماردين وحلب وآقسنقر البرسقى فى الموصل وحلب ، وبلك بن بهرام فى الجهاد ضد الصليبيين قبيل قيام الاسرة الزنكية[١] .

أما عن عماد الدين زنكى وجهاده ضد الصليبيين فيعتبر كتاب الكامل لابن الاثير المصدر الاساسى الذى اعتمد عليه معظم المؤرخين المسلمين عند الحديث عن عماد الدين نظرا لان ابن الاثير اعتمد على والده الذى كان مرافقاً لعماد الدين زنكى . وقد استفاد البحث من معلومات ابن الاثير عند دراسة عماد الدين زنكى وعلاقته بزعماء اقليم الجزيرة قبل تاسيس امارته فى الموصل سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م ، وجهوده فى سبيل توحيد الجبهة الاسلامية سواء فى بلاد الشام او الجزيرة ، وما قام به من جهود فى جهاد الصليبيين وتتويج تلك الجهود والأعمال البطولية باسترداد اول امارة صليبية تأسست فى المشرق الاسلامى ، ألا وهى امارة الرها سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م[٢] . واورد ابن الاثير فى كتابه الكامل معلومات هامة افادت البحث عند دراسة جهود نور الدين محمود فى سبيل استكمال توحيد الجبهة الاسلامية وحمل راية الجهاد ضد الصليبيين فى بلاد الشام والجزيرة وفى المحاولات التى انتهت باستيلائه على مصر من الفاطميين سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م ووضع الصليبيين بين شقى الرحى[٣] .

اما كتاب التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية لابن الاثير فلا يقل أهمية عن تاريخ الكامل ، غير أن مؤلفه قد خصصه لتاريخ الأسرة الزنكية ، وذكر ابن الاثير انه استقى معظم مادة هذا الكتاب عن والده حيث يقول « ونقلت أكثره عن والدى رحمه الله تعالى ، فانه كان راوية حسناتهم وعين الخبر بحركاتهم وسكناتهم »[٤] . وقد قدم ابن الاثير كتابه الباهر بمقدمة اوضح فيها علاقة اسرته الوثيقة بالاسرة الزنكية ، ثم ذكر سبب تأليفه الكتاب ، وسرد أخبار قسيم الدولة آقسنقر والد عماد الدين حتى مقتله سنة

---

(١) أنظر مايلى ص ١٥١ ومابعدها .
(٢) أنظر مايلى ص ١٧٧ .
(٣) أنظر مايلى ص ٢٤٢ .
(٤) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٣ .

٤٨٧هـ / ١٠٩٤م . وانتقل بعد ذلك إلى شرح دور عماد الدين زنكى وجهاده ضد الصليبيين حتى وفاته سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م ، والانقسام الذى حدث بين ولديه سيف الدين غازى ونور الدين محمود ، واستيلاء الاخير على حلب وجهاده ضد الصليبيين ، ثم تناول بعد ذلك بعض أخبار بقية الاسرة الزنكية فى الموصل[١] .

ومما يؤخذ على ابن الاثير فى كتابه التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية أنه لم يلتزم بالموضوعية فى تناوله لاخبار الزنكيين ، مثلما فعل فى كتاب الكامل فهو يحابى امراء الزنكيين ويجاملهم بالكثير من المدح والاطراء ، ولا يلزم جانب الحياد . وقد أفاد البحث من كتاب التاريخ الباهر لابن الاثير عند دراسة تفكك وحدة السلاجقة فى بلاد الشام عقب وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م ، والنزاع الذى قام بين تاج الدولة تتش واقسنقر قسيم الدولة والد عماد الدين زنكى ذلك النزاع الذى انتهى باستشهاد آقسنقر سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م[٢] . كما أفاد البحث من كتاب التاريخ الباهر عند دراسة جهاد عماد الدين زنكى ضد الصليبيين ، وتربيته العسكرية فى كنف زعماء بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فى اقليم الجزيرة ، وعلاقته بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية وفى جهوده لتوحيد الجبهة الاسلامية[٣] . وأمد التاريخ الباهر البحث بمعلومات تاريخية قيمة عند دراسة جهود نور الدين محمود بن زنكى فى استكمال توحيد الجبهة الاسلامية واستيلائه على دمشق سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م وما بذله من جهود فى محاولة منع الصليبيين من الاستيلاء على مصر تلك الجهود التى اثمرت عن دخول مصر فى طاعة نور الدين محمود سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م ، فقطع بذلك الامل على الصليبيين فى الوصول اليها بعد القضاء على خلافة الفاطميين بها[٤] .

ومن المصادر التاريخية الاساسية لموضوع الرسالة كتاب زبدة الحلب فى تاريخ حلب لمؤلفه المؤرخ المشهور أبوالقاسم كمال الدين عمر بن احمد بن هبة الله المعروف باسم ابن العديم من بنى ابى جراده العقيليين . ولد سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٢م وتوفى سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م ، وابن العديم من اسرة مشهورة فى حلب اشتغل اكثر

---

(١) انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، مقدمة المحقق ، ص ١٥ ــ ١٦ .
(٢) أنظر مايلى ص ٤٠ .
(٣) أنظر مايلى ص ١٨٠ .
(٤) أنظر مايلى ص ٢٧٩ ــ ٢٨٠ .

افرادها بالعلم والفقه والقضاء ، وكان قد نشأ وتعلم فى حلب على يد والده وكثير من علماء حلب ، وصحب والده إلى دمشق وبيت المقدس والعراق والحجاز وغيرها من البلاد الاسلامية ، التقى خلال رحلاته بالعديد من علماء عصره ، مثل ياقوت الحموى ، وابن خلكان ، والقفطى ، وابن شداد[١] .

كتب ابن العديم العديد من المؤلفات التاريخية يأتى فى مقدمتها كتاب بغية الطلب فى تاريخ حلب ، ترجم فيه للعديد من الاشخاص الذين كانت لهم علاقة بحلب من الساسة والعلماء والقادة وغيرهم[٢] . اما كتاب زبدة الحلب فى تاريخ حلب فيقع فى ثلاثة أجزاء ، اختصره ابن العديم عن كتابه بغية الطلب ورتبه على حوادث السنين ، وجعله ابن العديم خاصا بالتاريخ السياسى لحلب ، حيث بدأه بالحديث عن تسمية حلب وتاريخ بنائها منذ زمن الرومان حتى ظهور الاسلام ودخولها فى طاعة المسلمين ، وتتبع تاريخ حلب منذ ذلك الحين حتى سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م[٣] .

وكتاب زبدة الحلب فى تاريخ حلب لابن العديم مصدر أساسي لموضوع الرسالة خصوصا عند دراسة الحوادث ذات الصلة بتاريخ حلب وشمال الشام كالنزاع الذى قام بين رضوان ودقاق ابنى تتش ، وما نتج عنه من تنازع بين قادة الاتراك السلاجقة وظهور فرقة الاسماعيلية واستيطانهم بحلب فى زمن رضوان[٤] . كما امدنا ابن العديم بمعلومات قيمة عن دور كل من نجم الدين ايلغازى وآقسنقر البرسقى وبلك بن بهرام فى جهاد الصليبيين[٥] .

كما استفاد البحث فائدة كبيرة من المعلومات التاريخية التى ذكرها ابن العديم فى كتابه زبدة الحلب عن سياسة عماد الدين زنكى فى بلاد الشام والجزيرة منذ استيلائه

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ، مقدمة المحقق ، سامى دهان ، ص ١ ــ ٥ ، أبوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٣٠٨ ــ ٣٠٩ ، شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون ، جـ ٢ ، ص ٢٦٣ .

(٢) لايزال كتابه بغية الطلب مخطوطا ، يوجد منه عشرة مجلدات محفوظة فى مكتبات استامبول ثمانى مجلدات منه فى مكتبة احمد الثالث تحت الرقم ٢٩٢٥ .

(٣) انظر شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون جـ٢ ص ٢٦٦ .

(٤) أنظر مايلى ص ٤٧ ومابعدها .

(٥) أنظر مايلى ص ١٥١ .

على حلب سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م[١] .

وهناك مجموعة من المؤلفات التاريخية المتأخرة ، أفاد منها البحث فى بعض جوانبه مثل كتاب الروضتين فى اخبار الدولتين لمؤلفه شهاب الدين عبدالرحمن بن ابراهيم المقدسي الدمشقى المعروف بابى شامة المتوفى سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م . ويعتبر أبوشامة من كبار الفقهاء والمحدثين ، له باع طويلة فى علم القراءة والنحو واللغة والخط بالاضافة إلى التاريخ[٢] ، وخصص أبو شامة كتابه لدراسة اخبار الدولتين ، دولة نور الدين محمود ، وصلاح الدين الايوبى . وقد جمع ابوشامة فى كتابه هذا مجموعة كبيرة من النصوص التى أخذها من مصادر موثوق بها بعضها فقد مثل مؤلفات ابن ابى طى وابن شداد والعماد الاصفهانى وابن الاثير وغيرهم[٣] .

وقد أمدنا كتاب الروضتين لابى شامة بمعلومات قيمة عند دراسة دور عماد الدين زنكى فى الجهاد ضد الصليبيين ومحاولة توحيد قوى الشام والجزيرة بالاضافة إلى معلومات غاية فى الأهمية عن استيلاء نور الدين محمود على دمشق سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م ، وقضائه على الخلافة الفاطمية فى مصر سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م[٤] .

ومن المصادر المتأخرة التى افاد منها البحث كتاب مرآة الزمان لابى المظفر شمس الدين يوسف بن قزاوغلو بن عبدالله البغدادى المعروف بسبط ابن الجوزى ، ولد سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م وتوفى سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٧م ، وهو سبط الحافظ ابن الجوزى صاحب المنتظم . نشأ سبط ابن الجوزى فى بغداد وتنقل فى العديد من البلاد بعد وفاة جده الحافظ سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م حيث رحل إلى الموصل ثم إلى دمشق حيث استقر بها مع القيام بزيارات قصيرة لبعض البلدان كمصر والحجاز . وفى دمشق اشتغل بالوعظ والارشاد فتبحر في الفقه والحديث والتفسير والتاريخ[٥] .

---

(١) أنظر مايلى ص ١٨٨ .

(٢) انظر السبكى ، طبقات الشافعية ، جـ ٨ ، ص ١٦٧ — ١٦٨ ، ابوالمحاسن النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٢٢٤ ، شاكر ، شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون جـ ٢ ص ٢٦٦ — ٢٦٧ ، أحمد احمد بدوى ، الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، ص ٢٧٥ — ٢٧٦ .

(٣) انظر ابو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٥ ، ٤٧١ ، ٤٨٨ ، شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون ، جـ ٢ ، ص ٢٦٧ .

(٤) أنظر مايلى ص ٢٧٩ .

(٥) انظر ابوالمحاسن ، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، جـ ٨ ، ورقة ٤٤٢أ .

وكتاب مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان لسبط ابن الجوزى تاريخ عام رتبه مؤلفه على نظام الحوليات[١] . وقد أفاد البحث من كتاب مرآة الزمان عند دراسة نهاية الامارات العربية فى بلاد الشام والجزيرة ، وفى معرفة العلاقات بين امارة بنى مزيد فى الحلة والخلافة العباسية[٢] . كما أمدنا سبط ابن الجوزى بمعلومات طيبة عند دراسة النزاع بين رضوان ودقاق ابنى تتش ، وعن فرقة الاسماعيلية ودورها فى اضعاف الجبهة الاسلامية التى قامت لمواجهة الصليبيين فى اقليم الجزيرة وبلاد الشام . ولم تتوقف فائدة كتاب مرآة الزمان عند هذا الحد بل أمدنا بمعلومات هامة عن عماد الدين زنكى وعلاقته بالاراتقة فى ماردين وحصن كيفا[٣] .

أما كتاب مفرج الحروب فى اخبار بنى ايوب لمؤلفه جمال الدين أبوعبدالله محمد ابن سالم بن واصل الحموى الشافعى المتوفى سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م فقد بدأه ابن واصل بالحديث عن نسب بنى أيوب ثم دولة عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود ، وجهودهما فى توحيد الجبهة الاسلامية وجهادهما ضد الصليبيين فى بلاد الشام والجزيرة ومصر[٤] . وتتضح أهمية كتاب مفرج الكروب فى تاريخ بنى ايوب لموضوع الرسالة فى ان ابن واصل أفرد معظم الجزء الأول من كتابه للحديث عن الاسرة الزنكية ، حيث مهد للدولة الاتابكية بالحديث عن قسيم الدولة آقسنقر والد عماد الدين زنكى واقطاعه فى بلاد الشام زمنى السلطان ملكشاه . ثم سرد الحديث مفصلا عن عماد الدين زنكى وابنيه نور الدين محمود فى حلب وبلادِ الشام وسيف الدين غازى فى الموصل واقليم الجزيرة .

وقد استفاد البحث من كتاب مفرج الكروب عند الحديث عن تفكك وحدة السلاجقة ودور عماد الدين زنكى فى النزاع الذى قام بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية قبل ولاية عماد الدين زنكى للموصل سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م[٥] واستمد

---

(١) توجد نسخة كاملة من كتاب سبط ابن الجوزى فى مكتبة احمد الثالث باستامبول تحت رقم ٢٩٠٧. وقد طبع الجزء الثامن من هذا الكتاب فى قسمين ، بحيدر اباد بالهند سنة ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م .

(٢) أنظر مايلى ص ٧٠ .

(٣) أنظر مايلى ص ٥٤ .

(٤) انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١ ، ١١٢ ، واحمد بدوى ، الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، ص ٢٨١ .

(٥) انظر مايلى ، ص ٢٢٦

البحث من هذا الكتاب معلومات طيبة وغزيرة عن عماد الدين زنكى وجهوده فى سبيل توحيد الجبهة الاسلامية وجهاده ضد الصليبيين . وعند الحديث عن نور الدين محمود ودوره فى استكمال توحيد الجبهة الاسلامية وجهاده ضد الصليبيين امدنا كتاب مفرج الكروب بمعلومات مستفيضة عن التسابق بين نور الدين محمود والصليبيين للاستيلاء على مصر والذى انتهى بنجاح نور الدين محمود فى الاستيلاء على خلافة الفاطميين بالقاهرة .

ومن المصادر المتأخرة التى اعتمد عليها البحث مؤلفات المؤرخ الكبير أحمد بن على المقريزى (٧٦٦ ــ ٨٤٥هـ / ١٣٦٤ ــ ١٤٤٢م) . ولد المقريزى بحارة برجوان بالقاهرة ولقب بالمقريزى لانه ينتمى إلى أسرة بعلبكية كانت تعيش فى حارة المقارزة بمدينة بعلبك . وانصرف المقريزى منذ نعومة اظافره إلى دراسة علوم الدين وحفظ القرآن والنحو والفقه والتفسير والحديث والتاريخ وتتلمذ لبضع سنوات على يد المؤرخ عبدالرحمن بن خلدون الذى وصل إلى القاهرة سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م . اشتغل المقريزى بالتدريس وتدرج فى الوظائف حتى عينه السلطان برقوق سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م محتسبا للقاهرة[١] . وأهم كتب المقريزى التى أفاد منها البحث كتاب اتعاظ الحنفا باخبار الأئمة الفاطمية الخلفا ، وقد خصص المؤلف هذا الكتاب لتاريخ الدولة الفاطمية . وتتضح أهمية هذا الكتاب فى كون المقريزى أتى بخلاصة ماأورده المؤرخون الذين أرخوا للفاطميين ، ومعظم هذه الكتب ضاع مع الزمن ، ولم يصلنا منها شيئا الا بعض الاقتباسات التى أثبتها المقريزى فى كتابه هذا او فى كتبه الاخرى مثل الخطط ، ولم يكن المقريزى فى كتابه اتعاظ الحنفا ناقلا للنصوص بل كان يعمد الى المقارنة والتحليل والنقد لاظهار الحقيقة[٢] .

وقد استفاد البحث من كتاب اتعاظ الحنفا عند معالجة موضوع ضعف النفوذ الفاطمى فى مصر وبلاد الشام ، وانحسار نفوذهم فى بلاد الشام عامة وجنوب فلسطين خاصة ، وجهود الافضل بن بدر الجمالى فى صد خطر الصليبيين عن معاقل الدولة الفاطمية فى موانى سواحل بلاد الشام وجنوب فلسطين[١] . كما أمدنا الكتاب بمعلومات

---

(١) السخاوى ، الضوء اللامع لاهل القرن التاسع ، جـ ٢ ، ص ٢١ ــ ٢٢ .

(٢) انظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، الجزء الأول ، مقدمة المحقق جمال الدين الشيال ، ص ٢٥ ــ ٣٠ .

(٣) أنظر مايلى ص ١٢٠ ــ ١٢١ .

قيمة عن انهيار النفوذ الفاطمى فى مصر بسبب اشتداد النزاع بين الوزراء الفاطميين ، الامر الذى مكن نور الدين محمود بن زنكى من استغلال هذا النزاع ، وبسط نفوذه على مصر وازالة الخلافة الفاطمية من مصر على يد قائده صلاح الدين الايوبى . كما استفاد البحث من كتب المقريزى الاخرى كالخطط والسلوك فى معرفة دول الملوك ، واغاثة الامة بكشف الغمة ، والبيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب .

وتحتوى الرسالة على مقدمة وأربعة فصول ، وخاتمة . واقتصرت المقدمة على دراسة نقدية لاهم مصادر البحث . اما الفصل الأول وعنوانه القوى الاسلامية فى بلاد الشام والجزيرة قبل قيام الاسرة الزنكية ، فقد ناقش فى البداية تفكك وحدة السلاجقة ، عقب وفاة السلطان السلجوقى ملكشاه سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م ، عندما نشب النزاع بين امراء البيت السلجوقى ، مثل النزاع الذى نشب بين تاج الدولة تتش وابن أخيه بركياروق بن ملكشاه ، والذى كان من نتائجه تمزق وحدة السلاجقة فى بلاد الشام وتفككها ، ودخول قادة السلاجقة فى بلاد الشام فى منازعات أدت إلى ظهور قوى جديدة كان لها الاثر الكبير فى نجاح الحملة الصليبية الأولى بما أحدثته من اشعال نار الفتنة بين سكان بلاد الشام . كما تحدث الفصل عن فرقة الاسماعيلية ودورها السياسى فى عرقلة زعماء المسلمين ، الذين اخذوا على عاتقهم مسئولية بعث فكرة حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين .

كما عالج الفصل الأول موضوع نهاية الامارات العربية فى بلاد الشام والجزيرة والعراق . وبرهنت الدراسة على ان بعض هذه الامارات كانت على وشك السقوط على يد السلاجقة ، ان لم يكن بعضها قد سقط قبل وصول الصليبيين إلى بلاد الشام كالمرداسيين فى حلب ، وبنى عقيل فى الموصل ، الامر الذى أدى إلى احتدام الصراع بين امارة بنى مزيد فى الحلة والسلاجقة ، بسبب السيطرة السلجوقية التى فرضت على العنصر العربى فى ذلك الوقت . والقى هذا الفصل اضواء جديدة على هذه الامارة وخاصة المحاولات التى قام بها زعماء بنى مزيد للتخلص من السيطرة السلجوقية . ولما فشل السلاجقة فى التخلص من قوة بنى مزيد فى الحلة بذروا بذور الشك والريبة بين الخلافة العباسية وهذه الامارة مستغلين فى ذلك اختلاف المذهب بينهما . ونتيجة لذلك فقد دخل الطرفان فى نزاع شديد حال ــ على مايبدو ــ دون قيام الخلافة العباسية بدورها

المطلوب فى جهاد الصليبيين .

كما درس الفصل الأول ايضا احوال امارة بنى عمار فى طرابلس والدور الذى لعبته هذه الامارة فى تاريخ بلاد الشام السياسى والاجتماعى ، وخاصة وقوفها بمفردها فى وجه هجمات الصليبيين لمدة سبع سنوات حتى خرجت طرابلس الشام من حكم فخر الملك بن عمار سنة ٥٠١هـ / ١١٠٧م إلى الفاطميين ، الامر الذى سهل سقوطها بيد الصليبيين سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م . وشرح الفصل الأول دور امارة بنى منقذ فى شيزر ، تلك الامارة التى استطاعت المحافظة على كيانها زمنا طويلا لا بسبب قوتها العسكرية فحسب ، وانما بسبب موقعها المنيع واتباع زعماء هذه الامارة المداهنة مع الصليبيين والقوى الاسلامية الاخرى ، وعلى اية حال فقد قامت هذه الامارة بدور بارز فى حماية شيزر من الوقوع فى يد الصليبيين بالاضافة الى مد يد العون لبقية القوى الاسلامية التى تزعمت حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين ، كشرف الدولة مودود صاحب الموصل ، ونجم الدين ايلغازى صاحب حلب وماردين .

أما الفصل الثانى وعنوانه الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين حتى قيام الاسرة الزنكية فى الموصل من (٤٩١ ــ ٥٢١هـ / ١٠٩٧ ــ ١١٢٧م) فتناول اولا الحديث عن موقف الخلافة العباسية من حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين وألقى الفصل الاضواء على ضعف الخلافة العباسية ووقوعها تحت سيطرة السلاجقة ودخولها فى نزاع حاد مع بنى مزيد فى الحلة ، الامر الذى انعكس على موقفها من سقوط بيت المقدس وعجزها عن الاستجابة لاستغاثات المسلمين الذين كانوا يأملون منها مد يد العون لهم فى بلاد الشام . ودرس الفصل أيضا محاولة الخليفة العباسي المسترشد بالله (٥١٢هـ ــ ٥٢٩هـ / ١١١٨ ــ ١١٣٤م) النهوض بأمر الخلافة العباسية وبعث حركة الجهاد ضد الصليبيين . وناقش الفصل الثانى ايضا موقف الخلافة الفاطمية من الغزو الصليبى لبلاد الشام وكيف ان الفاطميين لم يدركوا حقيقة نوايا الصليبيين ، الامر الذى دفع الوزير الافضل بن بدر الجمالى الى الاتصال بالصليبيين ثم الدور الكبير والمشرف الذى بذله الافضل والمصريين للوقوف فى وجه الصليبيين ، عندما ارسل عدة حملات عسكرية حاول بها انقاذ مايمكن انقاذه من معاقل الفاطميين فى بلاد الشام ، تلك المعاقل التى سقطت بيد الصليبيين . وبرهنت الدراسة فى النهاية على عجز الافضل عن كبح جماح

الصليبيين الذين جردوا الخلافة الفاطمية من معظم معاقلها فى بلاد الشام ، وعجز الخلافة الفاطمية عن مواجهة الصليبيين وحماية ماتبقى من معاقلها بالشام ، الامر الذى أدى إلى سقوط صور بيد الصليبيين سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م ، وعسقلان سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م .

وعالج الفصل الثانى أيضا موضوع بعث حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين قبل قيام الاسرة الزنكية ، تلك الحركة التى انبعثت من منطقة الجزيرة ، وشرح الفصل العوامل التى أدت إلى انبعاث فكرة حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين من منطقة الجزيرة ، كما أسهب فى دراسة الادوار التى قام بها بعض زعماء منطقة الجزيرة فى بعث حركة الجهاد . وكان على رأس أولئك الزعماء قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل الذى حاول سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م نجدة ياغى سيان فى أنطاكية لمنع سقوطها بيد الصليبيين . غير أن الخلافات بين زعماء المسلمين وعدم وعيهم بحقيقة الحركة الصليبية أدت إلى فشلهم فى انقاذ أنطاكية من السقوط بيد الصليبيين .

وناقش الفصل الثانى أيضا الخطورة التى شكلتها امارة الرها الصليبية ومحاولة من بها من الصليبيين الاستعانة باخوانهم فى بيت المقدس وانطاكية والاستيلاء على حران ، للانطلاق منها الى بقية منطقة الجزيرة والسيطرة على وادى الفرات . وقد شعر بهذا الخطر شمس الدين جكرمش صاحب الموصل ، وسقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا ، فحشد الزعيمان التركمانيان قواتهما وانزلا بالصليبيين هزيمة ساحقة عند حران سنة ٤٩٧هـ / ١١٠٣م . وتطرق الحديث فى هذا الفصل عن شرف الدولة مودود بن التونتكين الذى خلف جكرمش فى حكم الموصل ومحاولاته الطيبة فى سبيل توحيد الجبهة الاسلامية فى الشام والجزيرة فيما بين سنة ٥٠٣ ــ ٥٠٧هـ ، حيث قام مودود بثلاث حملات الى بلاد الشام ، ألحق فى احداها الهزيمة بالصليبيين فى طبرية سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣م . وحمل راية الجهاد من بعد مودود اثنان من زعماء منطقة الجزيرة ، هما نجم الدين ايلغازى ، وآقسنقر البرسقى . اما نجم الدين ايلغازى فقد استعان بظهير الدين طغتكين صاحب دمشق ، وانزل بالصليبيين هزيمة كبيرة قرب حلب سنة ٥١٣هـ / ١١١٩م . وشرح الفصل الثانى أيضا دور آقسنقر البرسقى فى حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين ، وأوضح الفصل انه على الرغم من انشغاله بالنزاع الذى نشب بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية من جهة ، وامارة بنى مزيد فى الحلة من جهة

اخرى فانه قام بدور لاينكر فى جهاد الصليبيين عندما حاصروا مدينة حلب حصارا شديدا سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م ، وكادت أن تسقط فى ايديهم لولا خروج آقسنقر البرسقى على رأس قواته من الموصل لنجدة حلب ، مما جعل الصليبيين يتخلون عن حصارها وسهل لا قسنقر دخولها والاستيلاء عليها . فوحد بذلك قوات الجزيرة بالموصل مع قوات حلب وشمال الشام .

كما ألقى الفصل الثانى الضوء على الدور الذى لعبه بلك بن بهرام بن أرتق فى جهاد الصليبيين اذ حاصر الرها وانزل بالصليبيين هزيمة عند سروج بالاضافة إلى أسر ثلاثة من زعماء الصليبيين وما احدثه ذلك من خيبة أمل فى صفوف الصليبيين . وتعرض هذا الفصل ايضا لدور ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق ودوره فى انقاذ دمشق من السقوط بيد الصليبيين سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٨م والمساعدات التى قدمها للقوى الاسلامية فى بلاد الشام لمواجهة هجمات الصليبيين العنيفة ، ومد يد العون لزعماء منطقة الجزيرة بالاضافة الى وقوفه بجانب الفاطميين فى محاولة منع الصليبيين من الاستيلاء على مزيد من المعاقل الفاطمية على ساحل بلاد الشام وجنوب فلسطين .

أما الفصل الثالث وعنوانه الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فى عصر عماد الدين زنكى ، فقد ألقى أولا الضوء على تربية عماد الدين زنكى العسكرية وملازمته لزعماء منطقة الجزيرة ابتداء بكربوقا ، وجكرمش ، ومودود ، وآقسنقر البرسقى صاحب الموصل . ثم ناقش الفصل موضوع علاقة عماد الدين زنكى بالسلطنة السلجوقية والخلافة العباسية واشتراكه فى النزاع الذى قام بين الخليفة العباسى المسترشد بالله والسلطان السلجوقى محمود بن محمد . وأوضحت الدراسة فى هذا الفصل وقوف عماد الدين زنكى إلى جانب السلطان السلجوقى محمود بن محمد ضد دبيس بن صدقة ، وبروز شخصية عماد الدين كقائد عسكرى يمكن الاعتماد عليه ، مما حدى بالسلطان السلجوقى محمود بن محمد إلى تولية عماد الدين أمر واسط والبصرة بالاضافة إلى كونه شحنة لبغداد . وأفاض هذا الفصل فى الحديث عن مهارة عماد الدين زنكى وحنكته السياسية وبخاصة فى توطيد علاقته بالخليفة العباسى المسترشد بالله ، مما جعل الخليفة يقف إلى جانب عماد الدين زنكى حتى تولى امر الموصل سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م .

كما درس الفصل الثالث الظروف التى كانت تحيط بالمسلمين فى بلاد الشام والجزيرة فى بداية عصر عماد الدين زنكى . وأسهب الفصل فى شرح جهود عماد الدين زنكى فى توحيد الجبهة الاسلامية قبل انغماسه فى حرب الصليبيين . وبرهن هذا الفصل على أهمية المهادنة التى عقدها عماد الدين زنكى مع جوسلين الثانى صاحب الرها سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م وما ترتب عليها من نتائج ايجابية فى صالح المسلمين ، اذ استولى عماد الدين فى السنة التالية ٥٢٢هـ / ١١٢٨م على حلب وبعض مدن وقلاع بلاد الشام ، واتخذ حلب قاعدة انطلاق عسكرية لا فى مواجهة الصليبيين فحسب بل وفى سبيل استكمال توحيد الجبهة الاسلامية . كما برهنت الدراسة فى هذا الفصل على ادراك عماد الدين زنكى لاهمية دمشق وما تشكله من خطر جسيم على الصليبيين فى مملكة بيت المقدس اذا تم له الاستيلاء عليها .

وبحث الفصل الثالث ايضا الجهود التى بذلها عماد الدين زنكى فى جهاد الصليبيين حتى استرداده الرها سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م . ففى سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠م استولى عماد الدين زنكى على حصن الاثارب من الصليبيين واسر سنة ٥٢٨هـ / ١١٣٤م صاحب طرابلس ، واستولى فى سنة ٥٣١هـ / ١١١٧م على حصن بعرين من الصليبيين . وناقش الفصل أيضا حملة الامبراطور البيزنطى حناكومنين على شمال الشام سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٨م ، بغية الضغط على ممتلكات عماد الدين فى شمال الشام وفشل هذه الحملة . واخيرا تعرض الفصل بشئ من التفصيل إلى تطلع عماد الدين زنكى لتخليص منطقة الجزيرة من خطر امارة الرها الصليبية وتم له ذلك سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤م . وبذلك قضى على أول امارة صليبية تأسست فى بلاد المشرق الاسلامى .

أما الفصل الرابع والاخير وعنوانه الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فى عصر نور الدين محمود بن زنكى ، فقد ألقى أضواء على تربية ونشأة نور الدين محمود فى ذروة عصر الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين ايام والده عماد الدين زنكى ، ثم عالج هذا الفصل انقسام مملكة عماد الدين زنكى بين ولديه سيف الدين غازى الذى حكم الموصل والبلاد الشرقية ، ونور الدين محمود الذى حكم حلب والبلاد الغربية من بلاد الشام . وقد برهنت الدراسة فى هذا الفصل على أن انقسام مملكة عماد الدين زنكى بين ولديه لم يؤد إلى انهيار هذه المملكة كما حدث للسلاجقة عقب وفاة تاج الدولة تتش

وانقسام مملكته بين ولديه رضوان فى حلب ، ودقاق فى دمشق سنه ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م ، بل أدى ذلك إلى تفرغ كل من سيف الدين غازى ونور الدين محمود إلى الحفاظ على ماتحت يده من البلاد .

وفى هذا الفصل برهنت الدراسة على يقظة نور الدين محمود فى الوقوف فى وجه الصليبيين وخاصة الحملة الصليبية الثانية سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م ، تلك الحملة التى كانت تهدف إلى استعادة الرها والقضاء على قوة الزنكيين بالشام والجزيرة . وقد وقف نور الدين محمود مع أخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل إلى جانب حكام دمشق من أسرة طغتكين لصد الصليبيين ومنعهم من الاستيلاء على دمشق . ثم شرح الفصل الرابع جهود نور الدين محمود فى سبيل توحيد القوى الاسلامية منذ ان قام بتوطيد علاقته باخيه سيف الدين غازى تمهيدا للاستيلاء على الموصل ، اضافة إلى توطيد علاقته بالاراتقة فى حصن كيفا وماردين بقصد الاستعانة بهم فى جهاده ضد الصليبيين . وفى هذا الصدد ناقش الفصل المحاولات المتكررة التى بذلها نور الدين محمود فى الاستيلاء على دمشق . تلك المحاولات التى أثمرت سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م بالاستيلاء عليها ومانتج عن ذلك من أهمية بالغة فى قصة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين ، اضافة الى استيلاء نور الدين محمود على شيزر سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م وتحقيق حلم والده بالاستيلاء على قلعة جعبر سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٨م .

وألقى الفصل الرابع اضواء جديدة على موقف الخلافة العباسية من جهود نور الدين محمود فى سبيل توحيد القوى الاسلامية فى الشام والجزيرة لجهاد الصليبيين ، وكذلك شرح هذا الفصل الجهود التى بذلها نور الدين محمود فى جهاد الصليبيين فى بلاد الشام وانتزاع الكثير من البلاد الاسلامية التى كانت تحت ايديهم ، والمحاولات اليائسة التى قام بها الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٨م بقصد التحالف مع بلدوين الثانى ملك بيت المقدس للوقوف فى وجه نور الدين محمود . وشرح هذا الفصل موضوع استمرار ضعف الخلافة الفاطمية فى مصر وانحسار نفوذها عن بلاد الشام فى عصر نور الدين محمود . كما اوضحت الدراسة تطلع نور الدين محمود ورغبته فى الاستيلاء عليها ، ونجح نور الدين محمود فى استغلال الاوضاع المتردية للفاطميين ، وأرسل حملات متتالية إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه

صلاح الدين الايوبى أسفرت عن عدة نتائج كان اهمها القضاء على الخلافة الفاطمية فى مصر وقطع الامل على الصليبيين فى الوصول إلى مصر ، وظهور قوة اسلامية جديدة اتخذت من مصر والشام مركز إنطلاق لتصفية الوجود الصليبى فى الشرق الاسلامى . واخيرا تضمنت الرسالة خاتمة توضح اهم النتائج التى توصل إليها البحث ومجموعة من الملاحق التى تفسر بعض الحوادث الواردة فى فصول الرسالة .

ولا يفوتنى أن أسجل خالص الشكر وعظيم التقدير والامتنان لاستاذى الدكتور حسنين محمد ربيع ، المشرف على هذه الرسالة لما بذله من جهود مضنية طيلة مراحل البحث ولما أبداه من توجيهات سديدة وارشادات علمية قيمة كان لها أكبر الاثر فى اخراج الموضوع على هذا الشكل ، فجزاه الله عنى وعن طلابه خير الجزاء . كما أتقدم بالشكر إلى عميد كلية الشريعة والدراسات الاسلامية وإلى المسئولين فى مكتبة جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، ومكتبة الحرم المكى الشريف ، ومكتبة وزارة المعارف بجدة ، ومكتبة جامعة الملك عبدالعزيز بجدة ، ومكتبة مدارس الفلاح بجدة ، وللمسئولين فى دار الكتب المصرية ومكتبة جامعة القاهرة ، ومعهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، لما قدموه لى من مساعدات قيمة .

والله أسأل العون والسداد والحمد لله رب العالمين وصلى الله على خاتم الانبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه ومن سار على هديهم إلى يوم الدين .

الفَصـــــل الأول

القوى الإسلامية فى بلاد الشام والجزيرة قبل قيام الأسرة الزنكية (٤٨٥ ــ ٥٢١هـ / ١٠٩٢ ــ ١١٢٧م)

ــ انهيار النفوذ السلجوق وانحسار النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام .

ــ النزاع بين رضوان ودقاق ابنى تتش ونتائجه .

ــ فرقة الإسماعيلية وأثرها السياسى فى بلاد الشام .

ــ نهاية الإمارات العربية فى بلاد الشام والعراق والجزيرة

ــ المرداسيون فى حلب .

ــ بنو عقيل فى الموصل .

ــ إمارة بنى مزيد فى الحلة بالعراق .

ــ إمارة بنى عمار فى طرابلس .

ــ إمارة بنى منقذ فى شيزر .

الفصـــل الأول

القوى الاسلامية فى بلاد الشام والجزيرة قبل قيام الاسرة الزنكية (٤٨٥ ــ ٥٢١هـ / ١٠٩٢ ــ ١١٢٧م)

ــ انهيار النفوذ السلجوق وانحسار النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام .

ــ النزاع بين رضوان ودقاق ابنى تتش ونتائجه .

ــ فرقة الاسماعيلية وأثرها السياسى فى بلاد الشام .

ــ نهاية الامارات العربية فى بلاد الشام والعراق والجزيرة .

- المرداسيون فى حلب .
- بنو عقيل فى الموصل .
- امارة بنى مزيد فى الحلة .
- امارة بنى عمار فى طرابلس .
- امارة بنى منقذ فى شيزر .

الفصـــل الأول

القوى الاسلامية فى بلاد الشام والجزيرة قبل قيام الاسرة الزنكية (٤٨٥ ــ ٥٢١هـ / ١٠٩٢ ــ ١١٢٧م)

انهيار النفوذ السلجوقى وانحسار النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام :

خلف السلطان ألب أرسلان السلجوقى عند وفاته سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م دولة متحدة الأركان قوية الجانب يحكمها ولداه السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان الأكبر فى المشرق والعراق ، وتاج الدولة تتش بن ألب أرسلان الأصغر فى بلاد الشام كتابع لأخيه الاكبر . واستمر هذا الاستقرار زمن السلطان ملكشاه (٤٦٥ ــ ٤٨٥هـ / ١٠٧٢ ــ ١٠٩٢م) لاتباعه سياسة والده ووزيره نظام الملك الذى توفى سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م ثم تبعه ملكشاه فى نفس السنة[١] .

وفى الحقيقة فإن وفاة السلطان ملكشاه ووزيره فى السنة المذكورة قد أدت إلى خلق فراغاً سياسياً فى صفوف العالم الاسلامى عامة والسلاجقة خاصة وكانت سببا حقيقيا فى تفكك وحدة السلاجقة الذين اصبحوا ثلاث قوى تتصارع فيما بينها ، قوة السلاجقة بزعامة قلج ارسلان الأول فى آسيا الصغرى ، وقوة سلاجقة الشام بزعامة تاج الدولة تتش ، وقوة سلاجقة فارس والعراق بزعامة السلطان بركياروق بن ملكشاه ومن ينازعه من اخوته[٢] .

ولا يتسع مجال البحث لتتبع ماجرى من الحوادث بين السلاجقة عامة بعد وفاة السلطان ملكشاه ، لذا فان الحديث سوف يقتصر على النزاع الذى جرى بين السلطان بركياروق ، بين ملكشاه وعمه تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان ، وماأعقبه من نزاع حاد بين أبناء تاج الدولة تتش فى بلاد الشام لما لذلك من أثر كبير على اضعاف الجبهة

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٠٦ ، ١٢١ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ٨ ، ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، جـ ٩ ، ص ٦٨ ، ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ،ص ١٣٤ ــ ١٣٦ ، ابن العديم ، زبدةالحلب ، جـ ٢ ، ص ١٠٦ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢١٠ ، الاصفهاني ، دولة آل سلجوق ص ٨٠ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٥ ص ١٤٥ ــ ١٤٧ ، انظر : The Cambridge Medieval History, Vol. IV, p.653.

الاسلامية قبيل الغزو الصليبى لبلاد الشام . فقد خلف السلطان ملكشاه بعد وفاته سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م أربعة من الابناء هم : بركياروق الأكبر ، ومحمود سنجر ، ومحمد ، وكان محمود أصغرهم سنا فسعت والدته تركان خاتون الجلالية ذات النفوذ الواسع فى الدولة السجوقية إلى أخذ السلطنة لابنها محمود بموافقة الخليفة العباسى المقتدى بأمر الله ، ولقب محمود باسم ناصر الدين والدنيا وكان عمره وقتذاك ــ أربع سنين وشهور[١] . ولما كان بركياروق وهو الابن الاكبر للملكشاه بعيدا عن بغداد بأصفهان ، فقد حاولت تركان خاتون القبض عليه ولكن أنصاره استطاعوا الوقوف إلى جانبه وتوليته أمر أصفهان ، وتشجيعه على الوقوف فى وجه تركان خاتون[٢] .

ولم يقف النزاع بين السلاجقة عند حد مطالبة كل من محمود وبركياروق بالسلطنة بل تعداه إلى انقسام قادة السلاجقة إلى قسمين يناصر كل منهما أحد الاخوين فى سبيل فرض سيطرته على السلاجقة . ودخل تاج الدولة تتش هذا النزاع كطرف ثالث مطالبا بأحقيته فى السلطنة السلجوقية معتمدا فى ذلك على قادة الاتراك السلاجقة فى بلاد الشام .

وكان تاج الدولة تتش قد بلغه خبر وفاة أخيه ملكشاه سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م عند هيت وهو فى طريقه إلى بغداد لمقابلة أخيه ملكشاه ليشرح له حالة بلاد الشام وما يعانيه من بعض القادة الاتراك الا أن خبر الوفاة قد حال دون وصوله الى بغداد فاستولى على هيت وعاد إلى دمشق[٣] .

ومن دمشق اتصل تاج الدولة تتش بكبار قادة السلاجقة خاصة آقسنقر فى حلب وبوزان فى الرها وحران وياغى سيان فى أنطاكية وطلب منهم الدخول فى طاعته وحثهم على الوقوف إلى جانبه « ليسيروا إلى بلاد أخيه (ملكشاه) ليفتحها ويأخذ المملكة ،

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢١٠ ــ ٢١٤ ، الأصفهاني ، دولة آل سلجوق ، ص ٨١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٠٦ ، ابوالفداء ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٠٣ ، ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ ٣ ، ص ٣٧٧ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢١٤ ــ ٢١٦ ، الراوندى ، راحة الصدور ، ص ٢١٥ ، عبدالنعيم حسنين ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ٨٣ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢١٨ــ ٢١٩ ، ابن القلانسي ، ص ١٢٢ ، وهيت بلدة على الفرات من ناحية بغداد فوق الأنبار . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

فأجابوه وخطبوا له فى بلادهم » ، على الرغم من التوتر الذى كان يشوب علاقة تتش بالقائد السلجوقى آقسنقر البرسقى لتفضيل تتش شخصية ياغى سيان صاحب أنطاكية على غيره من قادة الاتراك فى الشام وعدم توليتهم شيئا من البلاد[1] .

ولعل تاج الدولة تتش قد أدرك استياء آقسنقر من سياسته فأراد أن يمتحن نواياه فوجه إليه رسالة خاصة طلب منه فيها أن يقوم آقسنقر بمراسلة بوازن صاحب الرها وحران وياغى سيان صاحب أنطاكية وان يطلب منهما طاعة تتش . ولما يكن فى مقدور آقسنقر معارضة تتش لا سيما وأن ملامح النزاع بين ولدى ملكشاه لم تتضح بعد حتى ينضم إلى صاحب الكفة الراجحة ، فلبى آقسنقر رغبة تاج الدولة تتش وأرسل الى ياغى سيان ، وبوازن يشير عليهما بطاعة تتش « حتى يروا مايكون من أولاد ملكشاه ففعلوا »[2] . من هنا قوى أمر تاج الدولة تتش بمن اجتمع إليه من قادة السلاجقة ، فبدأ فى اعداد خططه للاستيلاء على مزيد من الأقاليم ، فقرر الاستيلاء على الرحبة لما تمثله من موقع عسكرى هام ، فسار تتش بمن معه من قادة السلاجقة إلى الرحبة واستولى عليها فى المحرم سنة ٤٨٦هـ / ١٠٩٣م واتخذها قاعدة لبسط نفوذه على منطقة الجزيرة[3] .

ومن الرحبة سار تاج الدولة تتش إلى نصيبين فى شمال الجزيرة واستولى عليها وسلمها إلى الامير العربى محمد بن شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلى ومنها توجه الى الموصل وبها ابراهيم بن قريش بن بدران ، فراسله تاج الدولة تتش وطلب منه أن يخطب له فى بلاده وأن يمنحه طريقا الى بغداد لطلب السلطنة من الخليفة العباسى المقتدى بأمر الله[4] . ولكن ابراهيم بن قريش رفض مطالب تتش وتأهب للقائه وحشد جيشا من العرب

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٠٧ ، انظر ابن القلانسي ، ص ١٢٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٢٢ ــ ٢٣ ، ابو الفدا ، المختصر ، جـ ٢ ص ٢٠٣ ، القرماني ، أخبار الدول وآثار الأول ، ص ٢٧٧ ، وحران : مدينة من أعظم واشهر مدن الجزيرة تقع بين الرها والرقة على طريق الموصل والشام . انظر ياقوت ، معجم البلدان . ابن جبير ، ص ٢١٩ ــ ٢٢٠ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٢٠ ، انظر ابن القلانسي ، ص ١٢٢ .

(٣) ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ١/ B ورقة ١٠٤ ب ــ ١٠٥ أ ، ابن القلانسي ، ص ١٢٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٢٠ .

ــ والرحبة : مدينة تقع على الفرات بين الرقة وبغداد وكانت محط القوافل بين العراق والشام ، انظر ابو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢٨٠ ــ ٢٨١ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٢٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ص ٢٣ .

والأكراد لمواجهة تتش . وتم اللقاء بينهما فى شهر ربيع الاول سنة ٤٨٦هـ / ١٠٩٣م فى مكان يسمى المضيع على نهر الهرماس شرق مدينة نصيبين ، وانكشفت الوقعة عن هزيمة وقتل ابراهيم بن قريش وكثير من زعماء العرب وسقطت الموصل بيد تتش الذى ولى عليها من قبله على بن مسلم بن قريش وأمه صفيه عمة تاج الدولة تتش[١] . وكان لهذه الوقعة أثر كبير فقد قضت على بنى عقيل فى الموصل ، وحطمت آمال العرب فى الموصل والجزيرة ، حتى أن كثيراً من نساء العرب قتلن أنفسهن اشفاقا من الهتيكة والسبى[٢] .

عظمت هيبة تاج الدولة تتش بعد هزيمة العرب فى الموصل فقصد ديار بكر ونزل على آمد وضايقها وملكها ، وتسلم ميافارقين من أعيانها وجزيرة ابن عمر من أبى الحسن فخر الدولة بن جهير وأرسل من قبله رسولا إلى الخليفة العباسى المقتدى بأمر الله سنة ٤٨٦هـ / ١٠٩٣م يطلب منه أن يخطب له بالسلطنة فى بغداد ، ولكن الخليفة العباسى لم يستجب لطلبه ورد عليه قائلا « انما تصلح للخطبة اذا حصلت الدنيا بحكمك والخزائن التى بأصبهان وتكون صاحب المشرق وخراسان ، ولم يبق من أولاد أخيك ملكشاه من يخالفك »[٣] .

ولعل سبب رفض الخليفة العباسي مطلب تاج الدولة تتش هو عدم حصوله على ماكان يتوقعه من الاموال من تتش ، أو أن أولاد ملكشاه ــ فى نظر الخليفة ــ هم أحق بالسلطنة من عمهم تتش بصرف النظر عن من سيكون الفائز منهما ، أو أن الخليفة رأى أنه قد قطع على نفسه عهداً باعلان الخطبة باسم محمود ابن ملكشاه ، فلا يمكن الرجوع عن ذلك .

ومهما يكن الامر الذى أستند عليه الخليفة العباسي فى الرفض ، فانه قد حمل تاج

---

(١) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار ، جـ ١٦ ، ورقة ١١٣أ ، ابن القلانسي ، ص ١٢٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٠٧ ــ ١٠٨ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٢١ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٠٤ .
Zakar, The Emirate of Aleppo: p.p. 229-230.

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٢٢ ، انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ص ٢٥ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٣٧ ، الفارق ، تاريخ ميافارقين ، ص ٢٣٦ ، Zakkar, op.cit., p. 230. وآمد وميافارقين : من أشهر مدن ديار بكر بمنطقة الجزيرة . وجزيرة ابن عمر : بلدة فوق الموصل تحيط بها مياه دجلة الا من ناحية واحدة ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

الدولة تتش على الاستمرار فى الحروب ومحاولة القضاء على أبناء أخيه . ولم يحاول تتش حث الخليفة على الاعتراف به سلطانا قبل تحقيق مآربه ، فتوجه إلى خراسان بهدف القضاء على أبناء أخيه ، وشجعه على ذلك مراسلة والدة السلطان محمود بن ملكشاه له طالبة منه القدوم إليها ووعدته بالزواج منها . فسار تتش إلى خراسان سنة ٤٨٦هـ / ١٠٩٣م ولكنه حصل لتاج الدولة تتش مالم يكن فى الحسبان ، اذ انفصل عنه فى تبريز فى السنة المذكورة كل من آقسنقر صاحب حلب وبوزان صاحب الرها وحران وانضما إلى صفوف بركياروق بالرى « ليكونا فى خدمته »[١] .

ولعل من أسباب انفصال كل من آقسنقر وبوزان عن تتش سؤ معاملته لهما ، اضافة إلى أنه لم يمنحهما شيئا من البلاد التى فتحها ، وأخيرا اقتناعهما بعدم أحقيته فى السلطنة السلجوقية . وقد أفصح آقسنقر البرسقى صاحب حلب عن ذلك بقوله « انما أطعنا هذا الرجل لننظر مايكون من أولاد صاحبنا (ملكشاه) والان فقد ظهر ابنه (بركياروق) ونريد أن نكون معه »[٢] . ولم يقفا عند حد الانضمام إلى بركياروق ، بل حرضاه على معاجلة تتش قبل اعضال خطبة ، وتمكنه من الغلبة على السلطنة والاستيلاء على أعمال المملكة على حد قول ابن القلانس[٣] .

من هنا أدرك تاج الدولة تتش أنه لن يستطيع الوقوف أمام بركياروق ومن انضم إليه من قادة الاتراك بالشام بعد أن خذلوه ، فرجع إلى ديار بكر ومنها سار سروج فاستولى عليها وعين عليها بعض ثقاته ، ومنها واصل مسيره إلى الشام حتى وصل أنطاكية ، وأقام بها مدة من الزمن ، غير أن سوء الأوضاع الاقتصادية بها قد أجبرته على مغادرتها إلى دمشق فوصلها فى ذى القعدة من سنة ٤٨٦هـ / ١٠٩٣م[٤] .

أما السلطان بركياروق فقد استقامت أموره وعلا شأنه بعد رحيل عمه تاج الدولة تتش

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٠٨ — ١٠٩ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٢٢ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ٩ ، ص ٧٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ١٤٤ . Gibb, The Damascus Chronicie of The crusades, p. 22. وتبريز : مدينة من اشهر مدن اذربيجان فى خراسان . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٢٢ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٠٩ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٢٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٢٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٠٩ — ١١٠ .
— وسروج : مدينة قريبة من حران فى اقليم الجزيرة ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

إلى الشام ، وخرج مع آقسنقر قسيم الدولة وبوزان وسار معهما إلى الرحبة من أعمال الموصل وعقد بينهما وبين على بن شرف الدولة مسلم بن قريش حلفا للوقوف فى وجه تاج الدولة تتش . ومن الرحبة عاد آقسنقر وبوزان كل منهما إلى بلده فى شوال من السنة نفسها ٤٨٦هـ / ١٠٩٣م ، بينما سار بركياروق إلى بغداد فدخلها فى أول سنة ٤٨٧ / ١٠٩٤م حيث أقيمت الدعوة فى الخطبة باسمه[١] .

غير أن أوضاع السلاجقة لم تستقر فتاج الدولة تتش لم يتخل عن فكرة الاستيلاء على ماكان بيد أخيه ملكشاه ، ولم ينس ذلك الموقف الذى تخلى فيه آقسنقر وبوزان عنه فى تبريز وانضمامهما إلى بركياروق ، لهذا أخذ فى جمع الجيوش وحشد القوى « فكثر جمعه وعظم حشده وسار عن دمشق إلى حلب » بقصد القضاء على آقسنقر وبوزان ، ومن ثم المسير لقتال السلطان بركياروق . فما أن سمع آقسنقر بأخبار تتش واستعداداته حتى شرع فى الجمع والاحتشاد والتأهب للقائه ، وطلب النجدة من السلطان بركياروق فأمده بكربوقا صاحب الموصل فيما بعد ، ووصله بوزان صاحب الرها وحران ويوسف بن آبق صاحب الرحبة ، وجمعاً من العرب بقيادة شبل بن جامع ومبارك ابن شبل من زعماء بنى كلاب ، فبلغت عدة قوات آقسنقر نحوا من عشرين ألفا فى أحسن زى وأتم آلة وعدة[٢] .

ولما استكمل آقسنقر استعداداته خرج بقواته للقاء تتش وسار تتش حتى نزل على تل منسي قرب معرة النعمان ، وتم اللقاء بينهما في العشر الأول من شهر جمادى الأول سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م عند نهر سبعين على مسافة ستة فراسخ شرق حلب . وأسفر اللقاء عن هزيمة قسيم الدولة آقسنقر ووقوعه فى أسر تتش بينما عاد بوزان وكربوقا إلى حلب بقصد الاحتماء بها ، ولكن تتش تعقبهما حتى أسرهما أيضا فقتل تاج الدولة تتش آقسنقر قسيم الدولة وبوزان واستبقى كربوقا فى الاسر[٣] .

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٢٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٢٩ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ٩ ، ص ٨٠ ــ ٨١ ، خاشع المعاضيدى ، الحياة السياسية فى بلاد الشام ، ص ١٠١ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٥ ، انظر ابن القلانسي ، ص ١٢٦ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١١١ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات ، جـ ٩ ، ص ٣٠٩ .

(٣) ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ ٣ ، ورقة ٢٦٩ أ ، ابن ابى الدم الحموى ، التاريخ المظفرى ، ورقة ١٥٦ أ ، ابن الشحنه ، روض المناظر ، ورقة ٦٢ ب ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٨٧ ، ابن القلانسي ، ص ١٢٦ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٣٢ ــ ٢٣٣ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٥ .

وهكذا تم لتتش القضاء على أكبر المناوئين له فى بلاد الشام واستولى على حلب وحران والرها فتم له بذلك احكام السيطرة على شمال الشام وبعض أجزاء من منطقة الجزيرة[1] . وتوجه نحو ديار بكر ولكنه عدل عن طريق السلطان بركياروق الذى كان نازلا بأرض الموصل ، وسار نحو خراسان للمرة الثانية سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م وقصد الرى حيث انضم إليه خلق كثير من التركمان وعساكر ابن أخيه بركياروق الذى عاد على وجه السرعة إلى أصبهان للاحتماء بها من تتش[2] .

رأى تاج الدولة تتش أنه حقق كثيرا من الانتصارات على خصومه وسيطر على كثير من معاقل الدولة السلجوقية مما يخوله أن يطلب السلطنة فأرسل رسالة إلى الخليفة العباسي المستظهر بالله يطلب منه اعلان الدعوة فى الخطبة له ببغداد فأجيب إلى ذلك ، ودعى له على منابر بغداد[3] .

شجعت هذه الانتصارات تاج الدولة تتش فواصل مسيره إلى الرى حيث استولى عليها فى المحرم سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م فامتد نفوذه من الشام غربا إلى الرى شرقا . ولم يكتف بهذا بل جهز جيشا من الاتراك والعرب الموالين له ، وأغار بهم على الاراضى التى كانت لبنى عقيل ، بقصد تمشيط الاراضى التى أصبحت تحت حوزته . وأرسل إلى ولده رضوان بدمشق يستدعيه « فتوجه رضوان إليه ومعه بقية من تخلف من اصحابه بالشام » بقصد الاستعانة بهم على السلطان بركياروق الذى كان بأصبهان[4] .

وعلى الرغم من المرض الذى ألم ببركياروق فقد برز من أصبهان فى جموع كثيرة من أصحابه ومن انضم إليه من أنصار أخيه محمود بعد وفاة أمه تركان خاتون تلك السنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م وقصد جهة عمه تاج الدولة تتش الذى نزل على بعد أربعة فراسخ من الرى . وتم اللقاء بين الطائفتين فى اليوم السابع عشر من شهر صفر من سنة ٤٨٨هـ /

---

(١) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار ، جـ ١٦ ، ورقة ١١٣ ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١١٧ — ١١٨ ، Gibb, op.cit.p.23.

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٢٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ٢٣٣ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١١٨ ، انظر ابن القلانسي ص ١٢٧ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ٩ ، ص ٨٤ — ٨٥ ، ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٠٠ ، القلقشندى ، مآثر الانافة ، جـ ٢ ، ص ١٢ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١١٨ — ١١٩ ، انظر : ابن القلانسي ، ص ١٢٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٣٤ .

١٠٩٥م فوقعت الهزيمة على تاج الدولة تتش وتفرق اصحابه ، ونهب سواده وأسر كثيراً من أصحابه وقتل منهم الخلق الكثير ، وقُتِلَ تاج الدولة تتش نفسه وحمل رأسه إلى بغداد وطيف به هناك[١] .

ويمكن القول أن الانتصارات السريعة الخاطفة التى حققها تتش فيما بين سنتى ٤٨٦ ــ ٤٨٧هـ لم تكن قائمة على قاعدة صلبة من ولاء الرعية والقادة وهذا على مايبدو سبب الهزيمة التى حلت به أمام ابن أخيه بركياروق بعد أن غدر به بعض أصحابه الذين اصطنعهم لنفسه[٢] ، بالاضافة إلى أن تاج الدولة تتش لم يترك لجيشه فرصة لاخذ قسط من الراحة بعد أن قطع مسافة طويلة من الشام إلى الرى .

ولم تقف آثار وفاة تاج الدولة تتش عند حد قيام النزاع بين ولديه رضوان ودقاق ، بل تعدتها إلى أن القوى البشرية والمادية التى كان تاج الدولة تتش قد عبأها ذهبت أدراج الرياح ، فأدى ذلك إلى انعدام الروابط فيما بين القوى الاسلامية فى بلاد الشام . ولذلك يمكن القول بانه لو قدر للصليبيين أن يواجهوا كل ماعبأته المملكة التى حاول تاج الدولة تتش اقامتها من موارد بشرية ومادية لتغير تاريخ الشام ، وأمكن القضاء على الحملة الصليبية الأولى فى سنواتها الأولى . فالذى حدث فعلا أن ممتلكات تتش بالشام تفككت ، بسبب ماوقع من النزاع بين ولديه رضوان ودقاق ، فضلا عما اشتهر به القادة الاتراك من الحسد وانتهاز الفرص للعمل لحسابهم الخاص[٣] .

النزاع بين رضوان ودقاق ونتائجه :

استطاع تاج الدولة تتش توحيد معظم بلاد الشام والجزيرة تحت لوائه بعد موت أخيه ملكشاه سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م ، غير أن أطماعه فى السلطنة السلجوقية أودت بحياته ، الامر الذى انعكست نتائجه على بلاد الشام والجزيرة فانقسمت بلاد الشام بين

---

(١) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار ، جـ ١٦ ، ورقة ١١ب ، ابن شاكر الكتبى ، عيون التواريخ ، جـ ١٣ ، حوادث سنة ٤٨٨هـ ، ابن القلانسي ، ص ١٢٩ ــ ١٣٠ ، العظيمى ، حوادث سنة ٤٨٨هـ ، الاصفهانى تاريخ دولة آل سلجوق ص ٨٣ ، العينى ، السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ، ص ١٧٧ ، Gibb, op.cit.,p.23

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١١٨ ــ ١١٩ .

(٣) انظر : العرينى ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ١٨ .

ولديه رضوان بحلب ودقاق فى دمشق ، اضافة إلى دخول قادة بلاد الشام من الاتراك فى نزاع مستمر ، وهذا ماأدى إلى نجاح الصليبيين فى الاستيلاء على بلاد الشام .

أما بالنسبة للصراع أو النزاع الذى قام بين أبناء تتش فى بلاد الشام فيمكن أن نقسمه إلى مرحلتين ، المرحلة الأولى من النزاع وهى مرحلة ماقبل الغزو الصليبى لبلاد الشام وتمتد من (٤٨٨ إلى ٤٩١هـ / ١٠٩٥ ــ ١٠٩٨م) ، والمرحلة الثانية وهى مرحلة مابعد الغزو الصليبى لبلاد الشام والجزيرة ، وهى المرحلة التى برز فيها دور السلاجقة السلبى فى مجابهة الصليبيين وتفكك وحدتهم ، وما ترتب على ذلك من سقوط الكثير من مدن وقلاع بلاد الشام فى أيدى الصليبيين .

وتبدأ المرحلة الأولى من قصة النزاع بين ولدى تتش سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م عندما طلب تاج الدولة تتش المساعدة من ابنه رضوان الذى كان فى دمشق ضد بركياروق بن ملكشاه ، فخرج رضوان وبصحبته عساكر دمشق والعديد من الامراء الترك والعرب ، فلما وصل رضوان إلى عانه على الفرات بلغه خبر مقتل والده فعاد مسرعا فى بعض خاصته إلى حلب ولحق بهما زوج أمه جناح الدولة حسين بن ايتكين . وفى حلب تمكن رضوان بمساعدة زوج والدته جناح الدولة حسين من الاستيلاء على قلعة حلب من وزير والده أبوالقاسم الحسن بن على الخوارزمى فى ربيع الثانى سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م ونودى بشعار رضوان فى حلب وتولى جناح الدولة حسين تدبير شئون رضوان بحلب[1] .

أما شمس الملوك دقاق بن تتش فقد كان قبل وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م موجودا فى بغداد ولكنه غادرها بعد وفاة عمه ملكشاه بصحبة تركان خاتون وابنها محمود بن ملكشاه . غير أنه لم يطل المقام بصحبتهما ، بعد أن سمع أن والده خرج من بلاد الشام بقصد النيل من السلطان بركياروق ــ كما سبق ذكره ــ فلقى والده عند الرى وشهد معه المعركة التى قتل فيها والده تتش سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م . وبعد معركة الرى عاد دقاق إلى حلب وأقام فى كنف أخيه رضوان بن تتش فترة زمنية

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ ٦ ، ورقة ٨٩ أ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ١٣ B ، ورقة ١١٣ ب ، العينى ، عقد الجمان ، جـ ١٦ ورقة ١١٤ ب ، ابن القلانسي ، ص ١٣٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٤٦ ، Gibb, op.cit.,p.p. 30-31 .

ــ وعانة : بلدة مشهورة على الفرات بين الرقة وهيت من اعمال الجزيرة الفراتية ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

قصيرة[1] .

وفى حلب استهل رضوان سياسته بقتل أخويه أباطالب وبهرام فى نفس السنة التى قتل فيها والدهما ليخلو له الجو من المنافسة فى حكم بلاد الشام . وأجرى اتصالاته مع السلطان بركياروق بشأن تبادل الاسرى بين الطرفين ، فتم اطلاق قوام الدولة كربوقا حيث كان مسجونا بحمص ، وعاد إلى السلطان بركياروق ، فى الوقت الذى وافق فيه بركياروق على اطلاق سراح طغتكين[2] ، وكان طغتكين قد حظى بعطف وتقدير تتش حتى أسند إليه منصب الاسفهسلارية[3] على جيشه وولاية دمشق وسلمه ابنه دقاق وعهد إليه بتربيته ، وأخيرا عينه تتش واليا على ميافارقين ، فقام طغتكين بواجباته خير قيام . وعندما وقعت معركة الرى بين تتش وبركياروق كان طغتكين بصحبة تتش ووقع أسيرا فى يد بركياروق ، وظل فى الاسر حتى تم الاتفاق بين رضوان وبركياروق على تبادل الاسرى وعاد طغتكين إلى دمشق مع من كان فى اعتقال بركياروق من خواص تاج الدولة تتش[4] . وكان لهذه الخطوة ــ أى خطوة تبادل الأسرى ــ بين بركياروق ورضوان أثرها إذ أن كلا منهما انصرف عن التفكير فى التدخل فى شئون الآخر ، حتى ان رضوان لم يعد يفكر فى الاخذ بثأر والده من السلطان بركياروق ، بل انصرف رضوان إلى محاولة الانفراد بحكم بلاد الشام ، ومحاولة اخضاع القوى الاسلامية الاخرى لسيطرته . فخرج إلى ديار بكر فى سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م ، ومعه اتابكه جناح الدولة حسين ، وياغى سيان صاحب أنطاكية ، ويوسف بن ابق صاحب الرحبه وقصدوا سروج فلم يتمكنوا من الاستيلاء عليها من سقمان بن أرتق ، فرحلوا عنها إلى الرها فى السنة نفسها فاستولوا

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٣٠ ــ ١٣١ ، ١٤٥ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ١ ، ص ٢٩٦ ، القرمانى ، أخبار الدول واثار الاول ، ص ٢٨٠ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٣١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٢١ ــ ١٢٢ ، ابو الفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٠٦ .

(٣) اسفهسلار : كلمة مكونة من لفظين احدهما فارسى وهو (اسفه) ومعناه المقدم والثانى تركى وهو (سلار) ومعناه العسكر وبالتالى الاسفهسلار هو مقدم العسكر . انظر القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ ٣ ، ص ٤٨٣ ، حسن الباشا ، الالقاب الاسلامية ، ص ١٥٦ ــ ١٥٧ .

(٤) ابن واصل ، التاريخ الصالحى ، ورقة ١٧٣ ب ــ ١٧٤أ ، العينى ، عقد الجمان ، جـ ١١ ، ورقة ١١٤ب ، ١١٥أ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٤٦ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٠٧ .

عليها[1] .

وعند الرها حصل الاختلاف بين القادة الاتراك اذ حاول يوسف بن أبق وياغى سيان صاحب انطاكية الفتك بجناح الدولة حسين ليتفردا بأمر رضوان ، ولكن جناح الدولة حسين استطاع الهرب والعودة إلى حلب فى الوقت الذى استوحش فيه رضوان من محاولة ياغى سيان ويوسف بن أبق الفتك بجناح الدولة حسين ولا مهما على هذا التصرف ففارقاها وعادا إلى أنطاكية[2] .

ولما كان شمس الملوك دقاق بن تتش قد عاد إلى حلب بعد مقتل والده فى الرى وأقام فى كنف رضوان مدة قصيرة ، فانه قد خاف أن يحل به ماحل بأخويه بهرام وأبى طالب على يد أخيه رضوان ، لذلك استغل مراسلة نائب والده فى مشق ، ويدعى ساوتكين الخادم ، وماعرضه على دقاق بالقدوم إلى دمشق ، وتعهد فى نفس الوقت بتسليم دمشق إليه . ويبدو أن ساوتكين الخادم لم يكن كارها فى السيطرة على دمشق والتفرد بحكمها ، ولكنه كان يرمى إلى اضفاء طابع الشريعة على حكمه ، بوجود أحد أمراء البيت السلجوقى فى دمشق . لذلك تظاهر بالاخلاص لدقاق فى الظاهر بينما أراد على مايبدو الاستبداد بحكم دمشق[1] . وعلى أية حال فقد وجد دقاق فى مراسلة ساوتكين له فى السر فرصة للنجاة من غدر رضوان ، بصرف النظر عن التطلع إلى حكم دمشق ، فهرب من حلب وتوجه إلى دمشق سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م من غير أن يعلم به أحد . ولما علم رضوان بهرب أخيه أرسل فرقة من الخيالة لمطاردته فلم تدركه . ولما وصل دقاق إلى دمشق أجلسه ساوتكين فى منصب والده . « وأخذ له العهد على الاجناد

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٤٧ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٠٧ .
ـــ وأتابك : كلمة تركية تتألف من لفظين (أتا) بمعنى أب و (بك) بمعنى أمير او مربى وهو من القاب الوظائف التى أستعملت فى الدولة السلجوقية وكانت مهمة الاتابك رعاية وتربية أبناء السلاطين السلاجقة الا ان نظام الاتابكة ادى فى نهاية الامر الى انقسام الدولة السلجوقية الى عدة دويلات استقل بحكمها الاتابكة وأسرهم كطغتكين فى دمشق وغيره . انظر القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ ٤ ص ١٨ . وانظر : حسن الباشا ، الالقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والاثار ص ١٢٢ ـــ ١٢٤ كلودكاهن ، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ص ٢٤٢ ـــ ٢٤٦ .

(٢) العينى ، عقد الجمان ، جـ ١١ ، ورقة ١١٥ أ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٤٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٢٣ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٣٠ ، انظر : على محمد الغامدى ، بلاد الشام قبل الغزو الصليبى ، رسالة ماجستير لم تطبع ، ص ٢٧٢ .

والعسكرية واستقام له الامر واستمرت على السداد الاحوال »[1] .

وفى دمشق استقبل شمس الملوك دقاق أتابكه ظهير الدين طغتكين الذى كان رضوان صاحب حلب قد طلب من بركياروق اطلاق سراحه مقابل اطلاق سراح كربوقا ، واطمأن دقاق بوصول أتابكه ، وأسند إليه جميع الأمور فى تدبير المملكة . ومما استهل به طغتكين من الأعمال تدبير مؤامرة للاطاحة بساوتكين الخادم ، الذى كان قد سعى إلى اعادة دقاق إلى دمشق ، ثم تزوج طغتكين من صفوة الملك والدة دقاق ليصبح ذلك أتابكا له[2] .

وهكذا عاد التمزق السياسى مرة ثانية إلى بلاد الشام ، نتيجة لسوء سياسة رضوان ، ولشدة اطماع القادة الاتراك فى التفرد بالسيطرة على أبناء تتش . مما أدى إلى انقسام مملكة تاج الدولة تتش بين ولديه رضوان فى حلب ودقاق فى دمشق ، وانشغال رضوان باعادة السيطرة على دمشق وبالتالى صرف الكثير من جهده ووقته وطاقات دولته لهذا الغرض[3] وبالتالى لم تحل سنة ٤٨٩هـ / ١٠٩٦م إلا وكانت دولة السلاجقة قد انقسمت إلى خمس ممالك متنافسة فيما بينها وهى : سلطنة اصبهان وعلى رأسها السلطان بركياروق الذى كانت له السيطرة على بغداد ، ومملكة خرسان وما وراء النهر وعلى رأسها سنجر بن ملكشاه ، ومملكة حلب وعلى رأسها رضوان بن تتش ، ومملكة دمشق على رأسها دقاق بن تتش ، واخيرا سلطنة سلاجقة الروم وعلى رأسها قلج أرسلان بن قطلمش[4] .

ولم يقتصر النزاع فى بلاد الشام بين رضوان ودقاق ابنى تتش ، بل تعداه حتى شمل قادة الاتراك فى أنطاكية وحمص والرحبة وسروج وغيرها لشدة أطماع هؤلاء القادة وما كانوا يرغبون فى تحقيقه لحسابهم الخاص ، مستغلين فى ذلك النزاع بين الأخوين رضوان

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٣٠ ، انظر : ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٤٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٢١ .

(٢) ابن واصل ، التاريخ الصالحى ، ورقة ١٧٣ب ــ ١٧٤ أ ، ابن شاكر الكتبى ، عيون التواريخ ، جـ ١٣ ، حوادث سنة ٤٨٨هـ ، الذهبى ، تاريخ الاسلام ، جـ ٩ ، ورقة ٤٨ أ ، الصفدى ، تحفة ذوى الالباب ، ورقة ١٣٧ أ ، ابن القلانسي ، ص ١٣٠ ــ ١٣١ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ٥ ، ص ٢٤٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٢٠ .

(٣) زكار ، مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٢٣٣ .

(٤) انظر سعيد عبدالفتاح عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، ص ٧٠ .

ودقاق حول دمشق . ففى سنة ٤٨٩هـ / ١٠٩٦م دار النزاع بين رضوان ودقاق حول السيطرة على دمشق ، فقد طمع رضوان فى الاستيلاء عليها واعادتها إلى سيطرته فاستنجد بسقمان بن أرتق ، صاحب حصن كيفا[١] وكان موجودا بسروج ، فتوجها إلى دمشق مستغلين فى ذلك غيبة دقاق وطغتكين عنها ، الا أن رضوان لم يستطع الاستيلاء على دمشق ، فعاد إلى حلب خائبا فى الأمر الذى طلب ، بسبب استبسال المدافعين عنها ، ثم عودة دقاق إليها حين سمع بحصار رضوان لها بالاضافة إلى انفصال سقمان بن أرتق عن رضوان ورحيله إلى بيت المقدس اقطاع أخيه نجم الدين ايلغازى بن أرتق الذى كان متحالفا مع دقاق ضد رضوان[٢] .

ولما يئس رضوان من حملته على دمشق سنة ٤٨٩هـ / ١٠٩٦م أخذ فى توسيع نفوذه على حساب قادة الاتراك السلاجقة فسعى فى السنة نفسها ٤٨٩هـ / ١٠٩٦م إلى قتل يوسف بن أبق صاحب الرحبة ، واستولى على ممتلكاته فى بزاغة ومنبج[٣] ، وأغار على أنطاكية بمشور من أتابكه جناح الدولة حسين لما كان بينه وبين ياغى سيان من نفور مستحكم . الا أن رضوان لم يكن له هم سوى الاستيلاء على دمشق « لمعرفته بمحاسنها وترعرعه فيها » فعاد للمرة الثانية إلى محاولة الاستيلاء عليها فى شهر رمضان من السنة نفسها ٤٨٩هـ / ١٠٩٦م ، ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها للخطة المحكمة التى وضعها دقاق بالتعاون مع ياغى سيان صاحب أنطاكية . ولم يقف رضوان عند حد عجزه عن الاستيلاء على دمشق ، بل انه عجز عن العودة إلى حلب فسار إلى بيت المقدس ومنها إلى حلب بعد أن تفرق أكثر رجاله[٤] .

ويبدو أن عودة رضوان إلى حلب بعد أن تفرق أكثر رجاله دون النيل من دمشق ، قد أدى إلى ترجيح كفة أخيه دقاق ، اذ استطاع دقاق وحليفه الجديد ياغى سيان صاحب أنطاكية من استعادة بعض ماكان قد استولى عليه رضوان من املاك أنطاكية

---

(١) حصن كيفا : بلدة وقلعة عظيمة كانت مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر . انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، القرمانى ، أخبار الدول واثار الاول ص ٣٣٦ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٣٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٢٣ ــ ١٢٤ .

(٣) بزاغة : بلدة كانت من أعمال حلب فى وادى بطنان بين منبج وحلب ، ومنبج : كانت مدينة كبيرة بين الفرات وحلب فى فضاء من الارض ، انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٤ .

(٤) ابن القلانسي ، ص ١٣٢ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٢٣ ــ ١٢٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٦٩ .

كالمعرة التى كانت بيد سقمان بن أرتق حليف رضوان سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٦م . وبذلك اصبح رضوان فى موقف المدافع بعد أن كان فى موقف المهاجم ، وبهذا تمكن دقاق من نقل ميادين المعارك من دمشق إلى حلب[١] .

ظل كل من رضوان ودقاق يتحين الفرصة للانقضاض على الآخر والنيل منه ، حتى كان ربيع الأول سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م حيث التقى كل من رضوان ودقاق فى معركة بحاضر قنسرين ، أجبرت رضوان على الاستعانة بسليمان بن ايلغازى صاحب سميساط وجمع من العرب والترك فى الوقت الذى كان مع دقاق أتابكه ظهر الدين طغتكين ، وياغى سيان صاحب أنطاكية . وعندما التقى الجمعان صمد رجال رضوان واستطاعوا اجبار دقاق ومن معه على التراجع حيث عاد ياغى سيان إلى أنطاكية وعاد دقاق وطغتكين إلى دمشق[٢] .

وعقب هذه المعركة حصل بين رضوان وأتابكه جناح الدولة حسين نفور خاف معه جناح الدولة حسين على نفسه من رضوان ، ففارق حلب متوجها إلى اقطاعه فى حمص فى شعبان من سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م ، فاستغل ذلك ياغى سيان صاحب أنطاكية فتقرب من رضوان ، ودخل حلب وشرع فى تدبير شئون مملكة رضوان والامر والنهى فى عسكريتها واهلها[٣] . ولكن ياغى سيان ورضوان فى حلب لم ينصرفا إلى الاهتمام بشئون حلب والعمل على تقريب شقة الخلاف بين حلب ودمشق ، بل على العكس سعى ياغى سيان ورضوان إلى تجهيز حملة عسكرية بقصد الاستيلاء على دمشق من دقاق واتابكه طغتكين ، فخرجا فى السنة نفسها ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م وقصدا حمص التى بها جناح الدولة حسين بهدف القضاء عليه ولكنهما فشلا فتوجها إلى شيزر التى كانت بيد بنى منقذ وحاصراها مدة بقصد الاستيلاء عليها واتخاذها نقطة ارتكاز للهجوم على دمشق وحمص ، إلا أنهما لم يستطيعا النيل منها ، فعاد الملك رضوان إلى حلب بينما توجه

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٢٥ . والمعرة : هى معرة النعمان نسبة الى الصحابي النعمان بن بشير الذى دفن بها وهى مدينة قديمة وكبيرة من اعمال حمص بين حلب وحماة . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) العمرى ، مسالك الابصار ، جـ ١٦ ، ورقة ١٠٧ ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٢٦ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢١٠ ، وقنسرين بلدة بالشام بين حلب وحمص ، وسميساط : مدينة على شاطئ الفرات الغربى فى طرف بلاد الروم ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ ٦ ، ورقة ٩٠ أ ، ابن القلانسي ، ص ١٣٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ،جـ ٢ ،ص ١٢٦ ــ ١٢٧ الذهبى ، العبر ، جـ ٣ ، ص ٣٢٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٧٠ .

ياغى سيان إلى انطاكية بسبب الاضطراب الذى وقع فى صفوفهم نتيجة وصول طلائع الصليبيين إلى شمال الشام[1] .

وهكذا لم يستطع رضوان استرداد دمشق من أخيه دقاق ، فضلا عن فشله فى توطيد نفوذه فى شمال الشام ، كما أن سياسته فى حلب قد أصابها الاضطراب نتيجة للدور الذى لعبه بركات بن فارس الفوعي الملقب بالمجن الفوعي رئيس أحداث[2] حلب الذى كان له دور بارز فى اثارة الشكوك والريبة بين رضوان وأتابكه جناح الدولة حسين وغيره من القادة الاتراك ، الا أن رضوان استطاع التخلص من المجن الفوعي بأن صادر أمواله وأمر بقتله سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م[3] .

ولم يقتصر انهيار وتفكك وحدة السلاجقة فى بلاد الشام على النزاع الذى قام بين رضوان ودقاق ابنى تتش ، فقد وجد فى هذا النزاع بعض العناصر المعادية للسلاجقة متنفسا لهم للخروج من دائرة نفوذهم ، وعلى سبيل المثال فقد وجد سكان أفامية واغلبهم من الشيعة فى الحوادث التى جرت بين رضوان ودقاق الفرصة مناسبة فأعلنوا العصيان على الحكم السلجوقى وسيروا جماعة منهم إلى مصر سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م يستدعون واليا فاطميا لهم ، فاهتبل الوزير الفاطمى الافضل بن بدر الجمالى هذه الفرصة وسير خلف بن ملاعب إلى أفامية فى السنة التالية ٤٨٩هـ / ١٠٩٦م ليحكمها باسم الفاطميين فظل حاكما لها حتى وافته منيته سنة ٤٩٩هـ / ١١٠٥م ، وسقطت أفامية

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٣٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٢٩ ، الحميرى ، الروض المعطار ، ص ٣٥٢ .

(٢) تكونت جماعة الاحداث فى بلاد الشام لمقاومة الحكم الفاطمى فى بلاد الشام منذ النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، القرن العاشر الميلادى ، وهم جماعة من القوات المدنية وكان الاحداث يقومون بحفظ النظام ومكافحة النيران واغاثة المنكوبين بالاضافة الى انضمامهم الى القوات النظامية لمحاربة الاعداء وقت الحاجة اليهم .

انظر : سعيد عاشور ، المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ، فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٣٠ — ٣١ ، Zakkar op.cit., p.p. 255-256., The The Encyclopaedia of Islam, Vol.I. p.259

(٣) ابن القلانسي ص ١٣٥ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٠هـ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٢٤ — ١٢٥ .

بيد الصليبيين سنة ٥٠٢هـ / ١١٠٨م[١] .

وبالاضافة إلى ذلك فقد وجد الفاطميون فى النزاع القائم بين رضوان ودقاق متنفسا لهم فى استعادة مكانتهم فى بلاد الشام ــ والتى كانوا قد فقدوها ابان عهد قوة السلاجقة أيام السلطان ملكشاه وأخوه تاج الدولة تتش فشجع الفاطميون الفتن والثورات ضد الأتراك السلاجقة فى بعض مدن الشام ، وقدموا المساعدات لزعماء الحركة الانفصالية فى مقابل اعادة الدعوة لهم ، وهذا جل مايتمنون فى سبيل نشر مذهبهم[٢] .

وفى ظل تفكك وحدة السلاجقة فى بلاد الشام نجح الفاطميون فى اعادة صور إلى طاعتهم سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م بعد تمرد واليهم عليها المسمى كتيله ، نتيجة عدم استطاعة السلاجقة فى بلاد الشام مد يد العون لهذا المتمرد ، وتقديم المساعدة له للوقوف فى وجه الفاطميين[٣] .

ولم يقف الفاطميون عند هذا الحد من استغلال النزاع بين رضوان ودقاق وتفكك وحدة السلاجقة وانهيار نفوذهم فى بلاد الشام ، فى استعادة مكانتهم ببلاد الشام ، بل سعوا إلى ترغيب رضوان فى تقديم المساعدة له ضد خصومه فى دمشق وحمص فى مقابل اقامة الدعوة لهم فى حلب والبلاد التى تحت حكمه فوافق رضوان على هذا المطلب وأعلن الدعوة فى الخطبة للفاطميين ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م على سائر منابر مدن الشام التى فى يده . وعندما لم يتلق رضوان من الفاطميين ماكان قد تم الاتفاق عليه من المساعدات العسكرية ضد خصومه فى حمص ودمشق وتحت الضغط الشديد من القادة الاتراك فى بلاد الشام مثل ياغى سيان صاحب انطاكية ، فقد قطع الخطبة باسم

---

(١) ابن ابى الدم الحموى ، التاريخ المظفرى ، ورقة ١٥٧ أ ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ ٥ ، ورقة ٢٢١ أ ، ابن القلانسي ، ص ١٣٢ ــ ١٣٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٢٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٠٨ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ١٨ ، ابن ميسر ، أخبار مصر جـ ٢ ، ص ٣٧ .
وافامية : مدينة حصينة على سواحل الشام وكورة من كور حمص ، انظر ياقوت الحموى ، معجم البلدان .

(٢) انظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٣٢٦ ــ ٣٢٨ .

(٣) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٢٠ ، ابن ميسر ، أخبار مصر ، جـ ٢ ص ٣٨ .

الفاطميين من بلاده بعد مرور أربع جمع من السنة المذكورة[1] .

وفى ظل الظروف المتردية للاتراك السلاجقة فى بلاد الشام ، فقد خرج الافضل بن بدر الجمالى فى شعبان من سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٨م على رأس قوة عسكرية لاسترداد بيت المقدس ــ الذى كان بيد نجم الدين ايلغازي وأخوه سقمان بن أرتق اللذين كانا تابعين لحكام دمشق السلاجقة ــ وحاصر الافضل بيت المقدس ولم يستطع الاراتقة الصمود أمام الفاطميين بسبب عدم قدرة السلاجقة فى دمشق وحلب على مد يد العون للاراتقة ، بالاضافة إلى انشغال السلاجقة بالصليبيين الذين استولوا على أنطاكية تلك السنة ، وبعد حصار ضربه الافضل على بيت المقدس لمدة أربعين يوما استسلم ايلغازى وسقمان ابنى أرتق للفاطميين ، فسمح لهما الافضل بالخروج من بيت المقدس وتسلمه هو وعاد إلى مصر ، بعد أن ولى عليه واليا من قبله هو افتخار الدولة[2] .

ومن النتائج التى ترتبت على النزاع بين رضوان ودقاق فى هذه المرحلة هى حصول فرقة الاسماعيلية فى حلب على مكانة مرموقة بفضل ماكانوا يحصلون عليه من رضوان من مساعدة وتشيع لارائهم ، وكانت هذه الفرقة بزعامة الحكيم المنجم الباطنى ، وخليفته أبا طاهر الصائغ العجمى[3] . ويبدو أن هدف رضوان من وراء تشجيع هذه الفرقة هو الاستعانة ببعض أفرادها فى اغتيال المعارضين له فى سبيل تنفيذ سياسته ، بعد أن عجز عن استعادة دمشق وحمص ، واعادتها تحت سيطرته . وفى الوقت الذى كان فيه الصليبيون قد أحرزوا عدة انتصارات متتالية فى آسيا الصغرى على السلاجقة ، لم يعبأ رضوان بذلك ، بل ظل يفكر جديا فى الاستيلاء على دمشق . ولم يتدارك رضوان ودقاق الموقف المتدهور فى بلاد الشام ولم يعملا على رأب الصدع الذى أحدثته سياستهما الهوجاء لتوحيد قواهم ضد الصليبيين الذين أخذوا يد مرون حصون انطاكية فى شهر

---

(١) العيني ، عقد الجمان ، جـ ١١ ، ورقة ١١٩ أ العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٠هـ ابن القلانسي ، ص ١٣٣ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٧٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٢٧ ــ ١٢٩ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ١٩ ــ ٢٠ ، ابن اميسر ، اخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٣٨ ، الذهبى ، العبر ، جـ ٣ ، ص ٣٢٨ ــ اليافعى ، مرآة الجنان ، جـ ٣ ، ص ١٥٣ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٣٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٨٢ ــ ٢٨٣ ، ابن ميسر ، أخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٣٨ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٢٢ ، ابن الصيرفى ، الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٦٠ ، The Cambridge History of Islam, Vol.IA. p.p. 195-196.

(٣) العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٠ ، ابن العديم زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٤٥ .

رجب من سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م ، وأنهوا بذلك حكم السلاجقة فيها . ولم يقفا عند هذا الحد بل ان رضوان قد أحدث الفرقة بين صفوف المسلمين الذين كانوا يحاولون استعادة أنطاكية من الصليبيين بقيادة كربوقا صاحب الموصل ، اضافة إلى الموقف المتخاذل الذى سلكه دقاق صاحب دمشق تجاه حملة كربوقا[١] .

ومن هنا يمكن القول بأن النزاع الذى قام بين رضوان ودقاق قد ترتب عليه ضعف الجبهة الاسلامية ، وأدى إلى عدم استقرار الامور فى بلاد الشام وأتاح لكثير من الامراء المحليين بالشام والجزيرة لان يستقل كل واحد منهم ، بما تحت يده ، والعمل على توسيع نفوذه على حساب الاخرين ، فتوزعت بلاد الشام والجزيرة إلى امارات عدة ، تركزت حول الموصل وحلب ودمشق وطرابلس وأنطاكية وشيزر والرها ، ولا يجمع بينها ولاء واحد مما أتاح للصليبيين الاستيلاء على كثير من مدن الشام فى يسر وسهولة . فبعد استيلاء الصليبيين على أنطاكية توجهوا إلى البارة واستولوا عليها بعد أن غدروا بأهلها فى أواخر سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م[٢] . ومع بداية سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٨م توجه الصليبيون صوب معرة النعمان فضربوا حولها حصارا شديدا اضطر أهلها إلى التسليم ، بعد أن يأسوا من مساعدة رضوان صاحب حلب وجناح الدولة حسين صاحب حمص ودقاق صاحب دمشق[٣] ، ومن المعرة توجه الصليبيون إلى كفر طاب واستطاعوا الاستيلاء عليها فى السابع عشر من شهر صفر سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٨م وفعلوا بأهلها كما فعلوا بأهل المعرة والبارة من الغدر والمكيدة[٤] . ثم رحل الصليبيون إلى جبل لبنان فقتلوا من به من المسلمين وواصلوا سيرهم حتى بلغوا عرقه فحاصروها أربعة أشهر من سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٨م فلم يقدروا عليها ، ونزلوا على حمص فهادنهم جناح الدولة حسين على مال يدفعه لهم ، ثم انصرفوا إلى عكا التى بيد الفاطميين ومنها توجهوا إلى الرملة حيث استولوا

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٣٦ ــ ١٣٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٧٦ ــ ٢٧٨ ، ابراهيم خليل ، كربوقا ودورة فى مقاومة الصليبيين ، مقال بمجلة المؤرخ العربى ، العدد الخامس ، ص ١٠٩ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٧٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٤١ ، العظيمى ، حوادث سنة ٤٩١هـ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ص ١٠ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٢٦ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٤٢ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٢هـ .

(٤) ابن القلانسي ، ص ١٣٦ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى . حوادث سنة ٤٩٢هـ .
ــ وكفر طاب بلدة مشهورة بين المعرة ومدينة حلب ، انظر ياقوت الحموى ، معجم البلدان .

عليها من الفاطميين فى ربيع الآخر من السنة نفسها[1] . ولم يحل شهر رجب من سنة ٤٩٢هـ حتى استطاع الصليبيون تأسيس ثالث امارة لهم بعد امارتى الرها وأنطاكية تلك هى مملكة بيت المقدس بعد أن عجز الفاطميون عن صد الصليبيين عن بيت المقدس[2] .

ولا شك أن اجتياح الصليبيين لبلاد الشام فى مدة قصيرة يعود بالدرجة الأولى إلى عدم ادراك القوى الاسلامية لمغزى الحروب الصليبية ، واهداف الصليبيين ، ولم يعملوا على توحيد قواهم ضد الصليبيين ، ولم يعمل رضوان ودقاق على التحالف مع القوى الاسلامية للوقوف فى وجه الصليبيين ، بل سعى كل واحد منهما إلى تحقيق أطماعه وتوسيع ممتلكاته على حساب القوى الاسلامية الاخرى ، فدقاق بن تتش توجه فى بداية سنة ٤٩٣هـ / ١٠٩٩م إلى ديار بكر وميافارقين بقصد توطيد نفوذه بها والعمل على توسيع ممتلكاته ، هناك ، فى الوقت الذى كان فيه رضوان محاصرا بحلب من قبل الصليبيين[3] .

ولم يستغل رضوان ودقاق وغيرهما من القوى الاسلامية بالشام وقوع بوهمند صاحب أنطاكية فى أسر سلاجقة الروم سنة ٤٩٣هـ / ١٠٩٩م[4] من أجل لم شعثهم وشتاتهم والوقوف صفا واحدا فى وجه الصليبيين ، بل حاول كل و احد منهم الحصول على أكبر قدر من الممتلكات والسعى فى تدبير المؤامرات ضد خصومهم من المسلمين ، فرضوان حين عجز عن اصلاح مابينه وبين جناح الدولة حسين صاحب حمص سعى فى أمر اغتياله على يد الباطنية الذين دبروا اغتياله والتخلص منه وذلك فى الثانى والعشرين من شهر رجب سنة ٤٩٦هـ / ١١٠٢م[5] .

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٣٦ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ص ٢٣ . وعرقة : بلدة مشهورة الى الشرق من طرابلس الشام على سفح جبل ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) عن سقوط بين المقدس بيد الصليبيين ، انظر : ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٨٢ ــ ٢٨٥ ، وابن القلانسي ، ص ١٣٦ ــ ١٣٧ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٧٢ ــ ٢٨٣ ، ابن القلانسي ص ١٣٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٤٣ ، الفارقى ، تاريخ الفارقى ، ص ٢٦٩ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٣هـ .

(٤) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٣هـ ، ابن القلانسي ، ص ١٣٨ ، اليافعى ، مرآة الجنان ، جـ ٣ ، ص ١٥٥ .

(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٤٦ ، ابن القلانسي ، ص ١٤٢ .

ولسوء سياسة رضوان التى اتبعها تجاه القوى الاسلامية فى بلاد الشام فانه لم ير فى نفسه من الكفاية والقدرة على سد الثلمة التى حدثت فى حمص عقب اغتيال جناح الدولة حسين ، فأصبحت حمص محل نزاع بين دقاق صاحب دمشق والصليبيين فى بيت المقدس . وأخيرا استطاع دقاق الاستيلاء على حمص فى نفس السنة ٤٩٦هـ / ١١٠٢م وسلمها إلى اتابكة ظهير الدين طغتكين ، فقطع بذلك الطريق على الصليبيين من الوصول إليها « فحين عرفوا ذلك أحجموا عن القرب إليها والدنو منها »[١] كما يقول ابن القلانس .

ولم يقف رضوان عند هذا الحد من تدبير المؤامرات والاغتيالات لزعماء المسلمين ، وطعنهم من الخلف ، بل سعى فى سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م إلى التصدى لزعيم سلاجقة الروم قلج أرسلان وهزمه أثناء محاولة قلج أرسلان قتال الصليبيين حول الرها[٢] ، ولم يكتف رضوان بهذا فقد انضم إلى الصليبيين نجدة لتانكرد وصاحب انطاكية ضد جاولى سقاوه صاحب الموصل فى سنة ٥٠١هـ / ١١٠٧م بسبب خلاف وقع بين رضوان وجاولي[٣] . ولم يقدر الصليبيون هذا الموقف من رضوان ، فقد حاصروا حلب نفسها سنة ٥٠٤هـ / ١١١٠م وضيقوا على من بها من المسلمين حتى أكلوا الميتات وورق الشجر ، ولم يكتفوا بهذا بل فرضوا على رضوان مبلغا كبيرا من المال يحمله اليهم ، ولعل هذا هو مادفع بعض سكان حلب إلى الخروج منها إلى بغداد لطلب النجدة من السلطان محمد بن ملكشاه والخليفة العباسى المستظهر بالله[٤] .

وبهذه السياسة العشوائية ألحق رضوان الضرر بأهل حلب وغيرها من بلاد المسلمين حتى أن النجدة التى أرسلها السلطان محمد بن ملكشاه بقيادة شرف الدولة مودود سنة ٥٠٥هـ / ١١١١م قد وقف رضوان فى وجهها وعمل على عرقلتها ، ولم يكتف بهذا

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٤٢ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٤٦ — ١٤٧ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ق١ ص ١٧ ، العظيمى تاريخ العيمى حوادث سنة ٤٩٦هـ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٥٧ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٢٢ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٥٣ ، وكان جاولي سقاوة احد قادة السلطان محمد بن ملكشاه ، اقطعه الموصل سنة ٥٠٠هـ ، ولكنه أساء السيرة فى الرعية مما دعى السلطان الى تنحيته عن الموصل سنة ٥٠٢هـ وعين بدلا منه شرف الدولة مودود ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤١٧ — ٤٥٨ .

(٤) ابن القلانسي ، ص ١٧٣ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٨٥ — ٤٨٦ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٥٦ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٤هـ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٢٤ .

بل عمد إلى بث الحرامية من اتباعه يتخطفون من يظفرون به من عساكر مودود ، وأخيرا سعى إلى افساد مابين مودود وحليفه ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق[1] .

أما عن موقف دقاق صاحب دمشق من الهجوم الصليبى على بلاد الشام فانه لم يكن بأحسن حال من موقف رضوان بحلب ، فبالاضافة إلى موقفه المتخاذل تجاه مايجرى على ارض الشام مما هو بيد غيره ، فانه لم يستطع العمل على رأب الصدع الحاصل بينه وبين أخيه رضوان بحلب ، ولم يستطع تقديم المساعدة الجدية للقوى الاسلامية فى بلاد الشام للوقوف فى وجه الصليبيين ، وعمد دقاق ومعه أتابكه طغتكين إلى الاستيلاء على بعض المدن التى كانا يخشيان عليها من السقوط بيد الصليبيين بعد خلوها من حكامها ، مثل استيلائهما على حمص عقب اغتيال جناح الدولة حسين سنة ٤٩٦هـ ١١٠٢م ثم قيامهما بالاستيلاء على الرحبة بعد وفاة صاحبها المسمى قايماز التركى فى نفس السنة[2] . غير ان الاجل قد احاط بدقاق حيث توفى فى السنة التالية ٤٩٧هـ / ١١٠٣م بعد ان أوصى بالامر من بعده لا تابكة ظهير الدين طغتكين ، وبوفاة دقاق هذه السنة انتهى حكم السلاجقة من دمشق ، وانتقل إلى أسرة ظهير الدين طغتكين التى ظلت تحكم دمشق حتى سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م[3] .

ولم يقتصر النزاع بين رضوان ودقاق فى بلاد الشام وما ترتب عليه من تفكك وحدة السلاجقة عند حد اجتياح الصليبيين لبلاد الشام فى يسر وسهولة ، بل أدى إلى تنازع القادة العسكريين السلاجقة ، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى بروز قوى جديدة فى بلاد الشام على أنقاض السلاجقة ، كان لها دور أيضا فى تفكك وحدتهم لا في بلاد الشام فحسب بل وفى اقليم الجزيرة . ومن أشهر القادة العسكريين الذين أسسوا لهم امارات مستقلة عقب تمزق وحدة السلاجقة فى الشام والجزيرة ولعبوا دورا بارزا فى مجريات الحوادث السياسية فى الفترة الاخيرة ، نجم الدين ايلغازى ابن أرتق واخوه سقمان بن

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٧٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٦٠ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٥هـ .

(٢) انظر : ابن القلانسي ، ص ١٤٣ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٧٣ ــ ٣٧٥ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢١٦ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٤٤ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢١٧ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ١٨٩ .

أرتق . كان والدهما أرتق بن أكسك التركمانى أحد مماليك السلطان ملكشاه[1] واشتهر أرتق بالشجاعة وحسن التدبير حتى نال مرتبة عالية لدى السلطان ملكشاه ، غير أن العلاقات بينه وبين السلطان ملكشاه قد ساءت منذ عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م فتوجه أرتق على أثر ذلك إلى بلاد الشام وانضوى تحت لواء تاج الدولة تتش وشاركه فى فتوحاته ببلاد الشام ، فكافأه على حسن بلائه وخدماته بأن اقطعه بيت المقدس سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م فظل بها حتى وفاته سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م[2] ، وخلفه على اقطاعه فى بيت المقدس ابنه نجم الدين ايلغازى وأخوه سقمان بن أرتق ، ولعب الاراتقة دورا بارزا فى حوادث النزاع الذى نشب بين أبناء تتش كغيرهم من قادة السلاجقة فى بلاد الشام[3] .

ولما انتزع الفاطميون بيت المقدس من بنى أرتق سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٨م ، اتجه بنو أرتق جميعا إلى منطقة الجزيرة والعراق . وممن اتجه منهم إلى العراق نجم الدين ايلغازى بن أرتق حيث لزم جانب السلطان محمد بن ملكشاه ، وأسند إليه شحنكية بغداد سنة ٤٩٥هـ / ١١٠٢م ، ولعب دورا بارزا فى النزاع الذى كان قائما بين السلطان محمد بن ملكشاه واخوه بركياروق بن ملكشاه . أما سقمان بن أرتق فقد اتجه بعد خروجه من بيت المقدس إلى سروج واتخذها مركزا له فى محاولة فاشله للاستيلاء على الرها . وظل بسروج حتى استطاع سنة ٤٩٥هـ / ١١٠٢م من الاستيلاء على حصن كيفا عقب وفاة قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل[5] ، واستطاع سقمان ابن ارتق أن يؤسس له بحصن كيفا امارة مستقلة ، واستولى نجم الدين ايلغازى الذى كان شحنة

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ٩٩ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ص ١٩٠ ، ١٩١ ، عمادالدين خليل ، الامارات الارتقية فى الشام والجزيرة ، ص ٥٧ ، حاشية رقم (١) .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٨٢ — ٢٨٣ ، ابن الاثير ، الباهر ، ص ٣٧ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ١٩٧ — ٢١١ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ ١ ، ص ١٩١ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ، ص ١٠٧ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٢٣ — ١٢٤ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ ١ ، ص ١٩١ ، ابن ابيك ، كنز الدرر ، جـ ٢ ، ص ٤٢٨ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ص ٢٨٣ ، ٣٤١ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٥ ، ص ٥٦ ، والشحنة : هو المسؤول عن حفظ الامن فى المدينة وممثل السلطان امام الرعية عند غيبة السلطان عن المدينة والشحنكية اسم الوظيفة التى يتولاها الشحنة . انظر : المقريزى ، السلوك جـ ١ ق ١ ، ص ٣٥ — ٣٦ ، نظير حسان سعداوى ، جيش مصر ، ص ٣٢ حاشية رقم ١ ، حسين امين ، تاريخ العراق فى العصر السلجوق ، ص ٢٠١ .

(٥) ابن الاثير الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٤٣ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ ، Gibb, op. cit., p.p. 26-27 .

للسلطان محمد بن ملكشاه ببغداد على ماردين واستقل بحكمها وترك فى حصن كيفا ابن اخيه داود بن سقمان بن أرتق[1] .

وهكذا استطاع سقمان بن أرتق ونجم الدين ايلغازى أن يؤسسا للأراتقة امارتين بديار بكر ، احداهما فى ماردين والاخرى فى حصن كيفا ، ولعب زعماء هاتين الامارتين دورا بارزا فى بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين قبل قيام الاسرة الزنكية سنة ٥٢١هـ[2] .

ــ فرقة الاسماعيلية وأثرها السياسى فى بلاد الشام :

وبالاضافة إلى ماقام به قادة الاتراك السلاجقة من دور بارز فى زيادة تفكك وحدة السلاجقة فى بلاد الشام و الجزيرة ، فقد شهدت بلاد الشام ظهور فرقة الاسماعيلية أو الباطنية التى أدت إلى زيادة تفكك القوى الاسلامية فى بلاد الشام والجزيرة . وتنسب هذه الطائفة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق المتوفى سنة ١٣٨هـ / ٧٥٥م[3] . وقد أسس حركة الباطنية التى تعرف أحيانا باسم الحشيشية الحسن بعد محمد الصباح الذى سافر من ايران إلى مصر وقابل الخليفة الفاطمى المستنصر وتلقى منه مبادئ الدعوة الاسماعيلية ، ثم عاد إلى بلاد فارس . وفي سنة ٤٨٣هـ / ١٠٨٨م استولى الحسن الصباح على قلعة الموت التى عرفت باسم عش العقاب لمناعتها وارتفاعها وحصانتها . وبفضل مااشتهر به الحسن بن الصباح من الدهاء والمكر وضع لاتباعه تنظيما دقيقاًوقسمهم إلى خمس مراتب ، وألف كتابا من أربعة فصول ضمنه أهم مبادئ دعوته ، وجند فئة من أتباعه تميزت بقوة الابدان وطاعتها العمياء لتنفيذ مايطلب منها فى اغتيال

---

(١) ابن القلانسي ص ١٤٦ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ١ ، ص ١٥١ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٩١ ، احمد السعيد سليمان ، تاريخ الدولة الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ٣٥٠ .

وماردين : قلعة عظيمة على قمة جبل الجزيرة ، كان لها ربض عظيم واسواق كثيرة وحانات . انظر ياقوت الحموى ، معجم البلدان .

(٢) ولمزيد من التفصيل عن الاراتقة انظر كتاب عمادالدين خليل ، الامارات الارتقية فى الجزيرة وبلاد الشام ، طبعة بيروت ، سنة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

(٣) الشهرستانى ، الملل والنحل ، ص ١٩٨ ــ ٢٠٧ ، انظر المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ١٥ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٣٦ ، برناردلويس ، الدعوة الاسماعيلية ، ص ٥٢ ــ ٨٤ ، كلودكاهن ، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ص ٢٤٤ ــ ٢٤٥ .

خصومهم بالخناجر مهما كانت النتائج وكثر جمعه فملك القلاع الكثيرة ، وأخذ أمره فى الانتشار وساعده فى ذلك تفكك وحدة السلاجقة عقب وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م وضعف الخلافة العباسية[١] .

وكان من أبرز نشاطات هذه الفرقة فى بلاد فارس والعراق وبلاد الشام الفتك بزعماء أهل السنة وكانت أولى ضحاياهم ــ ابرز شخصية فى الدولة السلجوقية ــ وهى شخصية نظام الملك ووزير السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م[٢] . ولم يقتصر نشاط هذه الفرقة عند حد الفتك بزعماء السنة ، بل تعداه إلى التعرض لحجاج المسلمين القادمين من الهند وبلاد ماوراء النهر . غير أن أمر هذه الفرقة بفارس والعراق أخذ فى الضعف والتدهور بعد سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٧م حين أقدم السلطان محمد بن ملكشاه على تخريب قلاعهم وتشريد بعض زعماء هذه الفرقة من بلاد فارس[٣] .

أما عن هذه الفرقة ببلاد الشام ، فقد استغل زعماء الباطنية الانقسام الذى ساد بلاد الشام عقب وفاة تاج الدولة تتش سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٦م ، وقيام النزاع بين رضوان ودقاق فى حلب ودمشق وازدياد مطامع القادة الاتراك فى بلاد الشام فتيسر لهم التغلغل فى صفوف المسلمين وتثبيت أقدامهم فى بلاط كل منهم بقدر استطاعتهم . ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل ساعدوا على اخراج بعض ممتلكات السلاجقة إلى الفاطميين حلفائهم فى العقيدة ، كما حصل فى أفامية سنة ٤٨٩هـ / ١٠٩٧م[٤] .

ولما لم يكن للاسماعيلية مركز فى بلاد الشام ، فقد سعى الحسن بن محمد الصباح إلى أن تكون حلب تحت سيطرته ، فأخذ فى بث رجاله ودعاته فنجح فى هذا الامر . واستطاع أحد دعاته ويعرف باسم الحكيم المنجم الباطنى التقرب من الملك فخر

---

(١) الشهرستانى ، الملل والنحل ، ص ٢٠٣ ــ ٢٠٧ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٣٢٦ ، ابن العبرى ، مختصر الدول ، ص ٣٢٢ ، الذهبى ، دول الاسلام جـ ٢ ص ٢٣ ، فيليب حتى ، تاريخ سورية ، جـ ٢ ، ص ٢٤٥ ــ ٢٤٦ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٢١ ، الاصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص٦٨ .

(٣) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٠هـ ، ابن شاكر الكتبى ، عيون التواريخ جـ ١٣ ، حوادث سنة ٥٠٠هـ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٣٩٣ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ق ١ ، ص ١٩ ، ابن الوردى ، تتمة المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٨ ، ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ ٣ ، ص ٤١٠ .

(٤) أنظر ماسبق ص ٤٧ ومابعدها .

الملوك رضوان سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م ، وبدأ باظهار مذهب الباطنية فى حلب ، فاعتبر بذلك أول داعية للاسماعيلية ببلاد الشام بفضل المؤازرة والمساعدة التى حصل عليها من رضوان صاحب حلب ، حيث سمح رضوان للحكيم المنجم باقامة دار لدعوة الاسماعيلية بحلب ، ولم يقف عند هذا الحد بل شمل اصحابها بعطفه ورعايته[١] .

وبفضل ماحصل عليه رجال الاسماعيلية بحلب من عطف ورعاية رضوان ، فقد استغلوا ذلك فى الفتك بزعماء المسلمين الذين كانوا يعارضون رضوان . وهذا على مايبدو سر تقريب رضوان لهذه الفرقة ، وقد افتتحوا أعمالهم الاجرامية فى بلاد الشام بقتل جناح الدولة حسين أتابك رضوان ، بعد أن توترت العلاقات بينهما فى شهر رجب ٤٩٦هـ / ١١٠٢م . ولم تطل أيام زعيم هذه الفرقة فى حلب ــ الحكيم المنجم ــ بعد مقتل جناح الدولة حسين فتولى أمر الاسماعيلية بها أبوطاهر الصائغ ، الذى سار على نهج سلفه فى الفتك بزعماء المسلمين حيث دبر من قبله بعض رجاله ففتكوا بخلف بن ملاعب صاحب أفامية سنة ٤٩٩هـ / ١١٠٦م بالتعاون مع أبى الفتح السرمينى الذى اتخذ من سرمين مقرا له ولا عوانه[٢] .

وهكذا يمكن القول أن توطيد الاسماعيلية بحلب واتساع نفوذهم فى بلاد الشام قد أدى إلى ظهور عامل جديد من عوامل تفكك وحدة المسلمين عامة والسلاجقة خاصة ، ذلك التفكك الذى تعرضت له بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ، الأمر الذى أدى بهذه الفرقة إلى مساعدة الصليبيين فى الاستيلاء على بعض معاقل المسلمين ، أو تهيئة المناخ المناسب لسقوطها بيد الصليبيين كما حصل فى أفامية سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٧م .

ولم تقف الاسماعيلية عند هذا الحد من طعن المسلمين من الخلف باغتيال الشخصيات الكبيرة ، بل تعداه إلى انهم حاولوا الاستيلاء على قلعة شيزر من بنى منقذ

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٤٦ ــ ١٤٧ ، ١٦٨ ، ابن القلانسي ص ١٤١ ــ ١٤٣ ، ابن سبط الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ١٧ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٦٨ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٤٨ ، ابن القلانسي ، ص ١٤٩ ــ ١٥٠ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٩٢ ، ابن ميسر ، اخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٤١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣٤٦ ــ ٣٤٧ .

وسرمين : بلدة مشهورة من أعمال حلب ، واغلب سكانها من الشيعة ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

سنة ٥٠٢هـ / ١١٠٩م بقصد اتخاذها معقلا لهم فى بلاد الشام بدلا من حلب ، ولكنهم أخفقوا فى هذا الأمر . على أن ماقام به زعماء فرقة الاسماعيلية من اثارة روح الكراهية بين السكان تجاه أمراء وقادة السلاجقة ومن نشر الرعب والفزع فى بلاد الشام مما أسهم إلى حد كبير فى وضع العراقيل أمام توحيد الجبهة الاسلامية[٢] . فقد سعوا — على سبيل المثال — سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣م إلى فض الحلف الاسلامى الذى حصل بين مودود صاحب الموصل وظهير الدين طغتكين صاحب دمشق ، وذلك الحلف الذى كان نواة حقيقية فى توحيد الجبهة الاسلامية ضد الصليبيين ، حينما أقدم بعض رجال الباطنية على الفتك بمودود فى دمشق فى السنة المذكورة . الامر الذى أدى بظهير الدين طغتكين إلى اتباع سياسة اللين مع الصليبيين فى السنة التالية ٥٠٨هـ / ١١١٤م[٣] .

ولكن أمر الإسماعيلية فى حلب خاصة وبلاد الشام عامة ، أخذ فى الضعف عقب وفاة رضوان بن تتش سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣م اذ أن خليفة رضوان المسمى ألب أرسلان بن رضوان قد أقدم على الفتك بهذه الفرقة المارقة بطلب من السلطان محمد بن ملكشاه ، حيث قبض على ابى طاهر الصائغ وقتله ، وقتل زعماء هذه الفرقة « وقبض على زهاء مائتى نفس منهم » ، وبذلك قضى على نفوذهم بحلب وشرد من بقى منهم ببلاد الشام[٤] . غير أن من بقى منهم على قيد الحياة قد تجمعوا وحاولوا مرة أخرى الاستيلاء على شيزر من بنى منقذ سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣م ، ولكنهم فشلوا فى تحقيق مقصدهم مرة أخرى[٥] . وعادت فلول الباطنية إلى حلب مستغلين فى ذلك وفاة ألب ارسلان بن رضوان سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤م ، الا أن أمرهم فى حلب لم يعد كما كان عليه فى زمن رضوان ، فظلوا على حال من الضعف والاستتار بحلب حتى كان حكم بلك بن بهرام لها سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م اذ أمر باخراج الباطنية من حلب « فباعوا

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٧٢ .

(٢) العينى ، الشرق الاوسط ، جـ ١٠ ، ص ٢٧ .

(٣) أنظر مايلى الفصل الثانى ص ١٦٩ ومابعدها .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٦٨ — ١٦٩ ، انظر ابن القلانسي ، ص ١٩٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٩٩ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ق ١ ص ٤٧ ، العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٧هـ .

(٥) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٧ ، ابن القلانسي ، ١٩٠ ، ١٩١ .

أموالهم ورحالهم وخرجوا منها »[1] .

ولكن أمر الاسماعيلية فى بلاد الشام لم يضعف بما حل بهم على يد بلك ابن بهرام بن أرتق سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م ، فقد تزعم أمرهم أحد الرجال المعروفين وهو بهرام الاستراباذى ، وتجمع معه الكثير من جهلة الناس ورعاعهم وهو على غاية من الاستتار والاختفاء ، حتى ظهر أمره فى دمشق سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م ، فتقرب منه ظهير الدين طغتكين اتقاء لشره ، وتنازل له عن ثغربانياس فى السنة نفسها فغدت بانياس حصنا للاسماعيلية ، بدلا من حلب[2] . وكان لهذا العمل من قبل طغتكين أثره فى نفوس الكثيرين من الفقهاء ورجال الدين من أهل السنة ، وعدوا ذلك سيئة من سيئات طغتكين فى حق الاسلام والمسلمين ، خصوصا وان بهرام قد اتخذ من بانياس قاعدة انطلاق للاستيلاء على مزيد من الحصون والقلاع ، ففى سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م استولى بهرام على حصن القدموس غير أن منيته قد وافته فى السنة التالية ٥٢٢هـ / ١١٢٨م ، وهو فى طريقه للاستيلاء على مزيد من الحصون ، بعد أن استخلف على بانياس رجلا من اصحابه ، اسمه اسماعيل العجمى[3] .

ولم يقنع زعماء الاسماعيلية بما حصلوا عليه من ظهير الدين طغتكين ، بل انهم استغلوا وفاته فى أول سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م وسعوا إلى الاتفاق مع الوزير أبو على طاهر بن سعد المزدقانى وزير تاج الملوك يوري بن طغتكين ، على تسليم دمشق للصليبيين فى مقابل حصول الوزير على صور التى كان الصليبيون قد استولوا عليها من الفاطميين سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م . وعلم تاج الملوك يوري بهذا الأمر قبل تنفيذه فقبض على وزيره المزدقانى ، وقتله وفتك بالاسماعيلية ، وأحدث فى صفوفهم مذبحة شنيعة ، اذ بلغ

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢١٦ ، انظر : احمد رمضان ، المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام ص ٧١ .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٠هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٣٢ ، ابن القلانسي ، ص ٢١٠ ، سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ١١٧ — ١١٨ .

— وبانياس : بلدة صغيرة قريبا من جبل لبنان ، وتعد من اعمال دمشق ، انظر : ابوالفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .

(٣) العظيمي ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢١هـ — ٥٢٢هـ ، ابن القلانسي ، ص ٢١٦ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٥٤٣ . وحصن القدموس : حصن من حصون وادى التيم ، من أعمال بعلبك شمال الشام ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٥٦ .

عدد قتلاهم نحوا من ستة آلاف نفس[1] . الامر الذى أدى بمن ببانياس من الاسماعيلية إلى القيام بتسليمها إلى الصليبيين فى السنة التالية ٥٢٣هـ / ١١٢٩م[2] . وعلى الرغم مما حل بفرقة الاسماعيلية من دمار وتشريد على يد قادة بلاد الشام فان نشاطهم العدائى للمسلمين عامة وأهل السنة خاصة لم ينقطع فى بلاد الشام ، بل ظل عائقا أساسيا فى سبيل توحيد الجبهة الاسلامية فضلا عن تفكك وحدة السلاجقة فى بلاد الشام .

نهاية الامارات العربية فى بلاد الشام والعراق والجزيرة :

واكب انهيار النفوذ السلجوقى وتفكك وحدتهم نهاية للامارات العربية التى كانت قد اتخذت من الموصل وحلب والجزيرة وبادية الشام مسرحا لها . وتمتعت هذه الامارات فى هذه المناطق بنفوذ واسع النطاق قبل الحكم السلجوقى ، حين كان الفاطميون يسيطرون على معظم مدن بلاد الشام ويتفقون مع كثير من القبائل العربية فى المذهب الشيعى خاصة قبائل كلاب وعقيل ، وبنى مزيد فى الحلة . ولكن السلاجقة الاتراك حينما وصلوا الى بغداد سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م أخذوا على عاتقهم حماية الخلافة العباسية والعمل على توسيع نفوذها فى بلاد الشام ، وذلك بهدف القضاء على النفوذ الشيعى الفاطمى ، فاصطدموا بالامارات العربية فى الموصل وحلب ، وأخضعوها لنفوذهم وقضوا على معظمها .

فالمرداسيون فى حلب الذين يعود نسبهم إلى قبيلة كلاب العربية ، العدنانية[3] وقفوا فى وجه السلاجقة وحاولوا منعهم من السيطرة على حلب والبلاد التابعة لها فى شمال الشام . وقد تجلى موقفهم هذا فى عهد الامير محمود بن نصر بن صالح بن مرداس أثناء حملة السلطان ألب أرسلان على ديار بكر وبلاد الشام سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م حيث رفض محمود تسليم حلب لمندوب السلطان . ولكن إدراكاً من محمود بعدم قدرته العسكرية على مواجهة السلاجقة ، فقد قابل السلطان ألب ارسلان وشرح له عن أعماله فى حلب وجهاده ضد البيزنطيين ، فعفى عنه ألب أرسلان وأقره على بلاده[4] . وكان

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٢٢١ ــ ٢٢٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٥٦ ــ ٦٥٧ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٢هـ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ١٤٣ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٢٢٥ ، العظيمي ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٣هـ .

(٣) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٢٠٥ ، القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ ١ ص ٣٠٤ .

(٤) العينى ، عقد الجمان ، جـ ١١ ورقة ٥٧أ ، ٥٩ب ، ابن القلانسي ، ص ٩٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢١ ــ ٢٢ .

محمود قد لعب دورا كبيرا فى جهاد الروم البيزنطيين فى منطقة أنطاكية والثغور الاسلامية ، اذ كانت هذه البلاد بين مد وجزر فيما بين المرداسيين والبيزنطيين[١] .

ظل محمود بن نصر فى حكم حلب حتى سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٥م اذ وافته منيته على أثر مرض حل به ، وخلفه ولده الامير نصر بن محمود[٢] . وقد تعرض نصر هذا لضغوط من الاتراك السلاجقة سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٦م ولكنهم فشلوا فى الاستيلاء على حلب . غير أن نصرا لم تطل حياته ، فقد قتله بعض زعماء السلاجقة فى شهر شوال من نفس السنة ، فتولى امر حلب بعده أخوه سابق ابن محمود[٣] .

دخل سابق بن محمود فى نزاع مع أخيه وثاب بن محمود الذى اجتمعت عليه بنو كلاب فاستعان سابق بن محمود بالاتراك السلاجقة ، واستطاع هزيمة خصومه فى نهاية سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٧م[٤] وأخذت أحوال البيت المرداسى فى الانحلال والتدهور اذ لجأ وثاب بن محمود وجماعة من العرب إلى السلطان ملكشاه وطلبوا منه المساعدة ضد سابق بن محمود ، وبدلا من ان يقدم السلطان ملكشاه لهم المساعدة فقد أقطع بلاد الشام كلها لاخيه تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان ، وأمرهم بالمسير إلى بلاد الشام فساروا وانضموا إلى صفوف تتش الذى أخذ فى حصار حلب سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها فعاد إلى دمشق واستولى عليها فى السنة التالية من أحد قادة السلطان ملكشاه[٥] .

من هنا شعر سابق بن محمود بخطر تتش والسلاجقة فطلب المساعدة من مسلم بن قريش العقيلى صاحب الموصل فى الوقت الذى كان فيه أهل حلب قد بعثوا برسلهم إليه لطلب الاستغاثة منه ،انجادهم من سوء الاوضاع بحلب . وقرر مسلم المسير إلى

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٤١ ــ ٤٢ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٠٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٠٠ ــ ١٠٦ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٤٢ ، ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ ٣ ، ص ٣٢٩ .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ١٢ ورقة ٢٥٣ أ ب ، ابن العديم بغية الطلب ، جـ ٢ ، ورقة ١٦٥ ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٤٧ ــ ٤٩ .

(٤) ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ ٢ ورقة ١٦٦أ ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ص ٥٤ .

(٥) ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ١٣ B ، ورقة ٤٧أ ، ابن القلانسي ، ص ١١٢ ، ابن الاثير الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١١١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٥٦ ، The Cambridge, History of Islam, Vol. IA, P.195.

حلب لا لنجدة سابق بن محمود وانما للاستيلاء على حلب فوصلها فى شهر الحجة سنة ٤٧٢هـ / ١٠٧٩م ومعه جمع من العرب وراسل سابق بن محمود الذى تحصن بقلعة حلب ، وعرض مسلم بن قريش على سابق بن محمود تسليم حلب ، فرفض سابق بن محمود ، وكاد اليأس يدب إلى نفس مسلم بن قريش ، غير أن الفرج قد أتاه بوقوع الخلافات مجددا بين الامراء المرداسيون ، فتوسط على بن المقلد بن منقذ بين سابق بن محمود ومسلم بن قريش ، وأشار على سابق بن محمود وأمراء بنى مرداس بتسليم حلب إلى مسلم بن قريش ورغبهم فى قبول التعويضات المالية والاقطاعات السنية لكل واحد منهم ، فنزل الامراء المرداسيون عند هذه المشورة وتسلمها مسلم بن قريش فى شهر ربيع الآخر من سنة ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م[١] . وبتسلم مسلم بن قريش لحلب زالت دولة بنى مرداس وأصبحت حلب تحت حكم مسلم بن قريش حتى وفاته سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٤م عندما استولى عليها تاج الدولة تتش من القائمين عليها من قبل مسلم بن قريش[٢] . وهكذا يمكن القول أن نهاية امارة بنى مرداس فى حلب جاءت فى فترة قوة السلاجقة واتساع نفوذهم ، بما أحدثوه من اثارة المنازعات بين الامراء المرداسيين بعضهم ضد بعض حتى تمكن مسلم بن قريش بمساعدة السلاجقة من القضاء على هذه الامارة العربية الفتية سنة ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م .

أما عن امارة بنى عقيل فى الموصل وشمال الشام (٤٥٣هـ / ١٠٦١م — ٤٨٩هـ / ١٠٩٦م) فلم تكن بأحسن حظ من امارة بنى مرداس فى حلب وذلك للجهود الجبارة التى بذلها السلاجقة للاطاحة بهذه الامارة نظرا لاختلافها فى المذهب عن مذهب الخلافة العباسية والسلاجقة وموالاة زعماء هذه الامارة للخلافة الفاطمية فى القاهرة . فقريش بن بدران زعيم بنى عقيل فى الموصل شعر كغيره من أمراء العرب بخطورة السلاجقة ، فأخذ فى تشجيع الحركات المناوئة لهم . غير ان حياة قريش لم تطل حيث توفى سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م فخلفه فى حكم الموصل ابنه شرف الدولة مسلم بن قريش ، فأخذ فى توطيد علاقاته بالسلطنة السلجوقية وتقرب من السلطان ألب

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ١٣ B ، ورقة ٥١ أ ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٥٧ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٩٣ ، ١٠٠ ، سهيل زكار ، مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٨٤ — ١٨٥ .

(٢) العمرى ، مسالك الابصار جـ ١٦ ورقة ١٠٦أ ، ابن القلانسي ص ١١٨ — ١١٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١١٥ ، ١٤٨ — ١٤٩ ، Zakkar, The Emirate of Alenpoy, P.201. .

أرسلان ، فزاد السلطان فى اقطاعه سنة ٤٥٨هـ / ١٠٦٥م[١] .

وفى ظل هذه العلاقة الطيبة مع السلاجقة استطاع مسلم بن قريش الاستيلاء على حلب سنة ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م والقضاء على امارة بنى مرداس فبسط نفوذه على الموصل وشمال بلاد الشام . وتطلع الى الاستيلاء على دمشق من تاج الدولة تتش سنة ٤٧٦هـ / ١٠٨٣م ، ولكنه فشل فى الامر ، بسبب قوة السلاجقة وعدم وصول النجدة التى طلبها من الفاطميين بمصر ، فأفسد بذلك علاقاته مع السلاجقة[٢] .

لم يقف مسلم بن قريش عند هذا الحد من معاداة السلاجقة ، بل انضم إلى بنى مروان بديار بكر لمساعدتهم ضد الحملة التى أرسلها السلطان ملكشاه سنة ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م للقضاء على الامارة المروانية بديار بكر . وانهزم مسلم بن قريش امام السلاجقة ، وكاد أن يقع اسيرا فى ايديهم ، الا أنه استطاع الافلات بمساعدة أرتق بن أكسك جد ملوك الاراتقة فى ماردين وحصن كيفا ، وقرر مصالحة السلطان ملكشاه ، وقدم للسلطان اموالا وهدايا بما فيها فرسه الخاص ، فعفى عنه واقره على بلاده[٣] .

غير أن طموح شرف الدولة مسلم بن قريش وكرهه للسلاجقة السنيين كانتا سببا فى حتفه سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٤م على مقربة من انطاكية فى لقاء له مع زعيم سلاجقة الروم بآسيا الصغرى سليمان بن قطلمش[٤] . وبمقتل مسلم بن قريش تولى أمر بنى عقيل فى الموصل أخوه ابراهيم بن قريش بن بدران ، ولما كان مسلم بن قريش تابعا للسلاجقة ، فقد قام السلطان ملكشاه سنة ٤٨٢هـ / ١٠٨٩م باستدعاء ابراهيم بن قريش إلى بغداد لمحاسبته ، فأعتقله ملكشاه وظل معتقلا حتى توفى ملكشاه سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م فأطلقته تركان حاتون زوجة السلطان ملكشاه . وعاد ابراهيم بن قريش إلى الموصل وبها

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ١٣ ، ورقة ٢٤٨أ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ٩ ، ص ٦٤٠ — ٦٤٧ ، الاصفهانى ، دولة ال سلجوق ، ص ٣٣ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ٥ ص ٢٦٧ — ٢٦٨ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٢٣٧ ، الازدى ، اخبار الدولة المنقطعة ، ص ٦٨ ، سيرة المؤيد فى الدين ، داعى الدعاة ، ص ٩٢ — ١٤٢ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ١١٤ — ١١٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٢٧ .

(٣) العمرى ، مسالك الابصار ، جـ ١٦ ، ورقة ١٠٧أ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ ١٢ ، ورقة ١٣٤أ ، ابن القلانسي ص ١١٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٣٤ — ١٣٧ .

(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٧١أ ب ، ابن القلانسي ، ص ١١٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٩١ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ص ١٣٩ — ١٤٠ .

زوجته صفية وابنها على بن شرف الدولة مسلم بن قريش ، وكان ابراهيم قد تزوجها بعد وفاة أخيه مسلم بن قريش . فلما عاد ابراهيم من الاعتقال رحبت به زوجته وسلمت إليه الموصل فبقى حاكما لها حتى أتاه تاج الدولة تتش سنة ٤٨٦هـ / ١٠٩٣م وهزمه وقتله ، وبمقتله اضمحل أمر بنى عقيل فى الموصل وشمال الشام[١] على الرغم من أن الموصل بقيت فى يد على بن مسلم بن قريش مدة ثلاث سنوات حتى تمكن القائد التركى كربوقا من الاستيلاء عليها سنة ٤٨٩هـ / ١٠٩٦م[٢] .

ومن أهم القوى الاسلامية فى بلاد الشام والعراق قبل قيام الاسرة الزنكية امارة بنى مزيد فى الحلة بالعراق (٤٩٥ ــ ٥٢١هـ / ١١٠١ ــ ١١٢٧م) وامارة بنى عمار فى طرابلس (٤٦٢ ــ ٥٠٣هـ / ١٠٧٠ ــ ١١٠٠م) . وامارة بنى منقذ فى شيزر (٤٧٤ ــ ٥٥٢هـ / ١٠٨١ ــ ١١٥٧م) .

فأما عن امارة بنى مزيد فى الحلة بالعراق (٤٩٥هـ / ١١٠١م ــ ٥٢١هـ / ١١٢٧م) فتنسب إلى مضروهم بطن من بطون أسد بن خزيمة ، تركزت زعامتهم فى بنى مزيد الناشرى[٣] . علا شأن بنى مزيد بالعراق بين واسط والبصرة ، بما انضم اليهم من الاكراد حتى صار خلفاء بنى بوية وسلاطينهم يتقربون إلى زعماء هذه الامارة تفاديا للاصطدام بها ، اذا أن بنى مزيد كانوا يمثلون الانتفاضة العربية ضد السيطرة البويهية على الخلافة العباسية ، بالرغم من اشتراك البويهين والمزيديين فى مذهب التشيع[٤] .

وعندما سقطت حكومة البويهيين سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م وتولى أمر الخلافة العباسية سلاطين السلاجقة ، سعى بنو مزيد إلى عرقلة التوسع السلجوقى فى العراق وبلاد

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٢١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٠٨ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٠٣ ــ ٢٠٤ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٥٨ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ ١ ، ص ١١٠ .

(٣) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ ، ٤٩١ .
والحلة : المقصود بها حلة بنى مزيد ، مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد الى الغرب من الفرات ، وكانت تسمى الجامعين قبل ان ينزلها ويعمرها سيف الدولة صدقة سنة ٤٩٥هـ . وكانت اجمة تأوى اليها السباع انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٤) الحلى ، تاريخ الحله ، ص ٢٢ .

الجزيرة وحاولوا مساعدة القوى المعارضة لهم كالبساسيرى ، حتى اضطر السلطان السلجوقى طغرل بك إلى التقرب من زعيم بنى مزيد نور الدولة دبيس ، وخلع عليه بما يناسب مقامه . وقد ظل فى الامارة حتى توفى فى سنة ٤٧٤هـ / ١٠٨١م فتولى من بعده ابنه بهاء الدولة منصور[١] .

تقرب بهاء الدولة منصور من سلاطين السلاجقة ، وحضر إلى جانبهم الوقعة التى جرت بين السلاجقة من جانب وبنى مروان ومسلم بن قريش من جانب آخر فى آمد سنة ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م وكان لبهاء الدولة منصور — على مايبدو — دور بارز فى الافراج عن مسلم بن قريش الذى كاد أن يقع أسيرا فى يد السلاجقة . وقد تحلى بهاء الدولة منصور بصفات حميدة ، وظل فى الامارة حتى وفاته سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م فتولى الامر من بعده ابنه سيف الدولة صدقة ، فى عهد السلطان السلجوقى ملكشاه[٢] . وكان السلطان ملكشاه حين سمع بوفاة بهاء الدولة منصور قد طلب احضار ابنه سيف الدولة صدقة ، فلما حضر بحضرته خلع عليه وولاه ماكان لابيه ، فظل سيف الدولة صدقة على علاقة طيبة بالسلاجقة ولزم جانب الطاعة ، واشترك مع رجال السلطان فى اصلاح ماخربه العرب بالبصرة سنة ٤٨٣هـ ١٠٩٠م[٣] .

وعندما توفى السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م استغل سيف الدولة صدقة النزاع الذى قام بين أبنائه من جهة وبين عمهم تاج الدولة تتش من جهة أخرى ، وما حصل عليه القادة الاتراك من الاقطاعات فى العراق ، اضافة إلى اختلافه عنهم فى المذهب . فالسلاجقة سنيين متعصبين بينما سيف الدولة صدقة وبقية بنى مزيد شيعة رافضة[٤] .

من هنا وجد سيف الدولة صدقة الفرصة سانحة فى الاستقلال بما تحت يده من

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ١٢١ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ١٠٠ ، سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة ، ص ١٢٤ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ١٥١ ، ١٥١ ، ابن الجوزى ، المنتظم جـ ٩ ، ص ١٣ — ١٦ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٢٢ الفارقى ، تاريخ الفارقى ، ص ٢١١ — ٢٢٠ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ١٥١ ، ١٨٣ — ١٨٤ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ، ص ١٨٤ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٢٢ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ١١٢ .

الاملاك ، فقطع الخطبة باسم السلطان بركياروق بن ملكشاه وأعلنها باسم اخيه محمد بن ملكشاه سنة ٤٩٤هـ / ١١٠٠م . ولم يقف عند هذا الحد بل عمد فى السنة التالية ٤٩٥هـ / ١١٠١م إلى اتخاذ الحلة مقرا له وانتقل إليها فسميت بالحلة السيفية نسبة إلى سيف الدولة صدقة ، وأخضع القبائل الفراتية وأخذ فى توسيع امارته على حساب السلاجقة والخلافة العباسية ، فشملت امارته البصرة والبطيحة ، وهيت وعانة ، والكوفة[١] .

وتماديا فى سياسة العداوة للسلطان بركياروق ، فقد رفض سيف الدولة صدقة مقابلة السلطان بركياروق سنة ٤٩٥هـ / ١١٠١م حين قدومه إلى بغداد ، وانضم فى السنة التالية ٤٩٦هـ / ١١٠٢م إلى نجم الدين ايلغازى وأخيه سقمان بن أرتق للوقوف فى وجه السلطان بركياروق ومساعدة السلطان محمد بن ملكشاه . ثم أقدم سيف الدولة صدقة فى السنة نفسها ٤٩٦هـ / ١١٠٢م على الاستيلاء على هيت التابعة لبركياروق واستخلف عليها سيف الدولة صدقة ابن عمه ثابت بن كامل ، وبقيت تحت سيطرته حتى وفاته سنة ٥٠١هـ / ١١٠٧م[٢] . وفى نفس السنة ٤٩٦هـ / ١١٠٢م استغل سيف الدولة صدقة خروج كمشتكين القيصرى ـــ شحنة بغداد من قبل السلطان بركياروق ـــ من بغداد فاعاد الخطبة بها باسم السلطان محمد بن ملكشاه ، فذاع صيت سيف الدولة صدقة وعدله بين الناس ، حتى أن أهل عانة من بنى يعيش بن عيسى بن خلاط قد تقدموا فى اول سنة ٤٩٧هـ / ١١٠٣م إلى سيف الدولة صدقة وسلموا إليه بلدهم عانة ، وفى نفس السنة استولى سيف الدولة على واسط وولى عليها من قبله أحد أصحابه بينما عاد هو إلى عاصمته الحلة[٣] .

وفى ربيع الآخر من سنة ٤٩٧هـ / ١١٠٣م عقد الصلح بين السلطان بركياروق وأخيه

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٠٨ ، الاصفهانى ، دولة آل سلجوق ، ص ١١٥ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ٢ ، ص ٤٩٠ ، الحسينى ، أخبار الدولة السلجوقية ص ٨٠ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ١١٢ .

ـــ والبطيحة : ارض متسعة بين واسع والبصرة . انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٥٣ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، الحلى ، تاريخ الحله ، ص ٢٤ .

(٣) ابن شاكر ، عيون التواريخ ، جـ ١٣ حوادث سنة ٤٩٧هـ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٥٦ ـــ ٣٥٧ ، ٣٦٨ ـــ ٣٧٧ ، ابوالفدا ، المختصر جـ ٢ ص ٢١٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ١٦٣ ، الحلى ، تاريخ ، الحله ص ٢٤ .

محمد بن ملكشاه ، فما كان من سيف الدولة صدقة الا أن رفض هذا الصلح جملة وتفصيلا ، وأعلن رفضه بقبول اعلان الدعوة فى الخطبة لبركياروق على منابر بغداد ، وأبلغ الخليفة العباسى المستظهر بالله بأنه سوف يقوم باخراج شحنة بغداد نجم الدين ايلغازى اذا وافق على اعلان الدعوة فى الخطبة لبركياروق . ونجح سيف الدولة صدقة بما فرضه من مطالب وأفسد ماتم بين الاخوين بركياروق ومحمد[1] غير ان السلطان بركياروق لم يعمر طويلا بعد هذا الاتفاق ، فقد توفى فى السنة التالية ٤٩٨هـ / ١١٠٤م ، بعد أن استخلف فى منصبه ابنه ملكشاه بن بركياروق الذى حاول منازعة عمه محمد بن ملكشاه الا أنه لم ينجح[2] .

أما سيف الدولة صدقة ، فانه بعد وفاة السلطان بركياروق أمد حليفه السلطان محمد بن ملكشاه بقوة عسكرية جعل عليها اولاده بدران ودبيس لمساعدته ضد خصومه من أنصار ملكشاه بن بركياروق ، فتوثقت عرى الصداقة بين سيف الدولة صدقة والسلطان محمد بن ملكشاه ، لادراك كل منهما بحاجته إلى الآخر ، خصوصا وأن سيف الدولة صدقة كان مسموع الكلمة عند القبائل العربية فى العراق التى كانت سببا فى اثارة الفتن ضد السلاجقة الاتراك[3] .

وفى ظل الصداقة المتبادلة بين سيف الدولة صدقة والسلطان محمد بن ملكشاه أغار سيف الدولة صدقة فى سنة ٤٩٩هـ / ١١٠٥م على البصرة واستولى عليها ، وولى عليها من قبله أحد أصحابه ، الا أن ذلك أزعج السلطان محمد بن ملكشاه . فاستردها من سيف الدولة صدقة ، ولكن سيف الدولة صدقة عد ذلك اعتداء على حرمته ووجد الفرصة سانحة للاستيلاء على تكريت فاستولى عليها فى السنة التالية ٥٠٠هـ / ١١٠٦م من صاحبها كيقباذ الديلمي الموالى للسلطان محمد بن ملكشاه ، وولى عليها

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٧٠ ــ ٣٧٢ ، ابوالفدا ، المختصر جـ ٢ ، ص ٢١٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ١٦٣ ، احمد كمال الدين حلمى ، السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص ٥١ ، عبدالنعيم حسنين ، دولة السلاجقة ، ص ٨٣ .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٨هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٨٠ ــ ٣٨٨ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ٩ ص ٨٠ ــ ٩٦ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٩١ .

(٣) الاصفهانى ، دولة آل سلجوق ، ص ٨٧ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ١ ، ص ١٦٨ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢١٨ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ص ١٦٤ ، عبدالنعيم حسنين ، دولة السلاجقة ص ٨٣ .

من قبله ورام بن ابى فراس بن ورام[1] .

من هنا بدأت العلاقات بين سيف الدولة صدقة والسلطان محمد بن ملكشاه ، تأخذ شكلا مغايرا عما كانت عليه ، بسبب تطرف سيف الدولة صدقة فى علاقاته مع الخلافة العباسية ، وطعن الكثيرين من رجال السلطان محمد بن ملكشاه والخليفة العباسى المستظهر بالله فى عقيدة سيف الدولة صدقة[2] .

ومما قيل عن سبب العداوة بين سيف الدولة صدقة والسلطان محمد بن ملكشاه فانها لا تخرج عن كونها الرغبة من السلطان السلجوقى ، فى تحطيم هذه الامارة العربية الفتية التى أصبحت ملجأ يستجير بها صغار الناس وكبارهم من ظلم الحكام ، خصوصا وأن زعماء هذه الامارة يختلفون عن العباسيين وسلاطين السلاجقة فى المذهب . ولذلك وجد السلطان محمد بن ملكشاه الفرصة سانحة للقضاء على سيف الدولة صدقة ، مستغلا فى ذلك منح سيف الدولة صدقة حق اللجوء لابى دلف سرخاب ابن كيخسرو الديلمى صاحب ساوه وآبه[3] ، ورفض سيف الدولة صدقه اعادته إلى السلطان ، الامر الذى استدعى السلطان محمد بن ملكشاه إلى القدوم إلى بغداد سنة ٥٠١هـ / ١١٠٧م بقصد التباحث مع سيف الدولة صدقة فى أمر ابى دلف سرخاب وغيره من الامور ، غير أن سيف الدولة صدقة عقد العزم على محاربة السلطان . فلما سمع الخليفة العباسى المستظهر بالله بموقف سيف الدولة صدقة تجاه السلطان محمد بن ملكشاه أرسل إليه رسولا لتطييب قلبه ، وازالة مخاوفه ، ويعرفه ان قدوم السلطان إلى بغداد هو من أجل الاستعداد لمحاربة الصليبيين ، الا أن سيف الدولة صدقة لم يثق بهذا كله ، خصوصا وأن بعض رجال السلطان محمد بن ملكشاه بدأوا يتحرشون باملاك سيف الدولة

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٠٤ ــ ٤٠٥ ، ٤١١ ، ابن شاكر عيون التواريخ ، جـ ١٣ ، حوادث سنة ٥٠٠هـ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٢١ ، الحلي ، تاريخ الحلة ص ٢٥ ، وتكريت : بلدة مشهورة بين بغداد والموصل ، كان لها قلعة حصينة غربى دجلة ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٥٩ ص ١٥٩ ــ ١٦٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٨٢ ، ٤٤٠ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ٨ ، ق ١ ص ٢٥ ــ ٢٦ .

(٣) ساوه : مدينة حسنة بين الرى وهمذان تبعد عن كل منها ثلاثون فرسخا ، وآبه : قرية من قرى اصبهان ، تقابل ساوه ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

صدقة[1] .

انزعج الخليفة العباسى المستظهر بالله لهذا الموقف المتأزم بين السلطان محمد بن ملكشاه وسيف الدولة صدقة فأرسل من قبله مندوبا إلى السلطان محمد بن ملكشاه ، يأمره بالتوقف وترك العجلة خوفا على الرعية من سفك الدماء ، فأجاب السلطان محمد بن ملكشاه . وأرسل الخليفة مرة أخرى إلى سيف الدولة صدقة من ينهاه عن المخالفة ويأمره بطاعة السلطان فأجاب سيف الدولة صدقة وأرسل رسله إلى الخليفة لتقديم اعتذاره عما بدر منه فى الوقت الذى جهز فيه ابنه دبيس للمسير إلى السلطان محمد بن ملكشاه . غير أن رجال السلطان محمد بن ملكشاه انتهزوا فرصة قدوم رجال سيف الدولة صدقة وهجموا عليهم ، الا ان رجال سيف الدولة ظفروا بالاتراك ، وركبوا ظهورهم بالقتل والنهب والسلب[2] . ومرة أخرى أزعجت هذه الحوادث الخليفة العباسى المستظهر بالله وكرر مساعيه بين الطرفين ، الا انه لم يفلح فى التوفيق بينهما ، الامر الذى أدى فى نهاية الامر بأن أمر السلطان رجاله بعبور دجلة ، فساروا حتى أصبحوا مع جيش سيف الدولة صدقة على أرض واحدة بالنعمانية فى شهر رجب من سنة ٥٠١هـ / ١١٠٦م . وتقابل الفريقان وحمى الوطيس وترجل الاتراك عن خيلهم ، واطلقوا سهامهم على العرب ، فى الوقت الذى وقعت فيه خيل العرب فى الوحل الذى تميزت به أرض المعركة . ففتكت سهام الاتراك بالعرب ، وقتل سيف الدولة صدقة ومعه وجوه أصحابه ولم ينج منهم الا اليسير ممن حماه الاجل ، ووقع ابنه دبيس ابن صدقة ووالدته فى الاسر[3] .

وبمقتل سيف الدولة صدقة لم يعد للعرب بعده مثله فى العدل والانصاف واحسان السيرة فيهم وجزيل العطاء لهم ، وحسن الوفاء ، والتجاوز عن الجرائم والكبائر ، والتعفف

---

(١) ابن شاكر الكتبى ، عيون التواريخ ، جـ ١٣ ، حوادث سنة ٥٠١هـ ، ابن القلانسي ، ص ١٥٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٤١ ــ ٤٤٣ ، الذهبى ، دول الاسلام ، جـ ٢ ، ص ٢٩ ــ ٣٠ ، سبط ابن الجوزى مرآة الزمان جـ ٨ ، ق ١ ص ٢٦ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٢٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ١٦٩ .

(٢) انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٤٤ ــ ٤٤٥ .

(٣) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠١هـ ، ابن القلانس ، ص ١٥٩ ــ ١٦٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٤٧ ــ ٤٤٨ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ٩ ، ص ١٥٦ ، الفارقى ، تاريخ الفارقى ، ص ٢٧٤ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٢٧ ، الحلى تاريخ الحلة ، ص ٣٠ ــ ٣١ .

والنعمانية : بليدة صغيرة بين واسط وبغداد على ضفة دجلة ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

عن أموال الناس[1] . وفى الحقيقة فان امارة بنى مزيد وعلى رأسها سيف الدولة صدقة ، قد استغلت الظروف التى أحاطت بالسلاجقة عقب وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م فاستقلت عن سلطانهم . ولم تقف امارة بنى مزيد عند هذا الحد بل ساعدت على اشعال نار الفتنة بين السلطان بركياروق وأخيه محمد بن ملكشاه بما اتبعه سيف الدولة من الميل ناحية السلطان محمد بن ملكشاه ضد أخيه بركياروق ، والتى كانت على مايبدو بهدف اضعاف جانب السلطان بركياروق ثم الميل أخيرا على السلطان محمد بن ملكشاه والتخلص منه ، لان السلطان محمد كان أقل قوة من أخيه بركياروق . غير أن آمال سيف الدولة صدقة لم تتحقق اذ ذهب ضحية طموحه ونزواته وتطرفه[2] .

أما نور الدولة دبيس بن صدقة ، الذى وقع هو ووالدته فى أسر السلطان محمد بن ملكشاه فقد أحسن إليه السلطان محمد بن ملكشاه ، وأطلق سراحه من الاسر ، بعد أن أخذ عليه المواثيق الغليظة ، بعدم الافساد او العودة إلى الحلة ، فبقى دبيس قريبا من السلطان محمد ، وحصل على الاقطاعات الكثيرة حتى ظن الكثير من الناس انه قد نسى ملك والده كما وصف ذلك الاصفهانى « وقد سلا عن بلده وقنع بما فى يده ، ورضى من السلطان بالرضى ، وانقضى طمعه فى ملك أبيه الذى انقضى »[3] .

ظل دبيس بن صدقة على هذه الحال إلى أن أتاه الفرج بموت السلطان محمد بن ملكشاه سنة ٥١١هـ / ١١١٧م ، وقيام ابنه محمود بن محمد مقامه وهو لم يبلغ سن الحلم واجتماع كثير من حاشيته حوله مع ماكانت عليه من الفساد وسوء التدبير ، فحسنوا للسلطان الصغير السماح لدبيس بن صدقة بالعودة الى الحلة بعد أن اخذوا منه مالا على سبيل الرشوة[4] وما أن عاد دبيس بن صدقة إلى الحلة بالعراق حتى اجتمع حوله

---

(١) انظر : ابن شاكر الكتبى ، عيون التواريخ جـ ١٣ ، حوادث سنة ٥٠١هـ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٤٩٠ ، ابن العمرانى ، الانباء فى تاريخ الخلفاء ص ٢٠٧ ، الحسينى ، أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٨١ ، الحلى ، تاريخ الحة ، ص ٣٢ ، حاشية رقم ١ .

(٢) انظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ١١٢ .

(٣) الاصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١١٤ ــ ١١٨ ، انظر ابن الجوزى المنتظم ، جـ ٩ ، ص ١٩٣ .

(٤) الاصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١١٩ ، انظر ابن الاثير ، جـ ١٠ ، ص ٤٤٩ ، ٥٢٥ ، ٥٣٣ ، الفارق ، تاريخ الفارق ، ص ٢٨٦ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى حوادث سنة ٥١١هـ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ٢ ، ص ٢٦٣ ، الحلى ، تاريخ الحله ، ص ٣٣ .

كثير من العرب والاكراد وغيرهم فعظم شأنه وارتفع ، ونظر إليه العرب والاكراد على انه محط آمالهم فى الخلاص مما يعانونه من سلب الحرية على يد الاتراك السلاجقة ، خصوصا وانهم قد عرفوا فيه بعض الصفات الحميدة كالجود والكرم وحب الغزوات ، مع ماتمتع به من معرفة فى الادب والشعر[1] .

أخذ دبيس يحدث نفسه بالخروج عن طاعة السلاجقة ، واستعادة ماكان لوالده من البلاد ، فبدأ بمراسلة جيوش بك اتابك الملك مسعود بن محمد شقيق السلطان محمود ابن محمد والذى كان قد استولى على الموصل بعد وفاة والده السلطان محمد بن ملكشاه ، وحسن لجيوش بك والملك مسعود بن محمد العصيان على السلطان محمود ابن محمد لعلم دبيس بصغر سن السلطان ، وفساد حاشيته فلبيا دعوة دبيس وخرجا نحو العراق ، وبصحبتهما عدد من الامراء منهم عماد الدين زنكى . غير ان آقسنقر البرسقى شحنة بغداد من قبل السلطان محمود بن محمد قد نجح فى صدهما عن دخول بغداد ونهاهما عن المواجهة العسكرية مع السلطان محمود بن محمد ، فعادا إلى الموصل سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م . وفشل نور الدولة دبيس بن صدقة فى ماكان يصبو اليه من اثارة الفتن بين الاخوين السلطان محمود بن محمد والملك مسعود بن محمد[2] .

ومن جهة أخرى فان فشل جيوش بك والملك مسعود بن محمد قد غير وجهة نظر دبيس بن صدقة فى النيل من سلاطين السلاجقة ، وعرف ان استعادة ماكان لوالده من مجد لن يتم الا بالتقرب من السلطان محمود ابن محمد ، فمال الى جانبه ضد خصومة من افراد البيت السلجوقى مستغلا فى ذلك النزاع القائم بين السلطان محمود بن محمد وعمه سنجر بن ملكشاه . فشجع دبيس بن صدقة السلطان محمود بن محمد على لقاء عمه سنجر ، وزوده بفرقة عسكرية بقيادة أخيه منصور بن صدقة حينما خرج السلطان محمود لملاقاة عمه بهمذان . غير أن الهزيمة قد حلت بالسلطان محمود ومن معه

---

(١) ابن شاكر الكتبى ، عيون التواريخ ، جـ ١٣ ، حوادث سنة ٥١٢هـ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ص ١٥٥ ، ابن طباطبا : الفخرى فى الاداب السلطانية ، ص ٣٠٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ١٨٢ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٣٣ ــ ٥٣٤ ، ٥٣٩ ، ٥٤٢ ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٣٢ .

وانتهى اللقاء بينهما بعقد صلح أصبح محمود بموجبه وليا لعهد سنجر سنة ٥١٣هـ / ١١١٩م[١] .

لم يرق هذا الصلح لدبيس بن صدقة ، ولذلك عاد إلى سياسته السابقة فى الاتصال بجيوش بك والملك مسعود بن محمد فى السنة التالية ٥١٤هـ / ١١٢٠ م ووعدهما بالمساعدة العسكرية اذا خرجا بجيوشهما إلى بغداد لطلب السلطنة لمسعود من الخليفة العباسي المسترشد بالله بدلا من أخيه محمود بن محمد وحثهما على القاء القبض على آقسنقر البرسقى شحنة بغداد ، الا أن آقسنقر استطاع الهرب والانضمام إلى السلطان محمود بن محمد بهمذان وأخبره بحقيقة الامر الذى دبر ضده فاستعد للموقف ، وخرج لملاقاة أخيه مسعود بن محمد ، فالتقى الاخوان سنة ٥١٤هـ عند عقبة أسد اباذ ، فوقعت الهزيمة على الملك مسعود بن محمد وأصحابه نتيجة للخطة المحكمة التى وضعها آقسنقر البرسقى ، وهرب مسعود وجيوش بك الا ان البرسقى استطاع اللحاق بهما وأعادهما إلى السلطان محمود ، فعفا عنهما وجردهما من حكم الموصل ومنحها لآقسنقر البرسقى[٢] .

أما دبيس بن صدقة فانه حين سمع بعفو السلطان محمود بن محمد عن جيوش بك والملك مسعود بن محمد ، وما عزم عليه السلطان من القدوم إلى بغداد سنة ٥١٤هـ / ١١٢٠م ثارت ثائرته وسار من الحلة إلى بغداد ونصب خيمته بازاء خيمة الخليفة العباسي المسترشد بالله ، وهدده وتوعده إذا لم يسع الى محاولة منع السلطان من القدوم إلى بغداد . وحاول الخليفة أن يهدئ من روعه ، ووعده بانه سيسعى فى اصلاح مابينه وبين السلطان محمود بن محمد ، الا انه قد وعد الخليفة بالتهديد والوعيد ، اذا دخل السلطان محمود بغداد بالرغم من ان السلطان محمود نفسه قد بعث إلى دبيس بن صدقة من يطيب قلبه ، ويخبره بان هدف السلطان من دخول بغداد انما هو لتفقد احوال

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٥١ ، ٥٦٠ ، الاصفهانى ، دولة آل سلجوق ، ص ١١٥ .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٤هـ ، سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٩٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ص ٢٩ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٧٣ ، واسداباذ : بلدة قريبةمن همذان كان قد عمرها اسد بن ذى السرو الحميدى ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

الرعية ، ومد يد العون للمسلمين فى بلاد الشام للوقوف فى وجه الصليبيين[1] .

وعلى أية حال فقد وصل السلطان محمود بن محمد فى رجب سنة ٥١٤هـ / ١١٢٠م إلى بغداد ودخلها ، الامر الذى أجبر دبيس بن صدقة على العودة إلى الحلة ، لعلمه بعدم قدرته على الوقوف فى وجه السلطان محمود بن محمود وجيوشه . وبدلا من ان يتخذ موقفا معاديا من السلطان فقد لجأ إلى المسالمة فبعث من الحلة بهدية سنية إلى السلطان محمود بن محمد ، وأعتذر عما بدر منه تجاه الخليفة العباسي المسترشد بالله ، فمنحه السلطان محمود الامان على نفسه . غير أن بعض رجال دبيس ابن صدقة لم يرق لهم هذا ، فأخذوا يتحرشون ببعض ممتلكات السلطان محمود بن محمد بالعراق ، فلما تيقن السلطان من أن دبيس ورجاله لم يفوا بما وعد به دبيس بن صدقة من حسن الطاعة سار عن بغداد فى شوال من السنة نفسها ٥١٤هـ / ١١٢٠م وقصد دبيس بن صدقة بالحلة بهدف القضاء عليه ، الا أن دبيس بن صدقة استطاع الهرب إلى ديار بكر ، وانضم إلى نجم الدين ايلغازى والد زوجته واقام عنده مدة من الزمن بماردين[2] .

ومن ماردين حاول دبيس بن صدقة الرجوع إلى الحلة وبحث هذا الموضوع مع شحنة بغداد يرنقش الزكوى الذى تولى هذا المنصب عقب دخول السلطان محمود بن محمد إلى بغداد ، ولكن دبيس بن صدقة لم يفلح فى الامر فأوعز إلى صهرة نجم الدين ايلغازى بالتدخل لدى السلطان محمود ابن محمد فى السماح له بالعودة إلى الحلة . فأرسل نجم الدين ايلغازى ابن حسام الدين تمرتاش البالغ من العمر سبعة عشر عاما إلى السلطان محمود بن محمد شفيعا فى دبيس صدقة ، وتعهد للسلطان عن كل يوم ألف دينار وفرس مقابل عودة دبيس إلى الحلة إلا أن هذه الوساطة لم تنجح أيضا ، فقرر دبيس بن صدقة بعدها العودة إلى الحلة مهما كانت الصعاب ، فعاد إلى الحلة فى السنة

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٥١ ، ٥٥٨ ، ٥٦١ ، ابن شاكر الكتبى ، عيون التواريخ ، جـ ١٣ ، حوادث سنة ٥١٤هـ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ص ٢٣٢ ــ ٢٣٥ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ ١ ص ٥٣٤ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٢٠٢ ــ ٢٠٣ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ٩ ، ص ٢١٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ١٨٥ .

التالية ٥١٥هـ / ١١٢١م[١] . ولاشك فى أن عودة دبيس بن صدقة إلى الحلة على الرغم من معارضة السلطان محمود بن محمد قد أثارت فى نفسه الشكوك والريبة ، لذلك فقد بادر بارسال مندوبين من قبله إلى السلطان محمود بن محمد والخليفة العباسي المسترشد بالله يعتذر عما بدر منه ويعدهما بالطاعة والاستقامة ، الا أنهما لم يثقا بكلامه وسير السلطان محمود بن محمد إليه بعض عساكره ففارق الحلة ، غير ان يرنقش الزكوى شحنة بغداد سعى بالصلح بين دبيس بن صدقة والسلطان محمود بن محمد فنجح فى الامر واشترط على دبيس ان يرسل اخاه منصور مع بعض رجاله رهينة عند السلطان محمود مقابل وفاء دبيس بن صدقة بالطاعة ، ففعل دبيس وعادت الأمور إلى نصابها ، وعاد دبيس بن صدقة إلى الحلة للمرة الثانية فى نفس السنة ٥١٥هـ / ١٠٢١م[٢] .

ويبدو أن هذا الصلح الذى تم بين السلطان محمود بن محمد من جهة ودبيس بن صدقة من جهة أخرى لم يرق للخليفة العباسي المسترشد بالله ، الامر الذى دعاه إلى مطالبة السلطان محمود بن محمد فى سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م بابعاد دبيس بن صدقة عن الحلة ، غير أن السلطان محمود بن محمد لم يصغ إلى مطالب الخليفة العباسى المسترشد ، والتزم بما وعد به يرنقش الزكوى شحنة بغداد تجاه دبيس . ولكن السلطان اراد تلبية رغبة الخليفة العباسي ووعده بان يجعل على بغداد شحنة قوية يستطيع الوقوف فى وجه دبيس بن صدقة فيما لو حدثته نفسه بالخروج عن الطاعة . فطلب من آقسنقر البرسقى الذى كان قد ولاه الموصل العودة إلى بغداد ، وجعله شحنة لها ، وأوصاه بالوقوف فى وجه دبيس بن صدقة واياس وحشة الخليفة العباسي المسترشد بالله[٣] .

استغل آقسنقر هذا المنصب الذى تولاه للانتقام من دبيس بن صدقة ، خصوصا وانه عرف بوجود منصور بن صدقة رهينة طرف السلطان محمود بن محمد ، فأخذ

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٦٦ ــ ٥٩٢ ، سبط ابن الجوزى مرآة الزمان جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٩١ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٦٦ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٩١ ، الحلى ، تاريخ الحلة ، ص ٣٦ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٩٩ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٩٦ ، ابن واصل مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٢٩ ــ ٣٠ ، الحلى تاريخ الحله ص ٣٦ .

يتحرش بدبيس بن صدقة عله يظفر به من ناحية ومن ناحية أخرى للايقاع بينه وبين السلطان محمود بن محمد . ولا يستبعد أن يكون دبيس بن صدقة قد أدرك نوايا آقسنقر البرسقى ، الامر الذى دعاه إلى أخذ اليقظة والحيطة ، حتى ان دبيس بن صدقة استطاع ان ينزل هزيمة ساحقة بآقسنقر البرسقى سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م عند نهر بشير شرق الفرات[١] . ولكن هذه الهزيمة للبرسقى كانت فى باطن الامر نجاحا له ، اذ أن السلطان محمود بن محمد ما ان سمع بخبر هذه الوقعة حتى أصدر اوامره بالتشديد فى حق منصور بن صدقة أخى دبيس بن صدقة ، وبهذا نجح آقسنقر البرسقى فى الايقاع بين السلطان محمود ودبيس بن صدقة مرة أخرى . وما ان سمع دبيس بن صدقة بما حل بأخيه منصور لدى السلطان حتى جهز بعض رجاله سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م وامرهم بالمسير إلى واسط لنهبها وتخريبها ، غير أن عماد الدين زنكى الذى كان قد اقطع شحنكية البصرة وواسط استطاع الوقوف فى وجه دبيس ابن صدقه ورجاله وصدهم عن تحقيق هدفهم فى الاضرار بواسط[٢] .

أخذ دبيس بن صدقة فى الجمع والاحتشاد وهم بقصد بغداد ، فخرج إليه الخليفة العباسي المسترشد بالله ولحقه شحنة بغداد آقسنقر البرسقى مع من اجتمع إليه من الاجناد وحملوا على دبيس بن صدقة وهزموه فى أواخر سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م فعاد إلى الحلة بينما عاد الخليفة إلى بغداد ودخلها فى أواخر المحرم من السنة التالية ٥١٧هـ / ١١٢٣م[٣] .

أما عن العلاقات الودية بين زعيم بنى مزيد دبيس بن صدقة والصليبيين فى بلاد الشام فترجع فى الحقيقة إلى مابعد هزيمة دبيس بن صدقة أما الخليفة العباسي المسترشد بالله وآقسنقر البرسقى شحنة بغداد . فبعد الهزيمة التى مني بها دبيس بن صدقة أواخر سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م ، ووقوع الكثير من نسائه واصحابه فى الاسر ، اختفى خبره وانتشر بين الناس خبر وفاته ، الامر الذى أدى إلى رحيل دبيس بن صدقة إلى غزية لطلب

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٩٩ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٢٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٣٠ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٦هـ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٩٩ — ٦٠١ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٢٤ — ٢٥ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ١٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٣٠ .

(٣) أنظر مايلى الفصل الثانى ص ١١١ .

النجدة من عربها الا ان من بها من العرب امتنعوا عن التحالف مع دبيس بن صدقة لخوفهم من السلطان السلجوقى والخليفة العباسي[1] . ولما فشل دبيس بن صدقة فى الحصول على نجدة عرب غزية اتجه نحو المنتفق بالعراق وتحالف مع عربها بقصد الاستيلاء على البصرة ، فساروا معه اليها ، ودخلها بعد ان جلى أكثر سكانها ، الا ان خوف دبيس بن صدقة من آقسنقر البرسقى وعماد زنكى قد أجبره على تركها ، والرحيل إلى قلعة جعبر[2] .

وفى قلعة جعبر استقبله الامير شهاب الدين مالك بن سالم صاحب القلعة ، وحسن له التحالف مع الصليبيين الذين كانوا يودون الاستيلاء على حلب من حسام الدين تمرتاش بن ايلغازى خليفة بلك بن بهرام الذى قتل فى شهر ربيع الأول من سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م[3] . وقد ساعدت الظروف السياسية فى حلب دبيس بن صدقة على التحالف مع الصليبيين ، فحسام الدين تمرتاش كما وصفه ابن الاثير ، كان رجلا يحب الدعة والرفاهية مما دعاه إلى مغادرة حلب إلى ماردين بعيدا عن مشاكل الصليبيين وحروبهم . ولم يقف عند هذا الحد بل وافق على اطلاق سراح بلدوين الثانى ملك بيت المقدس الذى كان فى أسر بلك بن بهرام . بعد أن تعهد بلدوين الثانى لحسام الدين تمرتاش بمساعدته ضد خصمه دبيس بن صدقة الذى كان يود الاستيلاء على حلب[4] . غير ان بلدوين الثانى تنكر للشروط التى شرطها على نفسه لحسام الدين تمرتاش بعد الافراج عنه . ورأى ان أنجح وسيلة لاضعاف حسام الدين تمرتاش هو التحالف مع دبيس بن صدقة للاستيلاء على حلب . وكان دبيس بن صدقة قد كاتب قوما من أهل

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦١٠ ، ابوالفدا ، المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٣١ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ١١١ ، وغزية : موضع قرب فيد الواقعة فى نصف الطريق بين مكة والكوفة ، انظر ياقوت ، معجم البلدان . وعرب غزية : بطن من هوازن من العدنانية ينتسبون الى غزية بن جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن ، ومنازلهم بالسروات بين تهامة ونجد . انظر القلقشندى ، نهاية الادب فى معرفة انساب العرب ، ص ٣٨٧ — ٣٨٨ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ٦١٠ ، وقلعة جعبر : قلعة مشهورة على الفرات مقابل صفين وكان يقال لها قلعة دوسر . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) ابن شاكر الكتبى ، عيون التواريخ ، جـ ١٣ ، حوادث سنة ٥١٨هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦١٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢١٩ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦١٩ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٢٠ — ٢٢١ ، العظيمى ، حوادث سنة ٥١٨هـ .

حلب ومناهم وطلب منهم تسليم حلب إليه ، وبذل لهم أموالا كثيرة فى هذا الشأن ، غير أن حسام الدين تمرتاش قد اكتشف هذه المؤامرة فالقى القبض على كل من كانت له يد فيها وقتله[1] .

ولما كانت اقامة حسام الدين تمرتاش الرئيسية فى ماردين بعيدا عن حلب فان هذا قد ساعد كلا من بلدوين الثانى ملك بيت المقدس ودبيس ابن صدقة فى تحقيق مآربهما ، اذ قام دبيس بن صدقة بحث الصليبيين على الاستيلاء على حلب وقال لهم ان أغلب اهلها شيعة وسيميلون اليه لاجل المذهب . وقد أورد ابن العديم صيغة الاتفاق الذى تم بين الصليبيين ودبيس بن صدقة بقوله « واتفق دبيس والفرنج على قواعد تعاهدوا عليها ، منها أن تكون حلب لدبيس بن صدقة ، والاموال والارواح للفرنج مع مواضع من بلد حلب تكون للفرنج » بالاضافة إلى مابذله دبيس بن صدقة للصليبيين من الأموال مع تعهده بأن يكون تابعا ومطيعا لهم اذا نجحوا فى الاستيلاء على حلب[2] .

لم يكتف بلدوين الثانى ملك بيت المقدس بانضمام دبيس بن صدقة إليه ضد حلب ، بل عمل على تشكيل قوة من المسلمين اشترك فيها سلطان شاه بن رضوان وعيسى بن سالم بن مالك صاحب قلعة جعبر وياغى سيان ابن عبدالجبار صاحب بالس ، وبدأوا هجومهم على حلب ومعهم جوسلين دى كورتناى صاحب الرها فى شعبان سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م مستغلين فى ذلك غياب حسام الدين تمرتاش عن حلب بماردين[3] . غير أن الصليبيين بزعامة بلدوين الثانى ملك بيت المقدس ودبيس بن صدقة ومن انضم اليهم من المسلمين قد فشلوا فى الاستيلاء على حلب بسبب استبسال أهلها فى الدفاع عنها ولجوء أهلها إلى طلب النجدة من آقسنقر البرسقى صاحب الموصل الذى بادر فى التوجه اليهم بعساكره ووصوله فى ذى الحجة من نفس السنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م ، الامر الذى أجبر الصليبيين ودبيس ابن صدقة على الرحيل عن

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٢٢ ، اسامة بن منقذ الاعتبار ، ص ١٠٣ ، الطباخ الحلبى ، اعلام النبلاء ، جـ ١ ، ص ٤٥٥ ــ ٤٥٦ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٠٨ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٢٣ ، انظر ايضا : ابن الاثير الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٢٣ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ١١١ ــ ١١٢ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٢٤ ــ ٢٢٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٢٣ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٨هـ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥١٠ . ــ وبالس : بلدة صغيرة بالشام بين حلب والرقة غرب الفرات ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

حلب ورفع الحصار المضروب عليها .[1] .

وهكذا لعب دبيس بن صدقة ومن انضم إليه من الامراء المسلمين إلى احداث فرقة بين صفوف المسلمين وحقق رغبة الصليبيين فى ضرب المسلمين بعضهم ببعض والى ايجاد نوع من التوتر فى حلب ادى إلى خروجها من حكم الاتراقة إلى حكم آقسنقر البرسقى صاحب الموصل فى سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م وما ترتب على ذلك من حدوث مجاعة حلت بالحلبيين إلى حد أنهم أكلوا الكلاب وأوراق الشجر[2] .

واذا كانت سياسة دبيس بن صدقة زعيم بنى مزيد قد أحدثت الفرقة بين صفوف المسلمين ، فان هذا يعود بالدرجة الأولى إلى عدم حسن تصرف سلاطين السلاجقة والخلافة العباسية تجاه هذا الزعيم العربى وامارته الفتية فى الحلة ، اذ أن علاقته بالصليبيين تتضح من سياق علاقته بالسلطنة السلجوقية والخلافة العباسية ، ففى الوقت الذى زادت فيه سيطرة السلاجقة على الخلافة العباسية وضعفت فيه مكانة القبائل العربية فى الشام والجزيرة والعراق ، برز أمراء بنى مزيد فى الحلة ، وحاولوا القيام بنفس الدور الذى لعبته الامارة المرداسية فى حلب من قبل للحيلولة دون خضوع القبائل العربية لسيطرة السلاجقة ، فبدأت العداوة بين السلاجقة وزعماء بنى مزيد فى الحلة وتقلبت زمنا طويلا بين المد والجذر حسب قوة وضعف الطرفين ، حتى ان دبيس بن صدقة عندما انهزم سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م امام السلاجقة والخلافة العباسية كان عليه ان يولى وجهه تجاه قوة تساعده لاستعادة مكانته فاتجه ناحية الصليبيين ، خاصة وأن بعض القوى الاسلامية فى بلاد الشام وغيرها لم تدرك حقيقة الحركة الصليبية واهداف الصليبيين التوسعية .

أما عن نهاية دبيس بن صدقة فانه بعد أن فشل فى الاستيلاء على حلب بمعونة الصليبيين سار من الشام سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م وقصد الملك طغرل بن محمد أخا السلطان محمود بن محمد ، وكان طغرل عاصياعلى أخيه بالمشرق ، فلما وصله بهمذان

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٢١١ ــ ٢١٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٢٣ ــ ٦٢٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٢٧ ــ ٢٢٨ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٨ .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٨هـ ، ابن القلانسي ، ص ٢١٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٢٧ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٣٧ .

استقبله أحسن استقبال وجعله من أعيان خواصه[1] . وحسن دبيس بن صدقة للملك طغرل بن محمد قصد العراق وهون عليه أمر الاستيلاء عليه واقامة الدعوة له فى بغداد بدلا من أخيه محمود بن محمد . واقتنع الملك طغرل بن محمد بهذه المشورة وقرر المسير إلى العراق ، فتجهز ومعه دبيس بن صدقة وسارا حتى وصلا قريبا من العراق فتصدى لهما الخليفة العباسي المسترشد بالله ، واستطاع اجبارهما على التراجع إلى الوراء فى نفس السنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م ، فقصدا السلطان سنجر بن ملكشاه بخراسان[2] . وظل دبيس بن صدقة ملازما للسلطان سنجر حتى عزم السلطان على القدوم إلى بغداد سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م بقصد انتزاع العراق جميعه من السلطان محمود بن محمد والخليفة العباسي المسترشد بالله ، الا أن السلطان سنجر قد عدل عن مشروعه وسعى الى اصلاح شقة الخلافة بين دبيس بن صدقة والسلطان محمود بن محمد فى أواخر سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م فنجح السلطان سنجر فى مسعاه هذا ، الا أن أمر دبيس بن صدقة لم يستقم بالعراق نتيجة للوقوف العدائى الذى وقفته الخلافة تجاهه ، وقتل سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م [3] .

أما عن امارة بنى عمار فى طرابلس (٤٦٢ ــ ٥٠٣هـ / ١٠٧٠ ــ ١١٠٩م) فان قيامها ببلاد الشام قد جاء نتيجة لاستيلاء السلاجقة على معظم بلاد الشام من الفاطميين فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله وهى من الامارات العربية التى استطاعت الصمود فى وجه السلاجقة ودسائس الفاطميين ولعبت دورا بارزا فى مجريات الحوادث السياسية فى بلاد الشام وفى مواجهة الصليبيين بعد تفكك السلاجقة قبل قيام الاسرة الزنكية فى الموصل سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م .

وقد أسس امارة بنى عمار العربية فى طرابلس القاضى أمين الدولة أبوطالب عبدالله بن محمد بن عمار الطائى سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م على أثر الضعف الذى انتاب الفاطميين فى عهد المستنصر بالله واستيلاء السلاجقة الاتراك على معظم بلاد الشام ، وظل أمين

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ٩ ، ص ٢٤٥ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٢٣ ، ٦٢٦ ، ٦٥١ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ٩ ، ص ٢٥٢ و جـ ١٠ ص ٣ .

(٣) أنظر الفصل الثالث ص ٢٠١ ومابعدها .

الدولة ابوطالب فى حكم طرابلس حتى وفاته بها سنة ٤٦٤هـ / ١٠٧٢م[١] . وتولى الامر بعده فى طرابلس ابن عمه جلال الملك ابو الحسن بن عمار فى نفس السنة « فضبط البلد أحسن ضبط ولم يظهر لفقد عمه أثر لكفايته »[٢]. وعلى الرغم من استقلال بنى عمارٍ عن الخلافة الفاطمية فى القاهرة فان زعماء هذه الامارة قد لزموا جانب الاعتدال مع حكومة القاهرة، ولم يجاهروها بالعداء مراعاة للغالبية العظمى من سكان طرابلس الذين كانوا يتبعون المذهب الشيعى . ومما يدل على ذلك ان العملة التى كانت متداولة فى طرابلس سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٣م كانت تحمل اسم الفاطميين[٣]. الا ان هذه الامارة لم تسلم من دسائس ومؤامرات الفاطميين بالقاهرة مما اضطر جلال الملك بن عمار فى سنة ٤٧٦هـ / ١٠٨٣م إلى بذل المزيد من الجهد للحيلوله دون اتمام المصاهرة بين تاج الدولة تتش والوزير الفاطمى بدر الجمالى خوفا من ان يقع بين شقى الرحى ، بين الفاطميين والسلاجقة[٤] .

ولم يكن الفاطميون وحدهم هم الذين اختصوا بالرغبة فى الاستيلاء على طرابلس من بنى عمار فقد حرص تاج الدولة تتش على الاستيلاء عليها اذ قام فى سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م بحملة عسكرية يرافقه آقسنقر البرسقى والد عماد الدين زنكى صاحب حلب وبعض قادة السلاجقة فى بلاد الشام فى محاولة منهم للاستيلاء على طرابلس . غير ان جلال الملك بن عمار نجح فى استمالة آقسنقر صاحب حلب وثنى عزمه عن مواصلة حصار طرابلس ، مما اضطر تاج الدولة تتش إلى رفع الحصار عنها والعودة إلى دمشق[٥] .

وبفضل ماتميز به جلال الملك بن عمار من الحنكة والدهاء فقد تميزت فترة حكمة التى دامت اكثر من ثلاثين عاما بسياسة المهادنة التى اتبعها حيال السلاجقة

---

(١) ابن القلانسي ص ١١٢ ، ابن حيوس ، ديوان ابن حيوس ، جـ ١ ، ص ١٣٢ ، المقريزى اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ٣٠٢ ، الازدى ، الدول المنقطعة ، قسم الفاطميين ، ص ٦٠ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ١٨٧ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٧١ ، انظر ابوالفدا ، المختصر جـ ٢ ، ص ١٨٧ .

(٣) ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١١١ ، La Catalgue des Mannaies, Musulmanes, Vol. III, p.p. 130-133.

(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ١٣ B ورقة ٦٥ب ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١١٦ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٠٣ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٣٢ — ١٣٣ .

والخلافة الفاطمية فى القاهرة ، بالاضافة إلى ماتمتعت به طرابلس فى عهد الملك بن عمار من رخاء اقتصادى وتجارى وصناعى وزراعى وعمرانى والاهتمام بتشجيع العلم والادب ، حتى أن المكتبة التى أنشأها ابوطالب بن عمار فى طرابلس قد عنى بها جلال الملك من بعده حتى اصبحت تحوى أكثر من مائة الف كتاب يهتم اكثرها بنشر مذهب التشيع فى بلاد الشام . وأصبحت طرابلس فى عهد جلال الملك بن عمار محط أنظار الرحالة ورجال العلم والادب[١] . وقد استمر جلال الملك بن عمار فى حكم هذه الامارة حتى وفاته سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٨م وخلفه فى حكمها اخوه فخر الملك بن عمار[٢] .

تولى فخر الملك بن عمار حكم طرابلس عقب وفاة اخيه فوقع على عاتقه مهمة الدفاع عن طرابلس والبلاد التابعة لها كعرقة وانطرسوس من الغزو الصليبى ، الذى اجتاح بلاد الشام ، ومما تجدر الاشارة إليه ان فخر الملك ابن عمار قد اتبع نفس السياسة التى سار عليها جناح الدولة حسين وعز الدين سلطان بن منقذ فى مسالمة الصليبيين حتى لايعرض نفسه وامارته للابادة على يد الصليبيين[٣] . ولا يستبعد أن يكون فخر الملك ابوعلى بن عمار قد لجأ إلى هذه السياسة تجاه الصليبيين بسبب تدهور العلاقات بينه وبين الفاطميين اضافة إلى انهيار النفوذ السلجوقى فى بلاد الشام . وبعبارة صريحة فان اتباع فخر الملك بن عمار وغيره من الامراء المسلمين سياسة المسالمة تجاه الصليبيين يرجع إلى عدم وجود قوة اسلامية كبيرة تستطيع الوقوف فى وجه الصليبيين خصوصا بعد هزيمة السلاجقة بانطاكية سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧ ، ومراسلة الفاطميين للصليبيين ومحاولة عقد صلح معهم لاقتسام بلاد الشام سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٨م[٤] .

---

(١) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ٤٧ — ٤٨ ، سعيد عبدالفتاح عاشور ، المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ، فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٣٠ ، احمد رمضان المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ص ٤٠ — ٤١ .

(٢) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ ٣ ص ١٠٨ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى حوادث سنة ٤٩٢هـ ، السيد عبدالعزيز سالم ، طرابلس الشام ص ٧٥ — ٧٦ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٧٨ ، وعرقة : بلد فى شرق طرابلس على سفح أحد الجبال المطلة على البحر ، وانطرسوس : بلدة فى سواحل بلاد الشام وهى من اعمال طرابلس وهى الى الشرق من عرقة وتطل على البحر المتوسط . انظر : ياقوت ، معجم البلدان .

(٤) أنظر مايلى الفصل الثانى ص ١١٩ ومابعدها .

فبعد استيلاء الصليبيين على حصن الاكراد سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٨م ، شعر فخر الملك بن عمار بخطورة الموقف فبعث برسالة إلى الصليبيين يسألهم الموادعة والمسالمة ويعرض عليهم استعداده لمساعدتهم فى الوصول إلى بيت المقدس . ولم يكتف بهذا ، بل زود رسله الذين أرسلهم إلى الصليبيين بهدايا لزعماء الصليبيين عبارة عن أربعة بغال وعشرة جياد ، مع مبلغ من المال ، ولكن ريموند الصنجيلى أحد زعماء الصليبيين صرح لرسل ابن عمار أنه لايقبل المسالمة والموادعة مع فخر الملك بن عمار الا اذا اعتنق النصرانية[١] .

ولكن ريموندى تراجع عن مطلبه هذا وبعث إلى ابن عمار برسل من قبله للاتفاق معه . وفى طرابلس استرعى انتباه رسل ريموند ثروة طرابلس وغناها وطمعوا فى زيادة الجزية على ابن عمار بدليل ماأشاروا به على ريموند بعد عودتهم اليه من زيادة الجزية على ابن عمار والاسراع فى محاصرة عرقه التابعة لابن عمار حتى يضطر إلى دفع مزيد من المال للصليبيين ، قبل ريموند الصنجيلى ماأشار به رسله إلى ابن عمار وهاجم عرقة ، غير انه عجز عن الاستيلاء عليها مما اضطره إلى رفع الحصار عنها فى سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م على الرغم من أنه استولى على انطرطوس التابعة لابن عمار ، في نفس السنة . ولم يكتف الصليبيون بهذا بل فرضوا على قاضى جبلة جزية من المال والخيل يسوقها إليهم[٢] .

ولما عجز الصليبيون عن الاستيلاء على عرقة زحفوا على طرابلس فى محاولة منهم للاستيلاء عليها من ابن عمار . وكعادته فى مسالمة الصليبيين فقد قدم لهم خمسة عشر الف قطعة ذهبية ومثلها من الهدايا الغالية القيمة بالاضافة إلى مازودهم به من الذخيرة والمؤن واطلاق سراح ثلاثمائة من المسيحيين الذين كانوا فى أسره بطرابلس . ولم يقف عند هذا الحد بل وعد الصليبيين بالتنصر ، اذا هم تجنبوا امارته واستطاعوا الاستيلاء على

---

(١) أعمال الفرنجة ، ترجمة حسن حبشى ، ص ١٠٩ ، انظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٢٨ حاشية رقم ١ . وحصن الاكراد : هو حصن منيع وحصين على الجبل الذى يقابل حمص من جهة الغرب ، ويقع بين بعلبك وحمص ، انظر : ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ؛ ص ٢٧٨ ، أعمال الفرنجة ، ترجمة حسن حبشى ، ص ١١٠ — ١١١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٢٣ — ٢٢٤ ، — وجبله : قلعة مشهورة من قلاع بلاد الشام الساحلية وتعد من اعمال حلب قرب اللاذقية . انظر : ياقوت ، معجم البلدان .

بيت المقدس من الفاطميين[1] . وبهذه السياسة نجح ابن عمار فى اقناع الصليبيين بالعدول عن الاستيلاء على امارته . أما وعد ابن عمار للصليبيين بالتنصر فلا يستبعد أن يكون مكذوباً عليه بدليل أن أعماله التالية كانت معادية للصليبيين ثانيا أن المسلم لايمكن ان يتاجر بدينه خصوصاً وأنه القدوة لرعاياه ولو صح ذلك الخبر لما وقف ابن عمار فى وجه الصليبيين واستعان عليهم فيما بعد بحكام دمشق وبغداد فى سنة ٥٠١هـ .

حاول فخر الملك بن عمار استعادة مااستولى عليه الصليبيون من أملاكه بعد رحيلهم إلى بيت المقدس فاستطاع فى سنة ٤٩٣هـ / ١١٠٠م استعادة انطرطوس من الصليبيين ، واستعادة جبله التى كان الصليبيون قد فرضوا عليها فى السنة السابقة جزية باهظة[2] . ولا يستبعد أن تكون انتفاضة ابن عمار هذه قد جاءت نتيجة للخلافات التى حصلت بين زعماء الصليبيين فى بيت المقدس حول مستقبل المدينة ، وما آل إليه أمر بوهمند صاحب أنطاكية ووقوعه فى أسر سلاجقة الروم فى نفس السنة ٤٩٣هـ / ١١٠٠م[3] .

وعلى أية حال فان فخر الملك بن عمار لم يحاول استغلال التوتر الذى نشب بين قادة الصليبيين فى اتخاذ موقف اكثر شدة وصلابة تجاه الصليبيين بل سعى إلى مساعدة بلدوين صاحب الرها ، وأنقذه من الكمين الذى نصبه له دقاق بن تتش صاحب دمشق فى سنة ٤٩٤هـ / ١١٠١م ، حين كان بلدوين ذاهبا إلى بيت المقدس لتولى امورها بعد وفاة أخيه جود فرى ملك بيت المقدس[4] . ولم تقتصر اهمية مساعدة ابن عمار لبلدوين الأول على تأمين سلامة وصوله إلى بيت المقدس ، بل كانت سببا مباشرا فى سقوط معظم مدن الساحل الفاطمية بيد الصليبيين فى السنة نفسها (٤٩٤هـ / ١١٠١م)

---

(١) اعمال الفرنجة ، ترجمة حسن حبشى ، ص ١١٢ ــ ١١٣ ، حسن حبشى ، الحرب الصليبية الأولى ، ص ١٧٠ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية جـ ١ ، ص ٢٦٥ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣١٢ ، ابوالفدا ، المختصر جـ ٢ ص ٢١٣ .

(٣) العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٣هـ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٢٤ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٤هـ ، ابن القلانسي ، ص ١٣٨ .

كأرسوف وقيسارية وحيفا[1] .

وهكذا فان سياسة فخر الملك بن عمار السلبية تجاه الصليبيين لم تؤد إلى حمايته من أطماع الصليبيين الذين سيطروا على معظم بلاد الشام . ولم يرع الصليبيون لابن عمار ماقدمه لهم من خدمات ، بل إن ريموند الصنجيلى بعد ان أيس من حصوله على منصب كبير فى مملكة بيت المقدس طمع فى الاستيلاء على طرابلس ليؤسس له بها امارة مستقلة على غرار مافعل بوهمند بأنطاكية ، وجودفرى ببيت المقدس ، وبلدوين فى الرها ، عندها جمع كثيرا من الصليبيين وسار بهم صوب طرابلس وفرض عليها حصارا شديدا بقصد الاستيلاء عليها مما اضطر فخر الملك بن عمار إلى طلب المساعدة من السلاجقة ، حيث استنجد بجناح الدولة حسين صاحب حمص ، وبدقاق ابن تتش صاحب دمشق . غير أن هذه المساعدة لم تأت بطائل اذ انهزمت أمام الصليبيين سنة ٤٩٥هـ / ١١٠١م ، مما اضطر فخر الملك بن عمار إلى مهادنة الصليبيين على مال وخيل فرحلوا عن طربلس إلى انطرطوس بقيادة ريموند الصنجيلى حيث استعادوها من ابن عمار[2] .

رأى ريموند الصنجيلى انه من الصعوبة بمكان الاستيلاء على طرابلس قبل ان يتخذ له قاعدة قريبة منها يشن منها غاراته عليها . لذلك لجأ ريموند إلى بناء قلعة بالقرب من طرابلس عرفت باسم قلعة صنجيل فأحكم بذلك القبضة على طرابلس[3] . وبذلك أصبح ابن عمار معزولا عن المدن المجاورة خصوصا وان ريموند جرد طرابلس من جميع المدن التابعة لها ، مما اضطر فخر الملك ابن عمار إلى مهادنة ريموند فى سنة ٤٩٧هـ / ١١٠٣م « على ان يكون ظاهر طرابلس لصنجيل بحيث لا يقطع عنها المسيرة ، ولا

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٣٩ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٣٢٥ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ ٣ ص ٢٦ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٧٥ ــ ٢٧٦ . رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ص ١٢٠ ــ ١٢١ . ــ وارسوف : مدينة على ساحل البحر المتوسط بين يافا وقيسارية ، وقيسارية : مدينة على ساحل البحر المتوسط وتعد من اعمال فلسطين بينها وبين طبرية مسيرة ثلاثة ايام على الاقدام ، وحيفا : بلدة على ساحل البحر المتوسط . انظر : ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٤٠ ــ ١٤١ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٥هـ ،ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٤٣ ــ ٣٤٤ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ ١ ، ص٣٤٥٠ .

(٣) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٥هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٤١١ ــ ٤١٢ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ص ٢٢٠ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣٤٩ .

يمنع المسافرين منها » .[1]

وعلى الرغم من الهدنة التى عقدها فخر الملك بن عمار مع الصليبيين فقد ازداد حماسا وقوة لمواجهة الصليبيين والعمل على هدم القلعة التى بناها الصليبيون قريبا من طرابلس ، ويعود هذا على مايبدو إلى العتاد والمؤن التى حملها الاسطول المصرى هذه السنة ٤٩٧هـ / ١١٠٣م إلى مدن الساحل الشامى[2] . ولكن ماقام به ابن عمار واهل طرابلس فى سبيل الدفاع عن بلدهم ، قد كلف اهل طرابلس الكثير من المال والجهد مع مابذله فخر الملك بن عمار من صبر عظيم وشجاعة نادرة . واضطر فخر الملك ابن عمار إلى الاستنجاد بسقمان بن أرتق صاحب ماردين وحصن كيفا سنة ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م[3] .

وعلى الرغم من الجهود التى بذلها فخر الملك بن عمار واهل طرابلس والتى أدت إلى هدم قلعة صنجيل القريبة من طرابلس ووفاة صنجيل نفسه على أثر حروق اصابته اثناء حريق القلعة فى سنة ٤٩٨هـ / ١١٠٤م ، فان وضع طرابلس الداخلى قد انكشف للصليبيين بسبب طلب النجدة التى طلبها فخر الملك بن عمار من سقمان بن أرتق والتى لم تصل إلى طرابلس بسبب وفاة سقمان بن أرتق وهو فى طريقه إلى طرابلس . أما السبب الثانى الذى كشف للصليبيين عن ضعف طرابلس فهو أن ابن عمار قد لجأ إلى بعض التجار الاغنياء من سكان طرابلس ، وأخذ منهم أموالا كثيرة وزعها على المجاهدين ، فما كان من هؤلاء الا أن هربوا إلى الصليبيين بأنطاكية ، فكشفوا بذلك ضعف طرابلس اقتصاديا . ولم يكتف هؤلاء الخونة الذين هربوا من طرابلس إلى أنطاكية بهذا ، بل انهم وعدوا الصليبيين بالمساعدة فى الاستيلاء على طرابلس[4] . ولا يستبعد أن يكون هؤلاء التجار من غير المسلمين لأن مدن بلاد الشام الساحلية بها خليط من المسلمين السنة والشيعة والمسيحيين .

استغل فخر الملك بن عمار وفاة ريموند الصنجيلى وماحل بأهل طرابلس من

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٤٧ .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٧هـ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٤٦ — ١٤٧ .

(٤) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٨هـ ، ابن القلانسي ، ص ١٤٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٤١٢ — ٤١٣ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٥ ، ص ٣٦ .

الضائقة المالية وارتفاع الاسعار ، وما تلى ذلك من هجرة أغلب سكان طرابلس ، واستقرار الأوضاع السياسية للسلطان محمد بن ملكشاه عقب وفاة منافسه فى السلطنة بركياروق بن ملكشاه سنة ٤٩٨هـ / ١١٠٤م ، فرأى ابن عمار لنفسه وللمسلمين قصد السلطان محمد بن ملكشاه والخليفة العباسي المستظهر بالله للاستعانة بهما فى رفع الحصار الذى فرضه وليم جوردان خليفة ريموند على طرابلس خاصة وان فخر الملك بن عمار أيس من أى نجدة تصله من القوى الاسلامية الاخرى فى بلاد الشام ، ولعلمه عن ضعف الفاطميين فى مصر وعجزهم عن تقديم اى مساعدة له[١] . ولكن فخر الملك بن عمار أعاد النظر فى هذا الموضوع إلى ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق واستشاره فى هذا الامر ، فرد ظهير الدين طغتكين على فخر الملك ابن عمار وطلب منه القدوم إلى دمشق للتشاور فى هذا الأمر ، فاستناب فخر الملك بن عمار بطرابلس ابن عمه ابا المناقب ومعه وجوه اصحاب فخر الملك وعلمائه واعطى الجند المكلفين بالدفاع عن طرابلس اعطياتهم لمدة ستة شهور ، حتى لا يكلف ابن عمه مشقة فى ذلك ، وتوجه إلى دمشق فوصلها فى شهر شعبان سنة ٥٠١هـ / ١١٠٧م[٢] . وتم الاتفاق بين فخر الملك بن عمار وظهير الدين طغتكين على خروج تاج الملوك يورى بن طغتكين بصحبة فخر الملك ابن عمار إلى بغداد ، فتوجها من دمشق صوب بغداد فوصلاها فى شهر رمضان من السنة المذكور ، واستقبلا احسن استقبال من قبل السلطان محمد بن ملكشاه والخليفة العباسي المستظهر بالله ، وقدم فخر الملك بن عمار ماحمله من الهدايا إلى السلطان والخليفة ، وطلب منهما امداده بقوة عسكرية لمدافعة الصليبيين عن طرابلس . ووعدهما فخر الملك بن عمار بانه سوف يتكفل بكل مايتحمله الجيش الذى سيخرج لنجدته بكل مايلزمه من العتاد والمؤن . غير ان ذلك لم يجد قبولا لدى حكومة بغداد ، التى لم تقدم لابن عمار غير معسول الكلام ، فعاد منكفئا إلى دمشق حيث وصلها فى المحرم من السنة التالية ٥٠٢هـ / ١١٠٨م[٣] . ولا يستبعد أن تكون عودة

---

(١) انظر ابن القلانسي ، ص ١٦٢ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣٥٢ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٦٠ ــ ١٦١ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٥٢ ــ ٤٥٣ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠١هـ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٣٨ .

(٣) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٢هـ ، ابن القلانسي ، ص ١٦١ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٥٣ ــ ٤٥٤ ، ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ ٣ ، ص ١٠٩ ــ ١١١ ، عبدالنعيم حسنين ، دولة السلاجقة ص ٩٣ .

فخر الملك بن عمار إلى دمشق بخفى حنين انما كانت بسبب انشغال السلطان السلجوقى بامر سيف الدولة صدقة سنة ٥٠١هـ / ١١٠٧م بالاضافة إلى الخلاف المذهبى بين فخر الملك بن عمار والسلاجقة ، ففخر الملك بن عمار شيعى والسلاجقة سنيون ، وهذا الخلاف المذهبى كان من الاسباب التى أدت إلى تفكك وحدة المسلمين فى بلاد الشام قبل قدوم الصليبيين إليها .

أما الاوضاع بطرابلس فانها قد تغيرت قبل وصول فخر الملك بن عمار إلى بغداد لا بسبب شدة حصار الصليبيين الذين يحاصرونها وانما بسبب عصيان ابى المناقب عم فخر الملك بن عمار ، ومناداته بشعار الافضل بن بدر الجمالى وزير الفاطميين[١] . ويرجع ابن الاثير سبب عصيان ابى المناقب بطرابلس إلى ان ابا المناقب قد عرف ان بعض الشخصيات فى طرابلس قامت بمراسلة الافضل بمصر يلتمسون منه واليا يكون عندهم من قبله فبادر هو إلى قطع الطريق عليهم وحمل زمام المبادرة ونادى بشعار الفاطميين[٢] .

ومهما يكن من امر فان هذا الحادث بطرابلس لا يخرج عن كونه استنكار بعض شخصيات طرابلس الشيعية على ذهاب فخر الملك بن عمار إلى بغداد مركز أهل السنة لطلب المساعدة ضد الصليبيين . ورأوا في شخصية أبى المناقب مايحقق رغبتهم فى الاطاحة بفخر الملك بن عمار والمناداة بشعار الفاطميين فى مصر ، ففعلوا ، ولكن فخر الملك بن عمار استطاع ان يكتب لبعض اصحابه بطرابلس يأمرهم بالقاء القبض على ابى المناقب ففعلوا ذلك وحملوه إلى أحد الحصون القريبة من طرابلس حيث اعتقل هناك فى سنة ٥٠١هـ / ١١٠٧م وتولى الأمور بطرابلس اصحاب فخر الملك بن عمار[٣] . ولما كان الوزير الفاطمى الافضل بن بدر الجمالى يتطلع إلى فرض سيطرته على طرابلس فقد اهتبل هذه الفرصة السانحة وسير من قبله حملة بحرية فى نفس السنة (٥٠١هـ / ١١٠٧م) جعل على رأسها شرف الدولة بن ابى الطيب[٤] ، إلى طرابلس ، وأمره بالقبض

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٦١ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٣٨ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٥٤ .

(٣) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠١هـ ، ابن القلانسي ، ص ١٦١ .

(٤) ويلقبه المقريزى بالامير مشير الدولة ، انظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٣٨ ، اما ابن القلانسي وابن الاثير فيلقبانه باسم شرف الدولة انظر ابن القلانسي ، ص ١٦١ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ، ص ٤٥٤ .

على أهل فخر الملك فدخل طرابلس فى السنة المذكورة والقى القبض على اهل فخر الملك بن عمار وحريمه ونقلهم إلى مصر[١] .

وقبل معرفة ما آل إليه أمر طرابلس لابد من الاشارة إلى أن رحلة فخر الملك بن عمار إلى بغداد قد ترتب عليها عدة امور منها ، عودته خائبا من الحصول على مساعدة الخليفة العباسي والسلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه ، ثانيا : توثق عرى الصداقة والمودة بين فخر الملك بن عمار وظهير الدين طغتكين صاحب دمشق على الرغم من اختلاف المذهب بينهما ، ثالثا خروج طرابلس من حكم اسرة بنى عمار الطائيين إلى حكم الفاطميين فى مصر سنة ٥٠١هـ / ١١٠٧م .

أما عن مصير طرابلس بعد انتقالها إلى الفاطميين ، فانهم لم يستطيعوا حمايتها من السقوط بيد الصليبيين الذين فرضوا عليها حصارا شديدا ابتداء من شهر شعبان ٥٠٢هـ / ١١٠٨م اشترك فيه على حد قول ابن الاثير تانكرد (طنكريد) صحاب انطاكية ، ويلدوين (بغدوين) صاحب القدس ، بالاضافة إلى ابن أخت صنجيل المعروف باسم السردانى وابن صنجيل[٢] . ولم يستطيع الفاطميون واهل البلد الصمود امام الصليبيين ، بسبب تأخر المعونات الفاطمية عن طريق البحر ، مما ادى إلى سقوط طرابلس بيد الصليبيين فى ذى الحجة سنة ٥٠٢هـ / ١١٠٨م[٣] .

أما مصير فخر الملك بن عمار بعد خروج طرابلس من يده إلى الفاطميين ثم سقوطها بيد الصليبيين ، فقد استقر به المقام فى دمشق فأكرمه طغتكين وأنزله فى دار تليق بمقامه ، ولم يكتف بهذا بل أقطعه الزبدانى واعمالها سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م[٤] .

---

(١) ابن القلانسيص ١٦١ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٤٥٤ ، ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ ٣ ، ص ١٠٩ ــ ١١١ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٣٨ ، ابن ميسر ، اخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٤٣ .

(٢) انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٧٥ ــ ٤٧٦ ، وابن صنجيل هذا هو المعرف بابن ريموند الصنجيلى واسمه Bertram Son of Raymond انظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ص ٤٣ ، حاشية رقم ٣ ــ اما السردانى الذى ذكره ابن الاثير فان اسمه وليم جوردان Willame Gordan انظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٥٥ .

(٣) ابن القلانسي ص ١٦٣ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٢هـ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٤٣ ، اما ابن الاثير فيذكر ان سقوط طرابلس بيد الصليبيين سنة ٥٠٣هـ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٧٦ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ٢٢٤ .

(٤) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٢هـ ، ابن شاكر الكتبى ، عيون التواريخ ج ١٣ ، حوادث سنة ٥٠٣هـ ، ابن القلانسي ، ص ١٦٥ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٢٧ ، الذهبى ، دول الاسلام جـ ٢ ، ص ٣٢ ، والزبداني : كورة مشهورة معروفة بين دمشق وبعلبك ومنها يسير نهر دمشق . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

وظل فخر الملك بن عمار فى دمشق بصحبة ظهير الدين طغتكين حتى خرج من دمشق سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م متوجها إلى القاهرة حيث تقيم اسرته هناك منذ ان نقلهم شرف الدولة بن أبى الطيب سنة ٥٠١هـ / ١١٠٧م[١] .

وهكذا يمكن القول أن اسرة بنى عمار الطائية فى طرابلس استطاعت الاستمرار فى حكم طرابلس منذ سنة ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م حتى سنة ٥٠١هـ / ١١٠٧م ، وان يتصدى زعماء هذه الامارة للاطماع السلجوقية والفاطمية ، حتى كان الغزو الصليبى لبلاد الشام فى العقد الاخير من القرن الخامس الهجرى حيث تضعضع حكم بنى عمار فى طرابلس نتيجة للحصار الذى فرضه عليهم الصليبيون والذى دام اكثر من سبع سنين متواصلة ، استطاعوا خلالها الصمود فى وجه الصليبيين تارة بالسلم وتارة بالحرب . وتجدر الاشارة إلى القول انه لو لم تخرج طرابلس من يد ابن عمار واسرته سنة ٥٠١هـ / ١١٠٧م إلى الفاطميين لاستطاع فخر الملك ابن عمار واصحابه الدفاع عنها ومنعها من السقوط بيد الصليبيين أو على الاقل تاخير سقوطها فترة من الزمن اذ أن فخر الملك بن عمار كان من المرونة وحسن المعاملة مع القوى الاسلامية فى بلاد الشام وخصوصا السلاجقة مايجعل هذا كفيلا بان يمدوا له يد العون ضد الصليبيين بعكس الفاطميين الذين كانوا يتحرجون على مايبدو الى الاستعانة بالسلاجقة بالاضافة إلى انهيار القوة البحرية للفاطميين ، بعد ان سيطر الصليبيون على اغلب المدن الساحلية التى كانت مركزا حيويا للاسطول البحرى الفاطمى .

أما عن امارة بنى منقذ فى شيزر[٢] فهى الامارة العربية التى استطاعت الصمود والبقاء حتى مابعد قيام الاسرة الزنكية ٥٢١هـ / ١١٢٧م فلم يصبها ما أصاب امارة المرداسيين فى حلب ولا امارة مسلم بن قريش فى الموصل وذلك بسبب اعتصامها بقلعة شيزر ، اضافة إلى عدم دخول زعماء هذه الامارة فى النزاع الذى قام بين السلاجقة عقب وفاة السلطان ملكشاه .

---

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٧٨ ــ ٧٩ .

(٢) شيزر : هضبة صخرية منتصبة على ضفة نهر العاصى الغربية الى الشمال من مدينة حماة والنهر يحيط بها من ثلاث جهات ، بحيث أصبحت شبه جزيرة مرتفعة ، ومما زاد فى مناعتها وحصانتها وقت الحرب وجود خندق محفور فى الصخر يصل شبه الجزيرة بالبر ، انظر ياقوت معجم البلدان ، اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، مقدمة المحقق ، ص . ت .

وبنو منقذ يرجع نسبهم إلى قبيلة كنانة العربية القحطانية ، والتى لم تكن تضاهى كلاب وعقيل وطى فى الكثرة ، وانما اشتهرت قبيلة بنى منقذ الكنانية بعدة صفات كالكرم والشجاعة والشهامة مع اهتمامهم بالعلم والادب ، وقرض الشعر[١] . ويعود ذكر بنى منقذ إلى ماقبل سنة ٤٧٤هـ / ١٠٨١م فقد كان لهم دور فى النزاع الذى لعبته القبائل العربية ابان سيطرة الفاطميين على بلاد الشام قبل وصول السلاجقة إليها[٢] .

أما شيزر فكانت بيد البيزنطيين ، حينما قام زعيم بنى منقذ ابو الحسن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى ببناء حصن على تل الجسر غربى شيزر سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٦م بقصد انتزاعها من يد البيزنطيين . ولما تم له بناء الحصن نقل إليه أهله وعشيرته وبدأ التخطيط للاستيلاء على شيزر[٣] .

استغل سديد الملك ابو الحسن على بن منقذ الكنانى انشغال البيزنطيين بالغزو السلجوقى لآسيا الصغرى وبلاد الشام وبدأ يخطط للاستيلاء على شيزر ، غير انه ادرك صعوبة الاستيلاء على شيزر بسبب شدة حصانتها الطبيعية ، فقام بالاستيلاء على أحد الحصون القريبة منها وكانت شيزر خاضعة لاسقف البارة[٤] المسمى دمترى ، الذى كان مقره فى شيزر . ولما تم لعلى بن مقلد الحصول على مركز قريب من شيزر تقرب إلى العديد من الشخصيات البيزنطية بالهبات والعطايا بالاضافة إلى احسانه للمسيحيين الذين كانوا فى الحصن الذى استولى عليه فلم يكلفهم مالا يطيقون عمله . وبهذه السياسة اطمأن أهل شيزر لجواره ووفدوا عليه ولم يقف عند هذا الحد بل وقف إلى جانبهم عندما يحل بهم مكروه وهذا على مايبدو كان السبب وراء تقدم أهل شيزر إلى على بن مقلد بن منقذ وعرضوا عليه تسليم شيزر إليه عندما توترت العلاقات بينهم وبين الاسقف دمترى . ولكن ابن منقذ تظاهر بالرفض فى مبدأ الامر حتى اتفق مع الاسقف دمترى على تسليم شيزر إليه مقابل مال يدفعه ابن منقذ إلى الاسقف بالاضافة إلى دفع راتب ستة اشهر للحامية البيزنطية داخل قلعة شيزر وعدم المساس باملاك الاسقف نفسه . وبهذا تسلم

---

(١) العماد الاصفهانى ، خريدة القصر ، جـ ١ ، ص ٤٩٧ ، ياقوت معجم الادباء جـ ٢ ، ص ١٨٧ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ ٥ ص ٢٧٠ .

(٢) انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٤٩ ، ص ٥٠١ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات ، جـ ٩ ص ٤٢٥ .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ١٣ B ، ورقة ٥٦ ب ، ابو المحاسن النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١١٣ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ٥ ، ص ٢٧٠ .

(٤) البارة : بليدة وكورة من نواحى حلب . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

ابن منقذ شيزر فى شهر رجب سنة ٤٧٤هـ / ١٠٨١م ونقل إليها اهله وعشيرته . ولم تقف سياسة التسامح التى بذلها ابن منقذ للبيزنطيين عند هذا الحد بل قام اهل عين تاب وبقية الحصون الخاضعة للبيزنطيين بتسليمها إليه والدخول فى طاعته ، ولما اطمأن ابن منقذ إلى مكانته فى شيزر ألح على الحامية البيزنطية بمغادرة القلة وكتب بذلك البشائر إلى بغداد تعبيرا عن الفرحة بطرد البيزنطيين من شيزر[١] .

ولما كانت شيزر تتمتع بموقع استراتيجى هام يسيطر على معظم قلاع وحصون وادى العاصى فقد تعرض ابو الحسن على بن مقلد بن منقذ لاطماع مسلم بن قريش صاحب الموصل ولاطماع سليمان بن قطلمش سلطان سلاجقة الروم الا ان ابا الحسن بن منقذ استطاع ان يسلك مع هؤلاء الخصوم سياسة حكيمة جنبت امارته السقوط فى يد اى من هذه القوى تارة بالحرب وتارة بالمال[٢] .

ولكن ابا الحسن على بن مقلد بن منقذ الكنانى لم يلبث طويلا فى الامارة اذ توفى فى بداية سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م ، وكان محبوبا عند رعاياه لاتباعه سياسة التسامح مع المسلمين والمسيحيين على حد سواء . وخلفه فى حكم امارة شيزر ابنه ابو المرهف نصر بن على[٣] . وقد استطاع ابوالمرهف نصر بن على المحافظة على امارته من السقوط ، فاستغل النزاع الذى قام بين تاج الدولة تتش وسليمان بن قطلمش ، واستعاد مافقده والده من الحصون مثل كفر طاب وافامية . ولم يقف عند هذا الحد بل استغل مقدم ملكشاه إلى حلب سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م فراسله ودخل فى طاعته ، وسلمه اللاذقية وكفر طاب وافامية فأقره السلطان ملكشاه على امارته فى شيزر .

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ١٣ B ، ورقة ٥٧أ ، ابن القلانسي ، ص ١١٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٧٧ ، ابوالفدا ، المختصر جـ ٢ ، ص ٣٢ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٣ ، ص ٤٠٩ ، اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، مقدمة المحقق ج ــ ح ، العرينى ، الشرق الاوسط جـ ١ ، ص ٦١ . ــ وعين ثاب : قلعة حصينة بين حلب وانطاكية ، وتعد من اعمال حلب ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) انظر اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٢١٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٩٤ ، على محمد الغامدى ، بلاد الشام قبل الغزو الصليبى ، رسالة ماجستير ، ص ٢٤٨ ــ ٢٥٠ .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٨٤ ب ، العرينى ، الشرق الاوسط جـ ١ ، ص ١٦ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ، ص ١٤٩ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٦١ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٢٤ .

وعلى الرغم من سياسة ابى المرهف نصر بن على التى سار عليها تجاه القوى الاسلامية فانه قد تعرض سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨م لمحاولة من آقسنقر قسيم الدولة والد عماد الدين زنكى للاستيلاء على شيزر ولكن ابوالمرهف نصر بن على استطاع مصالحة آقسنقر واقنعه بالعدول عن شيزر[١] . حافظ نصر بن على على امارته ، اضافة إلى ماضمه إليها من قلاع وحصون . ولم يقف ابوالمرهف بن نصر عند هذا الحد بل استطاع الابتعاد عن الزج بنفسه فى النزاع الذى حدث بين قادة السلاجقة فى بلاد الشام عقب وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م ، واستمر فى حكم امارة بنى منقذ حتى وفاته سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٨م عند قدوم الحملة الصليبية الأولى . وإلى جانب محافظته على امارته فقد برع فى الشعر والادب ، وتولى الامارة من بعده أخوه مجد الدين أبوسلامه مرشد بن على والد اسامة بن منقذ مؤلف كتاب الاعتبار ، غير انه تنازل عن الامارة لاخيه عز الدين ابى العساكر سلطان بن منقذ الكنانى[٢] .

أما موقف هذه الامارة من الغزو الصليبى لبلاد الشام ، فقد تمثل لنا فى الموقف السلبى الذى وقفه زعيم هذه الامارة ابو العساكر سلطان بن منقذ من القوى الاسلامية التى حاولت منع انطاكية من السقوط بيد الصليبيين ٤٩١هـ / ١٠٩٧م فلم تشر المصادر التاريخية إلى قيام امارة بنى منقذ بتقديم أى مساعدة لمنع سقوط انطاكية فى ايدى الصليبيين . ولا يستبعد أن يكون ابو العساكر قد ظن كغيره من القوى الاسلامية إلى أن الصليبيين لن يتقدموا إلى وسط بلاد الشام بعد استيلائهم على أنطاكية ، غير ان موقف أبى العساكر السلبى ظهر بعد استيلاء الصليبيين على معرة النعمان سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م بقيادة ريموند الصنجيلى فبمجرد سماع ابن منقذ بما حل بأهل المعرة خشى ان يحل بامارته ماحل بمعرة النعمان من الخراب والدمار ، ولذلك فلم يتخذ من الاحتياطيات العسكرية مايكفل له ولامارته الوقوف فى وجه الصليبيين ، بل أرسل إلى ريموند الصنجيلى فى السنة المذكورة رسلا يحملون اعلان الطاعة للصليبيين ، ويؤكدون

---

(١) العينى ، عقد الجمان ، جـ ١١ ، حوادث سنة ٤٨١هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ص ١٦٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٠٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٩ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ١٩٩ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ، ورقة ١٢٥أ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢١٩ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٦٣ ، احمد رمضان ، المجتمع الاسلامى فى عصر الحروب الصليبية ، ص ٤٦ .

لريموند الموادعة والمسالمة والتعهد بتقديم كل مايحتاجه الجيش الصليبى من تسهيلات عند مروره بارضهم (عن طيب خاطر) ، وأرسل ابو العساكر سلطان للصليبيين دليلين ليرشدا الجيش الصليبى أثناء عبوره اقليم العاصى[1] .

غير أن اطماع الصليبيين فى بلاد الشام لم تقف عند حد معين ، بل كانت نظرتهم أوسع وأشمل مما كان يتصوره قادة المسلمين فى ذلك العصر . ففى سنة ٥٠٢هـ / ١١٠٨م تعرضت شيزر لهجوم عنيف من تانكرد صاحب أنطاكية ، بقصد السيطرة على وادى العاصى ، فلجأ ابن منقذ إلى عقد صلح مع تانكرد لمدة سنتين . تم بموجبه تقديم مبلغ خمسة عشرة ألف دينار يدفعها ابن منقذ للصليبيين . ويبدو ان ماقدمه ابن منقذ من مبلغ كبير لتانكرد قد اطمع وليم جوردان خليفة ريموند الصنجيلى فقام بمحاولة منه فى نفس السنة للاستيلاء على شيزر ، ولكن ابا العساكر سلطان بن منقذ تصدى له وحاول الامساك به اسيرا ولكنه لم يستطع . ولما انتهت مدة الصلح الذى عقد بين تانكرد صاحب انطاكية وابي العساكر سلطان عاد تانكرد لحصار شيزر سنة ٥٠٤هـ / ١١١٠م[2] .

وقد أورد لنا أسامة بن منقذ وصفا حيا عن استبسال اهالى شيزر فى الدفاع عنها كما اوضح بانه قد اشترك فى هذه الحرب وكان عمره وقتذاك قد جاوز الخامسة عشر سنة[3] . ولم يقف ابوالعساكر سلطان بن منقذ عند حد الدفاع عن شيزر ، بل كتب إلى شرف الدولة مودود صاحب الموصل وقائد قوات السلطان محمد بن ملكشاه سنة ٥٠٤هـ / ١١١٠م يخبره بما فعله تانكرد فى حصاره لشيزر ، وفى نفس الوقت يستحثه على الوصول إليه بأسرع مايمكن « ويحثهم على الوصول إلى جهته » . ولم يكتف أبوالعساكر سلطان بن منقذ بما بعث به إلى قوات السلطان محمد بن ملكشاه من طلب

---

(١) اعمال الفرنجه ، ترجمة حسن حبشى ، ص ١٠٧ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٧٨ ، حسن حبشى ، الحرب الصليبية الأولى ، ص ١٦٤ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٢١ .

(٢) اسامة بن منقذ ، الاعتبار ص ٥٠ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ابن القلانسي ص ١٦٧ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزومان جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٣١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣٣٥ ، ٤٠٩ ، وتانكرد Tancred هو الذى خلف بوهمند الاول فى حكم انطاكية ٤٩٧هـ / ١١٠٣م . وقد ظل فى حكم انطاكية حتى وفاته سنة ٥٠٦هـ / ١١١٢م . انظر اسامة بن منقذ الاعتبار ، ص ٦٥ حاشية رقم ١٢٧ .

(٣) اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٦٦ .

(٤) ابن القلانسي ، ص ١٧٤ ، انظر سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٣٥ .

الاستغاثة وسرعة الوصول إليه سنة ٥٠٤هـ / ١١١٠م ، بل اشترك هو وبقية أسرة بنى منقذ مع مودود فى قتال الصليبيين فى السنة التالية ٥٠٥هـ / ١١١١م . وقد لعب سلطان بن منقذ دورا ناجحا فى حرب الصليبيين فى تلك السنة بما قدمه من حسن المشورة لمودود والقوات الاسلامية فى اختياره لمواقع الاماكن الهامة ، مما زاد المسلمين حماسا واقداما « وقويت نفس مودود بهذه المشورة »[١] .

وفى سنة ٥٠٩هـ / ١١١٥م اشترك ابوالعساكر سلطان بن منقذ مع قوات السلطان محمد بن ملكشاه ضد الصليبيين والمعارضين لحكمه فى بلاد الشام من القوى الاسلامية . وكانت هذه القوات التى ارسلها السلطان بقيادة برسق بن برسق التركاني . وقد اوضح اسامه بن منقذ فى كتابه الاعتبار بانه قد اشترك فى حرب الصليبيين إلى جانب هذه القوات الاسلامية التى استطاعت دفع الصليبيين الذين حاولوا الاستيلاء على شيزر بالرغم من اشتراك زعماء الصليبيين فى تلك المحاولة كروجر[٢] صاحب أنطاكية وبلدوين الأول ملك بيت المقدس .[٣] .

وفى سنة ٥١٣هـ / ١١١٩م حاول سلطان بن منقذ استغلال الهزيمة التى حلت بالصليبيين فى معركة دانيث ومقتل روجر صاحب انطاكية وحاول استعادة افامية من الصليبيين ، غير ان الهزيمة قد حلت ببنى منقذ بقيادة أسامة فى افامية فعادوا إلى شيزر دون تحقيق أملهم ، ولكن الصليبيين فى السنة التالية ٥١٤هـ / ١١٢٠م استغلوا رحيل نجم الدين ايلغازى عن شيزر إلى حلب وقاموا بحصار شيزر حتى أرغموا صاحبها على دفع مبلغ من المال إليهم مقابل رفع الحصار عن شيزر[٤] .

وهكذا خضع ابن منقذ لمطالب الصليبيين التعسفية ولم يكتفوا بما فرضوه من مال

---

(١) اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٦٨ ــ ٦٩ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٨٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٦١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣٠٨ ــ ٣٠٩ .

(٢) روجر الصقلى صاحب انطاكية ، كان قد خلف عمه تانكرد فى حكم أنطاكية بعد وفاة تانكرد سنة ٥٠٦هـ / ١١١٢م واستمر روجر فى حكم انطاكية حتى مصرعه سنة ٥١٣هـ / ١١١٩م ، انظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣١١ .

(٣) أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٧٣ ، ٧٥ ، ٩٠ ، انظر ابن العديم زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٧٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٠٩ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٤١٨ .

(٤) ابن القلانسي ، ص ٢٠١ ، اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٤٠ ، ١١٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٥٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٩٣ ــ ١٩٧ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٤٩٠ ــ ٤٩٢ .

على شيزر بل حاولوا مرة اخرى فى سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م الاستيلاء على شيزر ولكنهم فشلوا ، مما شجع بنى منقذ على القيام بغارات مضادة على املاك الصليبيين فى أفامية وغيرها سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م[١] .

ومما تجدر الاشارة إليه فى هذا الصدد أن علاقة بنى منقذ بالصليبيين قد طرأ عليها تحسن فى سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م بعد اطلاق سراح بلدوين الثانى ملك بيت المقدس من أسر حسام الدين تمرتاش بفضل المساعى الحميدة التى بذلها زعماء بنى منقذ لدى حسام الدين تمرتاش لاطلاق سراح بلدوين الثانى . ولما كانت لبلدوين السيطرة على بيت المقدس وانطاكية فقد اتبع سياسة طيبة تجاه بنى منقذ فى شيزر ، فأعفاهم من دفع القطيعة التى كانوا يدفعونها لحكام أنطاكية . وزيادة على ذلك فقد اورد لنا أسامة ابن منقذ وصفا عن هذه العلاقات الطيبة بقوله « وصار امرنا فى أنطاكية نافذا » ، وقد استمرت العلاقات حسنة بين بنى منقذ والصليبيين حتى سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م وهى السنة التى قدم فيها بوهمند الثانى ابن روجر من ايطاليا عن طريق ميناء السويدية والذى يطلق عليه اسامة بن منقذ اسم « ابن ميمون » ويصفه بانه شيطان ابتلى به الشرق ، فسلمه بلدوين امارة انطاكية وما ان تولى حكم انطاكية حتى فكر فى استعادة مافقدته امارة انطاكية من املاك ، خصوصا وان آقسنقر البرسقى صاحب الموصل وحلب قد توفى فى تلك السنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦ فبدأ بالغارة على شيزر فى محاولة منه للاستيلاء عليها ولكنه عجز عن ذلك[٢] .

وهكذا لعبت امارة بنى منقذ فى شيزر دورا هاما فى فترة حكم زعيمها ابى العساكر سلطان بن على بن منقذ فى الفترة التى سبقت قيام الاسرة الزنكية ، بين السلب والايجاب تجاه الصليبيين فى بلاد الشام . ويمكن القول ان زعيم بنى منقذ ابا العساكر سلطان قد استطاع ان يجنب امارته خطر السقوط بيد الصليبيين فى فترة اجتياحهم لبلاد الشام بما اتبعه معهم من سياسة المسالمة والموادعة ، وكانت لابى العساكر سلطان بن منقذ علاقات ودية مع الصليبيين أوضحها لنا اسامة بن منقذ فى معرض حديثه عن مغامراته وبطولاته التى دونها فى كتابه الاعتبار .

---

(١) انظر اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٥٦ ــ ٥٧ .

(٢) اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٢٠ ــ ١٢١ .

أما عن علاقات بنى منقذ فى شيزر بحكام حمص وحماة وافامية ودمشق وغيرها فان المصادر التاريخية لم تذكر شيئا عنها ذا بال الا ماذكره اسامة بن منقذ فى كتابه الاعتبار من مقتطفات اوردها اسامة بن منقذ فى معرض حديثه عن مغامراته وحروبه ، فعلاقة بنى منقذ بخلف بن ملاعب الاشهبى صاحب أفامية كانت علاقات غير ودية ، اذ ان خلف بن ملاعب الاشهبى كان كثير الغدر والخيانة بالمسلمين لتطرفه فى التشيع ، فقامت بينه وبين ابى العساكر سلطان ابن منقذ عدة حروب كان اخرها سنة ٤٩٧هـ / ١١٠٣م اشترك فيها والد أسامة بن منقذ ، وقد اسفرت هذه الحروب عن عقد صلح بين الطرفين استمر حتى وفاة خلف بن ملاعب سنة ٤٩٩هـ / ١١٠٥م[١] .

أما عن علاقة بنى منقذ بامارة بنى عمار فى طرابلس فلم تذكر المصادر المتداولة مايدل على اشتراك بنى منقذ فى مساعدة بنى عمارة فى طرابلس ضد الصليبيين على الرغم من الحصار الذى فرض عليهم مدة سبع سنوات متوالية (٤٩٥هـ / ٥٠٢هـ) ، وذكر مؤرخ دمشق ابن القلانس من انه بعد سقوط طرابلس سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م بيد الصليبيين ، عرج فخر الملك بن عمار على شيزر فاستقبله ابوالعساكر سلطان بن منقذ وعرض عليه المقام عنده بشيزر الا أن فخر الملك بن عمار لم يقبل وتوجه إلى دمشق[٢] .

أما عن علاقة ابى العساكر سلطان بن منقذ الكنانى زعيم بنى منقذ فى شيزر بصاحب حماة شهاب الدين محمود بن قراجه ، فقد كانت فى جملتها عدائية نظرا لاشتراكهما فى كثير من مناطق النفوذ . ونشبت بين الطرفين عدة حروب كانت احداها فى سنة ٥١٣هـ / ١١٢٠م عندما قام صاحب حماة بهجوم على شيزر ، فتصدى له بنو منقذ واستطاعوا اجباره على التراجع . وقد شارك أسامة بن منقذ فى هذه الحرب إلى جانب أسرته دفاعا عن شيزر . ويذكر أسامة ان صاحب حماة قد استعان بصاحب حمص خير خان بن قراجا فى الهجوم على شيزر[٣] .

أما عن علاقة بنى منقذ بالسلاجقة فى حلب ودمشق ، فقد التزم زعماء بنى منقذ

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ ٥ ، ورقة ٢٢١أ ، اسامة بن منقذ الاعتبار ، ص ٥٢ ، ابن القلانسي ، ص ١٤٩ ــ ١٥٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٠٩ .

(١) ابن القلانسي ، ص ١٦٤ ــ ١٦٥ ، ابن الأثير ، الكامل حوادث سنة ٥٠٣هـ .

(٣) أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٥٦ ، ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠١ .

جانب الحياد اثناء النزاع الذى قام بين رضوان بحلب ودقاق فى دمشق ، والذى أسفر عن قيام عدة امارات مستقلة عن السلاجقة كالاراتقة فى ماردين وأسرة طغتكين فى دمشق . وأورد أسامة بن منقذ فى كتابه الاعتبار أن عمه اباالعساكر سلطان بن منقذ قد تزوج احدى بنات رضوان بن تتش ولكن اسامة لم يذكر تاريخ هذا الزواج ولا عن طبيعة العلاقات بين أمير بنى منقذ ورضوان . وذكر أسامة بن منقذ أيضا فى كتابه الاعتبار ان عمه أباالعساكر قد ارسل رسولا إلى الملك رضوان بن تاج الدولة تتش ولم يوضح لنا اسامة عن زمان ومضمون الرسالة التى حملها من شيزر احد موالى ابوالعساكر سلطان ويدعى موفق الدولة شمعون[1] .

وهكذا يمكن القول بأن الصليبيين انتهزوا فرصة التمزق السياسى للقوى الاسلامية فى بلاد الشام والجزيرة نتيجة إنهيار النفوذ السلجوقى وانحسار النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام ونهاية الامارات العربية ونجحوا فى تأسيس ثلاث امارات صليبية فى الرها وانطاكية وطرابلس ومملكة صليبية فى بيت المقدس وكان على قادة المسلمين ان يبعثوا فكرة الجهاد ضد الصليبيين ، وهو موضوع الفصل الثانى .

* * * *

---

(١) أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٥٣ ، ١٤٨ .

الفصـــل الثـانى

الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين قبل قيام الأسرة الزنكية (٤٩١ ــ ٥٢١هـ / ١٠٩٧ ــ ١١٢٧م)

ــ موقف الخلافة العباسية من حركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين .

ــ موقف الخلافة الفاطمية من الغزو الصليبى لبلاد الشام .

ــ بعث فكرة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين قبل عماد الدين زنكى .

الفصـــل الثـانى

الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين حتى قيام الاسرة الزنكية
(٤٩١ ــ ٥٢١هـ / ١٠٩٧ ــ ١١٢٧م)

- موقف الخلافة العباسية من حركة الجهاد ضد الصليبيين .
- موقف الخلافة الفاطمية من الغزو الصليبى لبلاد الشام .
- بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين قبل عماد الدين زنكى .

الفصـــل الثانـــى
الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين قبل قيام الأسرة الزنكية
٤٩١ ــ ٥٢١هـ / ١٠٩٧ ــ ١١٢٧م

ــ موقف الخلافة العباسية من حركة الجهاد ضد الصليبيين :

كانت الخلافة العباسية فى بغداد قبل قدوم الصليبيين إلى بلاد الشام خاضعة لنفوذ السلاجقة الذين كانوا قد سيطروا قبل منتصف القرن الخامس الهجرى على ايران واقليم ماوراء النهر . وقد استطاع السلاجقة انقاذ الخلافة من بني بويه الشيعة ومن تزايد النفوذ الفاطمى فى بغداد وغيرها من الاقاليم العباسية[١] ، وظلت الخلافة العباسية فى ظل سلاطين السلاجقة العظام كطغرل بك ، وألب ارسلان وملكشاه ــ كما كانت عليه زمن البويهيين ــ محكوما عليها بالبقاء بعيدا عن الخوض فى الامور السياسية او التدخل فى شئون الحكم ، فانحسرت سلطة الخلفاء العباسيين فى ذكر اسمائهم فى خطبة الجمعة ونقشها على السكة ، وعاش الخلفاء على ماتدره الاقطاعات الخاصة بهم ، وهذا مالم يكن له سابقة زمن البويهيين[٢] .

ولم يستطع الخليفة العباسي القائم بأمر الله أن يتخذ موقفا حازما للنهوض بأمر الخلافة العباسية عقب وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م ونشوب الخلاف بين أبنائه ، بسبب تجريده من أى قوة عسكرية يستطيع بها الوقوف فى وجه خصومه ، ولذلك فقد وقف موقفا سلبيا أثناء النزاع بين ابناء ملكشاه ، لدرجة أنه أعلن السلطنة لاثنين من ابناء ملكشاه هما بركياروق ولقبه ركن الدين ، ومحمد ولقبه ناصر الدين[٣] . وقد ظل الخليفة العباسي القائم بأمر الله ألعوبة فى يد السلاجقة حتى وافته منيته فى بغداد سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م . فخلفه فى الحكم ابنه المستظهر بالله (٤٨٧ ــ

---

(١) انظر سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة ، ص ٤ ــ ٥٤ . The Cambridge Medieval History, Vol. IV, P.655 .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٩١ ــ ٩٢ ، فاضل مهدى بيارى ، السياسة السلجوقية فى العراق ، مجلة المؤرخ العربى ، العدد الثامن عشر ، ١٩٨١ ، ص ٩٧ ، ١٠١ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٢٩ ، ابوالفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٢ ، ص ٢٠٤ ، الراوندى ، راحة الصدور وآية السرور ، ص ٢١٥ .

٥١٢هـ / ١٠٩٤ ــ ١١١٨م) الذى لم يكن بأحسن حظا من والده ، فلم تذكر المصادر المتداولة مايوضح قيامه بأية محاولة للافادة من النزاع القائم بين السلاجقة ، بل ظل كما كان عليه والده من الاستكانة للسلاجقة[١] ، لهذا لم تنهض الخلافة العباسية بدور فعال فى الدفاع عن مدن الشام والجزيرة التى اخذت تنهار واحدة تلو الاخرى تحت ضربات الصليبيين[٢] . أما عن سبب عدم قيام الخلافة العباسية بالدور الفعال فى حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فلا يخرج عن كون الخلافة العباسية كانت فى مرحلة الشيخوخة بالاضافة إلى ماقام به سلاطين السلاجقة من تجريد الخلافة من أية قوة عسكرية ، ليظهروا هم على أنهم حماة الخلافة من السقوط بيد أعدائها . على أنه ليس معنى ذلك أن الخلافة العباسية وقفت موقف المتفرج من الحركة الصليبية وسقوط بيت المقدس ، بل قامت بالقدر وبالكيفية التى سمحت بها ظروفها وامكانياتها وطاقاتها ، وان لم يكن مباشرا . وبما أن الخلافة العباسية لم تكن تمتلك قوة عسكرية تستطيع التحرك بها ضد الصليبيين ولذلك فان الدور الذى قامت به انما جاء نتيجة لاستنجاد المسلمين بها عندما كانت تحل بهم كارثة على أيدى الصليبيين[٣] . ففى سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م استولى الصليبيون على أنطاكية وخرج المستنفرون إلى بغداد لطلب المساعدة من الخليفة العباسي المستظهر بالله ، فما كان من الخليفة المستظهر الا احالة المستنفرين إلى السلطان السلجوقى بركياروق الذى كان منشغلا بنزاع أخيه محمد بن ملكشاه[٤] . وعندما استولى الصليبيون على بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، اضطر أهل الشام وبيت المقدس إلى الخروج للمرة الثانية إلى بغداد لشرح الموقف المتدهور فى بلاد الشام للخليفة العباسى المستظهر بالله ، وانزعج الخليفة العباسي من الموقف وتأثر بما سمعه من الفقهاء ورجال الدين والشعراء ، ولم تكن عنده قوة عسكرية يستطيع بها نجدة المسلمين بالشام ولذلك لم يجد بدا من عرض الامر على

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٢٩ ــ ٢٣١ ، ابن العمرانى ، الانباء فى تاريخ الخلفاء ، ص ٢٠٥ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٣٩ ، حسين امين ، تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، ص ٧٩ .

(٢) سعيد عاشور ، ظل الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية ، بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٥٥ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٨٤ ــ ٢٨٥ ، سعيد عاشور ، ظل الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية ، فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٥٧ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٧٩ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ص ١٦١ .

السلطان السلجوقى بركياروق ابن ملكشاه ، فأرسل الخليفة إليه وفدا من خيرة رجال بغداد تقوى وديانة ، فساروا إلى السلطان يستصرخونه على ماحل باخوانهم فى الشام ، ولكنه لم يستطع دفع الخطر ولا حتى ارسال نجدة إلى الشام فتمكن الصليبيون منها[1] .

وقد صور لنا ابن الاثير ، وابن الجوزى ، صورة الحال فى ديوان الخليفة حينما تحدث قاضى دمشق ابوسعيد الهروى[2] الذى أبكى الحاضرين فى مجلس الخليفة بما شرحه من تدهور اوضاع المسلمين بالشام ، حتى ان بعض المسلمين قد أفطر فى ذلك اليوم من شدة البكاء والنحيب حزنا على ماأصاب اخوانهم بالشام . وقد انصب اللوم على الخلافة العباسية ، وسكان بغداد وقد عبر عن هذا الشعور الشاعر الأموى أبو المظفر الابيوردى فى أبيات من الشعر نظمها فى مجلس الخليفة العباسى المستظهر بالله[3] .

وعاد المستنفرون من بغداد ، دون الحصول على أدنى ماكانوا يرغبون فيه ، فى الوقت الذى ظلت فيه الخلافة العباسية فى بغداد فى موقف حرج بين نزاع السلاجقة من ناحية وبين مايجرى فى بلاد الشام من انتهاك لحرمات المسلمين على أيدى الصليبيين من ناحية أخرى . ففى سنة ٥٠١هـ / ١١٠٨م قدم إلى بغداد فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس ، لطلب النجدة ضد الصليبيين الذين يحاصرون طرابلس ، الا انه لم يجد من الخليفة العباسي المستظهر بالله والسلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه غير

---

(١) ابن شاكر الكتبى ، عيون التواريخ ، جـ ١٣ ، حوادث سنة ٤٩٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٨٤ ، الذهبى ، دول الاسلام ، جـ ٢ ، ص ٢٠ .

(٢) القاضى أبوسعيد الهروى هو أحمد بن نصير بن منصور أحد مشاهير الفقهاء وسادة الكبراء ، قتلته الباطنية بهمذان سنة ٥١٩هـ ، انظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ١٩٥ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، حـ ١٠ ، ص ٢٨٤ — ٢٨٦ ، ابن الجوزى ، المنتظم جـ ٩ ص ١٠٨ — ١٠٩ . ومما قاله الابيوردى فى مجلس الخليفة العباسى المستظهر بالله :

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراحم
وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم
واخوانكم بالشام أضحى مقيلهم ... ظهور المذاكى او بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
أرى أمتى لايشرعون الى العدى ... رماحهم والدين واهى الدعائم
ويجتنبون النار خوفا من الردى ... ولايحسبون العار ضربة لازم .

والابيوردى الشاعر المشهور ابو المظفر محمد بن ابى العباس احمد بن محمد بن ابى العباس احمد بن اسحاق القرشى الاموى المعاوى الابيوردى كان من الادباء ، راوية نسابة ، شاعرا ظريفا ، توفى سنة ٥٠٧هـ ، انظر الفارق ، تاريخ الفارق ص ٢٨٥ ، حاشية رقم ٦ .

معسول الكلام والوعود الكاذبة . اذ أن الخليفة العباسي المستظهر بالله والسلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه كانا مشغولين بأمر سيف الدولة صدقة صاحب الحلة والاسماعيلية فى بلاد فارس[1] .

وعلى الرغم من هذا الموقف السلبى الذى وقفته الخلافة العباسية تجاه الغزو الصليبى فقد ظلت بغداد محط أنظار المسلمين فى بلاد الشام حينما يحل بهم مكروه . ففى سنة ٥٠٤هـ / ١١١٠م خرج اهل حلب حين ضاق عليهم الامر بحصار الصليبيين ـــ لطلب النجدة من الخليفة العباسي المستظهر بالله والسلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه « واستغاثوا فى ايام الجمع ، ومنعوا الخطباء ، مستصرخين بالعساكر الاسلامية على الفرنج »[2] .

وعلى الرغم من ان سكان بلاد الشام لم يجدوا فى الخلافة العباسية مايعينهم على صد الصليبيين عن بلادهم فان حكام بلاد الشام كانوا ينظرون إلى هذه الخلافة المنهارة على انها الظل الذى يستظلون به فى الدفاع عن بلادهم ، فهم يتقربون إليها لينالوا رضى الخليفة العباسي على انه خليفة الرسول ﷺ فى حكم المسلمين ، مثلما فعل طغتكين صاحب دمشق حين قام برحلته المشهورة إلى بغداد سنة ٥٠٩هـ / ١١١٥م وما حصل عليه من رضى الخليفة العباسي المستظهر بالله لما يقوم به فى جهاد الصليبيين والتمسك بالمذهب السنى[3] .

لم تقف الخلافة العباسية على هذا الحال من السلبية تجاه الحوادث السياسية فى بلاد الشام والعراق ، فقد مرت الخلافة بدور جديد من الصحوة بعد وفاة الخليفه العباسي المستظهر بالله الذى وافته منيته سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م ، فقامت فى بغداد حركة انتعاش ومحاولة لاسترداد هيبة الخلافة مع بداية عهد المسترشد بالله ، فقد كان ذا همة

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٥٦ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٥٢ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٣٨ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ص ١٩٦ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٥٧ ، انظر : ابن القلانسي ، ص ١٧٣ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ٩ ص ١٦٥ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ، ص ٤٨٣ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٩٢ ـــ ١٩٣ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٥١٤ ابوالفدا ، المختصر فى اخبار البشر ، جـ ٢ ص ٢٢٩ ، سعيد عاشور ظل الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية ، بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٥٥ .

عالية وشهامة زائدة ، ضبط أمور الخلافة ورتبها احسن ترتيب[1] . ولعل شدة حماسته فى اخراج الخلافة مما هى فيه قد جاءت نتيجة معرفته بما كان عليه اسلافه من الذل والهوان اللذين فرضهما عليهم سلاطين السلاجقة .

وقد استغل المسترشد بالله حالة الضيق التى حلت بالناس فى بغداد من ارتفاع فى الاسعار ونقص الغلال وانتشار الفساد ، بالأضافه إلى ماابتليت به السلطنة السلجوقية من منازعات ، ليقوم بدوره فى استرداد هيبة الخلافة وبعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين[2] .

وأدرك الخليفة العباسي المسترشد بالله أن النزاع بين السلاجقة لن يكون الطريق الوحيد فى استرداد هيبة الخلافة العباسية ، ومن ثم القيام بواجبها تجاه المسلمين فى بلاد الشام الذين تعرضوا للغزو الصليبى . ورأى أن الاصلاحات الداخلية والقيام بها سيحببه فى قلوب رعاياه وبخاصة الفقهاء والعلماء ورجال الدين ، وان هذه الناحية أولى بالاهتمام ، لما عرفه من انتشار الفساد ، فعمل على تطهير المجتمع من المفاسد ــ على سبيل المثال ــ حيث أمر باراقة الخمور التى كانت تباع علنا فى سوق السلطان ببغداد سنة ٥١٤هـ / ١١٢٠م[3] وهذه المسألة تتكرر في التاريخ في حالة التوبه والرجوع إلى الله عسى أن يكشف ماحل بهم .

وعلى الرغم مما بذله الخليفة المسترشد بالله فى سبيل الاصلاح وماكان يتوق إليه

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٥٣٦ ، السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٣١ ، حسين امين ، تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ص ١٤٠ .

(٢) انظر ، سعيد عاشور ، ظل الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٦١ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦١٥ ــ ٦١٦ ، ٦٥٢ ، ابن الجوزى ، المنتظم جـ ٩ ، ص ٢٤٣ ، ابن العمرانى ، الانباء فى تاريخ الخلفاء ، ص ٢١٦ .

ــ العيارون : جمع عيار والعرب تمدح بالعيار وتذم به . فيقال غلام عيار نشيط فى المعاصى ، وغلام عيار ، نشيط فى طاعة الله . حركة العيارون وليدة الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى كانت سائدة فى ذلك العصر . وقد اتصف العيارون بصفات حميدة ، كالصدق ، وحفظ الاعراض بالاضافة الى مااتصف به بعضهم من الفساد والاكثار من الفوضى وهذه الجماعة شبيهة الى حد مابجماعات الاحداث فى بلاد الشام والجزيرة أنظر : حسين أمين ، تاريخ العراق فى العصر السلجوق ، ص ٣٢ ــ ٣٣ . The Encyclopaedia of Islam, Vol.1 p.794 .

من رغبة فى تحقيق ذلك ، فقد تعرضت بغداد وغيرها من الاقاليم لكوارث طبيعية ، وفتن داخلية أعاقته عن تحقيق طموحاته . ففى السنة الأولى من حكمة انقطع الغيث فانعدمت الاقوات وغلت الاسعار ، فعظم على المسترشد بالله وأهل بغداد ماكانوا يلاقونه من شحنة بغداد عماد الدين منكوبرس . وأسقط الخليفة المكوس والضرائب عن اهل بغداد ، ولكن هذا لم يكن كافيا ، فقد تعرضت بغداد عقب ذلك لفتنة العيارين[1] فى غرب بغداد ، وما أخذوه من أموال الناس جهارا نهارا ، كان له الأثر على سياسة المسترشد بالله ، وماكان يصبو إليه من استرداد هيبة الخلافة وبعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين[2] .

وفى سبيل استرداد هيبة الخلافة والنهوض بها ، حاول الخليفة المسترشد بالله استغلال النزاع القائم بين السلاجقة ، فوقف فى وجه آقسنقر البرسقى وعماد الدين منكوبرس شحنة بغداد ومنعهما من دخول بغداد سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م ، أثناء النزاع الذى كان قائما بين السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وخصومه من البيت السلجوقى ، من أجل ان تبقى بغداد بعيدة عن طمع الطامعين[2] . كما حاول الخليفة المسترشد بالله أن يستغل خروج الملك مسعود بن محمد ضد أخيه السلطان محمود بن محمد سنة ٥١٤هـ / ١٢٢٠م ، فوقف إلى جانب السلطان محمود بن محمد لابهدف تقويته على خصمه ، وانما بهدف تجنيب بغداد النهب والسلب والفساد ، الذى سيترتب اذا دخل بغداد[3] . ولكن الخليفة المسترشد بالله لم ينجح فى الامر ، اذ أن دبيس بن صدقة الذى كان متورطا فى خروج الملك مسعود بن محمد ضد أخيه السلطان محمود بن محمد ، قام فى السنة نفسها ٥١٤هـ / ١١٢٠م بتهديد الخليفة ، ولم يكتف بالتهديد بل سار إلى بغداد وضرب سرادقه بازاء دار الخلافة ، مما اضطر المسترشد إلى طلب النجدة من السلطان محمود بن محمد وبعض أمراء الاطراف الذين لبوا دعوة الخليفة المسترشد بالله وقدموا إلى بغداد . ولما كان دبيس بن صدقة لايقوى على الوقوف فى وجه جيوش السلطان محمود بن محمد ، فقد انسحب من بغداد إلى الحلة ومنها

---

(١) ابن شاكر ، عيون التواريخ ، جـ ١٣ ، حوادث سنة ٥١٢هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٤٢ ، ٥٥٦ ، ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ق ١ ، ص ٦٨ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٤١ ــ ٥٤٣ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٦٢ ــ ٥٦٣ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، ج ٩ ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ ، محمد القزاز ، الحياة السياسية فى العراق ، ص ٤٢ .

واصل سيره قاصدا حمية الامير نجم الدين ايلغازى بن أرتق صاحب حلب وماردين[1] .

وفى صفر سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م نجح الخليفة العباسي المسترشد بالله فى اقناع السلطان محمود بن محمد فى الخروج من بغداد . ولكن ذلك لم يؤد إلى نتيجة لصالح الخليفة فقد استغل دبيس بن صدقة خروج السلطان من بغداد فتقدم إلى الخليفة فى نفس السنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م ببعض المطالب التعسفية ، فما كان من الخليفة الا ان طلب من شحنة بغداد آقسنقر البرسقى الخروج لقتال دبيس بن صدقة ، ولكن دبيس استطاع هزيمة البرسقى[2] . ولما لم تكن مع الخليفة قوة عسكرية يستطيع بها مواجهة دبيس بن صدقة ، الذى لم يكتف بما حققه من نصر على آقسنقر البرسقى ، بل أرسل رسالة إلى الخليفة العباسي يهدده فيها اذا لم يلب مطالبه . وطلب الخليفة من اصحاب الاطراف الذين كانوا تحت سيطرة السلاجقة المساعدة ضد دبيس بن صدقة فاجتمع عنده عدد من الامراء فيهم شحنة بغداد آقسنقر البرسقى وعماد الدين زنكى ، وسليمان بن مهارش العقيلى والامير كرباوى بن خراسان ، فاستحلفهم على المناصحة فى الحرب ضد دبيس بن صدقة فحلفوا للخليفة على المناصحة واستطاعوا أن ينزلوا به هزيمة ساحقة سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م وقع على اثرها كثير من رجاله فى الاسر ، بينما هرب هو إلى الشام[3] .

وعلى الرغم من أن ماحققه الخليفة العباسى المسترشد بالله على دبيس ابن صدقة من انتصار ساحق قد رفع من معنويته امام رعاياه ، فان هذا الانتصار على دبيس بقوات سلجوقية قد أضاع جهود الخليفة فى التحرر من سيطرة السلاجقة الذين كانوا يعدون هذا الانتصار انتصارا لهم على القوى العربية التى كانت تحاول التحرر من سيطرتهم . ويمكن القول انه كان فى امكان خليفة بغداد الاستعانة بقوات بنى مزيد وزعيمهم دبيس بن

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٤هـ ، ابن القلانسي ص ٢٠٢ ــ ٢٠٣ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٦٢ ــ ٥٦٦ ، ابن العمرانى ، الانباء فى تاريخ الخلفاء ص ٢١٣ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٩٨ ــ ٦٠٠ ، ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص ٢٤ ــ ٢٥ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ٩ ، ص ٢٣٣ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ١٠٠ .

(٣) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٦هـ ــ ٥١٧هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٠٧ ــ ٦١٠ ــ ابن الاثير التاريخ الباهر ص ٢٥ ــ ٢٦ ، ابن القلانس ص ٢٠٦ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٢٤٢ ــ ٢٤٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٣٠ ، ابن العمرانى ، الانباء فى تاريخ الخلفاء ، ص ٢١٥ ، السيوطى ، تاريخ الخلفا ، ص ٤٣١ .

صدقة خصوصا وانه اى الخليفة ، يسعى للتحرر من سيطرة السلاجقة .

واصطدم الخليفة العباسي المسترشد بالله للمرة الثانية مع دبيس من صدقة والملك طغرل بن محمد شقيق السلطان محمود بن محمد فى سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م ، فقد حاول الملك طغرل بن محمد بتحريض من دبيس بن صدقة ، النيل من الخليفة المسترشد بالله واجباره على اعلان الخطبة بالسلطنة له دون أخيه محمود بن محمد ، ولكن الخليفة العباسي المسترشد منع طغرل ودبيس بن صدقة من دخول بغداد وأجبرهما على التراجع عن بغداد[١] . ونظر السلطان محمود بن محمد إلى هذا النصر الذى حققه الخليفة على الملك طغرل بن محمد ودبيس بن صدقة على أنه فى صالحه وكتب إلى الخليفة المسترشد يقول له « قد بلغنى مافعلت لاجلى وانا خادمك وسائر إليك » ولم يكتف السلطان محمود بن محمد بما ذكره للخليفة المسترشد بل ذكر انه سيكون مع الخليفة يدا واحدة ضد عمه السلطان سنجر بن ملكشاه بخراسان « وتراسلا بالايمان والعهود على انهما يتفقان على سنجر »[٢] . فى الوقت الذى كانت فيه نظرة السلطان السلجوق سنجر بن ملكشاه تختلف عن نظرة ابن اخيه محمود بن محمد تجاه انتصار الخليفة على الملك طغرل ابن محمد ودبيس بن صدقة اللذين لجآ إليه بعد أن منعهما الخليفة المسترشد من دخول بغداد ، حيث ذكرا لسنجر بأن الخليفة العباسى قد اشتد عوده وكثر جمعه وان هدفه الاستقلال والتحرر من السلاجقة . ولذلك فقد كتب سنجر إلى السلطان محمود بن محمد سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م بالأخذ على يد الخليفة وكفه عن مشروعاته التوسعية ، والبقاء على ماكان عليه آباؤه وأجداده . ولم يكتف السلطان سنجر بهذا بل حذر السلطان محمود من جانب الخليفة حين قال : « أنت صبي والخليفة قد عزم على أن يمكر بك فلا تصغ إليه »[٣] .

أدرك السلطان محمود بن محمد عندما اطلع على رسالة عمه إليه ، مايهدف إليه

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٩هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٢٦ ، ٦٢٨ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ٩ ، ص ٢٥٢ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ٨ ، ق ١ ص ١١٢ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٢٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٢٩ ، احمد كمال الدين حلمى ، السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص ١٠٦ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ٩ ، ص ٢٥٤ ، انظر ابن كثير ، البدأية والنهاية جـ ١٢ ص ١٩٥ .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم جـ ٩ ص ٢٥٤ ، انظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ١٩٥ ، الذهبى دول الاسلام جـ ٢ ص ١٣٦ .

الخليفة المسترشد بالله ، خصوصا وأنه أى السلطان محمود قد استقبل فى شهر رجب من السنة نفسها ٥٢٠هـ شحنة بغداد برنقش الزكوى الذى كان قد فر من بغداد هاربا من الخليفة العباسى المسترشد بالله « وشكا إليه وحذره جانبه وأعلمه انه قد قاد العساكر ولقى الحروب ، وقويت نفسه »[١] . ولم يكتف برنقش الزكوى بهذا بل حذر السلطان من الوزير ابن صدقة الذى جمع للخليفة الاعوان من العرب والاكراد وفوق هذا وذاك فقد قال برنقش الزكوى للسلطان محمود بن محمد « وان تأخرت عن العراق ازداد منعة وقوة ومنعك عن البلاد »[٢] .

ولم تنته سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م حتى عزم السلطان محمود بن محمد على السير إلى العراق ودخول بغداد ، فأرسل إليه الخليفة المسترشد بالله ينهاه عن دخول العراق ويعرفه ان الغلاء قد اشتد بالناس لعدم وجود الغلات والاقوات بعد ماخربها دبيس بن صدقة وهى لاتفى لى وبكم فاما أنا أو انتم » . الا أن السلطان لم يصغ إلى ماطلبه منه الخليفة بعدم الدخول إلى بغداد ، على الرغم مما بذله الخليفة له من الأموال[٣] .

ولما علم الخليفة بما عزم عليه السلطان محمود بن محمد من اقتحام البلد خرج إلى الجانب الغربى من بغداد تجنبا للصدام مع السلطان[٤] . ودخل السلطان وجيوشه إلى بغداد واخذوا يعيثون الفساد والخراب فى البلد ، وتعرضوا لقصر الخليفة بالنهب والسلب ، وأثار هذا العمل ثائرة الخليفة فعزم على ملاقاة السلطان مهما كانت النتائج ، وفعلا تم اللقاء بين الطرفين فى ذى الحجة سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م وكان النصر إلى جانب الخليفة فى بادئ الامر ولكن خيانة بعض رجاله وانضمامهم إلى السلطان قد فت فى عضده مما دعاه إلى الاستجابة لعقد الصلح مع السلطان محمود بن محمد . وقد نص الصلح على تجريد الخليفة من المقاتلين والا يعود إلى إعداد أو قيادة الجيوش ، وفوق هذا وذاك فقد أجبر على تقديم الاعتذار للسلطان محمود بن محمد ، ودفع شئ من

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٣٥ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٢٨ ــ ٢٩ ، انظر ابن الجوزى ، المنتظم جـ ٩ ص ٢٥٤ ، سعيد عاشور ، ظل الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٦١ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٣٥ ــ ٦٣٦ ، ابن العمرانى ، الانباء فى تاريخ الخلفاء ، ص ٢١٦ .

(٤) ابن القلانسى ، ص ٢١٥ ــ ٢١٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ١٩٥ ــ ١٩٦ .

الاموال والسلاح كتعويض عن خسارة السلطان ومالحق به من أضرار[1] . ولم تقتصر نتائج هذه المعركة عند حد النصر العسكرى الذى حققه السلطان محمود ابن محمد على الخليفة العباسى بل انها حطمت آمال الخليفة العباسى وتطلعاته فى النهوض بأمر الخلافة وجهاد الصليبيين بسبب مافرض عليه من قيود حدت من طموحاته وآماله[2] .

ووجد الخليفة العباسى الفرصة سانحة فى العام التالى أى سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م للتخلص من بعض القيود التى فرضت عليه ، اذ استجد للسلطان محمود بن محمد بعض الامور الطارئة التى استوجبت خروجه من بغداد فطلب منه الخليفة عدم الخروج من بغداد حتى لا يتركها خالية من أى قوة عسكرية تحميها من خصوم الخلافة والسلطنة وبخاصة دبيس بن صدقة . غير ان السلطان الذى اشتد به المرض لم يكن يملك سوى الخروج من بغداد ، فخرج منها فى شهر ربيع الاخر من هذه السنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م وسمح للخليفة العباسي المسترشد باتخاذ مايراه مناسبا لعلاج مايطرأ على بغداد حيث قال للخليفة « فمهما رأيت من المصلحة فافعله » . وبذلك تخلص الخليفة العباسي من الشروط التى كانت قد فرضت عليه فى سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م بعدم اعداد اى قوة عسكرية او قيادة الجيوش[3] .

واخيرا يمكن القول ان الصحوة التى مرت بها الخلافة العباسية فى عهد المسترشد بالله ومحاولة التحرر من السيطرة السلجوقية من أجل القيام بدور فعال فى جهاد الصليبيين لم تؤد إلى ماكان يأمله انصار الخلافة العباسية ، ذلك ان الخلافة العباسية قد انشغلت بعلاج حالة الضيق التى حلت بالناس فى العراق وإلى اصلاح ماكان قد أفسده النظام السلجوق فى بغداد فى ظل الخلفاء السابقين للمسترشد بالله . بالاضافة إلى مواجهة الخارجين عن سلطة الخليفة من بعض العناصر العربية التى تمثلت فى أمراء الحلة من بنى مزيد ، ومواجهة نواب السلطان السلجوق محمود بن محمد فى بغداد ، الذين كان لهم دور بارز فى اثارة الفتن بين الخلافة والسلطنة .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٣٨ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ٩ ، ص ٢٥٥ ، جـ ١٠ ص ٣ — ٦ ، الاصفهانى ، دولة ال سلجوق ص ١٤ ، محمد القراز ، الحياة السياسية فى العراق ، ص ٤٧ — ٤٨ ، محمد جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ، ص ١٢٥ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٢٩ — ٣٠ ، انظر سعيد عاشور ، ظل الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية ، ص ٦١ — ٦٢ .

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ١٠ ، ص ٢٠ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٣٨ ، محمد القراز ، الحياة السياسية فى العراق ص ٤٨ .

وهكذا لم تستطع الخلافة العباسية فى عهد المسترشد بالله أن تقوم بدور واضح وايجابى فى بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين قبل قيام الاسرة الزنكية بل بقيت كما كانت عليه فى عهد المستظهر بالله ، حتى ان الاستغاثات التى استغاثها المسلمون فى بلاد الشام والتى كانت قد وصلت إلى بغداد من حلب لم تجد استجابة من قبل الخلافة ولا حتى من قبل السلطنة السلجوقية ، وذلك بسبب ضعف الخلافة العباسية وانشغال الخليفة المسترشد بالله بالامور الداخلية[1] .

ـ موقف الخلافة الفاطمية من الغزو الصليبى لبلاد الشام :

أما عن الدور الذى قامت به الخلافة الفاطمية فى سبيل مواجهة الغزو الصليبى لبلاد الشام فمن المعروف ان الدولة الفاطمية تمتعت بحالة من الاستقرار والرخاء منذ انتقال الخلافة إلى القاهرة سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٨م ، حتى سنة ٤٤٤هـ / ١٠٥٢م . وقد صور لنا الرحالة ناصر خسرو فى رحلته إلى مصر فى الفترة مابين سنتى ٤٣٩هـ / ١٠٤٧م وحتى ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م ماكانت عليه مصر من الرخاء والاستقرار والعدل ، وقوة الدعوة[2] . ولكن الضعف بدأ ينخر فى جسم هذه الدولة منذ ٤٤٤هـ / ١٠٥٢م ، وهى السنة التى قصر فيها فيضان النيل وتحركت موجة الغلاء الفاحش الذى لم يسبق له مثيل فى عهد هذه الدولة ، حتى كثر الموت فى الناس بحيث أنه كان يموت فى اليوم بالآلاف فلا يوجد من يكفنهم أو يغسلهم[1] . وتعطلت الدواوين وذهب وقار الخليفة الفاطمى المستنصر بالله الذى صار يجلس على حصير مصنوع من سعف النخيل ، مما اضطر نساؤه إلى الخروج مع كثير من سكان مصر سنة ٤٦٣هـ / ١٠٦٩م إلى العراق عندما بلغت الازمة أشدها[2] .

---

(١) انظر ابن القلانسى ، ص ١٧٣ ـ ١٧٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٥٨ ـ ١٥٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٥٤ .

(٢) ناصر خسرو ، سفر نامة ، ص ٨٦ ، ١٠٦ .

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٢٢٤ ، المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٥٦ ، المقريزى ، اغاثة الامة بكشف الغمة ، ص ١٨ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٢ ، المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٥٦ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ١٨٦ .

ولم يقتصر ضعف الفاطميين فى مصر على ماحل بهم من كوارث طبيعية بل تعدت ذلك إلى ظهور بعض الوزراء الذين استغلوا هذا المنصب لتحقيق مآربهم الشخصية ، فالوزير الحسن ابو محمد بن على بن عبدالرحمن اليازورى الذى تولى وزارة المستنصر فيما بين سنتى ٤٤١ ــ ٤٥٠هـ / ١٠٤٩ ــ ١٠٥٨م قد استغل فتنة البساسيرى فى العراق ، واعلان الدعوة الفاطمية فى بغداد سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م فكلف الخزينة الفاطمية من الاموال الباهظة لانجاح الدعوة ماأضر بها حتى قيل ان حادثة البساسيرى فى العراق كانت آخر سعادة الفاطميين فى الشام والعراق[١] . على ان ضعف الفاطميين فى مصر لم يقف عند حد ماقام اليازورى من تكليف الخزانة الفاطمية مالاطاقة لها به ، بل لقد تولى الوزارة بعده مجموعة من الوزراء الضعاف فكثر العزل والتغيير فيهم ، بحيث لم تطل وزارة بعضهم اكثر من ايام معدودة ، وهذا دليل على عدم قدرتهم فى الاستمرار وعلاج الامور الطارئة[٢] . ومما زاد الطين بلة فى أوضاع مصر الداخلية ثورات الجند التى لم تقف عند حد ففى سنة ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م وقع صدام بين الجنود الاتراك والسودانيين مما ادى إلى تفاقم الازمة فى عهد المستنصر بالله[٣] .

استمرت الشدة فى مصر حتى سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٣م وطلب الخليفة المستنصر النجدة من بدر الجمالى الارمنى والى عكا ، والذى كان قد تمرس على السياسة ببلاد الشام ولبى بدر الجمالى الدعوة وقدم إلى مصر سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٤م وحصل من المستنصر على تفويض كامل بتصريف الامور وعلاج الموقف فى مصر ، فأصبح بذلك اول وزير تفويض بمصر ، وزيد فى نعوته والقابه عمن سبقه من الوزراء . واستهل بدر اعماله بمصر بالقضاء على كثير من رجال مصر ، ممن ولى القضاء او الوزارة واهتم باعادة الامن والسكينة واعفاء الفلاحين من الخراج بهدف تشجيعهم على بذل المزيد من الجهد فى زراعة الارض . ولم يقف بدر الجمالى عند هذا الحد بل سعى إلى اعادة هيبة

---

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٢٥٧ ، الازدى ، الدول المنقطعة قسم الفاطميين ، ص ٦٩ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٣ .

(٢) انظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٢٦٢ ، ابن الصيرفى الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٣٥ ــ ٥٦ .

(٣) الازدى ، الدول المنقطعة ، قسم الفاطميين ، ص ٥٧ ، المقريزى اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ٢٣٦ ــ ٢٥١ ، ٢٦٥ ، المقريزى ، اغاثة الامة بكشف الغمة ، ص ٢٣ ــ ٢٦ ، عبدالمنعم ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين ، ٢٦٦ ، سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحروب الصليبية ، كتاب بحوث ، ص ١٦٧ .

الخلافة حتى استقرت الاوضاع الداخلية بمصر[1] .

لم يقف بدر الجمالى عند حد علاج الازمة الداخلية فى مصر ، بل استطاع على الصعيد الخارجى أن يصد حملة أتسز بن أوق الخوارزمى قائد السلطان ملكشاه فى بلاد الشام سنة ٤٦٩هـ / ١٠٧٧م ، واستطاع بدر مقارعة السلاجقة على أبواب دمشق سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م[2] . غير أن بدر الجمالى عرف انه لاجدوى من منازعة السلاجقة على وسط بلاد الشام وان الاولى به المحافظة على القواعد البحرية فى عكا وصور وغيرها ، فأرسل فى سنة ٤٨٢هـ / ١٠٨٩م القائد الفاطمى منير الدولة الجيوشى بحملة عسكرية تمكنت من استعادة صور من قاضيها ابن ابى عقيل الذى كان قد أعلن خروجه على طاعة الفاطميين سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م[3] . غير ان محاولات بدر الجمالى هذه فى اعادة مكانة الدولة الفاطمية بالشام لم تؤد إلى نتائج حقيقية ، ذلك أن القائد الفاطمى منير الدولة الجيوشى قد أعلن التمرد والعصيان على الخلافة الفاطمية فى القاهرة سنة ٤٨٦هـ / ١٠٩٣م واستقل بصور ولكن بدر الجمالى كان من اليقظة وشدة الرغبة فى الاحتفاظ بساحل الشام ماجعله يجرد حملة عسكرية فى نفس السنة بقيادة ابنه الافضل لاستعادة صور ، فحقق الافضل رغبة والده بالقاء القبض على منير الدولة الجيوشى وحمله إلى مصر ، حيث قتل هناك ، فى الوقت الذى تمكن الافضل من فرض سيطرة الفاطميين على يافا أثناء عودته إلى مصر[4] .

هكذا استطاع بدر الجمالى اعادة الامن والطمأنينة والاستقرار إلى ربوع مصر وانتشالها من فوضى الوزراء والشدة المستنصرية ، التى كادت أن تقضى على الفاطميين ، غير ان الاجل لم يمهله ، اذ توفى سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م ولحقه المستنصر بالله بأقل من

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٨٠ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٣٠٩ ــ ٣١٩ ، ابن ميسر ، أخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٢٢ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٠٣ ، ١٤٥ ، ٢٢٣ ، ٢٣٧ ، ابن القلانس ص ١٠٩ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، الذهبى ، العبر ، جـ ٣ ، ص ٢٨٩ ، محمد كرد على ، خطط الشام ، جـ ١ ، ص ٢٤١ .

(٣) ابن شاكر ، عيون التواريخ ، جـ ١٣ ، حودث سنى ٤٧١هـ ، ٤٨٢هـ ، ابن القلانس ص ٩٨ ، ١١٢ ــ ١٢٠ ، ابن ميسر اخبار مصر ، جـ١ ، ص ٢٦ ، سعيد عاشور ، بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ١٦٧ .

(٤) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٨٦هـ ، سبط ابن الجوزى مرآة الزمان جـ ١٣ ، ورقة ١٠٥أ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٢٣ ، ابن ميسر ، اخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٢٩ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٣٢٨ .

ثلاثين يوما[1] . وعلى الرغم من أن بدر الجمالى كان قد استأثر بالامور عن الخليفة المستنصر فى أواخر أيام هذا الخليفة ، فان الافضل بن بدر الجمالى الذى تولى الوزارة عقب وفاة والده ، قد تغالى فى اغتصاب حقوق الخليفة الفاطمى .

وتجدر الاشارة إلى حقيقة ضعف الفاطميين فى مصر وانحسار نفوذهم عن بلاد الشام ، على الرغم من الجهود التى بذلها بدر الجمالى وابنه الافضل من بعده فى سبيل المحافظة عليها ، وذلك قبل وصول الحملة الصليبية إليها سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م . تلك الحقيقة أن ضعف الفاطميين فى بلاد الشام وانحسار نفوذهم عن كثير من معاقلهم ابها ، لم يرجع فقط إلى قوة السلاجقة ، وضعف حكومة القاهرة ، بل إلى شعور أهل الشام المعادى للفاطميين[2] . والدليل على ذلك قول مؤرخ دمشق ابن القلانس : « وكان أهل دمشق يأبون المغاربة لمخالفتهم فى الاعتقاد ولانهم أمويون ولقبح سيرة الفاطميين الذين كانوا عليهم » . وحين عبر ابن القلانس عن سخط اهل دمشق للحكم الفاطمى واسبابه ، فانما استنتج ذلك مما كان يعانيه اهل الشام فى ظل الحكم الفاطمى . فالفاطميون شيعة متعصبون ، فى الوقت الذى كان فيه معظم اهل الشام يدينون بالمذهب السنى الذى لم تشبه شائبه منذ العصر الاموى ، كما ان ولاة الفاطميين بالشام كانوا من قبح السيرة وفساد الاخلاق والظلم والجور ماأثار عليهم حقد أهل الشام[3] . وبذلك غدت بلاد الشام مسرحا للمنازعات بين الشيعة والسنة أو بالاحرى بين السلاجقة والفاطميين ، مما أدى إلى تفكك وحدة المسلمين ومهد الطريق أمام الصليبيين لغزو بلاد الشام فى سهولة ويسر والاستقرار بها دون صعوبة[4] .

وصل الصليبيون إلى اطراف بلاد الشام سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٦م فى الوقت الذى كان النزاع المذهبى والسياسى بين السلاجقة والفاطميين على أشده فكان ذلك احد الاسباب التى مهدت للصليبيين المضى قدما فى اجتياح بلاد الشام . وأرسل الافضل بن

---

(١) ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٣٩ .

(٢) انظر سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ، كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ١٦٦ .

(٣) ابن القلانس ، ص ١٦ .

(٤) سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ، كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ١٦٦ — ١٦٧ .

بدر الجمالى وزير المستعلى سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٦م سفارة من قبله إلى قادة الحملة الصليبية الاولى ، ووصلتهم قبل سقوط انطاكية وهى تحمل عرضا خلاصته أن يتعاون الطرفان للقضاء على السلاجقة فى بلاد الشام ، وأن تقسم هذه البلاد بينهما بحيث يكون القسم الشمالى من الشام للصليبيين فى حين يحتفظ الفاطميون بفلسطين ولما كان هدف الصليبيين هو السيطرة على بيت المقدس ، فقد كان ردهم غامضا على سفارة الافضل ، بحيث لم يتعد بث شعور الطمأنينة فى نفوس الفاطميين ، واعطاء الافضل صورة غير حقيقية عن مشروعاتهم التوسعية فى بلاد الشام[١] . وعلى الرغم من ان هذه السفارة كشفت للصليبيين عن مدى تفكك المسلمين ، فان الافضل بن بدر الجمالى لم يجد حرجا فى عدم الانضمام إلى القوات الاسلامية التى كان كربوقا صاحب الموصل قد تزعمها فى محاولة منه لمنع سقوط انطاكية بيد الصليبيين سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م[٢] . بل وقف الافضل وصاحبه المستعلى موقف المتفرج بعيدا عن النزاع ، مع قدرتهما على الرجال والمال والسلاح على حد قول ابي المحاسن[٣] . ولم يقف الافضل ابن بدر الجمالى عند هذا الحد من التقاعس عن نجدة السلاجقة فى بلاد الشام بل استغل ضعفهم وتفرق كلمتهم وانشغالهم بالمنازعات فسار فى سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٨م على رأس جيش كبير لحصار بيت المقدس والاستيلاء عليه لتدعيم موقفه أمام الصليبيين الذين كان قد اقترح عليهم اقتسام بلاد الشام . وكان فى القدس آنذاك سقمان بن أرتق ونجم الدين ايلغازى ابن أرتق وكثير من اتباعهما . وعندما وصل الافضل بجيشه إلى بيت المقدس ضرب عليه حصارا ونصب عليه أكثر من اربعين منجنيقا حتى تهدمت بعض الاماكن فى السور المحيط به ، ووقع القتال بين الجانبين . ولما كان الارتقة لا يأملون فى وصول مساعدات عسكرية من السلاجقة فى بلاد الشام فقد أذعنوا للصلح وسلموا المدينة إلى الافضل فى شعبان سنة ٤٩١هـ / اغسطس ١٠٩٨م وعهد الافضل بولاية

---

(١) انظر اعمال الفرنجة ، لمؤلف مجهول ، ترجمة حسن حبشى ، ص ٥٩ ، ٦٣ ، سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ١٧٠ — ١٧١ ، William of Tyre, A History of deads Done Beyond the sea. Vol. I, p.p. 223-224, 325-336. .

(٢) أنظر مايلى ص ١٣٩ .

(٣) ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٤٧ .

بيت المقدس إلى آحد رجاله ويدعى افتخار الدولة ، بينما عاد هو إلى مصر[1] .

اطمأن الافضل بن بدر الجمالى بعد استيلائه على بيت المقدس ، وظن أن آماله قد تحققت وأن سيطرته على وسط وجنوب بلاد الشام قد تحققت وان الصليبيين لا مطامع لهم فى بيت المقدس وجنوب بلاد الشام . ولكن بقدر ماانخدع الافضل بن بدر الجمالى بالرد الغامض الذى كان الصليبيون قد ردوا به عليه ، فقد انخدع قبله حكام دمشق وحلب من أسرة تاج الدولة تتش اثناء حصار الصليبيين لانطاكية حين بعثوا إليهم برسائل تتضمن مايفيد بأنهم ــ اى الصليبيين ــ تحت قيادة الامبراطور البيزنطى ، وأن هدفهم لايتعدى ماكان بيد الامبراطور البيزنطى ، « مكرا منهم وخديعة حتى لايساعدوا صاحب أنطاكية »[2] .

ونظر للدور الكبير الذى قام به الافضل بن بدر الجمالى فى جهاد الصليبيين فيما بعد فانه يمكن ان نلتمس له العذر فى اتصاله بالصليبيين وذلك للاسباب التالية :

أولا : خطر السلاجقة الذين هددوا مصر ووصلت غاراتهم إلى القاهرة نفسها .

ثانيا : الازمات الاقتصادية والفتن الداخلية التى اضعفت مصر .

ثالثا : التسامح الدينى لغير السنة عند الخلفاء الفاطميين والاستعانة بكثير من الوزراء المسيحيين قد جعل الافضل فى موقف لم يجد معه حرجا فى الاتصال بالصليبيين خصوصا وانه كان ينظر اليهم على انهم مرتزقة تابعين للامبراطور البيزنطى .

وربما استند الافضل فى تفكيره هذا إلى بعض السوابق التاريخية لأن الدولة البيزنطية لم تتعد أملاكها فى بلاد الشام مدينة أنطاكية ، فظن الافضل أن أولئك الصليبيين انما أتوا فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ليفعلوا فى بلاد الشام مثلما فعل الامبراطور

---

(١) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار ، جـ ١٦ ، ورقة ١١٧أ ، ابن القلانس ، ص ١٣٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٨٢ ــ ٢٨٤ ابن الصيرفى ، الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٦٠ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٢٢ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢١١ ، المناوى ، الوزارة والوزراء ، ص ٢٢٦ .

والمنجنيق : آلة خشب له دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف وهو على ثلاثة انواع . المقربى والتركى والافرنجى . انظر القلقشندىْ ، صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، جـ ٢ ، ص ١٤٤ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٦ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٧٥ ، انظر المناوى ، الوزارة والوزراء ، ص ٢٢٦ .
سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ، كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ١٧٠ ، المناوى ، الوزارة والوزراء ، ص ٢٢٦ ، عبد المنعم ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٤٥ .

نقفور فوقاس والامبراطور حنا الشمشقيق فى القرن العاشر الميلادى . وبالاضافة إلى ذلك فانه يمكن القول أن عدم ادراك الافضل لهدف الصليبيين هو الذى دفعه إلى التفكير فى اقامة تحالف بينه وبينهم ضد السلاجقة فى بلاد الشام ، ولكن هذه السياسة ظهر فشلها حينما أخذ الصليبيون فى اجتياح بلاد الشام سواء ماكان منها بيد السلاجقة أو ماكان بيد الفاطميين ، وذلك بعد استيلاء الصليبيين على الرملة ، ومحاصرتهم عكا سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م[١] .

ولما أدرك الافضل بن بدر الجمالى أن الصليبيين خرجوا عن حدود ماكان يتوقعه لهم أعاد النظر فى سياسته وقرر الاتصال بالامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين للاستفسار منه عن نوايا الصليبيين ، وهل هم يعملون لحسابه أم لا ؟ فكان رد الامبراطور البيزنطى على الوزير الافضل أنه أنكر أن تكون له بهم علاقة . فلما تيقن الافضل من أن الصليبيين لا يعملون لحساب الامبراطور البيزنطى قام بارسال سفارة ثانية اليهم قريبا من طرابلس تحمل معها جملة من الهدايا والتحف لكل قادة الحملة وعرض عليهم مشروعا كالمشروع السابق بالاضافة إلى السماح لهم بحرية العبادة فى بيت المقدس على ألا يدخلوه بسلاحهم ، ولكنهم ردوا عليه ردا عنيفا حيث قالوا : بانهم سيدخلون بيت المقدس باذن الله دون اذن من خليفة القاهرة[٢] .

وجد الصليبيون انه لامانع لهم من الوصول إلى بيت المقدس ، خصوصا وانهم قد اطمأنوا إلى استقرار بلدوين فى الرها ، وبوهمند فى أنطاكية لحمايتهم من الخلف ، بالاضافة إلى عدم وجود تحصينات عسكرية فى المدن الفاطمية على ساحل بلاد الشام ، وما حصلوا عليه من مساعدات من اخوانهم المسيحيين بالمدن التى استولوا عليها[٣] . ومن هنا توجه الصليبيون إلى بيت المقدس فى شهر رجب من سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م

---

(١)ابن القلانسي ، ص ١٣٦ ، ابن ميسر ، أخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٣٩ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٢٣ ــ ٢٤ ، حسن حبشى ، الحملة الصليبية الاولى ، ص ١٧١ ، سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ، ص ١٧٠ .

والرملة : مدينة عظيمة بفلسطين ، ظلت محلا للنزاع بين الصليبيين والفاطميين زمنا طويلا . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) حسن حبشى ، الحملة الصليبية الاولى ، ص ١٧١ .

(٣) أعمال الفرنجة ، مؤلف مجهول ، ترجمة حسن حبشى ، ص ١١٢ ــ ١١٤ ، العرينى ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٦٥ ، سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحروب الصليبية ، ص ١٧٤ .

وجدوا فى السير حتى وصلوا إليه فى شعبان فضربوا عليه حصارا شديدا عجز معه افتخار الدولة نائب الفاطميين فيه عن مقاومتهم ، على الرغم من الجهود التى بذلها فى الدفاع عنه . وأرسل الرسل إلى مصر لطلب النجدة من الوزير الأفضل غير أن الصليبيين الذين شعروا بوصول قوات مصرية بقيادة الافضل شددوا الحصار عليه حتى استطاعوا اقتحامه فى شهر شعبان من السنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩[١] .

أما الافضل بن بدر الجمالى الذى أدرك خطأ اتصاله بالصليبيين ـــ على مايبدو ـــ فانه ما ان سمع بمسيرة الصليبيين إلى بيت المقدس حتى خرج على رأس قوات كثيرة بقصد منع الصليبيين من دخوله . ولكنه لم يستطع الوصول إلى بيت المقدس ، حيث فاجأه الصليبيون بعسقلان وأنزلوا به هزيمة ساحقة كاد معها السقوط بأيديهم « فندم حيث لا ينفعه الندم لانه كان أحب نزولهم الساحل ليكونوا مانعين من نفوذ الترك إلى ديار مصر » . ولم يتحرج ابن ظافر الازدى فى القول بان القدس لو بقى بيد الأراتقة وأسيادهم السلاجقة لكان اصلح للمسلمين من انتقاله إلى حكام القاهرة الفاطميين ، الذين لم يستطيعوا الدفاع عنه ومنعه من السقوط بأيدى الصليبيين[٢] .

وفى الواقع فإن انتصار الصليبيين على الفاطميين فى عسقلان فاق بكثير انتصارهم على السلاجقة فى أنطاكية حتى انه يمكن القول ان الهزيمة التى حلت بكربوقا على ايدى الصليبيين سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٨م أخرجت السلاجقة من معركة الشام مؤقتاً ، أما انتصار الصليبيين فى موقعة عسقلان على الفاطميين فقد قضى على هيبتهم بفسلطين ، حتى أصبحت أيدى الصليبيين طليقة فى فلسطين ، مثلما صارت ايديهم طليقة فى شمال الشام عقب انتصارهم على كربوقا[٣] . وبالاضافة إلى ذلك فان الوقعة التى أنزل فيها الصليبيون الهزيمة بالافضل وعساكر مصر فى عسقلان سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م كان لها أكبر الأثر فى عودته إلى مصر على أسوأ حال وقلة رجال « وقد استحكم بأسه من بقاء الساحل فى ايدى المسلمين ، ولم يغزهم بعدها » وعلى الرغم من هذا القول فان الافضل لم يستكن على ماحل به فى عسقلان . ولم تقض على آماله فى استرداد مافقده

---

(١)ابن القلانسي ، ص ١٣٦ ـــ ١٣٧ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٢ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢١١ .

(٢) ابن ظافر الازدى ، الدولة المنقطعة ، قسم الفاطميين ، ص ٨٢ .

(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٢٤٨ ـــ ٢٤٩ .

من معاقل فى بلاد الشام ، ولوقف الزحف الصليبى عليها ، حتى أصبح ارسال الجيوش من مصر إلى الشام كل عام أمرا مألوفا للجهاد ، حقيقة ان الافضل لم يخرج البتة إلى الشام بعد هزيمة عسقلان الا انه لم يبخل بكل امكانياته ، ولم يضن حتى بأولاده فى الخروج إلى الشام للجهاد[1] . ولم يتخاذل عما يقوم به الصليبيون من اجتياح لبلاد الشام فقد جهز حملة عسكرية سنة ٤٩٤هـ / ١١٠١م وجعل عليها سعد الدولة القوامسى ، المعروف بالطواشى ، فوصل إلى عسقلان واتخذها مركزا لانطلاقه فى مواجهة الصليبيين . وفى عسقلان تحرك بقواته صوب الرملة بقصد تهديد الصليبيين فى يافا وبيت المقدس . غير أن بلدوين الاول ملك بيت المقدس أدرك خطر الجيوش الفاطمية ، فتقدم إلى الرملة بقصد مباغته المسلمين على غرة من أمرهم ، فالتقى بالمسلمين فى الجنوب الغربى من الرملة ، فكسرت ميمنة المسلمين وميسرتهم ، فتصدع الجيش الفاطمى فى هذه الموقعة وانتصر الصليبيون عليهم . وقد قتل من المسلمين عدد كثير ، فى حين فر الباقون تجاه عسقلان بعد أن سقط قائد الجيش الفاطمى سعد الدولة القوامسى صريعا فى المعركة حيث كبا به فرسه فاستشهد مكانه[2] .

ولما بلغ الافضل بن بدر الجمالى ماآل اليه أمر سعد الدولة القوامسى والقوات الفاطمية التى ارسلها معه من هزيمة بالرملة على يد الصليبيين أسرع فى السنة التالية ٤٩٥هـ / ١١٠٢م إلى اعداد حملة عسكرية ثانية من العرب والسودان وجعل عليها ابنه شرف المعالى ، وسيرها إلى عسقلان فوصلت فى رجب من تلك السنة[3] . ولما علم بلدوين الاول ملك بيت المقدس بمسير الفاطميين إلى عسقلان خرج على رأس قوة صغيرة من رجاله تقدر بنحو سبعمائة فارس وراجل اختارهم من رجاله فالتقى بالجيش الفاطمى بيازور قريبا من الرملة وهناك دارت معركة بين الطرفين اسفرت عن هزيمة الصليبيين « وقتل المسلمون أكثر خيله ورجالته وانهزم إلى الرملة « فتبعه المسلمون واحاطوا به وكاد ان يقع

---

(١)ابن ظافر الازدى ، الدول المنقطعة ، قسم الفاطميين ، ص ٨٢ ، انظر المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٥٦ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٢٤ ، ابن الصيرفى ، الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٦٠ ، المناوى ، الوزارة والوزراء ، ص ٢٢٧ .

(٢)العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٤هـ ، ابن القلانسي ، ص ١٤٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٦٤ ، ابن ميسرة ، اخبار مصر جـ ٢ ، ص ٤٠ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٢٦ ، ابوالمحاسن النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٥٢ .

(٣)ابن القلانسي ، ص ١٤١ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٦٤ .

فى الاسر ، لولا هروبه إلى يافا[1] . وفى الرملة استطاع المسلمون احكام الحصار على من بقى بها من الصليبيين بعد هروب بلدوين الاول . وبعد حصار استمر خمسة وعشرين يوما تمكن شرف المعالى بن الافضل من اقتحام الرملة « فقتل من الصليبيين أربعمائة صبرا بينما أسر منهم ثلاثمائة بعث بهم إلى مصر »[2] .

هكذا استطاع شرف المعالى استعادة الرملة من الصليبيين ، غير أن الاختلاف وقع بين رجاله حول المكان الذى يجب المسير إليه أولا ، يافا أم بيت المقدس . وبينما هم فى هذا الاختلاف اذ وصل من البحر خلق كثير من الصليبيين قاصدين زيارة البيت المقدس « فندبهم بلدوين الاول لقتال الفاطميين ، فساروا إلى عسقلان وبها شرف المعالى بن الافضل » فلم يكن يقوى بحربهم « ولكن هذه الجموع من الصليبيين حين رأت شدة تحصين عسقلان عادت إلى يافا فلطف الله تعالى بالمسلمين »[3] . وعاد شرف المعالى إلى مصر بسبب الاختلاف الذى وقع بين القوات الفاطمية . وبهذا لم يستطع الفاطميون البقاء فى عسقلان لمواجهة الصليبيين ومد يد المساعدة لاخوانهم بالشام بسبب الاختلاف الذى وقع بينهم[4] .

ولما لم يستطع شرف المعالى بن الافضل استغلال ماحققه على الصليبيين من انتصار فى حملته التى خرج بها فى سنة ٤٩٥هـ / ١١٠٢م بسبب الاختلاف بين القوات الفاطمية عاد إلى مصر ، الا ان الوزير الفاطمى الافضل لم يتخاذل عن جهاد الصليبيين ومحاولة استعادة مافقده الفاطميون من املاك فى بلاد الشام ، فأسرع إلى تجهيز حملة عسكرية ثالثة سنة ٤٩٦هـ / ١١٠٢م ، قسم منها أرسله عن طريق البحر

---

(١)العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٦ ، انظر ابن القلانس ، ص ١٤١ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ٨ ، ق ١ ، ص ١ .

ويازور : بلدة صغيرة تقع بسواحل الرملة من اعمال فلسطين واليها ينسب الوزير الفاطمى على بن عبدالرحمن اليازورى ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢)ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٦٤ ، انظر ابن ميسر اخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٤٠ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٢٨ .

(٣)ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٦٥ ، انظر ابن القلانسي ، ص ١٤١ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٣٢ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٦ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٦٤ .

بقيادة القاضى بن قادوس[1] ، وقسم منها أرسله عن طريق البر بقيادة تاج العجم أحد مماليك بدر الجمالى فوصل الاسطول إلى يافا فى الوقت المذى وصل فيه تاج العجم إلى عسقلان ، الا أن وجهات نظر كل من القائد البحرى ابن قادوس والقائد البرى تاج العجم اختلفت اذ راى القاضى بن قادوس استدعاء تاج العجم لقتال الصليبيين بيافا والثغور البحرية ، فرفض تاج العجم تلبية دعوة القاضى ابن قادوس محتجا بأنه لم تكن عنده الاوامر من الافضل بالانضمام إليه ، فما كان من القاضى ابن قادوس إلا أن أرسل إلى قاضى عسقلان وأعيانها يخبرهم بموقفه وعدم انضمام تاج العجم إليه ، ويطلب منهم شهادة بأنه أقام على يافا مدة عشرين يوما[2] .

وعلى اية حال فان هذه الحملة العسكرية لم تأت بطائل فى استعادة مافقده الفاطميون فى بلاد الشام ، الا أن الاسطول الذى كان بقيادة ابن قادوس كان يحمل معه الكثير من الغلات والمؤن التى أدت إلى رخص الاسعار ، وانتعاش السكان بيافا وغيرها من مدن الساحل للصمود فى وجه الصليبيين الذين لم تنقطع غاراتهم عن مدن الساحل الفاطمية[3] .

أما الوزير الافضل بن بدر الجمالى فانه حين علم بما حصل من تاج العجم وتأخره عن نجدة بن قادوس ، أرسل من قبله من قبض عليه وحمله إلى مصر ، وعين بدلا منه على الجيش الفاطمى بعسقلان قائدا آخر هو جمال الملك رضوان « وأسكنة بعسقلان وجعله متقدم العساكر الشمالية »[4] . الا أن هذه الجيوش لم تستطع الوقوف فى وجه الصليبيين ، بل زادت من حدة وضراوة قتال الصليبيين الذين استولوا فى السنة التالية

---

(١)ابن قادوس : هو ابوالفتح محمود بن اسماعيل بن قادوس الدمياطى ، كان كاتب الانشاء بالديار المصرية وهو شيخ القاضى الفاضل ، وكان الفاضل يسميه ذا البلاغتين ، انظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٣٥ .

(٢)ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٦٥ ، المقريزى ، اتعاظ ، جـ ٣ ص ٣٣ .

(٣)العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٧ ، ابن القلانس ، ص ١٤٣ .

(٤)ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٦٥ ، انظر المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٣٣ ، المقريزى يخالف ابن الاثير حول اسم القائد الذى ارسله الافضل خلفا لتاج العجم حيث ذكر المقريزى ان اسمه تاج الملك رضوان .

٤٩٧هـ / ١١٠٣م على جبيل وعكا[١] . وكان سقوط عكا بيد الصليبيين فى تلك السنة ٤٩٧هـ / ١١٠٣م فى عهد واليها زهر الدولة الجيوشى من قبل الفاطميين ، حيث عجز عن حرب الصليبيين ، فخرج منها إلى دمشق ومكث بها مدة من الزمن سار على اثرها إلى القاهرة[٢] . ولما وصل زهر الدولة إلى القاهرة عاتبه الافضل بن بدر الجمالى على تسليم عكا ولامه على ذلك وكاد ان ينزل به العقوبة ولكنه قبل عذره فى تسليم البلد إلى الصليبيين خصوصا اذا عرفنا أن صاحبه الخليفة الفاطمى الآمر باحكم الله لم يهتم بأمر الجهاد ضد الصليبيين على حد تعبير ابوالمحاسن « حتى استولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها فى أيامه »[٣] .

والواقع أن الافضل لم يستطيع صبرا على مايجرى فى بلاد الشام وماحل بالمعاقل الفاطمية وسقوطها بيد الصليبيين ، وحيث انه لم يتخل عن فكرة ارسال حملة كبيرة لطرد الصليبيين من بلاد الشام فقد جهز الافضل سنة ٤٩٨هـ / ١١٠٥م حملة عسكرية جعل عليها ابنه سناء الملك حسين مع عسكر كثيف يزيد عدده عن خمسة الاف فارس وراجل ، واستنفر معه العرب بجنوب فلسطين ولما وصل سناء الملك حسين بن الافضل إلى عسقلان انضم إليه جمال الملك رضوان النائب بها حسب تعليمات الافضل . ولم يكتف الافضل بهذا ، بل طلب النجدة من ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق بسبب مابلغ الافضل من وصول العديد من مراكب الصليبيين إلى ميناء اللاذقية بالأضافه إلى مابلغه من شدة الحصار المفروض على طرابلس ، فلبى طغتكين النداء وأرسل إلى الفاطميين أحد رجاله ومعه ألف وثلاثمائه فارس . ويبدو أن هذه أول محاولة عملية يشترك فيها المسلمون فى مصر والشام ضد الصليبيين[٤] .
وعلى أية حال فان بلدوين الاول ملك بيت المقدس ، حين علم باجتماع المسلمين فى

---

(١)العظيمى ، تاريخ العظيمى حوادث سنة ٤٩٧هـ، ابن القلانسي ، ص ١٤٣ ــ ١٤٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٧٢ ، الازدى ، الدول المنقطعة ، قسم الفاطميين ، ص ٨٨ ، ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ ٢ ص ٩٦ ، أبوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢١٧ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ، ص ١٧٠ ــ ١٨٨ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ٣٤ .
وجبيل : بلد مشهور الى الشرق من بيروت على بعد ثمانية فراسخ ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .
(٢)المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٣٧ ، ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب جـ ٣ ، ص ٤٠ .
(٣) ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ص ١٧٨ .
(٤) ابن القلانسي ، ص ٣٤٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٩٤ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٢٦٥ .

عسقلان ترك يافا وسار إلى الرملة ليستطيع حماية يافا وبيت المقدس ، فالتقى بالمسلمين بين يافا وعسقلان فاستظهر الصليبيون على المسلمين ، وقتلوا والى عسقلان ، وأسروا بعض المقدمين ، وانهزم عسكر مصر إلى عسقلان وعسكر دمشق إلى بصرى[1] . وكانت هذه آخر محاولة قام بها الأفضل بن بدر الجمالى لاسترداد بيت المقدس وغيرها من المعاقل الفاطمية التى سقطت بيد الصليبيين ، وقف بعدها موقف المدافع عما تبقى بيد ولاة الفاطميين بالشام . ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل ان الافضل لم يستطع الحفاظ على ماتبقى من معاقل الفاطميين بسواحل بلاد الشام . اذ اتبع خطة فى الدفاع عنها تختلف عن تلك التى اتبعها فى مبدأ الامر ، وتقوم هذه الخطة فى أغلب الاحيان على ارسال الاساطيل المصرية المحملة بالمؤن والعتاد والذخائر لتقوية أصحاب البلاد الاصليين للدفاع عن بلادهم كما فعل مع أهل بيروت وصيدا سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م[2] ، ولكن حين بلغه خبر حصار الصليبيين لبيروت وما حل بها من دمار أرسل حملة عسكرية صغيرة لايتعدى عدد أفرادها ثلاثمائة فارس نجدة لاهلها ، الا أن هذه النجدة لم تصل إلى بيروت ، اذ تعرض لها الصليبيون حيث نصبوا لها كمينا بالاردن ، ففرقوا شملها وتشتت أمرها[3] .

وبالرغم من أن خطة الدفاع التى سلكها الافضل قد شجعت كثيرا من السكان على مواصلة القتال والوقوف بصلابة فى وجه الصليبيين ، إلا أنها لم تنجح فى وقف الزحف الصليبى ، نظرا لعدم وجود تنسيق بين المدافعين أنفسهم ، وتأخر الاسطول المصرى فى الوصول إلى بلاد الشام فى بعض الاحيان نظرا لبعد المسافة بين مصر وبلاد الشام ، مما أدى إلى انهيار قوة المدافعين ، كما حصل لاهل طرابلس سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م تلك

---

(١)ابن القلانسي ، ص ١٤٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٩٥ ، المقريزى اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٣٥ ، ابن ميسر ، اخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٤١ ، وذكر العظيمى (تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٨هـ) بان الغلبة لم تكن لاى من الطرفين .

— وبصرى : من اعمال دمشق ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢)ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٧٥ — ٤٧٦ ، ابن القلانس ، ص ١٦٧ ، ١٧١ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٤٥ — ٤٦ ، ابوالفداء ؛ المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٢٤ ، ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٩٩ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٧٠ ، ابن ايبك ، كنز الدرر ، جـ ٦ ، ص ٤٧٤ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٦٨ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٤٥ .

المدينة التى سقطت بيد الصليبيين بعد حصار لها دام أكثر من سبع سنين[1] .

وفى الحقيقة فان لجوء الأفضل بن بدر الجمالى إلى تزويد المدن الساحلية بالمؤن والسلاح والعتاد بدلا من الحملات العسكرية لايعنى تخاذله عن جهاد الصليبيين ، ولكنه أدرك ماتصفت به الاعمال العسكرية التى قامت بها الدولة الفاطمية ضد الصليبيين من سوء النظام والاهمال وعدم تقدير خطورة الموقف . وقد ظهر ذلك بوضوح فى الخلافات التى حصلت بين قادة الجيش الفاطمى ، فضلا عن سلوك قادة الاسطول ، وما اتصفوا به من الأنانية[2] .

ولما لم يبق من المعاقل الفاطمية ببلاد الشام فى أيديهم سوى صور وعسقلان ، فان الافضل لم يتهاون فى أمر الحفاظ عليها ، حتى انه حين علم بمراسلة شمس الخلافة الوالى بعسقلان لبلدوين الاول ملك بيت المقدس سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م عظم الامر عليه ، وأرسل حملة عسكرية إلى عسقلان بقصد القبض على الوالى بها ، فتم ذلك وزال ماكان الافضل يخشاه من تسليم عسقلان إلى الصليبيين[3] .

كما أن الافضل بن بدر الجمالى لم يجد حرجا فى السكوت حين سمع بتسليم صور من قبل عز الدين أنو شتكين إلى ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق سنة ٥٠٦هـ / ١١١٢م نظرا لما كانت تمر به مصر من شدة اقتصادية نتيجة تفشى الوباء بها تلك السنة والسنة التى قبلها ، مما عرقل الافضل عن ارسال ما يمكن ارساله من المؤن والذخائر . ويبدوا أن الافضل رأى أن بقاء صور بيد المسلمين سواء الفاطميين أو غيرهم خير من سقوطها بيد الصليبيين . ومما يدل على ذلك أن الافضل بن بدر الجمالى جهز فى سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣م أسطولا الى صور محملا بالمؤن والميرة والعتاد فرخصت بها الأسعار وتحسنت أحوال سكانها « وزال طمع الافرنج عنها »[4] . وهكذا نجح الوزير الأفضل بن بدر الجمالى فى قطع الامل على الصليبيين فى الاستيلاء

---

(١)العينى ، عقد الجمان ، جـ ١١ ، ورقة ١٥٨أ ب ، ابن القلانسي ، ص ١٦٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٧٥ .

(٢)سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحروب الصليبية ، ص ١٦٩ ــ ١٧٠ .

(٣)ابن القلانسي ، ص ١٧٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٨٠ ــ ٤٨١ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٤٦ ــ ٥٠ .

(٤) ابن القلانسي ، ص ١٨١ ــ١٨٩ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٩٨ ، ٦٢٠ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٥١ ، العظيمى تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٦هـ ، ابوا المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ١٧١ .

على صور بعد تسليمها إلى ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق الذى وافق من جانبه على بقاء الدعوة فيها للفاطميين . ويبدو أن ظهير الدين طغتكين قد أبقى الدعوة بصور للفاطميين بقصد الحصول من مصر على مايحتاجه من المؤن والذخائر التى كانت تصل إلى مدن الساحل الشامى .

وفى الحقيقة أن ماسلكه الافضل بن بدر الجمالى فى سبيل المحافظة على صور وعسقلان ، قد أدى إلى تنبيه الصليبيين عن خطورة الفاطميين وانه لابد من حماية مملكة بيت المقدس من ناحية الجنوب الشرقى ، وذلك عن طريق السيطرة على الصحراء الممتدة جنوبى البحر الميت حتى خليج العقبة وهى المنطقة المعروفة باسم وادى عربة ، من أجل عزل مصر عن بقية العالم الاسلامى فى الشرق ، وقطع الطريق البرى بينها وبين الشام والعراق والحجاز[1] . ومن أجل تحقيق ذلك سعى بلدوين فى سنة ٥٠٩هـ / ١١١٥م إلى تشييد حصن الشوبك ، ليكون مركزا يمكن الصليبيين من السيطرة على وادى عربة بأجمعه . ولم يقف بلدوين ملك بيت المقدس عند هذا الحد ، بل قام في السنة التالية ٥١٠هـ / ١١١٦م بحملة عسكرية مضى بها على ساحل خليج العقبة حتى وصل أيلة وبنى بها قلعة حصينة مكنته من السيطرة على طريق القوافل بين مصر وبلاد الشام . كما شيد قلعة اخرى فى جزيرة فرعون الواقعة قبالة أيلة على خليج العقبة ، وبذلك تمكن الصليبيون من السيطرة على شبه جزيرة سيناء[2] . ولما لم يكن أمام بلدوين الاول من وسيلة لوقف غارات الفاطميين على مملكته سوى مهاجمتهم فى عقر دارهم ، ليشعرهم بقوته ، فقد خرج على رأس قوة من رجاله فى سنة ٥١١هـ / ١١١٨م ، وعبر الصحراء من غزة إلى العريش حتى وصل إلى الفرما فاستولى عليها واحرق مساجدها وكثيرا من بيوتها[3] . ولكن أجله لم يمهله لمواصلة سيره داخل الاراضى المصرية ، وسواء جاء

---

(١) سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحروب الصليبية ، ص ١٨٨ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ١٥٨ ــ ١٥٩ ، العرينى الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣٢٠ ــ ٣٢٢ .

(٢) سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحروب الصليبية ، ص ١٨٨ ــ ١٨٩ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ١٦٠ .

وحصن الشوبك : قلعة حصينة فى اطراف بلاد الشام بين عمان وأيله قرب الكرك . وأيله : مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلى الشام . وقيل هى آخر الحجاز وأول الشام . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١١ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٧١رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ص ١٦١ ــ ١٦٢ .

والفرما : مدينة على ساحل البحر المتوسط من ناحية مصر ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

ذلك المرض لانه سبح فى النيل عند تنيس أم غير ذلك ، فقد توفى فى نهاية السنة ٥١١هـ / ١١١٨م ، وحمله اصحابه حتى وصلوا به قرب بورسعيد ودفنوه فى المكان الذى يعرف باسم سبخة بردويل[١] .

وعلى أية حال فان حملة بلدوين الأول على مصر لم تؤد إلى نتائج حاسمة بالنسبة للصليبيين ، بل على العكس فقد أيقظت الفاطميين وأشعرتهم بالخطر الصليبى على بلادهم ، ودفعت الوزير الافضل للعودة مرة أخرى لاعداد الحملات العسكرية وارسالها إلى بلاد الشام ، كما أن حملة بلدوين الأول على مصر قد حملت الأفضل بن بدر الجمالى على التحالف بصورة واضحة مع حكام دمشق السنيين . ففى سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م جهز الافضل بن بدر الجمالى حملة عسكرية قوامها سبعة الاف فارس سارت إلى عسقلان بقصد تعقب رجال بلدوين . ولكن هذه الحملة لم تستطع اللحاق بالصليبيين فبقيت العساكر الفاطمية فى عسقلان بانتظار التعليمات الواردة من الوزير الافضل . ولما كا الافضل قد اتصل بطغتكين من أجل الوقوف سويا فى وجه الصليبيين ، فقد وافق طغتكين وحضر بنفسه إلى عسقلان ، وعندئذ أخبره قائد الحملة الفاطمية بأن لديه تعليمات من الافضل بالوقوف عند رأيه ــ أى طغتكين ــ والتصرف بامرته[٢] ولكن القوات المشتركة بقيادة طغتكين لم تستطع لقاء الصليبيين ولم تقم بأى عمل عسكرى بل رابطت مدة شهرين فى عسقلان عاد بعدها طغتكين إلى دمشق والفاطميون إلى مصر[٣] .

كان هذا آخر ماقام به الافضل بن بدر الجمالى فى سبيل وقف الزحف الصليبى على بلاد الشام ، ذلك ان العلاقات بينه وبين الخليفة الآمر الفاطمى قد توترت ، وتعرض الافضل لبعض الفتن الداخلية ، تلك الفتن التى صرفته عن الاهتمام بأمر الصليبيين فى بلاد الشام[٤] .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٤٣ ، ابن القلانسي ، ص ١٩٩ ، ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٧١ ، سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحروب الصليبية ، ص ١٨٩ .
ــ وتنيس : جزيرة فى بحر مصر القريبة من البر ما بين الفرما ودمياط ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٤٣ ، ابن القلانسي ، ص ١٩٩ ، العظيمي ، تاريخ العظيمي ، حوادث سنة ٥١٢ هـ .

(٣) ابن الوردي ،تتمة المختصر ، جـ ٢ ، ص ٣٤ ، ابن العماد الحنبلي ، الانس الجليل ، جـ ١ ، ص ٣٠٩ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣٢٦ ــ ٣٢٧ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ٢٣٠ .

(٤) انظر ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٩٠ ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ص ٥٧ ، سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية في الحروب الصليبية ، ص ١٩٠ .

ولما كان الافضل بن بدر الجمالى قد لجأ إلى محاولة التحالف مع حكام دمشق السنيين لوقف زحف الصليبيين ، فقد أغضب ذلك الخليفة الآمر وغلاة الشيعة بمصر ، مما أدى إلى قيامهم بتدبير قتله بيد بعض الباطنية الذين كانوا « يكرهونه لاسباب منها : تضييقه على امامهم .. وترك معارضة أهل السنة فى اعتقادهم والنهى عن معارضتهم ، واذنه للناس فى اظهار معتقداتهم والمناظرة عليها »[١] .

وبمقتل الوزير الافضل بن بدر الجمالى سنة ٥١٥هـ / ١١٢٢م تخلص الخليفة الآمر من القيود التى كانت مفروضة عليه وبدأ فى تحقيق طموحه لا من أجل جهاد الصليبيين وانما من أجل الحد من نفوذ الوزراء العظام ، فاختار فى وزارته بعد مقتل الافضل ، أبو محمد عبدالله البطائحى ، واستبد الخليفة الآمر بالأمور عنه[٢] . أما الخطوات التالية التى اتخذها الخليفة الآمر ووزيره المأمون البطائحى ، فهى العمل على التخلص من سيف الدولة مسعود الوالى بمدينة صور من قبل ظهير الدين طغتكين . ففى سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م وردت إلى مصر شكايات من أهل صور ضد واليهم سيف الدولة مسعود . فما كان من الخليفة الآمر ووزيره المأمون البطائحى الا أن سيرا أسطولا محملا بالمؤن والعتاد بقيادة وحشى بن طلائع ومعه التعليمات بالقاء القبض على الوالى بصور ، وارساله إلى مصر ، فقبض عليه واحضره إلى القاهرة[٣] . وعلى مايبدو فقد شعر الخليفة الآمر ووزير المأمون البطائحى بنوع من الحرج تجاه رعاياهما الذين كانوا قد تعودوا من الوزير السابق الافضل بن بدر الجمالى سماع أنباء الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فى بلاد الشام ، فما كان منهما الا أن أمرا بتجهيز حملة عسكرية فى السنة التالية ٥١٧هـ / ١١٢٣م إلى عسقلان لحصار الصليبيين فى يافا فى الوقت الذى سيرا فيه الاسطول بالبحر . ولكن هذه الحملة لم تستطع النيل من الصليبيين[٤] .

أما بالنسبة للصليبيين فى هذه المرحلة فانهم حين سمعوا بخروج سيف الدولة

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٩٠ ، انظر ابن القلانسي ، ص ٢٠٣ ، ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢٢٢ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٦٠ ، ابن الصيرفى ، الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٦١ .

(٢) ابن ميسر ، أخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٧٣ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ٢٠٧ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٩٦ ، ابن ايبك ، كنز الدرو ، جـ ٦ ، ص ٤٩ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٦ هـ .

(٤) سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحروب الصليبية ، ص ١٩١ .

مسعود من صور إلى مصر واعتقاله هناك تحرك فيهم طمع الاستيلاء عليها وحدثوا انفسهم بتملكها « وشرعوا فى الجمع والتأهب للنزول عليها وحصرها » فى سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م[١] . فلما أحس الوالى بها الاعز بن اللبان بالخطر الصليبى أرسل إلى الخليفة الآمر بأحكام الله يخبره بحقيقة الامر وماهو فيه من قلة الرجال والسلاح ، وأشار عليه بأن ترد ولاية صور إلى ظهير الدين طغتكين « فاقتضى الرأى ان ترد ولاية صور إلى ظهير الدين طغتكين ليتولى حمايتها والذب عنها »[٢] .

وافق ظهير الدين طغتكين ان ترد ولاية صور إليه ولكنه ندب لولايتها جماعة لاغناء لهم ولا كفاية فيهم ولا شهامة ، ففسد أمرها ، فى الوقت الذى وجد فيه الصليبيون الفرصة سانحة لمواصلة حصارها . وحاول طغتكين رفع الحصار عنها بمهاجمة ممتلكات الصليبيين فى بانياس وغيرها ، غير ان من بصور من المسلمين لم يتمكنوا من الدفاع عنها وضعفت نفوسهم عن مقاومة الصليبيين مما اضطر ظهير الدين طغتكين إلى مراسلة الفاطميين فى مصر لطلب المساعدة ولكنهم لم يستجيبوا له[٣] . ويبدو أن عدم استجابة الفاطميين لنداء ظهير الدين طغتكين هو انشغالهم باخماد الفتنة التى قام بها بعض المناوئين فى صعيد مصر فى ذلك الوقت ، وانشغال الاسطول المصرى بالدفاع عن ثغر الاسكندرية سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م الذى تعرض لحملة بحرية قام بها البنادقة[٤] . بالإضافه إلى عدم مبالاة الخليفة الآمر بجهاد الصليبيين فى بلاد الشام .

وعلى أية حال فقد أدى عدم ارسال الفاطميين نجدة للوالى بصور إلى مراسلته لظهير الدين طغتكين يعرض عليه تسليم صور إلى الصليبيين على أن يسمحوا لمن بها من الجند والرعية بالخروج منها وحمل مايمكن حمله من اموالهم وامتعتهم فاستقر الرأى على ذلك . وأرسل ظهير الدين طغتكين إلى الصليبيين بشأن تسليم صور إليهم واعطاء الامان لمن بها من المسلمين فوافق الصليبيون على ذلك وفتحت صور ابوابها للصليبيين فى اليوم الثالث والعشرين من جمادى الاولى سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م وانتهى الأمر إلى

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٢١ .

(٢) ابن القلانس ، ص ٢١١ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٢١ ــ ٦٢٢ ، الازدى ، الدول المنقطعة ، قسم الفاطميين ، ص ٨٧ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٨٦ .

(٣) ابن القلانسي ص ٢١١ .

(٤) العظيمى ، تاريخ العظيمى حوادث سنة ٥١٨هـ .

خروج اهلها وتفرقهم فى البلاد[1] .

لم يؤد سقوط صور بيد الصليبيين إلى رد فعل حاسم من قبل الفاطميين بسبب اهمال الخليفة الآمر لأمر الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين بالشام بالاضافة إلى الانقسام الداخلى فى صفوف الفاطميين . ففى بداية سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م قبض الخليفة الآمر على وزيره المأمون البطائحى وقتله[2] . ويبدو أن سبب القاء الخليفة الآمر القبض على وزيره البطائحى انما كان بسبب انتفاضة بعض الرعايا المصريين الذين اتهموا الآمر بالتهاون فى أمر الجهاد فجعل مرد هذه الانتفاضة إلى وزيره البطائحى ، بدليل استبداده بالامور واستعانته ببعض العناصر من غير المسلمين كبهرام الارمنى[3] .

وهكذا يمكن القول أن الدولة الفاطمية قد أسهمت بدور فعال في جهاد الصليبيين قبل قيام الاسرة الزنكية ولكن هذا الدور لم يؤد إلى وقف الزحف الصليبى على بلاد الشام حيث لم يبق من معاقلهم في بلاد الشام سوى عسقلان التى ظل الفاطميون يتشبثون بها حتى سقطت هى الاخرى بيد الصليبيين سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م .

ومما تجدر الاشارة إليه أنه لايمكن لأحد انكار فضل الفاطميين فى بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين ، ولكن عدم نجاح الفاطميين فى الحفاظ على معاقلهم فى بلاد الشام قد أسدل الستار على دورهم فى جهاد الصليبيين بالاضافة إلى أن هناك عدة عوامل حدت من نشاط وفعالية الفاطميين فى صد الصليبيين ويمكن تلخيصها فيمايلى :

أولا : عدم ادراك الفاطميين لطبيعة الحركة الصليبية ، ومثلهم مثل السلاجقة فى شمال الشام ، وهذا بالتأكيد من أبرز العوامل التى دفعت الوزير الفاطمى الافضل بن بدر الجمالى إلى إجراء مفاوضات مع الصليبيين بأنطاكية سنة ٤٩١ / ١٠٩٧م ، الامر الذى جعل الفاطميين يتخبطون فى سياستهم

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٨ ، العينى ، عقد الجمان جـ ١١ ، ورقة ٢٠٦أ ، ابن القلانسي ص ٢٠٩ — ٢١١ ، ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ، ص ٦٢٢ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ١٠٧ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ص ٢٣٧ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢٢٨ ، ابن ايبك ، كنز الدرر ، جـ ٦ ، ص ٤٩٥ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢٧٢ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٢١٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٢٩ — ٦٣٠ .

(٣) سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحروب الصليبية ، ص ١٩٣ .

الحربية ضد الصليبيين فيما بعد .

ثانيا : ضعف الخلافة الفاطمية عند قدوم الصليبيين إلى بلاد الشام وماكانت تمر به من الازمات السياسية والاقتصادية ، وانتشار الاوبئة ، بالاضافة إلى النزاع الذى كان ينشب بين طوائف الجيش كطائفة السودان والاتراك ودور الخلفاء الفاطميين فى تأجيج الازمات تلك كالاستعانة بطائفة ضد أخرى .

ثالثا : تقاعس الفاطميين عن الاستعانة بالسلاجقة ، بسبب وجود العداء المذهبى بين الطرفين ، الامر الذى دفعهم احيانا إلى استغلال هذا العداء المذهبى إلى الانقضاض على بعض ماكان يحوزة السلاجقة من المعاقل . وهذا بالتأكيد مادفع بعض المؤرخين إلى اتهام الدولة الفاطمية بأنها كانت وراء وصول الصليبيين إلى الشام .[1] .

رابعا : وقوف الخلفاء الفاطميين كالمستعلى والآمر كحجر عثرة فى وجه المتحمسين من الوزراء لجهاد الصليبيين كالوزير الافضل بن بدر الجمالى الذى كان قد حمل على عاتقه مهمة جهاد الصليبيين .

خامسا : تعيين قادة غير أكفاء لقيادة الجيوش الفاطمية التى كانت تسير إلى بلاد الشام ، الامر الذى أدى إلى سوء النظام وعدم تقدير خطورة الموقف مما كان سببا فى وقوع الهزائم على الجيوش الفاطمية ، هذا فضلا عن طول المسافة بين مصر والشام مما كان عائقا من العوائق التى حدت من نشاط الفاطميين للوقوف فى وجه الصليبيين[2] .

ــ بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين قبل عماد الدين زنكى :

من الحقائق المسلم بها فى تاريخ الحركة الصليبية ، ان حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين انبعثت لأول مرة فى بلاد الشرق الاسلامى من

---

(١) انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٧٣ .

(٢) لمزيد من التفصيل انظر : سعيد عاشور شخصية الدولة الفاطمية فى الحروب الصليبية ، ص ١٦٥ ــ ١٩٥ ، المناوى ، الوزارة والوزراء ، ص ٢٢٥ ــ ٢٢٧ ، على محمد الغامدى ، بلاد الشام قبل الغزو الصليبى ، رسالة ماجستير لم تطبع ، ص ٢٩٤ ــ ٢٩٧ .

منطقة الجزيرة[1] . بيد أن السؤال الذى يطرح نفسه على الباحث هو لماذا انبعثت فكرة الجهاد الاسلامى من منطقة الجزيرة دون غيرها من بلدان الشرق الاسلامى ؟ . وقبل الاجابة على هذا السؤال لابد من القاء نظرة على خريطة الشرق الاسلامى لمعرفة الدول والامارات الاسلامية التى كانت قائمة فى ذلك الوقت ، مع شرح أهم الاسباب التى حالت دون قيام أى من بلدان الشرق الاسلامى بحمل لواء الجهاد الاسلامى لأول مرة ضد الصليبيين .

فالخلافة الفاطمية فى مصر كما رأينا فى الصفحات السابقة ، قد أصابها الضعف والانهيار ، وبذلك لم يصبح بمقدورها حمل لواء الجهاد ضد الصليبيين ، بعد ان فقدت كل أسباب القوة والمنعة ، ودخلت مرحلة الشيخوخة والتدهور ، بالاضافة إلى أنها لم تعانى من خطر الصليبيين فى عقر دارها ، بعكس السلاجقة الذين فوجئوا بسقوط أنطاكية سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م فى أيدى الصليبيين . كما أن المحاولات التى قام بها الوزير الافضل بن بدر الجمالى لوقف الزحف الصليبى على بلاد الشام لم تؤد إلى نتيجة ولا تعدو أن تكون أشبه بصحوة الموت التى تسبق القدر المحتوم[2] . ولم تقل الخلافة العباسية فى العراق ضعفا وخورا عن الخلافة الفاطمية فى مصر ، بل انها أشرفت على السقوط فى منتصف القرن الخامس الهجرى ــ الحادى عشر الميلادى ــ أمام حركة البساسيرى التى ساندها الفاطميون ، لولا دخول السلاجقة إلى العراق وانقاذ الخلافة من السقوط ، واصبح بقاء الخلافة العباسية لا يعدو كونه شكلا لامعنى له ، فقد جردها السلاجقة من أى قوة حقيقية ، وأضحت خاضعة لهم ، رغم تفكك وحدتهم عقب وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م ، ولم يعد فى استطاعة اى من الخلفاء العباسيين جمع كلمة المسلمين وحمل راية

---

(١) حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ١١ ، وبلاد الجزيرة : تقع بين دجلة والفرات مجاورة لبلاد الشام وتشتمل على ديار مضر وديار بكر ، وسميت الجزيرة لوقوعها بين نهرى دجلة والفرات . وتمتاز منطقة الجزيرة بانها صحية الهواء جيدة الربع والنماء ، واسعة الخيرات ، بها مدن جليلة وحصون منيعة وقلاع كثيرة . انظر ابوالفدا ، تقويم البلدان ص ٢٧٣ ، ٢٧٥ .

(٢) انظر ماسبق ، ص ١٤٩ ــ ١٥٤

الجهاد ضد الصليبيين فى بلاد الشام[1] .

أما عن السلاجقة فى فارس وخراسان فقد كانوا مشغولين عن واجب الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين بسبب الانقسام والتفكك الذى حدث بين أبناء السلطان ملكشاه وظل العداء وسوء العلاقات مستحكما بين أمراء البيت السلجوقى ، الامر الذى حال دون قيام دولة السلاجقة بفريضة الجهاد ضد الصليبيين ، بالاضافة إلى أن السلاجقة فى ايران كانوا فى منأى عن الامارات الصليبية فى بلاد الشام والجزيرة وهذا على مايبدو قد برر لهم العذر فى عدم مشاركتهم للاراتقة وغيرهم عبء الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين[2] .

أما عن بلاد الشام وماكان يمكن أن تقوم به فى سبيل حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فان النزاع الذى كان قائما فيها بين الفاطميين الشيعة والسلاجقة السنيين قبيل الحملة الصليبية الاولى أصبح أكبر عقبة أمام توحيد الجبهة الاسلامية هناك . يضاف إلى ذلك ماقام بها من نزاع بين الاخوين دقاق ورضوان ابنى تتش اللذين اتخذا من دمشق وحلب مركزين لاثارة الفتن والشقاق فى بلاد الشام[3] . فضلا عن أن بلاد الشام كانت تزخر بالعديد من الامارات كامارة بنى عمار فى طرابلس وبنى منقذ فى شيزر تلك الامارات التى كانت تحرص على بقائها اكثر من حرصها على الانضمام لاى من القوى الاسلامية التى تزعمت حركة الجهاد ضد الصليبيين .

وهكذا لم يبق من أقطار المشرق الاسلامى من هو أقدر على بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين سوى منطقة الجزيرة ، وذلك للاسباب التالية :

أولا : أن منطقة الجزيرة اول اقطار المسلمين فى المشرق الاسلامى التى أكتوت بنار الخطر الصليبى عندما استولى الصليبيون على الرها وتأسست بها أولى الامارات الصليبية سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م ، فأدرك السكان خطر توغل الصليبيين فى بلادهم ، مما بعث المسلمين على التفكير الجدى فى

---

(١) أنظر ماسبق ص ١٠٥ ومابعدها .

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٣٨٤ — ٣٨٥ ، عبدالنعيم حسنين ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ٨٣ — ٨٥ .

(٣) حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٢ .

المبادرة إلى مهاجمة الصليبيين .

ثانيا : أن منطقة الجزيرة قد ظهرت شخصيتها منذ عصر صدر الاسلام بسبب مجاورتها لاطراف الدولة البيزنطية ، مما نشأ عنه خطر شديد على المسلمين ايام الامويين والعباسيين فأصبحت خط الدفاع الأول عن ثغور المسلمين ضد الروم ، وبعد الغزو الصليبى اصبحت منطقة الجزيرة تواجه امارة الرها الصليبية التى شكلت اكبر خطر على الخلافة العباسية فى بغداد[1] .

ثالثا : شهدت منطقة الجزيرة خلال النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى دخول الاتراك السلاجقة اليها مع مااشتهروا به من حبهم لتربية الخيول والمغامرة مع حماسهم للإسلام يسبب قرب عهدهم به ، وتعصبهم الشديد للمذهب السنى . وأمد السلاجقة التركمان منطقة الجزيرة بدماء جديدة شديدة التحمس إلى الجهاد فى سبيل الله ، بعكس القوى الاسلامية الاخرى فى بلاد الشرق الاسلامى التى خبت جذوة الحماس الدينى فى نفوسها وخمدت روح القتال لديها[2] .

رابعا : الثروات الضخمة والموارد الكبيرة التى حوتها منطقة الجزيرة بسبب توفر مصادر المياه ، وخصوبة الأرض ، وسعة الرقعة الزراعية وكثرة المراعى اللازمة للخيل والماشية ، الامر الذى مكنها من مد المجاهدين بمصدر لاينفذ من المؤن والعتاد . هذا فضلا عن الحصانة الطبيعية التى تمتعت بها كبرى مدن وقلاع الجزيرة التى انطلقت منها حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين ، مثل الموصول وآمد وماردين ، وحصن كيفا وغيرها ، إذ أن تلك المدن التى امتازت بحصانة جغرافية فريدة جعلت اقتحامها عنوة أمرا بالغ الصعوبة ، وبالتالى اصبحت فى مأمن من الهجمات الصليبية المضادة ، ولا يستبعد أن يكون قد اختمر فى نفوس زعماء حركة بعث فكرة الجهاد الاسلامى مايمثله وجود امارة الرها الصليبية فى منطقة الجزيرة من خطورة بالغة على مركزهم بالاضافة إلى خوفهم من تقدم الصليبيين جنوبا للقضاء على الخلافة العباسية فى بغداد .

---

(١) عبدالمنعم ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ١٥٣ .

(٢) العرينى ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٢ ــ ٢٣ ، عمادالدين خليل ، الامارات الارتقية فى الشام والجزيرة ، ص ٢٠١ .

من هنا فلا غرو أن تنبعث فكرة الجهاد الاسلامى من منطقة الجزيرة بقصد انتزاع الرها من ايدى الصليبيين . وقد اتخذت الفكرة مظهرها العملى منذ سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م حين قام قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل بجمع مااستطاع جمعه من العساكر بقصد منع انطاكية من السقوط بيد الصليبيين ولكن كربوقا لم يلبث أن توقف فى الطريق حيث حاصر الرها لمدة ثلاثة أسابيع فأعطى بذلك فرصة كبيرة للصليبيين جدوا فيها لفتح أنطاكية ، وقد تم لهم ذلك « ولو أن كربوقا أنفذ إلى أنطاكية مباشرة لاسلمة ياغى سيان مدينة أنطاكية ، وتغيرت ظروف المحاصرين »[١] . ولكن كربوقا رفع الحصار عن الرها حين سمع بسقوط أنطاكية بيد الصليبيين ، وعبر الفرات إلى الشام وأقام بمرج دابق حيث اجتمع هناك دقاق بن تتش صاحب دمشق وظهير الدين طغتكين أتابك دقاق ، وجناح الدولة حسين صاحب حمص ، وأرسلان تاش صاحب سنجار ، وسقمان بن أرتق صاحب بيت المقدس ، وغيرهم من الامراء ممن ليس مثلهم فى القدرة والكفاية على حد قول ابن الاثير[٢] . وانضم الامراء جميعا تحت قيادة كربوقا ، وسار بهم صوب أنطاكية فى سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م التى كانت قلعتها لاتزال فى أيدى المسلمين ، فاقتربوا منها وشددوا عليها الحصار حتى تغير موقف الصليبيين وساءت حالتهم ، اذ وجدوا انفسهم محاصرين من الداخل والخارج ، فتعرضوا لازمة قاسية بسبب قلة الغذاء مما اضطرهم إلى أكل الجيف وأوراق الشجر[٣] . ودفع ذلك الصليبيين إلى ارسال وفد إلى كربوقا يطلبون منه الامان ليخرجوا من انطاكية ، غير أن كربوقا رفض طلبهم وقال لهم : « لا تخرجون إلا بالسيف »[٤] . وهذا مادفع احد رجال الدين المسيحيين واسمه بطرس (بورثلميوا) إلى اختلاق قصة الحربة المقدسة التى أدت إلى رفع معنويات الصليبيين والتفافهم حول زعمائهم ، فقويت نفوسهم على الاندفاع تجاه

---

(١) مؤلف مجهول ، ترجمة حسن حبشى ص ٧١ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ، ص ٢٧٦ ، مكسيموس مونروند ، من تاريخ الحروب المقدسة جـ ١ ص ١١٦ .

وعن سنجار انظر مايلى ص ٢٣٠ حاشية رقم ٢

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٧٦ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٣٦ — ١٣٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٥٥ ، ابن خلدون العبر ، جـ ٥ ص ١٩ — ٢٠ ، مكسيموس مونروند ، من تاريخ الحروب المقدسة ، جـ ١ ص ١١٧ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٧٦ ، انظر ابن الوردى ، تتمة المختصر ، جـ ٢ ، ص ١٩ ، ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٩٦ .

المسلمين والخروج من الباب جماعات متفرقة حتى تكامل خروجهم فزحفوا على المسلمين « وهم فى الغاية من القوة والكثرة فكسروا المسلمين وفرقوا جموعهم »[١] .

وهكذا فشل كربوقا فى قيادة التحالف الاسلامى الذى أراد من ورائه منع سقوط أنطاكية فى ايدى الصليبيين سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م . ويمكن أن نتساءل عن أسباب فشل كربوقا فى منع سقوط انطاكية فى ايدى الصليبيين فى الوقت الذى كان فيه الصليبيون قد وصلوا إلى درجة من الضعف والتدهور داخل أنطاكية . وللاجابة على هذا السؤال يمكن تركيز اسباب الفشل فيمايلى :

أولا : ماذكره مؤرخ أعمال الفرنجة من أن كربوقا صاحب الموصل قد أضاع ثلاثة أسابيع فى حصار الرها مما مكن الصليبيين من الاستيلاء على أنطاكية ، والاحتياط بما عسى أن يطرأ لهم من هجوم مباغت سواء من المسلمين الذين كانوا داخل قلعة أنطاكية او من اخوانهم فى بلاد الشام وغيرها[٢] .

ثانيا : عدم وجود تجانس بين قوات كربوقا التى تكونت من العرب والترك وغيرهم ، ثم ماقام به رضوان صاحب دمشق من بث روح الشقاق بين العرب والترك[٣] .

ثالثا : عدم وجود خطة عسكرية واضحة أمام كربوقا ، ولعل أبرز مايوضح ذلك هو عدم رغبة كربوقا فى السماح لرجاله بتوجيه الضربة القاضية للصليبيين وهم يخرجون جماعات متفرقة من أنطاكية . وهذا يعود إلى أن كربوقا كان يخشى على مايبدو من أنه اذا فعل ذلك فسوف لا يقضى إلا على مقدمة الصليبيين[٤] .

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٣٦ ، انظر مؤلف مجهول ، اعمال الفرنجة ، ص ١٨٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ١٣٧ ، ابوالفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٢ ، ص ٢١١ .
أما الحربة المقدسة : فهى حربة يزعم الصليبيون كذبا بان المسيح طعن بها حين رفع على خشبة الصليب . انظر اعمال الفرنجة ، ص ١٨٢ ، ومكسيموس مونروند ، من تاريخ الحروب الصليبية المقدسة ، جـ ١ ، ص ١٢٢ ــ ١٢٤ .

(٢) مؤلف مجهول ، اعمال الفرنجة ، ص ٧٠ ، انظر رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية حـ٢ ، ص ٣٢٨ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٧٥ ــ ٢٧٦ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٣٦ ، وانظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ج ١ ، ص ٢٠٥ .

(٤) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣٥٠ .

رابعا : سوء معاملة كربوقا لمن معه من الامراء ، كانت سببا من أسباب هزيمته وفشله ، فقد شعر بنوع من الاستعلاء عليهم « ظنا منه أنهم يقيمون معه على هذا الحال » مما ادى إلى استيائهم من تصرفاته[1] .

خامسا : ارتفاع الروح المعنوية عند الصليبيين بعد اختلاق قصة الحربة المقدسة ، بالاضافة إلى ماقام به زعماء الصليبيين قبل وصول كربوقا إلى أنطاكية من مراسلة دقاق صاحب دمشق واخباره أن مطامعهم لاتتعدى الاستيلاء على ماكان بيد الامبراطور البيزنطى فى شمال الشام[2] .

ولا يمنع هذا من القول بأن محاولة كربوقا منع أنطاكية من السقوط بيد الصليبيين كانت نقطة انطلاق فى بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين وكشفت للصليبيين عن مدى قوة المسلمين فى حالة اتحادهم ، كما أنها رسمت الطريق الصحيح لمن أتى بعده من زعماء المسلمين الذين أخذوا على عواتقهم حمل لواء الجهاد الاسلامى ، ليكملوا المسيرة من بعده . وتتمثل هذه الحقيقة اذا ماعلمنا أن عماد الدين زنكى قد عاش فى كنف كربوقا بعد موت والده[3] ، على أن كربوقا صاحب الموصل قد وافته منيته عند مدينة خوى بأذربيجان سنة ٤٩٥هـ / ١١٠٢م أثناء النزاع بين السلطان بركياروق بن ملكشاه وأخوه محمد بن ملكشاه ، فخلت الموصل من أحد الزعماء الذين لم يشغلهم النزاع القائم بين السلاجقة عن مواصلة العمل على بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين[4] .

وفى الواقع أن بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين لم تنطفئ فى منطقة الجزيرة بموت كربوقا فقد كان فى جزيرة ابن عمر أحد قادة الاتراك السلاجقة ويدعى

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٧٧ ، انظر ابوالفدا ، المختصر فى اخبار البشر ، جـ ٢ ، ص ٢١١ ، الذهبي ، دول الاسلام ، جـ ٢ ص ١٩ ــ ٢٠ ، عماد الدين خليل ، والامارات الارتقية في الشام والجزيرة ، ٢٠٣ .

(٢) أنظر ماسبق ص ١٢٥ ومابعدها .

(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ١٥ ــ ١٦ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٧ . ولمزيد من التفصيل انظر ابراهيم خليل ، كربوقا صاحب الموصل ودوره فى مقاومة الصليبيين ، مجلة المؤرخ العربى العدد الخامس ، طبعة الكويت ص ٩٥ ــ ١١١ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٣٤١ ، أبو الفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢١٥ ، الذهبى ، دول الاسلام ، ج ٢ ص ٢٥ ، وخوى : بلد مشهور من أعمال أذربيجان كثير الخيرات والفواكه . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

شمس الدولة جكرمش ، من مماليك السلطان ملكشاه وكان فى طاعة كربوقا[1] . فلما توفى كربوقا استطاع جكرمش الاستيلاء على الموصل سنة ٤٩٥هـ / ١١٠٢م . ونشب النزاع بين قادة وأمراء السلاجقة مع ماأصاب المسلمين من تمزق فى الشام والجزيرة[2] . من هنا رأى الصليبيون ان الفرصة سانحة للانقضاض على المسلمين والاستيلاء على حران ، نظراً لاهمية هذه المدينة ووقوعها على الطريق الموصل إلى بغداد وقلب العالم المشرق وقطع الصلة بين المسلمين فى العراق وفارس عن اخوانهم فى الشام والجزيرة فضلا عن أن سقوط حران بأيديهم سيعطيهم فرصة لمهاجمة الموصل نفسها وتامين الرها ، والسيطرة على اقليم الجزيرة[3] .

واستغل الصليبيون النزاع الذى نشب بين جكرمش صاحب الموصل وسقمان بن أرتق صاحب ماردين ، فضلا عما يدور فى حران نفسها من النزاع بين بعض الزعماء المحليين[4] . وسار الصليبيون إلى حران ومعهم كل من بلدوين الثانى صاحب الرها ــ الذى أصبح فيما بعد ملكا لبيت المقدس ــ وبوهمند الثانى صاحب أنطاكية ومعه تانكرو . الامر الذى ازعج كلا من جكرمش وسقمان بن أرتق وجعلهما يتناسيان مابينهما من حزازات قديمة ويتفقان على مقاومة الصليبيين . والتقى الاميران المسلمان عند راس العين على نهر الخابور فى اوائل شعبان سنة ٤٩٧هـ / ١١٠٣م ، وكان مع سقمان سبعة الاف فارس من التركمان ، ومع جكرمش ثلاثة الاف فارس من الترك والعرب والاكراد[5] . وتوجه جكرمش وسقمان لمهاجمة الرها والنيل منها ولكن بلدوين الثانى صاحب الرها أدرك خطر المسلمين على الرها ، فطلب من أصحابه التقدم صوب حران فتقدموا إليها وضربوا عليها حصارا كاد يؤدى إلى سقوطها فى أيديهم . ولكن الخلاف الذى وقع بين زعماء الصليبيين حال دون سقوط حران ، حتى وصلت الجيوش الاسلامية التى عدلت عن المسير إلى الرها ، فدارت بين الطرفين رحى معركة عنيفة عند نهر البليخ ، وهو أحد روافد نهر الفرات ، فانهزم الصليبيون ووقع بلدوين صاحب الرها

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ص ٢٨ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٥٩ ، ٣٤٢ ــ ٣٤٣ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ص ٢١٥ ، انظر رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ص ٧٠

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٣٩١ .

(٤) ابن الاثير ، جـ ١٠ ص ٣٧٣ ــ ٣٧٤ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب جـ ٣ ص ٤٠٤ .

(٥) ابن القلانسي ، ص ١٤٣ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٣٧٤ .

وجوسلين صاحب تل باشر فى أسر المسلمين وبلغ عدد القتلى من الصليبيين أكثر من عشرة الاف فارس[1] . وفر بوهمند صاحب انطاكية بمن سلم معه من رجاله « فكان نصرا حسنا للمسلمين لم يتهيأ مثله وبه ضعفت نفوس الافرنج »[2] .

وترتب على هزيمة الصليبيين فى معركة حران نتائج بالغة الأهمية منها ماذكره ابن القلانسي من انها أدت إلى تقوية نفوس المسلمين فى نصرة الدين ومجاهدة الملحدين[3] ، كما برهنت هذه المعركة على خطأ الاسطورة القائلة بان الصليبيين قوة لا تقهر ، يضاف إلى ذلك أن معركة حران حددت زعامة تانكرد ابن أخت بوهمند على بقية الامارات الصليبية فى شمال الشام ، لان بلدوين الثانى صاحب الرها وجوسلين صاحب تل باشر قد وقعا فى أسر المسلمين وسار بوهمند إلى أوروبا يتجرع مرارة الهزيمة بحران . ولم يكن المسلمون وحدهم هم الذين أفادوا من هزيمة الصليبيين اذ أن الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين كان يتطلع فى غضب لما يجرى بشمال الشام ولم يأسف لما سمعه من هزيمة الصليبيين . كما تجدر الاشارة إلى أن موقعة حران أوقفت تقدم الصليبيين فى منطقة الجزيرة وشمال الشام ، وقضت على رغبة بوهمند فى ان يجعل من انطاكية مملكة صليبية كبيرة ، وأنقذت حلب من مطامعه . ومن أهم نتائج معركة حران ايضا انها قضت على مطامع الصليبيين بقطع الصلة بين القوى الاسلامية فى الشام والجزيرة وآسيا الصغرى عن طريق الاستيلاء على حلب[4] .

وعلى الرغم من أن الصليبيين قد توقفوا فى توسعهم نحو الشرق عقب موقعة حران ، الا أن التحالف الذى انعقد بين سقمان بن ارتق وجكرمش لم يعش طويلا ، حيث وقع الشقاق بينهما بعد احراز النصر فى حران . ذلك أن طوائف التركمان الذين كانوا مع سقمان قد حصلوا على معظم الاسرى والغنائم التى استولوا عليها عقب هزيمة الصليبيين ،

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٤٣ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٣٧٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٤٨ ، ابن الوردى ، تتمة المختصر ، جـ ٢ ص ٢٥ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ص ٩ ، ابو الفدا ، المختصر ، جـ ٢ ص ٢٢٧ ، ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٨٨ .

(٢) ابن القلانسي ص ١٤٣ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٤) انظر العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٤٨ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٧٤ — ٧٥ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٣٩٣ — ٣٩٤ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣٨٥ — ٣٨٦ ، ٤٥٠ ، عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية ، ص ٢١٤ — ٢١٥ .

فاشتعلت نار الحقد فى نفوس اصحاب جكرمش وقالوا له : « اى منزلة تكون لنا عند الناس وعند التركمان اذا انصرفوا بالغنائم دوننا ؟ » ولم يقفوا عند هذا الحد بل انهم حسنوا لصاحبهم جكرمش اختطاف بلدوين الثانى صاحب الرها من أسر رجال سقمان بن أرتق . وتحت الحاحهم سمح جكرمش لبعض رجاله باختطاف بلدوين صاحب الرها من أسر رجال سقمان . ولما علم سقمان بهذا ثارت ثائرته وشق عليه الامر ، غير انه أظهر من ضبط النفس ماجعله يقول : « لا أوثر شفاء غيظى بشماتة الاعداء بالمسلمين » فانسحب إلى ماردين واستولى على كثير من حصون ديار بكر ، أما جكرمش فقد سار إلى خران واناب فيها احد اصحابه ، ثم توجه إلى الرها وحاصرها مدة خمسة عشر يوما عاد بعدها إلى الموصل[1] .

وهكذا حقق جكرمش وسقمان بن أرتق للمسلمين اول نصر حاسم على الصليبيين ، وفتحا به الطريق لظهور قيادات واحلاف اسلامية وجهت الضربات المتتالية للصليبيين فى الشام والجزيرة ومنعتهم من تحقيق مطامعهم . ففى سنة ٤٩٧هـ / ١١٠٣م تحالف سقمان بن أرتق مع سالم بن بدر العقيلى صاحب قلعة جعبر ، ونجحا فى صد الصليبيين عنها[2] وتشجع سقمان بن ارتق على الدخول فى محالفات مع القوى الاسلامية فى بلاد الشام ضد الصليبيين ولكنه ذهب ضحية محاولاته ، حيث توفى فى السنة التالية ٤٩٨هـ / ١١٠٤م عندما كان فى طريقه إلى بلاد الشام لنجدة ابن عمار صاحب طرابلس ضد الصليبيين[3] . أما جكرمش صاحب الموصل فقد ذهب ضحية الفتن والقلاقل التى كانت قائمة بين السلاجقة ذلك ان السلطان محمد بن ملكشاه قد استاء من بعض تصرفات جكرمش فأقطع احد مماليكه ويدعى جاولى سقاوة الموصل وديار بكر والجزيرة كلها وطلب منه المسير إلى تلك البلاد . فلما وصل جاولى إلى مقربة من الموصل سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م لقيه جكرمش ودارت بين الطرفين معركة ، وقع فيها

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٧٥ ، انظر ابو الفدا ، المختصر ، جـ ٢ ص ٢١٩ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٧٥ ــ ٧٦ ، عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية ص ٢١٣ ــ ٢١٤ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ١٠ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢١٦ ، عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية ، ص ٢١٨ .

(٣) أنظر ماسبق الفصل الأول ص ٨٧ .

جكرمش أسيرا فى يد جاولى فقتله واستولى على الموصل من زنكى بن جكرمش[1] . غير أن أمره لم يطل بالموصل ، فقد أساء السيرة فى الرعية ، ولم يقم بواجب الطاعة وتقديم المساعدة للسلطان محمد بن ملكشاه . ولم يكتف بهذا ، بل أطمع بعض أعداء السلطان فى الخلاف والعصيان ، مما اثار عليه حقده ، فطلب من بعض قادة الاتراك التوجه إلى الموصل بزعامة مودود بن التونتكين فتوجهوا اليها وشددوا الحصار عليها حتى استولوا على الموصل فى سنة ٥٠٢هـ / ١١٠٨م . فلما تم لهم ذلك ولى عليها السلطان محمد بن ملكشاه مودود الذى اصبح أحد زعماء المسلمين بما حققه من بعث لفكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين وماسعى إليه من محاولة توحيد قوى الشام مع الجزيرة للوقوف فى وجه الصليبيين[2] وعلى مايبدو فان شرف الدولة مودود ابن التونكتين الذى كان مولى من موالى السلطان محمد بن ملكشاه والذى أسند اليه ولاية الموصل ، وجعله أتابكا لولده مسعود بن محمد . كان فى بادئ أمره شديد العسف بالرعية . ولكنه شعر ان تلك السيرة غيرت نية السلطان فيه ، فعدل عنها وحسنت أفعاله واظهر العدل والانصاف فى رعيته[3] .

ولما استقر مودود فى حكم الموصل والبلاد التابعة لها سعى إلى تحقيق مافشل فيه كل من جكرمش وجاولى من توطيد العلاقات بالسلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه ، وسعى إلى تحقيق رغبة السلطان فى كل مايطلبه منه . ففى سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م تلقى مودود نداء من السلطان يدعوه إلى القيام بجهاد الصليبيين والابتداء بالرها . وزودوه بعدد من قادة الاتراك وانضم إليهم نجم الدين ايلغازى صاحب ماردين ، فلما اجتمعوا ساروا إلى سنجار وفتحوا عدة حصون للصليبيين حتى وصلوا الرها فأحكموا الحصار عليها ، غير أنهم رحلوا عنها من غير أن يملكوها[4] .

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٠هـ ، ابن الاثير الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٢٢ ــ ٤٢٣ ابن القلانسي ، ص ١٥٦ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٢٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ١٦٧ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٥٧ ــ ٤٥٩ ، ابن القلانسي ، ص ١٦٠ ، ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٩٩ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ص ١٨٠ .

(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٩ ، ابن القلانسي ، ص ١٨٧ ــ ١٨٨ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ٥ ، ص ٣٠٠ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ، ٢٠٧ .

(٤) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٣هـ ، ابن القلانسي ، ص ١٦٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٨٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٥٢ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ص ٤٥٤ ــ ٤٥٥ .

ويبدو أن انسحاب مودود عن الرها على الرغم من قوة المسلمين انما كان بهدف ملاقاة الصليبيين الذين كانوا قد تجمعوا بتحريض من ملك بيت المقدس ، وقصدوا عبور الفرات إلى الرها وحران . غير أن زعماء الصليبيين لم يستطيعوا عبور الفرات لتقديم النجدة العسكرية لاخوانهم فى الرها ورأوا ان العودة إلى بلاد الشام أفضل من المضى قدما فى ميدان مكشوف ، حتى لا يصيبهم ماأصاب اخوانهم سنة ٤٩٧هـ / ١١٠٣م فى موقعة حران . فعادوا إلى الشام ، وفى طريق عودتهم اخذوا فى تخريب البلاد الاسلامية التابعة لحلب ، ولم يكتفوا بهذا بل فرضوا على رضوان صاحب حلب مبلغ عشرين الف دينار وعشرة رؤوس من الخيل مع تقديم المؤن والعتاد للصليبيين بالرها[١] .

أما الجيوش الاسلامية بقيادة مودود فقد عادت إلى حصار الرها للمرة الثانية سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م ولم تستطيع اقتحامها بسبب ماوصلها من الذخائر والمؤن والامتعة من الصليبيين ، مما اضطر المسلمين إلى الرحيل عنها ، ولم يبلغوا غرضا ، ولكنهم ساروا فى ملاحقة الصليبيين العائدين إلى بلاد الشام ولما لم يلحقوا بهم فقد حاصروا تل باشر مدة خمسة عشر يوما بدون طائل . عندها عاد مودود وقادة السلاجقة إلى بلادهم ، بينما سار ظهير الدين طغتكين الذى قدم من دمشق لمساعدة مودود إلى بلاده خوفا من ان يغدر به الصليبيون هناك . ويشير ابن القلانس إلى أن تفرق الجيوش الاسلامية سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م ورفعها الحصار عن الرها كان بسبب الخلاف الذى حصل بين بعض قادة الاتراك السلاجقة ونجم الدين ايلغازى صاحب ماردين[٢] .

وعلى الرغم من أن الحملة التى قادها مودود ضد الصليبيين سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م لم تؤد إلى سقوط بعض معاقل الصليبيين بيده ، الا انها كانت علامة واضحة على مواصلة بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين الذى انطلق من منطقة الجزيرة ، كما أدت إلى توطيد عرى الصداقة بين شرف الدولة مودود صاحب الموصل وظهير الدين طغتكين صاحب دمشق ، وشجعت القوى الاسلامية على التحالف فى جبهة واحدة ضد الخطر الصليبى المتزايد[٣] . فبعد تفرقة الجيوش الاسلامية فى حملة

---

(١) ابن القلانسي ص١٦٩ — ١٧٠ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٤٨٦ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٥٦ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٣١ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٧٠ ، انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٨٧ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٧٠ .

مودود الاولى التى قام بها ضد الصليبيين زادت اطماع الصليبيين فى التضييق على المسلمين فى بلاد الشام وفرضوا على حلب مالاطاقة لزعيمها رضوان بدفعه ، واستولوا فى سنة ٥٠٤هـ / ١١١٠م على قلعة الاثارب التابعة لحلب[١] . واستاء المسلمون من هذه الاوضاع المتردية ، وارتفعت الاصوات تنادى بالجهاد ولما لم يكن هناك من القادة المسلمين من يستطع تلبية داعى الجهاد سوى شرف الدولة مودود فقد لبى النداء وخرج فى نفس السنة ٥٠٤هـ / ١١١٠م بمن معه من المسلمين من الموصل ووصل إليه عدد من الامراء السلاجقة الاراتقه بارض حران فى المحرم من سنة ٥٠٥هـ / ١١١١م[٢] .

وعزم الامراء المسلمون بقيادة مودود على عبور الفرات والمسير إلى بلاد الشام ، حيث وصلتهم بحران اخبار من صاحب شيزر باستعدادات الصليبيين فساروا ونزلوا على تل باشر ، غير ان جوسلين استغل الخلافات القائمة بين بعض الامراء المسلمين فتقدم إلى احمد يل الكردى، صاحب مراغة ولاطفه بمبلغ من المال ، حتى ثنى عزمه عن مواصلة الجهاد ، ورغبه فى العودة إلى بلاده وظل به حتى اقتنع وعاد[٣] . أما من بقى من المسلمين مع مودود على نية الجهاد فانهم رأوا الاستعانة برضوان صاحب حلب . غير انه لم يلتفت اليهم ولم يكتف بهذا بل غلق أبواب حلب فى وجوههم ، وسمح لرجاله بتعقب اطراف الجيش الاسلامى . ولكن هذا لم يثن عزم مودود ومن بقى معه من المسلمين عن مواصلة الجهاد ، فساروا حتى وصلوا إلى معرة النعمان ، حيث انضم اليهم هناك ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق . غير ان انضمام طغتكين اليهم لم يؤد إلى نتيجة ، بل كان عاملا من عوامل تفرق هذه الحملة فقد اطلع فى معرة النعمان على فساد نيات بعض العساكر الاسلامية فلم يحتمل صبرا على هذا بل سعى إلى مهادنة الصليبيين سرا . وعلى مايبدو فقد لجأ إلى ذلك خوفا من ان يتعرض له الصليبيون اثناء

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٤هـ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٨١ .

(٢) ابن القلانسي ص ١٧٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٥٨ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ١٧٣ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٧٥ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٣٥ ــ ٣٦ .
ــ ومراغة : بلدة مشهورة بأذربيجان ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

عودته إلى دمشق . أما بقية القوات فقد تفرقت أيدى سبأ[1] . وسار مودود ومعه طغتكين من معرة النعمان إلى نهر العاص مما يدل على رغبة زعماء الجزيرة فى نقل المعارك مع الصليبيين إلى بلاد الشام[2] .

ووجد الصليبيون الفرصة سانحة للانقضاض على قوات مودود وطغتكين بعد تفرقة بقية قوات الجزيرة ، فاجتمعوا فى افامية بقيادة تانكرد صاحب انطاكية ومعه بلدوين ملك بيت المقدس وبلدوين صاحب الرها وعزموا على المسير إلى غرب نهر العاص بقصد لقاء المسلمين الذين أصابهم التفرق وهم كانوا « يدا واحدة وكلمة متفقة على الاسلام وأهله » على حد قول ابن القلانس ، ولكن تدبيرهم خاب فقد تعرض صاحب شيزر من بنى منقذ لضغط الصليبيين الامر الذى حمله على اثارة حماس مودود وطغتكين وشجعهم على ملاقاة الصليبيين ، فازداد مودود وطغتكين حماسا فى لقاء الصليبيين ، فتم اللقاء بين الطرفين عند نهر العاص فى ربيع الأول سنة ٥٠٥هـ / ١١١١م . وظفر المسلمون بالصليبيين فارتفعت المعنويات وقويت النفوس على مواجهة الصليبيين ، وعاد بعدها طغتكين إلى دمشق ، بينما عاد مودود إلى الموصل[3] .

وعلى الرغم من أن حملة مودود الثانية لم تحقق ماكان مرجوا منها ، فان هذا لايعد فشلا فى حركة بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين . بل انها ثبتت الدعائم التى كانت قد وضعت فى حران سنة ٤٩٧هـ / ١١٠٣م ، وساعدت على مواصلة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين ، والذى اينعت ثماره زمن عماد الدين زنكى ونور الدين محمود ومن بعدهما صلاح الدين الايوبى .

ومما يؤكد عزم المسلمين على مواصلة الجهاد ضد الصليبيين أن مودود بعد عودته إلى الموصل جهز حملة عسكرية فى سنة ٥٠٦هـ / ١١١٢م سار بها إلى الرها بقصد الاستيلاء عليها فحاصرها فترة من الزمن ، ولما ايس من الاستيلاء عليها اتجه نحو سروج بارض الجزيرة ، غير انه لم يستطع الاستيلاء عليها ، لانه فرق جيوشه بين حصار الرها

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٥هـ ، ابن القلانسي ، ص ١٧٥ ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٨٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٦٠ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٢٥ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٧ ــ ١٨ ، ابن القلانسي ، ص ١٧٦ ــ ١٧٧ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ١٦ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٧٧ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ١٦١ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٦ ــ ٣٧ . وعن سروج : انظر ماسبق ص ٤٠ حاشية رقم ٢ .

وحصار سروج فى وقت واحد ، مما سهل لجوسلين صاحب تل باشر ان يوقع به هزيمة عند سروج[1] . ورغم هذه الهزيمة التى منى بها مودود فانه عقد العزم على الخروج فى حملة ثالثة ضد الصليبيين بالشام فى نفس السنة ٥٠٦هـ / ١١١٢م بعد أن توثقت عرى الصداقة والمودة بينه وبين ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق . ولم تنته سنة ٥٠٦ / ١١١٢م حتى حصل فى بلاد الشام مااوجب خروجه اليها اذ تعرضت دمشق وغيرها من بلاد الشام لغارات عنيفة شنها بلدوين الاول ملك بيت المقدس . واضطر طغتكين إلى طلب النجدة من شرف الدولة مودود صاحب الموصل ، فما كان من الاخير إلا ان وجه الدعوة لعدد من امراء المسلمين بالجزيرة وطلب منهم المسير معه نجدة لطغتكين ، وعبروا الفرات فى نهاية سنة ٥٠٦هـ / ١١١٢م متوجهين إلى الشام لنجدة طغتكين . فلما سمع طغتكين بقدوم قوات الجزيرة خرج من دمشق ولقيها ببلدة سلمية ، وواصلوا مسيرهم جميعا عبر الاردن حتى وصلوا إلى الاقحوانة ومنها ساروا إلى طبرية حيث عسكر هناك الصليبيون بزعامة بلدوين ، ملك بيت المقدس ، وجوسلين صاحب تل باشر وروجر[2] صاحب أنطاكية . وفى المحرم من سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣م التقى المسلمون بالصليبيين ودار القتال بين الطرفين فانهزم الصليبيون ووقع كثير منهم فى الاسر ومنهم بلدوين ملك بيت المقدس الا انه لم يعرف فنجا بدون سلاحه . وكان عماد الدين زنكى قد حضر هذه الوقعة وابلى فيها بلاء حسنا . وحاصر المسلمون الصليبيين جول طبرية ستة وعشرين يوماً ، ساروا بعدها إلى بيسان ونهبوا اراضى الصليبيين الواقعة بين عكا وبيت المقدس فارتفعت بذلك معنويات المسلمين بما وصل اليه الصليبيون من اليأس والخذلان ، وبما انضم إلى قوات طغتكين ومودود من امدادات من بعض قبائل العرب فى الشام وبما وصلهم من الملك رضوان صاحب حلب من معونة عسكرية . ولم تقف اهمية هذه الوقعة عند حد ما حل بالصليبيين بل انها ادت إلى تأكيد المودة ووحدة الهدف والمصير بين امراء المسلمين بشمال الشام والجزيرة مع اخوانهم فى

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٩٢ ، ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٩٩ .

(٢) كان تانكرد صاحب انطاكية قد مات سنة ٥٠٦هـ / ١١١٢م فخلفه روجر فى حكم انطاكية . انظر العظيمى ، تاريخ العظيمى حوادث سنة ٥٠٦هـ ،رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢٠٢ .

العراق ووسط بلاد الشام[1] .

ولما طال المقام بعساكر الجزيرة فى بلاد الشام اصابهم الضجر وتفرق اكثرهم فى الوقت الذى استأذن بعضهم مودود فى العودة إلى بلادهم ، فأذن لهم ، بينما ظل هو وبعض عساكره إلى جانب طغتكين ليثبت له على مايبدو عن حسن نيته فى جهاد الصليبيين ، او انتظار ماعسى يصله من أوامر من قبل السلطان محمد بن ملكشاه . غير انهما اى مودود وطغتكين قررا العودة إلى دمشق فدخلاها فى ربيع الاول سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣م بعد أن اطمأنا إلى ماحل بالصليبيين من هزيمة عند طبرية ، وهى هزيمة أعادت للمسلمين بالشام ماكانوا قد أيسوا من تحقيقه بعد مضى سنوات عديدة من دخول الصليبيين إلى بلاد الشام[2] . وبالرغم مما حققه شرف الدولة مودود من جهود كبيرة فى سبيل توحيد قوى الشام والجزيرة ، فقد تعرض بعد دخوله دمشق للاغتيال على يد نفر من الباطنية عندما كان يصلى بالجامع الاموى بدمشق فى آخر جمعة من ربيع الاول سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣م[3] ، ومع ماأبداه طغتكين من الحزن الشديد على ضيفه ، وماآل إليه امر الشخص الذى اغتال مودود من المصير المشين حسبما ذكر ابن القلانسى[4] ، فان ابن الاثير قد اتهم طغتكين بقتل مودود حيث قال : « وقيل بل خافه طغتكين فوضع عليه من قتله » . خوفا من ان يكون بقاؤه بدمشق بتدبير من السلطان محمد بن ملكشاه[5] . وعلى أية حال فان قتل شرف الدولة مودود قد أثبت للمسلمين أن أمراء الشام لم يقدروا المصلحة العليا للعالم الاسلامى ، وأنهم رفضوا التضحية بمصالحهم الخاصة فى سبيل

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٦هـ ــ ٥٠٧هـ ، ابن القلانسي ، ص ١٨٤ ــ ١٨٦ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٩٥ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ١٨ ــ ١٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٦٢ ــ ١٦٣ ، ابن الوردى تتمة المختصر ، جـ ٢ ، ص ٣٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية جـ ١٢ ، ص ١٧٥ ، الذهبى ، دول الاسلام جـ ٢ ، ص ٣٤ ــ ٣٥ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ١٧ .

ــ عن سلمية **أنظر مايلى ص ٢٢٥ خاشية رقم ٣** .

ــ الاقحوانة : موضع بالاردن على شاطئ بحيرة طبرية ، ياقوت ، معجم البلدان .

ــ وبيسان : مدينة بالاردن بالغور الشامى وهى بين حوران وفلسطين . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٨٦ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٩٦ ــ ٤٩٧ .

(٣) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٧هـ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢٠٧ .

(٤) ابن القلانسي ، ص ١٨٧ ــ ١٨٨ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٩٧ ــ ٤٩٨ .

الوقوف مع قادة بلاد الجزيرة فى وجه الصليبيين الذين رأوا فى استشهاد البطل المجاهد شرف الدولة مودود الخلاص من عدو لدود[1] .

ومهما يكن من أمر فان مقتل مودود لم يقف عند حد ماذكرناه بل تعداه إلى ان حركة بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين قد هدأت مؤقتا بسبب اضطراب الامور بين أمراء المسلمين فى بلاد الشام . بالأضافه إلى أن ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق قد اضطر إلى عقد هدنة مع الصليبيين فى السنة التالية ٥٠٨هـ / ١١١٤م خوفا من عجزه عن حماية دمشق من غاراتهم[2] .

غير أن بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين التى انطلقت من منطقة الجزيرة لم تتوقف فقد تولى امر الموصل عقب استشهاد مودود آقسنقر البرسقى ، فحمل على عاتقه لواء الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين لافى منطقة الجزيرة فحسب بل وفى بلاد الشام ايضا . ففى سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤م استطاع آقسنقر البرسقى بعد أن انضمت اليه قوات جزيرة ابن عمر بقيادة اياز بن نجم الدين ايلغازى حصار الرها لمدة شهرين ، الا انه لم يستطع فتحها ، فغادرها إلى سميساط فخربها وخرب سروج التابعة للصليبيين .[3] .

وعندما اشتد خطر الصليبيين على بلاد الشام وجه طغتكين الدعوة لآقسنقر صاحب الموصل سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م طالبا منه النجدة ، فتوجه آقسنقر من الرحبة إلى دمشق فوصلها فى نفس السنة . وصادف ذلك أن الصليبيين بزعامة صاحب طرابلس قد أغاروا على منطقة البقاع ، فاجتمع رأى طغتكين وآقسنقر على قتال الصليبيين فباغتوهم على غرة فى مخيمهم ، فمنح الله المسلمين النصر على الصليبيين ، عادوا بعدها إلى

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣١٤ ، العرينى ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٤٦٤ .

(٢) ابن ايبك ، كنز الدرر ، جـ ٦ ، ص ٤٧٦ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ١٩ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٠١ ــ ٥٠٣ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٩ ــ ٢٠ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٢٧ ، ابن الوردى ، تتمة المختصر ، جـ ٢ ، ص ٣٧ .

دمشق فطلب آقسنقر من طغتكين الاذن بالعودة إلى بلاده بعد استحكام المودة بينهما فأذن له[1] .

وتجدر الاشارة إلى أن حركة بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين ارتبطت ارتباطا شديدا بزعماء الموصل الذين كانوا تحت طاعة السلاجقة وأدت وفاة السلطان محمد بن ملكشاه سنة ٥١٢هـ / ١١١٧م إلى ازدياد تدهور احوال السلاجقة فى العراق فسعى السلطان محمود بن محمد ملكشاه إلى إستدعاء آقسنقر من الموصل لتوليته شحنكية بغداد[2] . الامر الذى أفقد الموصل مكانتها القيادية فى بعث حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين مؤقتا ، وانتقال هذه القيادة إلى نجم الدين ايلغازى صاحب ماردين .

واستهل ايلغازى أعماله بالاستيلاء على حلب سنة ٥١١هـ / ١١١٧م ، لاهميتها بالنسبة لاية قيادة عسكرية وسياسية تسعى لمجابهة الصليبيين وذلك لما كانت تتمتع به من مركز استراتيجى حيوى من النواحى البشرية والعسكرية والسياسية والاقتصادية . وكانت حلب تقع بين امارتين صليبيتين هما الرها وأنطاكية ، وفى نفس الوقت يمكنها الاتصال بالقوى الاسلامية التركمانية المنتشرة فى منطقة الجزيرة . لذا كان الاستيلاء عليها بمثابة فتح الطريق لقيادة حركة الجهاد ، وذلك ماحدث فعلا بالنسبة لنجم الدين ايلغازى وابن أخيه بلك بن بهرام ومن بعدهما آقسنقر البرسقى وعماد الدين زنكى ونور الدين محمود فيما بعد .[3] .

أما عن تفاصيل استيلاء نجم الدين ايلغازى على حلب سنة ٥١١هـ / ١١١٧م فقد تجدد بها من الحوادث ما أطمع الصليبيين فى الاستيلاء عليها حيث بلغت حدا من الضعف والضائقة الاقتصادية مما أعجز أهلها عن تقديم القوت لدوابهم . ولكن خوف أهلها من أن تسقط بيد الصليبيين قد أجبرهم على استدعاء نجم الدين ايلغازى وتسليمه حلب فى السنة المذكورة . واستهل ايلغازى أعماله بحلب بفرض سيطرته على بعض المواقع التابعة لها كبالس ، ومصادرة بعض رجال حلب للحصول منهم على مال يهادن

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١١هـ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات ، جـ ٩ ، ص ٣١٠ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢١٤ .

(٣) انظر عمادالدين خليل ، الامارات الارتقية فى بلاد الشام والجزيرة ، ص ٢٣٤ ــ ٢٣٥ .

به الصليبيين فاستوحش منه أهل حلب وجندها ـــ على حد قول ابن العديم ـــ مما اضطره إلى مغادرتها إلى ماردين بعد أن استخلف على حلب ابنه حسام الدين تمرتاش[1] . واستغل الجند المقيمون فى بالس موجة الغلاء التى مروا بها فى نفس السنة ٥١١هـ / ١١١٧م فارسلوا إلى الصليبيين ليسلموها إليهم فاضطر ايلغازى إلى العودة على رأس قوة من التركمان إلى حلب . فلما شعر الصليبيون بالخطر انسحبوا عنها فتسلمها ايلغازى للمرة الثانية ، وعاد إلى ماردين بعد أن عقد معهم هدنة بعدم اعتداء أى منهما على ممتلكات الطرف الآخر .[2] ولكن الصليبيين وجدوا الفرصة سانحة بعد خروج ايلغازى من حلب وعدم وجود مدافع عنها وعن غيرها ، فنقضوا الهدنة التى بينهم وبين ايلغازى واغاروا على عزاز وشددوا الحصار عليها حتى اضطر من بها من المسلمين إلى التسليم . واضطر أهل حلب إلى مراسلة الصليبيين وطلبوا منهم التمسك بالهدنة التى كان قد عقدها معهم ايلغازى وان يسلموهم اى اهل حلب تل هراق ويؤدون لهم القطيعة المقررة على حلب عن اربعة اشهر ومقدارها الف دينار ويكون لهم من حلب شمالا وغربا[3] .

غضب نجم الدين ايلغازى لما وصلت إليه أخبار حلب ، ولكنه لم يستطع العودة إليها وانقاذها مما هى فيه لقلة عساكرها فاتجه إلى شرق منطقة الجزيرة بقصد جمع العساكر فى الوقت الذى أبلغ فيه ظهير الدين طغتكين عن رغبته فى الاجتماع به سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م ، واجتمعا على قلعة دوسر بهدف القيام بدفع الصليبيين عن حلب ولكن ذلك لم يتيسر لهما ، الامر الذى دفع الصليبيين إلى احكام السيطرة على مداخل حلب بعد أن استولوا على بزاغة فتردت الاحوال بحلب حتى بلغت حد التلف على حد قول ابن العديم[4] . ولم يجد اهل حلب بدا من الاستعانة بالخلافة العباسية والدولة السلجوقية فى بغداد ، الا انهم لم يغاثوا نظرا لانشغال السلاجقة بالمنازعات الاسرية فيما بينهم من جهة وضعف الخلافة العباسية من جهة أخرى .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٨٠ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٨٠ .

(٣) ابن العديم ، جـ ٢ ، ص ١٨٥ ـــ ١٨٦ .
وتل هراق : حصن من حصون حلب الغربية . انظر ياقوت . معجم البلدان .

(٤) ابن العديم . زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٨٦ .

أما نجم الدين ايلغازى فلما لم يتيسر له لقاء الصليبيين فقد فارق طغتكين وعاد إلى ماردين لجمع العساكر تمهيدا للعودة للجهاد والالتقاء مع الصليبيين فى معركة حاسمة[١] . وفى ماردين حشد نجم الدين ايلغازى مايزيد على عشرين ألفا من التركمان[٢] . بقصد قتال الصليبيين الذين ضيقوا على حلب حتى كادت ان تعدم القوت . وأرسل ايلغازى رسله إلى بغداد لاعلان النفير ضد الصليبيين واعلام الخليفة العباسى المسترشد بالله والسلطان السلجوقى محمود بن محمد بن ملكشاه بما فعله الصليبيون بالديار الجزرية وانهم ملكوا قلعة عند الرها وقتلوا صاحبها ابن عطير[٣] . وكان نجم الدين ايلغازى قد تواعد مع ظهير الدين طغتكين فى سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م على ملاقاة الصليبيين فى شهر صفر من السنة التالية ٥١٣هـ / ١١١٩م بالشام . وتوجه ايلغازى قبل الموعد المحدد إلى الرها وشدد عليها الحصار ، مما اضطر من بها من الصليبيين إلى مصالحته ، لقاء تنازلهم عن الاسرى المسلمين الموجودين بها فأجابهم ايلغازي وشرط عليهم عدم التوجه لمساعدة امير انطاكية فى حالة حدوث قتال معه فأجابوه . وقد كانت هذه خطوة صائبة من ايلغازى تمكن بموجبها من عزل احدى قوى الصليبيين عن مد يد العون للقوى الاخرى . وهذا دليل واضح على رضوخ الصليبيين فى منطقة الجزيرة إلى مطالب الامراء المسلمين[٤] .

وبعد أن اطمأن ايلغازى إلى أنه لن يتعرض إلى طعنة الصليبيين من الخلف توجه إلى بلاد الشام وقد انضم إليه أسامة بن المبارك بن شبل الكلابى والامير طغان ارسلان صاحب بدليس وآرزن ، وواصل سيره حتى بلغ قريبا من الاثارب بأرض سرمدا فى ربيع الأول سنة ٥١٣هـ / ١١١٩م ، وهناك انتظر وصول ظهير الدين طغتكين . وكان الصليبيون بقيادة روجر صاحب أنطاكية قد نزلوا بتل عقرين وشرعوا فى بناء حصن لهم هناك ولم يدر بخلدهم أن نجم الدين ايلغازى سيباغتهم هناك لضيق الطريق ، ثم لتوهمهم أن المسلمين سينازلون الاثارب اوزردنا ، حتى ان الغرور قد اصابهم لاعتقادهم

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٨٦ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ، ص ٢٣٣ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٥٣ ــ ٥٥٥ ، انظر ابن القلانسي ص ٢٠٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٨٧ ــ ١٩٠ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٤٥ .

(٤) انظر عمادالدين خليل ، الامارات الارتقية فى بلاد الشام والجزيرة ، ص ٢٤١ .

بحصانة موقعهم فأرسلوا إلى ايلغازى يقولون له : « لا تتعب نفسك بالمسير الينا فنحن واصلون اليك »[1] .

ولما طال انتظار ايلغازى لوصول حليفه طغتكين ، لبى رغبة الامراء الذين كانوا معه فى التعجيل بمباغتة الصليبيين ، فما شعر الصليبيون إلا ورايات المسلمين قد اقبلوا وأحاطوا بهم من كل جانب ، وذلك يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الأول من السنة ٥١٣هـ / ١١١٩م . وخرج قاضى حلب أبو الفضل بن الخشاب ، وخطب فى المسلمين خطبة بليغة استنهض فيها عزائم المسلمين على الجهاد ، فحمل المسلمون على الصليبيين حملة واحدة من جميع الجهات ، فكانت السهام على الصليبيين كالجراد ، فى الوقت الذى أخذتهم السيوف من سائر نواحيهم . فلم يفلت منهم غير نفر يسير بينما كان الباقون بين قتيل وجريح . وكان ضمن القتلى روجر صاحب أنطاكية الذى كان قد تعجل لقاء المسلمين قبل وصول قوات بيت المقدس وطرابلس وغيرها . ووقع فى الاسر نيفا وسبعين من فرسان الصليبيين ومقدميهم ، وحاولوا ان يفتدوا نفوسهم بمبلغ ثلاثمائة الف دينار فلم يقبل منهم نجم الدين ايلغازى بل أمر بقتلهم جميعا[2] . وقد عرفت هذه الوقعة عند المؤرخين اللاتينيين ، ومن نقل عنهم من المؤرخين المحدثين باسم ساحة الدم (Ager san guinis) لكثرة ماقتل فيها من الصليبيين ، والتى لم يقتل فيها من المسلمين سوى العدد القليل[3] .

وعلى أية حال فان اهمية ماحل بالصليبيين لم يقف عند حد النصر العسكرى الذى

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٥٣ ــ ٥٥٤ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٩٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ١٨٤ ، الذهبى ، دول الاسلام ، جـ ٢ ، ص ٤٠ . وبدليس : بلد من نواحى ارمينية قرب خلاط ، وارزن : مدينة مشهورة قرب خلاط وسرمدا : موضع من اعمال حلب ، وزردنا : بلد من نواحى حلب الغربية . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن القلانسي ص ٢٠٠ ــ ٢٠١ ، أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٤٠ ، ١١٨ ــ ١١٩ ، ابن الاثير الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٥٤ ــ ٥٥٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٨٨ ــ ١٩٠ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق١ ، ص٧٩ ــ ٨٠ .
وقد قال العظيمى ابياتا من الشعر يمدح فيها نجم الدين ايلغازى بما حققه على الصليبيين من نصر حاسم حيث قال فى تاريخه حوادث سنة ٥١٣هـ :

ألا أبلغ طغاة الشرك أنك آخذ ... بثاراتنا منهم عليها مزايد
وأنهم لم ينجو منهم مخبر ... بحيث أحاطتهم لديك المصايد

(٣) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢٣٤ ــ ٢٤٢ ، العرينى ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٤٧٣ ، عمادالدين خليل ، الامارات الارتقية ، ص ٢٤٢ ــ ٢٤٤ .

حققه نجم الدين ايلغازى عليهم ، بل تعداه إلى انه قد صاحب هذا النصر قيام جبهة اسلامية متحدة من الامراء المسلمين فى الشام والجزيرة اضافة إلى انها جعلت حلب فى منأى عن اخطار الصليبيين خصوصا بعد استيلاء نجم الدين ايلغازى على حصن قريب من الاثارب فى السنة نفسها فضلا عن انها كانت كارثة فادحة حرمت انطاكية من زعيمها روجر وجيشها مما جعل السريان والارمن بانطاكية يتشككون فى موقفهم إلى جانب الصليبيين وهذا على مايبدو مادفعهم إلى التآمر للخلاص من الصليبيين الغربيين فيما بعد[1] .

وذكر ابن العديم أن نجم الدين ايلغازى نزل بعد انتهاء المعركة إلى خيمة روجر ليسلم إليه المسلمون الغنائم التى حصلوا عليها ، ولكنه رد جميع الغنائم إلى المقاتلين ولم يأخذ منهم الا سلاحا يهديه لملوك الاسلام ليبعث فى نفوسهم حب الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين[2] . وعلى الرغم من أن نجم الدين ايلغازى لم يهتبل الكارثة التى حلت بأنطاكية وصاحبها وجيشها للهجوم عليها والاستيلاء عليها بدون صعوبة تذكر ، بسبب تكالب عسكره على الغنائم التى وصفها ابن القلانسي بأنها من الكثرة بما يفوق الاحصاء[3] الا أنه حقق سلسلة من الانتصارات فى شمال الشام هيأت للمسلمين جوا من الهدوء والاستقرار . فقد استطاع المسلمون ان يلحقوا بالنجدة الصليبية التى أتت بزعامة بلدوين ملك بيت المقدس لنجدة روجر صاحب انطاكية هزيمة ساحقة . حتى انه لم يمنع الصليبيين من الاخذ على أيدي المسلمين سوى تعلق الصليبيين بالجبال[4] . ولم يكتف نجم الدين ايلغازى بهذا بل اجتمع فى ارتاح بحليفه طغتكين واتفقا على مهاجمة الاثارب وزردنا ، فاستطاعا الاستيلاء عليهما من الصليبيين . ثم سار ايلغازى إلى دانيث بنفر قليل من المسلمين والتقى ببلدوين ملك بيت المقدس وروبرت صاحب زردنا ودارت بين الطرفين معركة فى جمادى الأولى من السنة ٥١٣هـ / ١١١٩م أسفرت عن انتصار نجم الدين ايلغازى وهزيمة الصليبيين الذين احتموا بحصن هاب بعد مطاردة نجم الدين

---

(١) انظر ، اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٤٠ ــ ٤١ ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٣هـ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٤٩٢ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ١٨ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ١٩٠ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ٢٠١ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٩٠ .

لهم[1] . ثم عاد نجم الدين ايلغازى إلى حلب بينما التقى رجاله فى طريق عودتهم بصاحب زردنا روبرت الابرص وبصحبته قوة من الصليبيين ، فهاجمتهم قوة ايلغازى مما اضطر من سلم من الصليبيين إلى العودة إلى حصن هاب ، فى الوقت الذى وقع فيه الابرص اسيرا فى ايدى المسلمين فحملوه إلى ايلغازى بحلب ، وأنفذه بدوره إلى طغتكين بدمشق حيث قتله صبرا[2] .

وفى أواخر جمادى الأولى سنة ٥١٣هـ / ١١١٩م غادر ايلغازى حلب إلى ماردين بسبب الضائقة المالية التى مر بها ، اضافة إلى ان حلب كانت من الضعف بحيث جعلته لايستطيع البقاء فيها[3] . وبالرغم من انشغال نجم الدين ايلغازى ببعض الامور الادارية فى ماردين ، فقد جمع جيشا من التركمان عبر بهم الفرات إلى بلاد الشام فى سنة ٥١٤هـ / ١١٢٠م واجتمع بطغتكين وسارا إلى أنطاكية حيث ضربا عليها حصارا ، فلم يتمكنا منها ، فدخلا إلى قنسرين ، وحاصراها يوما وليلة ، ولم ينالا منها شيئا . وعندها أشار ظهير الدين طغتكين على صاحبه برفع الحصار عنها وان يعود كل منهما إلى بلده . فقبل نجم الدين ايلغازى مشورة صاحبه ، وعاد إلى حلب بعد ان أدرك ماعليه الصليبيون من القوة ، وتفرق عساكره من التركمان . واضطر ايلغازى إلى عقد هدنة مع ملك بيت المقدس بلدوين الثانى ، على أن يكون للصليبيين المعرة وكفر طاب والبارة وضياع من جبل السماق ، وعلى أن يكون أمد هذه الهدنة نهاية تلك السنة[4] .

ولم يتقيد الصليبيون بهذه المعاهدة ، فقد اغار جوسلين صاحب تل باشر فى السنة نفسها ٥١٤هـ / ١١٢٠م على بعض البلاد التابعة لحلب ، مما اضطر أهل حلب إلى ارسال احتجاج شديد اللهجة إلى بلدوين الثانى ملك بيت المقدس يخبرونه فيه باعتداءات جوسلين على المسلمين ، ولكنه رد عليهم بقوله « مالى على جوسلين

---

(١) تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٣هـ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٩٠ ، وُدانيت : كان بلد من اعمال حلب بين حلب وكفر طاب انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٩١ ــ ١٩٣ ، اسامة بن منقذ ، الاعتبار ص ١١٩ ــ ٢٠ . ، عمادالدين خليل ، الامارات الارتقية ، ص ٢٥٠ ــ ٢٥١ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢٤٥ . وهاب : قلعة عظيمة من العواصم . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) ابن القلانسي ، ص ٢٠١ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٥٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١٩٢ ــ ١٩٣ .

(٤) ابن القلانس ، ص ٢٠٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٩٥ ــ ١٩٦ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٩٠ ــ ٩١ . وعن جبل السماق : انظر مايلى ص ٢٨٨ حاشية ١ .

يد »[1] . ولم يقف الصليبيون عند هذا الحد بل أغار الصليبيون بانطاكية على بلد شيزر واسروا جماعة من المسلمين وطالبوا امير شيزر العربى ابو العساكر سلطان بن منقذ ببعض المطالب التعسفية ، مما اضطره إلى مصالحتهم على مال يدفعه اليهم[2] . وبالاضافة إلى ذلك فقد استغل الصليبيون فرصة خلو حلب من ايلغازى فشنوا فى صفر من سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م هجوما على الاثارب واحرقوا مابها من الدور والغلال . وسار بلدوين الثانى واغار على حلب نفسها ، وفرض عليها حصارا شديدا أدى إلى وقوع خمسين اسيرا من أهلها فى يده . ونجح الحلبيون فى استنقاذ اخوانهم واجبروه على التراجع عنها إلى أنطاكية[3] . وعلى مايبدو فان نجم الدين ايلغازى قد اضطر إلى البقاء فى ماردين بعض الوقت مما دعاه إلى مراسلة ولده سليمان بن ايلغازى النائب عنه فى حلب يأمره بعقد صلح مع الصليبيين ، حصل الصليبيون بموجبه على سرمين وبلدة ليلون وبعض الجهات الزراعية المحيطة بحلب ، والاثارب[4] .

وعلى الرغم من أن الصلح الذى عقده سليمان بن ايلغازى مع الصليبيين لم يكن فى صالح المسلمين ، فان سليمان بن ايلغازى لم يسع إلى علاج مااستجد بحلب من الفوضى والاضطراب ، بل أعلن عصيانه على والده وأعلن استقلاله بحلب . وقد شجعت هذه الخطوة من قبل سليمان ابن ايلغازى الصليبيين على مضايقة حلب والاستيلاء على بعض المواقع المحيطة بها فى جمادى الآخرة من سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م ، ومطالبة صاحبها سليمان بالتنازل عن الاثارب لبلدوين الثانى ملك بيت المقدس ، ولكن سكان الاثارب من المسلمين رفضوا الخضوع للصليبيين ، الأمر الذى أجبر بلدوين على التراجع إلى انطاكية ومنها إلى بيت المقدس [5] .

أما نجم الدين ايلغازى فانه ماان سمع بعصيان ابنه بحلب حتى قدم اليها على وجه السرعة ، فعاقب من كان وراء عصيان ابنه ، فلما راى سليمان ماحل باعوانه من عقاب شديد خاف على نفسه وهرب إلى دمشق ، وطلب من صاحبها طغتكين حق اللجوء .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٩٧ .

(٢) اسامة بن منقذ ، الاعتبار ص ٩٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٩٨ ــ ١٩٩ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٩٩ ، والاثارب : كانت قلعة معروفة بين حلب وانطاكية بينها وبين حلب ثلاثة فراسخ . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٩٩ ، انظر رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢٥٥ ، وليلون : بلدة على جبل مطل على حلب من جهة انطاكية . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٩٩ ــ ٢٠٥ .

ولما تم لايلغازى القضاء على الفتنة بحلب استناب بها ابن اخيه بدر الدولة سليمان بن عبدالجبار بن ارتق ، وعقد هدنة جديدة مع الصليبيين لمدة سنة كاملة . وكان هدف ايلغازى من عقد تلك الهدنة مع الصليبيين هو كسب الوقت حتى يتمكن من العودة إلى ديار بكر وحشد مايمكن حشده من قوات ليعيد الكرة على الصليبيين ، اضافة إلى خوفه من قيام الصليبيين بغارة على حلب فلا يستطيع ابن أخيه صدهم[١] .

وفى ماردين استطاع نجم الدين ايلغازى أن يحشد اكبر عدد من التركمان ثم سار بهم إلى بلاد الشام فى شهر ربيع الآخر من سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م ، مستغلا فى ذلك الشقاق الذى حصل بين بلدوين ملك بيت المقدس ويونز صاحب طرابلس . ولكن نجم الدين ايلغازى لم يستطيع أن يحقق نصرا حاسما على الصليبيين ، بالرغم من انضمام بلك بن بهرام بن أرتق وظهير الدين طغتكين إلى جانبه . غير أنه لم يمكن الصليبيين بأن يمدوا نفوذهم وسيطرتهم على حلب[٢] . وفى شهر رمضان من سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م احس ايلغازى بتدهور صحته فعاد إلى ميافارقين حيث وافته منيته هناك[٣] . وبقدر ماكانت وفاة نجم الدين ايلغازى خسارة فادحة للمسلمين فى بلاد الشام والجزيرة عامة فان المصيبة كانت أعظم على أهل حلب الذين عظمت عليهم وفاته ، لان نجم الدين ايلغازى كان قد قطع أمل زعماء الصليبيين فى الاستيلاء عليها . ولم تقف اهمية وفاة نجم الدين ايلغازى عند هذا الحد ، بل ادت إلى أن إمارته قد تفككت وقسمت بين اولاده حسام الدين تمرتاش الذى حصل على ماردين ، وابنه سليمان الذى حصل على ميافارقين ، بينما بقيت حلب من نصيب ابن اخيه سليمان بن عبدالجبار بن أرتق ، واحتفظ بلك بن بهرام بن ارتق بقلعة خرتبرت وضم اليها حران فيما بعد[٤] .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٩١ ــ ٥٩٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٠٣ ــ ٢٠٥ ، عمادالدين خليل ، الامارات الارتقية ، ص ٢٦٠ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٠٥ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢٥٤ .

(٣) تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٦هـ ، ابن القلانسي ، ص ٢٠٧ ، ابن الاثير الكامل ، جـ ١ ، ص ٦٠٤ ــ ٦١٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٠٦ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ١٠٢ ــ ١٠٣ ، ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص ٤٨ العرينى ، الشرق الاوسط ، ج ١ ، ص ٤٧٩ ــ ٤٨٠ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٠٤ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٤٨٠ ــ ٤٨١ ، عمادالدين خليل ، الامارات الارتقية ص ٢٦٢ . وخرتبرت : هى الحصن المعروف بحصن زياد فى اقصى ديار بكر من بلاد الروم ، كان بينه وبين ملطية مسيرة يومين على الاقدام ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

يضاف إلى ذلك ان حلب التى كانت تعتمد على عساكر التركمان الذين كان يحشدهم ايلغازى من شمال الجزيرة قد افتقرت هذا العنصر البشرى الذى رجح كفة المسلمين على الصليبيين فى عهد ايلغازى مما جعلها عرضة لغارات الصليبيين . وضعف مركز صاحبها سليمان ابن عبدالجبار بن ارتق عن دفع الصليبيين الذين استغلوا وفاة نجم الدين وأغاروا بقيادة بلدوين الثانى ملك بيت المقدس على بزاعة وبالس على نهر الفرات . ولم يقف الامر عند هذا الحد بل استطاع الملك الصليبى الاستيلاء على قلعة البيرة ، حتى اصبحت حلب محاطة بالصليبيين من جميع الجهات ، مما حتم على سليمان بن عبدالجبار أن يعقد مع الصليبيين صلحا سنة ٥١٧هـ / ١١٢٣م تنازل بموجبه لهم عن حصن الاثارب[١] .

ولكن منطقة الجزيرة التى احتلت الصدارة فى عملية بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين ، أنجبت بطلا جديدا وخصما عنيدا للصليبيين ممثلا فى شخص بلك بن بهرام بن أرتق صاحب قلعة خرتبرت الذى كان يتطلع إلى القضاء على الصليبيين لافى منطقة الجزيرة فحسب بل وفى بلاد الشام . وقد استهل اعماله العسكرية اثناء مرض عمه نجم الدين ايلغازى فى رجب سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م بحصار الرها ، ولكنه لم يستطع النيل منها بعد فترة طويلة من الحصار ، مما اضطره الى الانسحاب عنها[٢] . لذا راى الصليبيون الذين بالرها انه لابد من الاستعانة بجوسلين صاحب الاطماع الكثيرة وخصم المسلمين العنيد ، الذى كان وقتذاك مع بلدوين ملك بيت المقدس بالبيرة مستغلين فى ذلك تفرق عساكر بلك بن بهرام بن ارتق عقب عودته من الرها . الا أن بلك بن بهرام استطاع أن ينصب لجوسلين ومن معه من الصليبيين كمينا عند سروج بارض موحلة ومشبعة بمياه الامطار ، فلم تتمكن خيولهم من الاسراع بسبب هذا الوحل ، فى الوقت الذى سلط عليهم بلك ورجاله الذين لا يتجاوز عددهم اربعمائة فارس وابلا من السهام فلم يفلت منهم إلا القليل ، وأسر جوسلين وابن خالته جاليران صاحب البيرة فى سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م[٣] . وقد ترتب على هذا الانتصار الذى حققه بلك بن بهرام على

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦١٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٠٩ ــ ٢١٠ ، ابوالفدا المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٣٧ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٤٨١ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٩٣ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٣٥ حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ١٩ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ٢٠٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٩٣ ، عمادالدين خليل ، الامارات الارتقية ص ٢٦٤ ــ ٤٦٥ .

الصليبيين ضياع قوة الصليبيين المعنوية فى بلاد الشام وازدياد حماسة المسلمين وتطلعهم إلى الوثوب على الصليبيين من كل ناحية[١] .

حاول بلك بن بهرام بن ارتق ان يحصل من جوسلين ومن معه من الصليبيين الذين وقعوا فى الاسر على تنازل منهم عن الرها ، مقابل اطلاق سراحهم ولكنهم رفضوا قائلين : « نحن والبلاد كالجمال .. متى عقر جمل حول رحله إلى اخر والذى بايدينا قد صار بيد غيرنا » . عندها حمل بلك بن بهرام أسراه إلى قلعة خرتبرت ووكل بهم من يحرسهم وتوجه سنة ٥١٧هـ / ١١٢٣م إلى حصن كركر التابع لامارة الرها بقصد الاستيلاء عليه[٢]. وادرك بلدوين ملك بيت المقدس الذى اصبح وصيا على الرها مضافا إلى وصايته على انطاكية ان من واجبه التحرك لتخليص جوسلين من الاسر ومنع كركر من السقوط بيد بلك بن بهرام وافهام المسلمين بان قوة الصليبيين لازالت قوية باطشة وخرج بلدوين على راس جيشه حتى وصل عند الضفة الشرقية لنهر سنجه احد روافد الفرات تجاه معسكر بلك بن بهرام الذى كان قد رفع الحصار عن كركر وعاد لمواجهة بلدوين الثانى ملك بيت المقدس . ودار القتال بين الطرفين فى التاسع عشر من شهر صفر سنة ٥١٧هـ / ١١٢٣م ، وانهزم الصليبيون بالرغم من قلة قوات المسلمين . ولم تقف اهمية الوقعة عند حد انتصار بلك بن بهرام بل تعدته إلى ان بلدوين ملك بيت المقدس قد وقع فى أسر بلك بن بهرام بالاضافة إلى استيلائه على حصن كركر . وحمل بلك أسيره الجديد إلى خرتبرت وضمه إلى جوسلين ومن معه من زعماء الصليبيين وفرسانهم[٣] .

وهكذا خلت امارات الصليبيين ، الرها ، وانطاكية ، ومملكة بيت المقدس من زعمائها الذابين عنها ، مما أدى إلى اضطراب وضع الصليبيين فى الجزيرة وبلاد الشام . ولكن القوى الاسلامية فى بلاد الشام لم تستطع وقتذاك أن تهتبل هذه الفرصة والانقضاض على اماراتهم والقضاء على شأفة الصليبيين .

أما بلك بن بهرام بن أرتق فانه بعد ان جمع أسراه فى قلعة خرتبرت توجه إلى حران

---

(١) حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٢٠ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٠٦ ، انظر العظيمى ، تاريخ العظيمى حوادث سنة ٥١٧هـ ، وكركر : حصن بين سميساط وخرتبرت ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٧هـ ، ابن القلانسي ، ص ٢٠٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦١٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢١٠ ٢١١ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٢٠ .

للاستيلاء عليها فى ربيع الأول من سنة ٥١٧هـ / ١١٢٣م ، بهدف التقوى بها ، فتم له ذلك . وكان بلك بن بهرام يطمع فى الاستيلاء على حلب من سليمان بن عبدالجبار عقب استيلائه على حران لانه كان يدرك أهمية حلب الاستراتيجية ، وأنه لن يحقق اية نتيجة حاسمة على الصليبيين مالم يضم حلب الى امارته كى تكون له قاعدة فى بلاد الشام ، يستطيع من خلالها التحرك فى ميدان فسيح ، وليتفرغ لقتال الصليبيين[١] . لذلك فرض بلك بن بهرام على حلب الحصار حتى اضطر من بها إلى تسليمها إليه فى صباح يوم الثلاثاء غرة جمادى الأولى سنة ٥١٧هـ / ١١٢٣م[٢] . الا أن بلك بن بهرام لم يستطع المضى قدما فى جهاد الصليبيين بالشام حيث وصله نبأ تمكن جوسلين من الفرار من الاسر بمعونة جماعة من الارمن الذين كان بلك بن بهرام قد أحسن اليهم بخرتبرت ، فعاد على وجه السرعة إلى خرتبرت فى رجب من نفس السنة ٥١٧هـ / ١١٢٣م واستطاع اعادة الامن بها ونقل الاسرى المتبقين فيها إلى حران بعد معاقبة الارمن الذين كانوا بها[٣] .

أما جوسلين صاحب الرها الذى هرب من الاسر فقد استطاع تكوين جيش من صليبيى بيت المقدس وانطاكية ، واتجه به صوب حلب وضيق على من بها من المسلمين . ولم يكتف بهذا ، بل أقدم على نبش قبور الموتى من المسلمين فى البلاد المحيطة بها . وظل محاصرا لها حتى شهر رمضان من السنة نفسها ٥١٧هـ / ١١٢٣م . ولما لم يستطع النيل منها عاد إلى تل باشر . على أن حلب لم تسلم من حصار الصليبيين بعد عودة جوسلين إلى تل باشر ، بل تعرضت لحصار آخر من صليبيى أنطاكية ، أدى إلى قطع الصلة بينها وبين غيرها من البلاد الاسلامية فى الشام ، تلك البلاد التى كانت تزودها بالمؤن[٤] .

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٢٠٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦١١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢١٢ ، عمادالدين خليل ، الامارات الارتقية ، ص ٢٦٨ .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٧هـ ، ابن القلانسي ، ص ٢٠٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦١١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢١١ — ٢١٢ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ٢٠٩ — ٢١٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢١٣ ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٧ هـ ، وذكر ابن الاثير (الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦١٣ — ٦١٤) رواية تختلف عن رواية ابن القلانسي وابن العديم والعظيمى فى ان بلدوين الثانى هو الذى هرب الى بلاده بدلا من جوسلين ، انظر ايضا حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٢١ ، العرينى ، الشرق الاوسط ، جـ ١ ، ص ٤٨٣ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢١٤ — ٢١٥ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٧هـ .

وجد بلك بن بهرام بن أرتق انه لابد من الاستعانة بآقسنقر البرسقى صاحب الموصل وبظهير الدين طغتكين صاحب دمشق لرفع الظلم عن أهل حلب ولانزال ضربة بالصليبيين ، يستطيع بعدها بلك بن بهرام العودة إلى حلب واقرار الاوضاع بها . فوصل إليه سنة ٥١٧هـ / ١١٢٣م كل من صاحب الموصل آقسنقر البرسقى وصاحب دمشق طغتكين على رأس قواتهما ، فعبر بهم الفرات ونزلوا على عزاز ، ولكن الصليبيين الذين كانوا قد تجمعوا بها تمكنوا من طرد المسلمين ، فعاد كل منهم إلى بلده . ودخل بلك بن بهرام حلب فى سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م . وتخلص من بعض المناوئين له ، وقضى على فوضى قطاع الطرق ، وتزوج باحدى بنات رضوان بن تتش لتوثيق صلته بالسلاجقة ، واتخذ من حلب عاصمة له فى بلاد الشام ، وقاعدة انطلاق لتوجيه الضربات ضد الصلبيين . ولم يكتف بهذا بل نقل إليها أسراه من حران واعتقلهم فى قلعة حلب . ويبدو أن ماقام به بلك بن بهرام من نقل أسراه إلى حلب انما كان بقصد الاطمئنان عليهم من أية محاولة لانقاذهم أثناء بعده عنهم ، والدليل على ذلك أنه حين جهز فرقة عسكرية فى صفر من سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م لقتال الصليبيين بغزاز ، لم يخرج معهم خوفا من أن يغدر به بعض سكان حلب المعارضين له ويطلقوا سراح أسراه[١] . ولكن الاجل لم يمهل بلك بن بهرام حيث وافته منيته فى شهر ربيع الأول من تلك السنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م ، عندما كان يحاصر منبج التابع لامارة طرابلس الصليبية ، ففقد المسلمون فيه رجلا أثبتت اعماله انه زعيم وقائد حاول جمع كلمة المسلمين فى الشام والجزيرة ضد الصليبيين[٢] .

ويمكن القول انه بمقتل بلك بن بهرام سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م انتهت مرحلة قيادة الأراتقه لحركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين ، على الرغم من أن حسام الدين تمرتاش بن ايلغازى قد استطاع الاستيلاء على حلب عقب مقتل بلك بن بهرام[٣] . الا أن حلب لم تتمتع فى ايامه باوضاع مستقرة ، بل فسدت احوالها وضعف امر المسلمين بها حيث

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢١٦ — ٢١٧ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦١٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢١٩ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٣٨ — ٢٣٩ ، ابن الوردى ، تتمة المختصر ، جـ ٢ ، ص ٣٢ ، الذهبى ، تاريخ الاسلام ، حوادث سنة ٥١٨هـ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢٦٣ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٢١ .

(٣) عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية فى بلاد الشام والجزيرة ، ص ٢٧٥ .

« الهاه الصبى واللعب عن التشمير والجد والنظر فى امور الملك »[1] . ولم يقف حسام الدين عند هذا الحد من الخمول وعدم المبالاة بجهاد الصليبيين ، بل قبل وساطة أبى العساكر سلطان بن منقذ صاحب شيزر فى اطلاق سراح بلدوين ملك بيت المقدس ، الذى كان فى أسر بلك بن بهرام[2] ، الامر الذى أدى إلى ازدياد حماس الصليبيين فى النيل من المسلمين . وهذا بالطبع كان له اثر كبير فى تصدى الصليبيين بصلابة لحركة بعث فكرة الجهاد الاسلامى فى المرحلة التالية التى قادها كل من آقسنقر البرسقى صاحب الموصل وظهير الدين طغتكين صاحب دمشق .

وفى هذه الظروف الصعبة التى كان يمر بها المسلمون فى حلب وشمال الشام من جراء الغارات الصليبية والتى كادت ان تؤدى إلى سقوط حلب بيد الصليبيين ، طلب الحلبيون النجدة من الامير آقسنقر البرسقى صاحب الموصل ، وكان مريضا ، ولكن هذا لم يثنه عن مد يد المساعدة لحلب ، فجهز حملة عسكرية وسار بها من الموصل إلى حلب فى ذى الحجة سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م ، فلما أشرف عليها اشترط على من بها تسليم القلعة إلى رجاله فأجابوه إلى ذلك وسلموا القلعة إلى نوابه ، وواصل مسيره إليها . فلما علم الصليبيون بذلك رحلوا عنها عائدين إلى بلادهم دون الالتقاء به لعلمهم بقوته وشدة بأسه ، بالاضافة إلى ماكان يتمتع به من تأييد كبير من الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية فتبعهم رجاله وتخطفوا من مؤخرتهم ماقدروا عليه وظلوا يطاردونهم حتى ادخلوهم انطاكية ، ودخل آقسنقر البرسقى حلب فى أواخر سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م واجتهد فى حمايتها والذب عنها من الصليبيين ، وكتب لاهلها توقيعا برفع المظالم والمكوس ، فنعمت حلب بالخيرات حيث عاد أهلها إلى الزراعة وتوالت عليها الامطار فعمها الخير[3] .

وهكذا انتقل عبء الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فى شمال الشام ومنطقة الجزيرة

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٢٠ .

(٢) تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٨هـ ، أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٠٣ ، ١٢٠ — ١٢١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٢٠ ، رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢٧٣ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٤٨٤ .

(٣) العينى ، عقد الجمان ، جـ ١١ ، ورقة ٢٠٦أ ، الاصفهانى ، البستان الجامع ، جوادث سنة ٥١٨هـ ، ابن القلانسي ، ص ٢١٢ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ، ص ٦١٩ — ٦٢٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٢٦ — ٢٣٠ ، ابوالفدا المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٢٨ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢٢٨ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢٧٤ .

إلى آقسنقر البرسقى الذى حكم الموصل وحلب ، مما يعتبر نواة لتوحيد الجبهة الاسلامية فى اطراف العراق وشمال الشام ، وهذا ماكان يخشاه الصليبيون من ان تنقطع الصلة بين امارة الرها بارض الجزيرة عن بقية الامارات الصليبية فى شمال الشام ووسطها[1] .

وسبقت الاشارة إلى أن آقسنقر البرسقى صاحب الموصل وحلب كان يمثل الشرعية الاسلامية باعتباره تابعا للخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية فى بغداد ، وكان هذا من الاسباب الرئيسية التى زادت من خطورته على القوى الصليبية فى بلاد الشام والجزيرة ، الامر الذى شجعه على تكوين حلف اسلامى او بمعنى آخر جبهة اسلامية تمتد من الموصل إلى حلب فدمشق . ففى سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م طلب من ظهير الدين طغتكين الاجتماع به فى حلب ، فلما تم ذلك توجها سويا إلى كفر طاب واستوليا عليها وواصلا مسيرهما إلى عزاز . غير ان اجتماع الصليبيين بعزاز ، قد أجبرهما على التراجع فعاد آقسنقر إلى حلب وطغتكين إلى دمشق[2] .

رأى آقسنقر البرسقى انه لابد من عقد هدنة مع الصليبين ، خصوصا وأنه عقد العزم على العودة إلى الموصل لجمع العساكر من التركمان والاكراد ، والعودة مرة اخرى إلى حلب لقتال الصليبيين بالشام . وكان آقسنقر يخشى أن يقوم الصليبيون بحصار حلب والاستيلاء عليها عقب خروجه منها . ولذلك فقد عقد الصلح بين الطرفين فى نفس السنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م ، وعبر الفرات إلى الموصل بعد أن استخلف على حلب ابنه عز الدين مسعود[3] .

وفى الموصل جمع آقسنقر البرسقى الكثير من التركمان وغيرهم وعبر بهم الفرات إلى بلاد الشام ، فوصل الرقة فى أواخر ربيع الاخر من سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م ، وواصل

---

(١) حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٢١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٤٧ .

(٢) تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١٩هـ ، ابن القلانسي ، ص ٢١٣ ، ابن الاثير الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٢٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٣٠ — ٢٣١ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٢٠ .

(٣) تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٠هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٢٨ — ٦٢٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٢٣٢ .

مسيره حتى وصل قريبا من حلب ، فراسله جوسلين صاحب تل باشر على المهادنة على أن تكون البلاد الواقعة بين عزاز وحلب مناصفة بينهما « وأن تكون الحرب على غير ذلك ، فاستقر هذا الأمر » ولما تم الاتفاق بينهما سير آقسنقر البرسقى ابنه عز الدين مسعود بفرقة عسكرية من التركمان نجدة لصاحب حمص صمصام الدين خير خان بن قراجة ، حيث تعرض فى هذه السنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م لهجوم من الصليبيين ، فى الوقت الذى واصل فيه اقسنقر مسيره بمن معه من التركمان حتى وصل حصن الاثارب فى شهر جمادى الاخرة من السنة نفسها بقصد الاستيلاء على هذا الحصن . ولم يتيسر له ذلك اذ ان الصليبيين لما شعروا بشدة الحصار الذى فرضه عليهم اقسنقر طلبوا النجدة من بلدوين الثانى ملك بيت المقدس ، فلم يتوان عن نجدتهم ، فلما حضر اجتمع بجوسلين صاحب تل باشر وارسلا إلى آقسنقر البرسقى يطلبون منه الرحيل عن الاثارب ، على أن تبقى بينهم الهدنة التى عقدت فى العام السابق . وتجنبا لهزيمة محققة من الصليبيين ووفاء بالعهود وافق آقسنقر البرسقى على رفع الحصار عن الاثارب حفاظا على العهود والمواثيق . وما ان رفع اقسنقر البرسقى الحصار عن الاثارب حتى تنكر له الصليبيون بالصلح وقالوا : « مانصالح الا على ان تكون الاماكن التى ناصفنا عليها فى العام الماضى لنا دون المسلمين » . فعرف آقسنقر البرسقى نوايا الصليبيين ، وطلب النجدة من طغتكين صاحب دمشق فوصلته النجدة بعد ان نزل قنسرين قريبا من حلب وظل يواصل مسيره حتى نزل سرمين فامتدت جيوش المسلمين إلى قرية الفوعة وبلدة دانيث ، بينما نزل الصليبيون على حوض معرة مصرين فظل المسلمون ينتظرون قدوم الصليبيين حتى شهر رجب من السنة نفسها ، فلما لم يتم لقاء بين المسلمين والصليبيين رحل آقسنقر ومعه طغتكين إلى حلب حيث مرض هناك طغتكين فجهز بكل وسائل الراحة وعاد إلى دمشق بعد أن اوصى البرسقى بقتال الصليبيين . أما آقسنقر فانه لم يطل الاقامة بحلب بل عاد بعدها إلى الموصل فوصلها فى أواخر سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م بعد أن استخلف ابنه عز الدين بن مسعود بحلب للمرة الثانية[1] .

ويبدو أن عودة آقسنقر البرسقى إلى الموصل فى تلك السنة كان بهدف الاستعداد

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٢١٣ — ٢١٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٣٢ — ٢٣٦ ، والفوعة : هى قرية من نواحى حلب ، ومعرة مصرين : بلدة صغيرة بنواحى حلب وكانت تعد من اعمالها ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

لمعاودة قتال الصليبيين ، ولكن جماعة من الباطنية وثبوا عليه وهو يصلى الجمعة بالموصل فأردوه قتيلا فى ذي القعدة سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م[١] . وباستشهاد آقسنقر البرسقى كانت نهاية جهاد آخر شخصية من الشخصيات التى استطاعت القيام ببعث حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين من منطقة الجزيرة وشمال الشام قبل قيام الاسرة الزنكية سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م .

وقد رأينا فيما سبق أن منطقة الجزيرة بما حباها الله تعالى به من الامكانيات البشرية والمادية قد حملت لواء بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين وتهيأ لزعماء هذه المنطقة من القدرات والبطولة ماجعلهم ينقلون ميادين المعارك بينهم وبين الصليبيين إلى بلاد الشام ، وقد اتخذت هذه الفكرة مظهرها العملى فى عهد شرف الدولة مودود صاحب الموصل ثم من أعقبه من زعماء منطقة الجزيرة كنجم الدين ايلغازى وبلك بن بهرام بن أرتق وآقسنقر البرسقى . على انه لايمكن اغفال الدور الذى قامت به دمشق « قلب بلاد الشام النابض » فى مواجهة الصليبيين بقيادة ظهير الدين طغتكين[٢] ، (٤٩٧ ــ ٥٢١هـ / ١١٠٣ ــ ١١٢٧م) الذى لم يكتف بمد يد العون لزعماء حركة بعث فكرة الجهاد الاسلامى فى الجزيرة وشمال الشام فحسب ، بل قام بمساعدة الفاطميين وغيرهم من حكام المسلمين فى بلاد الشام لوقف الزحف الصليبى على كثير من بلاد الشام . والى جانب الجهود التى قام بها لمساعدة امراء الجزيرة والشام كما سبق وشرحناه فى الصفحات السابقة فقد واجه الصليبيين وجها لوجه للدفاع عن املاكه مستغلا فى ذلك قوته احيانا وضعف الصليبيين احيانا اخرى . ففى سنة ٤٩٨هـ / ١١٠٤م استغل طغتكين هزيمة الصليبيين فى حران فى السنة الماضية واسترد بعض المواقع كبصرى وصرخد من يد بعض خصومه الذين كانوا يستنجدون دائما بالصليبيين[٣] . وفى

---

(١) تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٠هـ ، ابن القلانسي ، ص ٢١٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٣٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٣٤ ، ابن ميسر ، اخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٧٠ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ص ١١٧ ، ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص ٦٣ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢٣٠ .

(٢) طغتكين هو الامير ابو منصور طغتكين ، كان من رجال تاج الدولة تتش زوجه بأم ابنه دقاق وكان مع تاج الدولة تتش لما ذهب الى الرى لقتال ابن أخيه بركياروق ورجع الى دمشق بعد قتل تاج الدولة ، وكان اتابك دقاق مدة ولايته ، وكان شهما مهيبا يؤثر عمارة بلاده شديدا على المفسدين والفرنج ، فامتدت ايامه الى ان توفى سنة ٥٢٢ هـ بدمشق انظر الصفدى ، تحفة دوى الالباب ورقة ١٣٦أ ب .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٠٧ . وعن صرخد انظر مايلى ص ٢٥٨

السنة التالية ٤٩٩هـ / ١١٠٥م تقدم طغتكين إلى حصن علعال بطبرية الذى كان الصليبيون قد شرعوا فى عمارته ليكون قاعدة انطلاق لهم فى حصار دمشق . وحاصر طغتكين هذا الحصن ووعد عساكره المحاصرين لهذا الحصن بان من أحضر له حجر من حجارة هذا الحصن فله خمسة دنانير ، مما زاد فى حماسة المسلمين حتى هدموه عن آخره واسروا من فى داخله من الصليبيين فأمر بهم طغتكين وقتلوا عن آخرهم ، ثم عاد بعدها طغتكين إلى دمشق ، ومن ثم توجه إلى حصن رفنية واستولى عليه[١] .

وفى السنة التالية ٥٠٠هـ / ١١٠٦م خرج ظهير الدين طغتكين بقوة عسكرية من عساكر دمشق إلى طبرية واستولى على أحد حصون الصليبيين بها ، مستغلا فى ذلك مااصاب الصليبيين من هزيمة على تبنين بقيادة عز الملك انوشتكين الوالى الفاطمى بصور[٢] . وشجعت هذه الانتصارات ظهير الدين طغتكين من أجل مضايقة الصليبيين . ففى سنة ٥٠١هـ / ١١٠٧م جهز فرقتين عسكريتين ارسل احدهما إلى فلسطين والاخرى اغار بها على طبرية فخرج إليه صاحبها المسمى جرفاس الذى يقول عنه ابن القلانس انه « من مقدمى الافرنج المشهورين بالفروسية والشجاعة والبسالة وشدة المراس يجرى مجرى الملك بغدوين فى التقدم على الافرنج » . فالتقى برجال طغتكين ووقع فى أسرهم بعد قتل اكثر رجاله وحمل إلى دمشق[٣] . وحاول ان يفتدى نفسه بمبلغ من المال فلم يقبل منه ، طغتكين بل قتله على حد قول ابن الاثير[٤] . ورغم ان طغتكين حارب الصليبيين وانتصر عليهم بعيدا عن دمشق الا ان الهزيمة قد حلت به عندما خرج فى محاولة منه لتقوية حصن رفنية فى سنة ٥٠٢هـ / ١١٠٨م الذى كان الصليبيون قد شددوا عليه الحصار عقب انقطاع المدد عنه من طرابلس . ولما سمع الصليبيون المحاصرون لطرابلس بنزول طغتكين على الحصن المذكور تجهزوا بقوة عسكرية عندها

---

(١) تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٩ ، ابن القلانسى ص ١٤٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٠٧ ، سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ١٦ ، ابن ايبك ، كنز الدرر ، جـ ٦ ، ص ٤٦٥ ، وعلعال : جبل بالشام مشرف على البثنيه بين الغور وجبال الشراة ، انظر ياقوت معجم البلدان .

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٥١ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٢٧ ، ويذكر ابن جبير فى الرحلة ص ٢٧٤ ان حصن تبنين هذا موضع قرب بانياس وكان موضع تمكيس قوافل المسلمين الذاهبة الى عكا على ساحل البحر .

(٣) ابن القلانسي ، ص ١٥١ ، انظر تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥١١هـ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٤٦٧ ، ويضيف ابن الاثير ان طغتكين عرض على جر فاس الاسلام ولم يجبه الى ذلك فقتله وارسل الى الخليفة والسلطان بقية الاسرى .

وجد طغتكين وعساكره البالغ عددها أربعمائة فارس ألا قبل لهم بمواجهة الصليبيين ، فانسحبوا إلى حمص ، وتفرق اكثرهم بعد أن غنم الصليبيون منهم غنيمة هائلة وهم « على أقبح حال من التقطع ولم يقتل منهم أحد »[1] .

أدرك ظهير الدين طغتكين تزايد الخطر الصليبى على بلاده وبلاد المسلمين فى الشام ، وانه لابد من عقد هدنة مع الصليبيين فترددت الرسل بينه وبين بلدوين الاول ملك بيت المقدس فى الصلح والموادعة حتى استقر الامر بينهما سنة ٥٠٢هـ / ١١٠٨م على هدنة امدها اربع سنوات[2] . ويعلق ابن الاثير على هذه الهدنة فيقول : « ولولا هذه الهدنة لكان الفرنج بلغوا من المسلمين[3] . ولكن الصليبيين لم يتقيدوا بهذه الهدنة ، فبعد سقوط طرابلس فى ايديهم سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م ، تقدموا بجموعهم بقصد الاستيلاء على رفنية فى نفس السنة ، الا ان ظهير الدين طغتكين قد بلغه ذلك فخرج من دمشق على رأس قوة عسكرية قليلة العدد سار بها حتى وصل حمص . وعلى الرغم من أنه لم يشتبك معهم إلا أن خروجه على راس قواته قد حال دون استيلائهم عليها . وترددت بينه وبينهم المراسلة حتى افضت إلى الموادعة والمسالمة على أن يكون للصليبيين الثلث من غلات البقاع ، ويسلم إليهم حصن المنيطرة وحصن ابن عكار ، ويكفوا عن العبث والفساد فى الاعمال الحورانية والاطراف الاسلامية وان يكون حصن مصياف وحصن الطواف وحصن الاكراد داخل فى شروط الموادعة ويحمل أهلها عنها مالا معينا فى كل سنة إلى الصليبيين[4] .

وعلى الرغم من أن هذه الهدنة التى أبرمها طغتكين مع الصليبيين كانت مجحفة فى حق المسلمين الا انها اوضحت سياسة طغتكين ومرونته مع الصليبيين ، فانه لو لم يعقد معهم هذه الهدنة لاستطاعوا اجتياح بلاده وغيرها لانهم كانوا كلهم مجتمعين عقب استيلائهم على طرابلس ، ولذلك فقد جنب بلاده من ضغط الصليبيين . ولايمكن القول بان هذا تخاذل منه فى جهاد الصليبيين . والدليل على ذلك انه فى سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م عقد العزم على المسيرة إلى بغداد لتقديم الشكوى إلى الخليفة العباسى

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٦٨ ، انظر ابن القلانس ، ص ١٦٢ .

(٢) ابن القلانسي ص ١٦٤ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٦٨ — ٤٦٩ .

(٤) ابن القلانسي ، ص ١٦٥ . ورفنيه : بلدة عند طرابلس من سواحل بلاد الشام وهى غير رفنيه تدمر التى كانت تعد من اعمال حمص . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

المستظهر بالله والسلطان السلجوق محمد بن ملكشاه لما نزل به وبالمسلمين فى الشام من الذل والهوان على يد الصليبيين مع استمرارهم « بالطبع فى الامتداد إلى تملك الاعمال الجزرية والعراقية » . بعد أن اوصى ابنه تاج الملوك يورى بن طغتكين بالاحسان إلى الرعية ومغالطة الصليبيين فى الثبات على الموادعة المستقرة بينه وبين الصليبيين ، الا أن ظروفه التى لم يشر إليها أى من المؤرخين قد حالت دون وصوله إلى بغداد[1] .

وفى سنة ٥٠٦هـ / ١١١٢م انضم طغتكين إلى قوات شرف الدولة مودود صاحب الموصل وحققا فى السنة التالية نصرا مؤزرا على الصليبيين فى طبرية[2] . ولكن مقتل مودود بدمشق سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣م قد أثار على طغتكين حقد السلطان محمد بن ملكشاه ، الامر الذى اضطر طغتكين إلى التحالف مع الصليبيين للوقوف فى وجه القوات التى أرسلها السلطان محمد سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤م بقيادة برسق بن برسق صاحب همذان بقصد النيل منه ومن نجم الدين ايلغازى . ويبدو أن انضمام طغتكين إلى الصليبيين لم يكن الهدف منه اضعاف جانب المسلمين بقدر ماكان الهدف منه الاحتماء بهم من جيوش السلطان ، حتى أن مؤرخ حلب ابن العديم قد بين لنا ذلك حينما تم اللقاء بين المسلمين والصليبيين فى ارض شيزر سنة ٥٠٩هـ » ١١١٥م بقوله : « وجعل أتابك (طغتكين) يريث الفرنج عن اللقاء خوفا من الفرنج ان يكسروا العساكر السلطانية فيأخذوا الشام جميعه او ينكسروا فتستولى العساكر السلطانية على مافى يده »[3] . ومما يؤكد لنا أن انضمام طغتكين إلى جانب الصليبيين لم يكن الهدف منه اضعاف جانب المسلمين ، ماقام به فى نفس السنة ٥٠٩هـ / ١١١٥م من استعادة

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٦٥ ــ ١٦٦ .

وتاج الملوك يورى بن طغتكين : هو ابوسعيد المعروف بتاج الملوك ولد فى سنة ٤٧٨هـ وولى امرة دمشق بعد موت ابيه طغتكين فى صفر سنة ٥٢٢هـ وكانت سيرته غريبة اتصف بالحلم والسماح . قتل فى سنة ٥٢٦هـ . انظر ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٣ ص ٢٩٩ ، صلاح الدين المنجد ، ولاة دمشق فى العصر السلجوق ص ٢١ .

(٢) أنظر ماسبق ص ١٤٨ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٧٥ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٥٠٩ ــ ٥١١ ، ابن الوردى ، تتمة المختصر ، جـ ٢ ، ص ٣٨ .

رفنية من ايدى الصليبيين عنوة وقهرا[1] . وما قام به فى نفس السنة من شد الرحال والعزم على المسير إلى بغداد لازالة ماعلق بذهن الخليفة العباسى المستظهر بالله والسلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه نحوه . ولم يكتف بهذا بل تقرب من الامراء المسلمين فى بلاد الشام والموصل وشمال الجزيرة ، رغبة منه فى الوقوف إلى جانبهم صفا واحدا فى وجه الصليبيين[2] .

استغل الصليبيون خروج ظهير الدين طغتكين من دمشق وانضمامه إلى الفاطميين بعسقلان سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م وبقاؤه مدة شهرين هناك فاستولوا على بعض الحصون التابعة لدمشق وساروا إلى أذرعات ونهبوها بالرغم من كون ابنه تاج الملوك بورى كان مقيما بها . ولما بلغت هذه الاخبار طغتكين ارسل إلى بورى بعدم منازلة الصليبيين خوفا من استماتة الصليبيين فى الدفاع عن انفسهم . الا أن ابنه لم يصغ إلى مشورة والده ونازلهم فتحققت مخاوف والده وحلت الهزيمة على تاج الملوك بورى ووقع عدد من رجاله فى أسر الصليبيين[3] . وبدلا من أن يقوم ظهير الدين طغتكين بالمسير إلى الصليبيين والاخذ بثأره مما حل بابنه فى أذرعات اتجه الى حلب تلبية لدعوة نجم الدين ايلغازى سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م ولكن ظهير الدين طغتكين لم يستطع البقاء طويلا إلى جانب ايلغازى بسبب الغارات التى شنها الصليبيين على حوران والبلاد المحيطة بدمشق[4] .

وعلى مايبدو فان هزيمة الصليبيين فى ساحة الدم سنة ٥١٣هـ / ١١١٩م[5] وما ترتب عليها من رفع الحالة المعنوية للمسلمين قد دفع ظهير الدين طغتكين إلى منازلة الصليبيين سنة ٥١٤هـ / ١١٢٠م والاستيلاء منهم على تدمر والشقيق اللتين ولى

---

(١) تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٠٩هـ ، ابن القلانسي ، ص ١٩٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥١٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٧٦ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٩٣ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٥٤٣ ــ ٥٤٤ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٥ ، ص ١٥٤ ــ ١٥٥ ، واذرعات : بلد فى اطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٤) ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٥٤٤ .

(٥) عن هزيمة الصليبيين فى ساحة الدم انظر ماسبق ، ص ١٨٨ ــ ١٨٩

عليهما حفيده شهاب الدين محمود بن بورى[٤] . ولم يقف طغتكين عند هذا الحد بل استطاع فى السنة التالية ٥١٥هـ / ١١٢١م انزال هزيمة بالصليبيين ، فقتل منهم وأسر وأرسل من الاسرى والغنائم للسلطان محمود بن ملكشاه ، والخليفة العباسي المسترشد بالله على حد قول ابن الاثير[١] . ولا يستبعد أن طغتكين كان يهدف من وراء ارسال الاسرى والغنائم إلى الخليفة والسلطان هو كسب رضاهما وليحصل منهما على موافقة بتأييد المنشور الذى كان قد حصل عليه من السلطان محمد ابن ملكشاه والخليفة العباسى المستظهر بالله سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م « بولاية الشام حربا وخراجا ، واطلاق يده فى ارتفاعه »[٢] .

وفى الحقيقة أن ظهير الدين طغتكين لم يستغل وقوع جوسلين صاحب الرها وتل باشر ، وبلدوين الثانى ملك بيت المقدس فى أسر بلك بن بهرام سنة ٥١٧هـ / ١١٢٣م للقيام بعمل عسكرى للنيل من الصليبيين ، ولم يسع إلى توثيق روابط الصلة بينه وبين بلك بن بهرام خليفة نجم الدين ايلغازى فى حلب . ويبدو أن سبب ذلك هو انشغاله بتطورات الاوضاع فى صور وما قام به الفاطميون من عزل لواليها سيف الدولة مسعود الذى كان قد وليها من قبل ظهير الدين طغتكين[٣] .

وعلى الرغم من أن ظهير الدين طغتكين اصبح شبه محاصر بين الصليبيين بعد سقوط صور بايديهم سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م الا انه كان متيقظا لاطماع الصليبيين فى دمشق والبلاد التابعة لها . ففى سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م بلغه عزم ملك بيت المقدس بلدوين الثانى على المسير إلى حوران « للعبث فيها والفساد فلما تحقق من ذلك الامر شرع فى الاستعداد للقائه » وكتب إلى أمراء التركمان واعيانهم باعلامهم بصورة الحال

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٩٤ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٩٣ .

(٣) أنظر ماسبق ص ١٣١ ومابعدها .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٥٨٧ ، وتدمر : مدينة قديمة مشهورة كان بينها وبين حلب مسيرة خمسة ايام على الاقدام . والشقيف : بلدة تعرف بشقيف ارنون عبارة عن قلعة قرب بانياس من ارض دمشق . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

وشهاب الدين محمود بورى : هو ابوالقاسم بن ابى سعيد الملقب بشهاب الدين ولى دمشق بعد قتل اخيه اسماعيل سنة ٥٢٩هـ ، وكانت امه المعروفة بزمرد خاتون المدبرة لامره حتى تزوجها عمادالدين زنكى فتولى تدبير امره معين الدين انر احد مماليك جده طغتكين . وظل فى حكم دمشق حتى قتل سنة ٥٣٣هـ ، انظر صلاح الدين المنجد ، ولاة دمشق فى العصر السلجوق ، ص ٢٢ ــ ٢٣ .

ويستنجد بهم ويبذل لهم الاحسان والانعام فلبوا الدعوة وقدموا إليه واجتمع بهم فى مرج الصفر اشهر المروج بدمشق ولما علم الصليبيون بذلك تقدموا إلى طغتكين وخيموا بازائه بمرج الصفر ، ودارت بين الطرفين معركة حاسمة فى اليوم السابع والعشرين من ذى الحجة سنة ٥١٩هـ ، فكان النصر من نصيب المسلمين ، ولكنهم لم يتمتعوا به ، فقد حاولت فرقة من عساكر التركمان اللحاق بالصليبيين الذين لاذوا بالفرار وتمكنت هذه الفرقة من مضايقة الصليبيين ، غير ان الصليبيين تجمعوا واعادوا الكرة على العسكر الاسلامى « وحملوا عليه حملتهم المعروفة فكسروهم وهزموهم .. واطلقوا السيف فيهم حتى أتوا عليهم وتتبعوا المنهزمين بالقتل » . فى الوقت الذى عاد فيه ظهير الدين طغتكين إلى دمشق[1] .

وعلى أية حال فان ظهير الدين طغتكين لم يعمر طويلا فقد توفى فى صفر سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م بعد أن بذل كل ماأمكنه بذله فى صد الصليبيين عن دمشق وغيرها من بلاد الشام مع ماكان عليه من حسن السيرة واثارة العدل فى الرعية ، بعد ان استخلف على دمشق ابنه تاج الملوك بورى[2] .

ولاشك أن ظهير الدين طغتكين نجح فى المحافظة على دمشق من السقوط بيد الصليبيين ، بالاضافة إلى مساهمته مع غيره من زعماء بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين على تكوين جبهة اسلامية متحدة تتكون من الموصل وحلب ودمشق ، وذلك بما أبداه من تعاون صادق مع أولئك الرجال للوقوف صفا واحدا فى وجه الصليبيين ، مما ساعد على بلورة فكرة الجهاد الاسلامى وتوحيد الجبهة الاسلامية فى أذهان بعض قادة المسلمين وعلى رأسهم عماد الدين زنكى ، وهو موضوع الفصل الثالث .

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٢١٢ ــ ٢١٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٣٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ١٩٦ ، وعن حوران انظر مايلى ص ٢٦٨ حاشية رقم ١

(٢) ابن القلانسى ، ص ٢١٨ ــ ٢٢٠ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ١٢٧ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢٣٤ .

الفصل الثالث

الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فى عصر عماد الدين زنكى (٥٢١ ــ ٥٤١هـ / ١١٢٧ ــ ١١٤٦م)

ــ عماد الدين زنكى حتى ولايته الموصل سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م .
ــ عماد الدين زنكى وبعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين .
ــ عماد الدين زنكى والصليبيون حتى قبيل سقوط الرها (٥٢١ ــ ٥٣٨هـ / ١١٢٧ ــ ١١٤٣م) .
ــ استيلاء عماد الدين على امارة الرها الصليبية سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م .

الفصل الثالث

الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين فى عصر عماد الدين زنكى (٥٢١ ــ ٥٤١هـ / ١١٢٧ ــ ١١٤٦م)

ــ عماد الدين زنكى حتى ولايته الموصل سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م .
ــ عماد الدين زنكى وبعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين .
ــ عماد الدين زنكى والصليبيون حتى قبيل سقوط الرها (٥٢١ ــ ٥٣٨هـ / ١١٢٧ ــ ١١٤٣م) .
ــ استيلاء عماد الدين زنكى على إمارة الرها الصليبية (٥٣٩هـ / ١١٤٤م) .

الفصل الثالث

الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فى عصر عماد الدين زنكى

(٥٢١ ــ ٥٤١هـ / ١١٢٧ ــ ١١٤٦م)

عماد الدين زنكى حتى ولايته الموصل سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م :

كان على عماد الدين زنكى أن يحمل راية الجهاد الاسلامى وأن يسير على خطى من سبقه من أبطال الجزيرة مثل جكرمش ، وسقمان بن أرتق ، ومودود وايلغازى بن أرتق ، وآقسنقر البرسقى وغيرهم . وعماد الدين زنكى هو ابن آقسنقر البرسقى بن عبد الله ، المعروف والده بالحاجب[١] ، وكان آقسنقر الحاجب من مماليك السلطان السلجوق ملكشاه بن ألب أرسلان ، تربى معه فى صغره ، وظل مصاحبا له حتى كبر . فلما تولى ملكشاه السلطنة السلجوقية سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م رعى لاقسنقر ذلك فجعله من أمرائه ولقبه بقسيم الدولة « يوم كانت الألقاب لاتعطى إلا لمستحقيها » كما يقول ابن الاثير[٢] . وأصبح آقسنقر ثقة عند ملكشاه اعتمد عليه فى كثير من الامور ، فولاه حلب سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م فظهرت هيبته وكفايته فى جميع البلاد التى كانت تابعة لحلب كحماة ومنبج واللاذقية ، فبسط العدل بين اهلها وتتبع المفسدين فأبادهم ، وقصد أهل الشر فأبعدهم[٣] . ولما توفى السلطان ملكشاه سنه ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م شارك آقسنقر الحاجب فى الحوادث والفتن التى وقعت بين سلاجقة الشام بزعامة تتش وسلاجقة فارس بزعامة بركياروق ، لرغبة كل منهما فى الفوز بعرش السلطنة السلجوقية ، وكان لآقسنقر

---

(١) الحاجب : لم تكن تعنى هذه الكلمة التى تلقب بها آقسنقر والد عمادالدين ، ذلك الرجل الذى كان يقف على ابواب الخلفاء والملوك لتنظيم دخول الناس اليه ، بل انها تعنى الرجل الذى اصبح فى مرتبة الوزير واليه تناط مهمة الانصاف بين الامراء والجند زمن السلاجقة انظر القلقشندى ، صبح الاعشى جـ ٤ ص ١٨

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٤ ، انظر ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ١ ، ص ٢٤١ ، وجـ ٢ ص ٣٤٧ .

(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٨ ، ابن القلانسي ص ١١٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ١٠٤ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات ، جـ ٩ ، ص ٣٠٩

ــ وقسيم الدولة آقسنقر الحاجب والد عمادالدين زنكى هو غير آقسنقر صاحب الموصل والمتوفى سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م ولم تكن لعمادالدين به اية صلة قرابة ، ولم يتول عمادالدين زنكى الموصل بعد وفاة والده مباشرة كما ذكر ذلك أبو المحاسن وابن العبرى ، انظر ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٧٩ ، ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٠٣ .

الحاجب دور بارز فى تلك الحوادث ، انتهت بمقتله سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م فى المعركة التى نشبت بينه وبين تتش عند نهر سبعين على مسافة ستة فراسخ شرقى حلب[١] .

لم يخلف آقسنقر الحاجب من الاولاد غير عماد الدين زنكى ، الذى كان فى العاشرة من عمره حين قتل والده ، فلما تولى أمر الموصل سنة ٤٨٩هـ / ١٠٩٦م قوام الدولة كربوقا[٢] ، طلب من بعض مماليك آقسنقر الحاجب المقيمين فى حلب ، احضار عماد الدين زنكى وقال لهم : « هو ابن أخى وأنا أولى الناس بتربيته فأحضروه عنده »[٣] . وعلى مايبدو فان كربوقا ادرك مكانة آقسنقر والد عماد الدين فى نفوس كثير من التركمان وعرف مايكنون له من الولاء والطاعة ، فأحب أن يضم إليه ابنه ليحصل على الولاء نفسه الذى كان يكنه التركمان لوالده . يضاف إلى ذلك أن كربوقا أثناء ملازمته لآقسنقر قد أدرك نجابة عماد الدين ومكانته بين مماليك والده ، فأراد أن يضمه إلى جانبه ، للاستعانة به وبمماليك والده فى حروبه ضد خصومه ، وليضمن عدم منافسته له مستقبلا ، هذا فضلا عن خوف كربوقا من قيام رضوان بن تتش صاحب حلب باستمالة عماد الدين إليه ، فتقوى شوكته ضد خصومه التابعين لعمه بركياروق الذين كان منهم كربوقا ، ومما يوضح ذلك استعانة كربوقا بمماليك آقسنقر فى حروبه ضد خصومه الاراتقة بديار بكر ، وكان عماد الدين قد حضر معه احدى المعارك التى خاضها كربوقا ضد الاراتقة ، وكانت هذه اولى المعارك التى حضرها عماد الدين زنكى . ويدل وصف ابن الاثير لهذه المعركة وما به من مبالغة على ماكان يكنه ابن الاثير لهذه الاسرة الزنكية من تقدير وولاء[٤] .

حظى عماد الدين زنكى ومماليك والده بمكانة مرموقة عند قوام الدولة كربوقا ، وظل

---

(١) انظر ماسبق ص ٤١

(٢) كان قوام الدولة كربوقا احد قادة السلاجقة انضم الى جانب آقسنقر فى نزاعه مع تتش ، فوقع فى أسر تتش بعد قتل آقسنقر ، ولما لم يكن له بلد معين فقد أطلق سراحه رضوان بن تتش من سجن حمص عقب مقتل والده تتش سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م . انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٥٨ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٢٨ .

(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٥ ــ ١٦ ، انظر ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ، ص ٢٨ . ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى ، جـ ٤ ص ٦٨ .

(٤) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٦ .

عماد الدين ملازما لكربوقا حتى وفاته بالموصل سنة ٤٩٥هـ / ١١٠١م . وعلى الرغم من ملازمة عماد الدين لكربوقا فترة زمنية طويلة ، فان المصادر المتداولة لم تذكر انه شارك مع كربوقا[١] فى حملته العسكرية التى قام بها ضد الصليبيين سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٨م فى محاولة انقاذ انطاكية من السقوط بيد الصليبيين . ولما توفى كربوقا تولى أمر الموصل بعده شمس الدين موسى التركانى ومن ثم شمس الدين جكرمش ، فقرب عماد الدين زنكى واتخذه ولدا له لمعرفته بمكانة والده ، فبقى ملازما لجكرمش حتى وفاته سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م[٢] .

لم يفارق عماد الدين زنكى الموصل ، عقب مقتل جكرمش ، بل ظل بها وانضم إلى صفوف جاولى سقاوة بقصد جهاد الصليبيين . ولكن عماد الدين زنكى حين شعر بتغير جاولى تجاه السلطان محمد بن ملكشاه فارقه ، ومعه كثير من الامراء الاتراك ، بعد أن اشترك مع جاولى فى احدى المعارك ضد الصليبيين سنة ٥٠٢هـ / ١١٠٨م[٣] . واضاف ابن الاثير ان سبب مفارقة عماد الدين زنكى لجاولى هو انضمام جاولى إلى الصليبيين بزعامة تانكرد ضد المسلمين فى حلب سنة ٥٠٢هـ / ١١٠٨م[٤] .

وفى تلك السنة (٥٠٢هـ) استولى شرف الدولة مودود من قبل السلطان محمد بن ملكشاه على الموصل ، واتصل به عماد الدين زنكى ، فقدر له مودود انفصاله عن جاولى ، وعرف مودود قدر عماد الدين من مواقفه ضد الصليبيين ، بالاضافة إلى ماكان لوالده من منزلة كبيرة عرفها جميع الامراء الأتراك ، فزاد مودود فى اقطاعه وشهد

---

(١) عن حملة كربوقا ضد الصليبيين ووفاته انظر ماسبق ص ١٦٨ ــ ١٧٠

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ، ص ٢٨ ، ولم ينسى عمادالدين زنكى هذه العناية من جكرمش فبعد ولايته على الموصل سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م احسن الى ولد جكرمش ناصر الدين كورى ، اذ اكرمه وقدمه واقطعه كثيرا من الاقطاعات ولم يكتف بهذا بل اتخذه صهرا . انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٢٤ .

(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ١٦ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ، ص ٤٢٤ . وجاولى سقاوة احد قادة الاتراك السلاجقة كانت له السيطرة على البلاد الواقعة بين خوزستان وبلاد فارس عمر بها الكثير من القلاع والحصون فاراد السلطان محمد بن ملكشاه ان يستغل مواهبه فى القضاء على خصومه فطلب حضوره باصبهان ولما حضر أمره بالمسير الى الصليبيين لحربهم بالجزيرة والشام « واقطعه الموصل وديار بكر والجزيرة كلها » فسار حتى بلغ قريبا من الموصل فلقيه جكرمش ودارت بينهما معركة انتهت بأسر حكرمش وقتله سنة ٥٠٠هـ واصبحت لجاوى السيطرة على الموصل والبلاد التابعة لها حتى سنة ٥٠٢هـ حين تولى مودود امر الموصل . انظر ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٤٢٢ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ كل ٢٢١ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٤٦٤ ــ ٤٦٥ .

عماد الدين معه حروبه ضد الصليبيين . وعلى سبيل المثال ، كان لعماد زنكى اليد الطولى فى الموقعة التى جرت بين المسلمين والصليبيين فى معرة النعمان سنة ٥٠٥هـ / ١١١١م التى ذكر ابن الاثير انه لم يظهر فى عسكر مودود احد ظهور زنكى[١] . كما شهد عماد الدين زنكى مع مودود المعركة التى دارت بين المسلمين والصليبيين فى طبرية سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣م[٢] .

لم ينقطع عماد الدين زنكى عن جهاد الصليبيين ، بل ظل ملازما لحكام الموصل الذين اخذوا على عواتقهم عبء الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين ، فبعد ان عين السلطان محمد بن ملكشاه آقسنقر البرسقى على الموصل سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤م وأوكل إليه مهمة جهاد الصليبيين عقب استشهاد مودود بدمشق انضم عماد الدين زنكى إلى صفوفه وكان يعرف باسم زنكى الشامى . فظهر منه فى جهاد الصليبيين مالا يوصف على حد قول ابن الاثير[٣] . ورغبة من عماد الدين زنكى فى مواصلة الجهاد ضد الصليبيين فانه لم يذهب مع آقسنقر البرسقى إلى بغداد سنة ٥١١هـ / ١١١٧م بل ظل فى الموصل مع الملك مسعود بن محمد بن ملكشاه وجيوش بك حتى سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م حين عاد إليها أقسنقر البرسقى واخذها من الملك مسعود وجيوش بك بأمر من السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه[٤] .

وكان أقسنقر البرسقى حين عاد إلى الموصل قد حمل معه من السلطان محمود بن محمد أمرا بحفظ عماد الدين زنكى ، والوقوف عند اشارته ففعل بسبب ماذكره ابن الاثير من أن عماد الدين زنكى كان قد أشار على الملك مسعود بن محمد وجيوش بك ، بعدم الخروج عن طاعة السلطان محمود سنة ٥١٤هـ / ١١٢٠م[٥] . ولم يقف

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٨ ، انظر ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٩ .

(٢) انظر ماسبق ص ١٨١ .

(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٩ ، انظر ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٩ .
وعن اللقب الذى لقب به عمادالدين زنكى وهو زنكى الشامى الذى عرف به زمن البرسقى انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٩ ، حاشية رقم ١٠ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٥٠١ ــ ٥٠٢ ، ٥٣٣ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٢٢ .
كانت عودة اقسنقر الى بغداد بطلب من السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، لتولى منصب شحنكية بغداد بدلا من مجاهد الدين بهروز الذى كان متوليها زمن السلطان محمد بن ملكشاه . انظر ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٣٠ .

(٥) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٢٢ ــ ٢٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ص ٢٩ .

أقسنقر البرسقى عند حد تنفيذ أمر السلطان محمود له بالوقوف عند حد اشارة زنكى ، بل انه زاد على ذلك لمكانة عماد الدين عنده لما له من العقل والشجاعة .

أما عن علاقة عماد الدين زنكى بالسلاجقة والخلافة العباسية قبل ولايته الموصل سنة ٥٢١هـ ، فقد كان عماد الدين زنكى من الامراء التابعين لآقسنقر البرسقى الذى طلب منه سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م العودة إلى العراق لتولى شحنكيتها مرة اخرى والوقوف فى وجه دبيس بن صدقة ، ففعل آقسنقر ذلك واستصحب معه عماد الدين زنكى ، ولما كان أمر دبيس بن صدقة قد استفحل تلك السنة فقد اقطع اقسنقر البرسقى عماد الدين زنكى مدينة واسط لإيناس اهلها من دبيس بن صدقة ، واضاف إليه شحنكية البصرة وأمره بحمايتها فظهر من كفايته فى البلدين مالم يظنه أحد فازداد شأنه[١] .

وهكذا أصبح عماد الدين زنكى بحكم توليه أمر واسط والبصرة تابعا لاقسنقر ، مما حتم عليه الاشتراك فى حروب السلطنة السلجوقية ، لكونه أحد قادة الدولة السلجوقية ويرتبط بشحنتهم آقسنقر فى بغداد ويلتزم بأوامره[٢] وبحكم سيطرة السلاجقة على الخلافة العباسية فى هذه الفترة فقد وقفوا إلى جانب الخليفة العباسى المسترشد بالله ضد أمراء الحله العرب لا من أجل نصرة الخلافة وانما من أجل اضعاف الطرفين فى الغالب ، وكان لعماد الدين زنكى أثره الكبير فى ترجيح كفة الخليفة العباسى ضد دبيس بن صدقة سنة ٥١٧هـ / ١١٢٣م[٣] .

وفى سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م توترت العلاقات بين الخليفة العباسى المسترشد وآقسنقر البرسقى شحنة بغداد فطلب الخليفة من السلطان محمود بن محمد ابعاده عن بغداد ، فأجابه السلطان إلى ذلك ، وأرسل إلى البرسقى يأمره بالعودة إلى الموصل والاشتغال بجهاد الصليبيين . وكان عماد الدين زنكى حينئذ بالبصرة فأرسل إليه البرسقى يعلمه الحال ويستدعيه للمسير معه إلى الموصل . ولكن عماد الدين زنكى رأى انه لا طاقة له بالبقاء تحت تصرف آقسنقر البرسقى واوامره ، فرفض طلبه وانضم إلى السلطان

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٢٤ ــ ٢٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٣٠ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ص ٢٣٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ص ١٩٠ .

(٢) عمادالدين خليل ، عمادالدين زنكى ، ص ٣٩ ــ ٤٠ .

(٣) انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٠٧ ، ٦١٠ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٢٥ ــ ٢٦ ، ابن القلانسي ، ص ٢٠٨ ــ ٢٠٩ .

محمود بن محمد وأقام عنده باصبهان ، فرحب به وأكرمه وزوجه من أرملة احد أمراء والده السلطان محمد بن ملكشاه ، وزاد على ذلك أن جعله أتابكا لأخيه الملك طغرل بن محمد[1] .

وعندما ازدادت غارات دبيس بن صدقة وأعوانه على البصرة سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م أقطعها السلطان محمود بن محمد لعماد الدين زنكى وأمره بالمسير إليها ، كما أمره بمراعاة أحوال واسط ، ومراقبة تحركات الخليفة المسترشد بالله ، الذى كان قد أشيع عنه فى بلاط السلطان محمود انه قد باشر الحروب وجند الجيوش فقام عماد الدين زنكى بالمهمة خير قيام « فعظم ذلك عند السلطان وزاد محله عنده »[2] .

وهكذا كان انفصال عماد الدين زنكى عن أقسنقر البرسقى ، وعدم اللحاق به فى الموصل بعد طرده عن شحنكية بغداد وانضمامه إلى السلطان محمود بن محمد نقطة تحول فى تاريخ عماد الدين ، أدت إلى ارتباطه بالسلطنة السلجوقية والخلافة العباسية مما سيكون له أكبر الاثر على شخصية عماد الدين .

وفى سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م توترت العلاقات بين السلطان محمود ابن محمد والخليفة العباسي المسترشد بالله ، حصل على أثر ذلك قدوم السلطان إلى بغداد ، بعد أن طلب من عماد الدين زنكى القدوم بالعساكر إلى بغداد لحرب الخليفة ، مما رجح كفة السلطان على الخليفة ، ولكن الامر انتهى إلى عقد الصلح بين الطرفين فى السنة نفسها . ولما أراد السلطان محمود الرحيل عن بغداد فى السنة التالية ٥٢٠هـ / ١١٢٦م نظر فيمن يصلح أن يلى شحنكية بغداد والعراق ، لتوطيد الامن بها والوقوف فى وجه الخليفة المسترشد بالله ، فلم ير فى أمرائه وأصحابه من يصلح لسد هذا الباب

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٢٧ ــ ٢٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٢٢ ــ ٦٢٣ ، واتابك لقب يتكون من لفظين : أتا ــ بمعنى أب ، وبك بمعنى أمير ، ولما كانت نظرية السلاجقة فى الحكم ترتكز على ان يتولى أفراد من الاسرة السلجوقية حكم الاقاليم ، فقد ارتبط بكل فرد من هؤلاء الامراء السلاجقة قائد تركى يحمل لقب أتابك ــ أى الامير الوالد الذى يعتبر مسئولا عن تربية ابن الامير وتلقينه اصول الادارة والحكم وقد درج زعماء السلاجقة على تزويج الاتابك من احدى مطلقاتهم ، أو قيام الاتابك بالزواج من والدة الامير الصغير عقب وفاة والده . انظر القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ ٤ ، ص ١٨ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ ١ ، ص ٣٦٥ ، حسن الباشا ، الالقاب الاسلامية ، ص ١٢٢ ــ ١٢٣ ، الباز العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٠ ــ ٢١ ، علي محمد الغامدى ، بلاد الشام قبل الغزو الصليبى ، رسالة ماجستير لم تطبع ، ص ٢٨٩ ــ ٢٩٠ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٢٨ ، انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٣٠ .

العظيم غير عماد الدين زنكى « فولاه شحنكية العراق مضافا إلى مابيده من الاقطاع وسار السلطان عن بغداد ، وقد اطمأن قلبه من جهة العراق حيث اسنده إلى الكافى القيم بأمره »[1] . وعلى الرغم من أن السلطان محمود بن محمد قد أراد من وراء تولية عماد الدين زنكى شحنكية بغداد الوقوف فى وجه الخليفة العباسي المسترشد بالله ، فان عماد الدين زنكى ، قد سعى على مايبدو إلى توطيد علاقاته بالخليفة العباسى المسترشد بالله ، بدليل ماسعى إليه الخليفة العباسى من تنحية دبيس بن صدقة عن الموصل ومساعدته لعماد الدين زنكى فى الوصول إلى ولايتها سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م[2] .

ولاشك أن علاقة عماد الدين زنكى بالسلاجقة وبالخلافة العباسية فى عهد المسترشد بالله ، قد حددت مستقبله السياسى ، فبينما كان عماد الدين زنكى أحد الامراء التابعين لاقسنقر البرسقى ، فانه راى بثاقب بصره وخبرته أنه لن يكسب من وراء ذلك سوى تحمل تبعاته ، ولذلك فان عماد الدين قد اختار الطريق المناسب حين التحق بخدمة السلطان محمود بن محمد بأصبهان وارتبط به الارتباط الكامل ، الامر الذى كشف للسلطان محمود بن محمد عن قوة شخصية عماد الدين ، خصوصا حين وقف بصلابة فى وجه طموحات الخليفة العباسى المسترشد بالله الذى كان سائرا فى سبيل النهوض بأمر الاخلافة العباسية .

أما عن ولاية عماد الدين زنكى للموصل سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م ، فالحقيقة أن الظروف السياسية فى العراق والموصل قد سارت فى صالحه ، وأصبح المنصب الجديد فى الموصل مهيأ له حتما ، ذلك انه قد حسن علاقاته بالخليفة المسترشد مدة توليه أمر شحنكية بغداد ، ثم ان عماد الدين زنكى قد حظى بصداقة رجل قوى من سكان بغداد ، هو أبو سعيد نصير الدين جقر بن يعقوب الهمذانى « الذى كان اعظم اصحاب اتابك زنكى منزلة » . بالاضافة إلى ماتجمع عند السلطان محمود بن محمد من أسباب الاقتناع باختيار عماد الدين زنكى ، ويضاف إلى ذلك أن أحوال الموصل سارت من سيئ إلى أسوأ بعد وفاة عز الدين بن مسعود بن آقسنقر سنة ٥٢١هـ /

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ٣١ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٤١ ، بن الجوزى ، المنتظم ، جـ ١٠ ص ٢ — ٦ ، ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية فى السيرة النورية ، ص ٩٢ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٣٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٣١ ، ابن العبرى ، مختصر الدول ، ص ٢٠٣ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ٢ ، ص ٣٢٨ .

١١٢٧م ، إذ برز أحد المماليك الاتراك ويدعى جاولى سقاوه الذى سبق أن انتزع الموصل من جكرمش سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م وأخذ على عاتقه الوصاية على الابن الاصغر لاقسنقر الذى لم تشر المصادر التاريخية المتداولة إلى ذكر اسمه ، وحاول جاولى ان يحصل من السلطان محمود بن محمد على موافقة منه بتولية هذا الطفل شئون الموصل ، لكن الامور سارت على غير ماكان يصبو إليه ، فقد أرسل جاولى فى سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م صلاح الدين محمد الياغيسيانى ، وبهاء الدين الشهرزورى إلى بغداد لأخذ الموافقة من السلطان محمود ، وكان الرسولان يخافان من جاولى « ولا يرضيان بطاعته والتصرف بحكمه » فلما حضرا إلى بغداد ليخاطبا السلطان فى ذلك الامر قابلهما نصير الدين جقر المقدم ذكره وبينه وبين صلاح الدين الياغيسيانى مصاهرة ومودة ، فذكر له صلاح الدين سبب قدومه إلى بغداد « فخوفه نصير الدين جقر من جاولى وتحكمه على صاحبه » ونصحه بان يطلب الامر من السلطان باسم عماد الدين زنكى شحنة العراق . وعلى الرغم من اقتناع صلاح الدين بالامر ، الا أنه طلب من جقر مقابلة الشهرزورى ، واقناعه بذلك ، فتقابل معه ووعده نصير الدين ومناه وضمن له عن عماد الدين من الاملاك والاقطاع ماجاوز أمله ، فأجاب الشهرزورى كما أجاب الياغيسيانى[1] . وبالاضافة إلى ذلك فان الخليفة العباسى المسترشد بالله ، كان له دور بارز فى تغيير وجهة نظر الرسولين اللذين كان جاولى قد أرسلهما إلى بغداد ، حيث استدعاهما الخليفة وطلب منهما ان يطلبا من السلطان محمود تعيين عماد الدين زنكى بدلا من الطفل الذى قدما من أجله[2] .

والواقع أن رسل الموصل اقتنعا بما تلقياه من نصائح جقر والخليفة المسترشد بالله ، فقدما على الوزير شرف الدين انوشروان بن خالد وزير السلطان محمود بن محمد ببغداد وشرحا له الموقف فى الموصل وما يعانيه أهل الشام والجزيرة من أخطار الصليبيين عقب مقتل آقسنقر البرسقى سنة ٥٢٠هـ /١١٢٦م وابنه مسعود فى السنة التالية وقالا له ان البلاد أصبحت خالية « من شهم شجاع يذب عنها ويحمى حوزتها ، وقد انهينا الحال اليك لئلا يجرى خلل أو وهن على الاسلام والمسلمين ، فنحصل نحن بالاثم من

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٣٤ ــ ٣٥ ، انظر الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٤٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٣٢ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٣٨ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ١ ، ص ٣٦٤ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ٢ ، ص ٣٢٨ .

الله واللوم من السلطان » . فأنهى الوزير ذلك الامر إلى السلطان محمود بهمذان فاستحسنه وشكرهما عليه وأحضرهما ، واستشارهما فيمن يصلح للولاية فذكرا جماعة ، منهم عماد الدين زنكى . ولم يكتف الرسولان بهذه المشورة ، بل انهما تقربا إلى الوزير ووعداه بأموال جليلة له وللسلطان ، اذا وافق على تولية زنكى أمر الموصل ، فأجاب السلطان إلى تولية عماد الدين أمر الموصل ، لما يعلمه من كفايته لما يليه ، فأحضره بهمذان وولاه البلاد كلها ، وكتب منشورا بها ، وضم اليه ولديه ألب أرسلان وفرخنشاه المعروف بالخفاجى ، ليشرف على تربيتهما ، فلهذا قيل له أتابك[1] .

بعد أن حصل عماد الدين زنكى على المنشور الخاص بولاية الموصل والبلاد التابعة لها سار فى شهر رمضان من السنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م ، متوجها إلى الموصل ، وقد شملت ولايته الموصل وديار الجزيرة ونصيبين وما كان بيد آقسنقر البرسقى[2] . ومما تجدر الاشارة إليه أن ولاية عماد الدين زنكى لم تكن وليدة مشاورات حصلت فى بغداد فى عدة أيام بين عدد من الاصدقاء فى تلك السنة ، ولكن الامر أبعد من ذلك بكثير ، فاشتراك عماد الدين زنكى مع قادة الموصل منذ سنة ٤٨٩هـ فى حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فى الشام والجزيرة ، ثم اشتراكه مع اقسنقر البرسقى شحنة بغداد والسلطان محمود والخليفة المسترشد فى القضاء على حركة دبيس بن صدقة سنة ٥١٧هـ ، واخيرا ماقام به من ضبط الامور فى بغداد وواسط والبصرة فى السنوات ٥١٨هـ إلى ٥٢٠هـ ، كل هذه الاسباب كانت سببا فى اختياره لولاية الموصل سنة ٥٢١هـ ـــ ١١٢٧م ، فى الوقت الذى كان فيه أمر المسلمين فى بلاد الشام والجزيرة فى حالة من الضعف والهوان . وقد صور لنا ابن الاثير مدى اتساع سلطان الصليبيين وضعف المسلمين بقوله « وكانت مملكة الفرنج حينئذ قد امتدت من ناحية ماردين وشبختان إلى عريش مصر ، لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حمص وحماة ودمشق (وشيزر) وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر إلى آمد ، فلم يبقوا على موحد ولا جاحد ، ومن ديار الجزيرة إلى نصيبين ، ورأس العين ، فاستأصلوا مالاهلها من أثاث وعبيد ، وأما الرقة

---

(١) ابن الاثير ، الباهر ص ٣٥ ، انظر ابن ، الاثير الكامل جـ ١٠ ص ٦٤٣ ـــ ٦٤٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٣٣ ، الاصفهانى ، دولة آل سلجوق ، ص ١٤٠ ـــ ١٤٢ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ١٠ ص ٥ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢١هـ وحوادث سنة ٥٢٥هـ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٣٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ص ٣١ ـــ ٣٣ .

وحران ، فقد كان أهلها معهم فى ذل وصغار .. واستضعاف واقتسار .. وانقطعت الطرق إلى دمشق إلا على الرحبة والبر ، فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف وركوب المفارة تعبا ومشقة ونصبا »[1] .

ولم يكتف الصليبيون بما فرضوه على المسلمين من مغارم ، وما قاموا به من قطع الطرق بين بلاد المسلمين ، بل انهم فرضوا على كل البلاد التى كانت تجاورهم اتاوة وخراجا « يأخذونها منهم ليكفوا ايديهم عنهم » ولم يقنعوا بذلك بل انهم ارسلوا رسلهم إلى دمشق والمدن الاسلامية الاخرى ، واستعرضوا الرقيق الذين كان المسلمون قد استولوا عليهم من الروم البيزنطيين والارمن « وخيروهم بين المقام عند اربابهم (من المسلمين) او العودة إلى أوطانهم والرجوع إلى أهليهم واخوانهم » وهذا اخر مابلغ إليه المسلمون من الضعف على حد قول ابن الاثير « وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغارا وللكافرين قدرة واقتسارا »[2] . وهذه صورة معبرة عما كان المسلمون فيه من الضعف والهوان فى بلاد الشام والجزيرة وما عليه الصليبيون من القوة والاقتدار قبل قيام عماد الدين زنكى بأمر الجهاد .

ــ عماد الدين زنكى وبعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين :

ماان تلقى عماد الدين زنكى الامر بتولى أمر الموصل وماكان بيد آقسنقر البرسقى من البلاد حتى سار إلى الموصل فى شهر رمضان سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م . وفى طريقة استولى على البوازيج[3] وكان قصده من الاستيلاء عليها قبل وصوله إلى الموصل الاحتماء بها فيما لو تصدى له جاولى ومنعه من دخول الموصل . الا أن جاولى حين بلغه قدوم عماد الدين زنكى ، تلقاه بالحفاوة والاكرام ، ودخل فى طاعته فأقطعه زنكى الرحبة وسيره إليها[4] . ويبدو أن اذعان جاولى ودخوله فى طاعة زنكى انما هو لعلمه بعدم قدرته

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٣٢ ــ ٣٣ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٤٣ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢٣٢ .

ــ ورأس العين : مدينة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٢١٧ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٣٣ .

(٣) البوازيج : بلد على نهر الزاب قرب تكريت من اعمال الموصل بخلاف بوازيج الانبار ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٤) ابن الاثير ، الباهر ص ٣٤ ــ ٣٥ ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٦٤٥ ، ابن واصل ، ابن ففرج الكروب ص ٣٣ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ص ٢٣٩ .

على مقاومة عماد الدين زنكى ، بالاضافة إلى أنه من غير المستبعد أن تكون المفاوضات التى دارت فى بغداد قد وصلته ففضل عدم المجابهة لمن ارتضاه الخليفة العباسى والسلطان السلجوقى .

أقام عماد الدين زنكى بالموصل لاصلاح أمورها وتقرير قواعدها ، فكان أول عمل قام به اكرام الثلاثة نفر الذين سعوا فى بغداد لتوليته الموصل ، فولى نصير الدين جقر ولاية القلاع فى كل بلد يستولى عليه بعد الموصل ، وجعل صلاح الدين الياغيسيانى امير حاجب ، وبهاء الدين أبا الحسن الشهرزورى قاضى قضاة بلاده جميعها « ووفى لهم بما وعدهم »[1] .

ولما وطد عماد الدين زنكى أموره بالموصل ، بدأ يفكر فيمن حوله من الامراء المسلمين الذين يسيطرون على عدد من المدن والقلاع ، وهم متناحرون فيما بينهم . ورأى أن هؤلاء الامراء سيقفون حجر عثرة فى سبيله فيما لو أراد مواجهة الصليبيين ، خاصة وانه الرجل الذى عاصر قادة بعث فكرة الجهاد الاسلامى فى الموصل منذ سنة ٤٨٩هـ / ١٠٩٥م ، وعرف عماد الدين أن هؤلاء الامراء لابد من ضمهم تحت لوائه ، فبذلك يكون قد حقق ماعجز عن تحقيقه كربوقا ومودود ، وآقسنقر البرسقى من توحيد للجبهة الاسلامية .

من هنا بدأ عماد الدين زنكى بجزيرة ابن عمر ، التى كانت تحت حكم أحد مماليك آقسنقر البرسقى ، فاستولى عليها سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م ، ثم اتجه إلى نصيبين فى نفس السنة وكانت بيد حسام الدين تمرتاش بن ايلغازى صاحب ماردين . وقد حاول تمرتاش الدفاع عنها ولكنه عجز ، فذهب إلى حصن كيفا بقصد الاستنجاد بابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان بن أرتق . غير أن أهل نصيبين سلموها إلى عماد الدين زنكى ، حين تأخرت عنهم النجدة التى ذهب حسام الدين تمرتاش فى طلبها . ومن نصيبين سار زنكى إلى سنجار فامتنع من بها عن التسليم ، ولكن أهلها صالحوا عماد الدين وسلموا إليه البلد ، ثم واصل مسيره إلى الخابور وبها عدد من القرى

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٣٥ ، انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٣٤ .
ونصيبين : مدينة على شاطئ الفرات كان بينها وبين آمد اربعة ايام او ثلاثة ومثلها بينها وبين حران . وهى وبيئة لكثرة بساتينها . انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٢١٥ .

الواقعة على نهر الخابور[1] ، واستطاع أن يفرض عليها سلطانه . ومن الخابور سار زنكى إلى حران التى كانت فى ضيق شديد من حصار الصليبيين لها لقربها من الرها وسروج اللتين كانتا بيد الصليبيين . وكان أهل حران قد أرسلوا إلى عماد الدين يستحثونه على الوصول إليهم ، فسار إليهم مجدا حتى نزل بأرضهم فاستبشروا بقدومه وخرجوا إلى لقائه للترحيب به[2] .

وبعد أن ملك عماد الدين زنكى بعض البلاد الجزرية التى كانت بيد الأراتقة وبعض المماليك الذين كانوا تابعين لاقسنقر البرسقى صاحب الموصل ، عاد فى سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م إلى الموصل بقصد عبور الفرات ، والاستيلاء على حلب ، وذلك للقضاء على الفوضى السياسية التى كانت بها ، وباعتبارها أهم مركز فى شمال الشام يمكن اتخاذه نقطة انطلاق لمواجهة الصليبيين . يضاف إلى ذلك أن حلب كانت فى يوم من الأيام تحت حكم والده آقسنقر الحاجب ، وبها قبره ، فلا غرو اذا كان الاستيلاء على حلب من أهم الاشياء عنده حسب قول ابن الاثير[3] .

وكانت حلب فى تلك السنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م يتنازعها كثير من الأهواء فابراهيم بن رضوان يحاول استعادة مجد أسلافه من سلالة رضوان ، وبدر الدولة سليمان بن عبدالجبار يحاول أن يفرض عليها سيطرة الاراتقة ، وبها أيضا من المماليك قومان ، وختلغ أبه وهما من مماليك عز الدين مسعود ابن آقسنقر البرسقى ، وكل منهما يحاول فرض سيطرته عليها ، فى الوقت الذى كان فيه الصليبيون قد استضعفوا المسلمين ببلاد الشام ، وقوى طمعهم فى الاستيلاء على حلب التى بلغت حدا من الضعف لم تستطع معه دفع الصليبيين الذين كانوا يقاسمون أهل حلب على رحا بباب الجنان كما يقول ابن الاثير[4] .

---

(١) الخابور : اسم لنهر كبير بين راس عين والفرات من ارض الجزيرة وبها بلدان جمة غلب عليها اسمه فنسبت اليه . انظر معجم البلدان .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٤٥ ــ ٦٤٧ ، ابن الاثير التاريخ الباهر ، ص ٣٦ ــ ٣٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٣٤ ــ ٣٦ ، ابو الفدا المختصر ، جـ ٢ ص ٢٣٩ .
ــ وسنجار : بلد صغير يقع بالقرب من الموصل بارض الجزيرة . انظر ياقوت ، معجم البلدان ، القزوينى : اثار البلاد واخبار العباد ، ص ٣٩٣ .

(٣) ابن الاثير والتاريخ الباهر ، ص ٣٧ ، انظر ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٣٩ .

(٤) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٣٧ ، انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٣٧ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ص ٢٣٩ .
ــ وباب الجنان : باب من ابواب حلب ، انظر ياقوت : معجم البلدان .

وشعر صاحب منبج بما يدور فى حلب ، وحاول من قبله اصلاح مابين زعماء حلب من النزاع ولكنه لم ينجح ، فسير عماد الدين من قبله كلا من الامير سنقرداز والامير صلاح الدين حسن قراقوش ، وطلب منهما استدعاء المتخاصمين بحلب (بدر الدولة سليمان بن عبدالجبار بن أرتق وختلغ أبه) واحضارهما إلى الموصل . فلما حضرا بالموصل سير من قبله صلاح الدين الياغيسيانى إلى حلب « فصعد إلى القلعة ورتب الامر بها وجعل فيها واليا »[1] ، وكانت هذه هى الخطوة الأولى لاستيلاء عماد الدين على حلب أما الخطوة الثانية فهى مسير عماد الدين من الموصل إلى حلب فى جيش عظيم من التركمان استطاع به الاستيلاء ـــ فى طريقه ـــ على منبج وبزاغه ، فلما وصل إلى حلب تلقاه أهلها وأظهروا من الفرح والسرور به مالا حد له فتم له بذلك الاستيلاء على حلب سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م[2] .

وكان استيلاء عماد الدين زنكى على حلب الخطوة الهامة فى سبيل توحيد بلاد الشام سواء أكان ذلك بأمر السلطان محمود بن محمد أم كان رغبة من عماد الدين زنكى فى سبيل توحيد القوى الاسلامية فى الشام والجزيرة . ويمكن القول أن الاستقبال الذى قوبل به عماد الدين زنكى من سكان حلب كان دليلا واضحا على أن سكان حلب لا يزالون يذكرون تلك الايام التى عاشوها فى ظل حكم أقسنقر قسيم الدولة والد عماد الدين زنكى .

وفى حلب استطاع عماد الدين تصفية العناصر المعارضة له فقبض على ختلغ أبه وسلمه إلى خصمه فضائل بن بديع رئيس حلب فقتله . أما ابراهيم بن رضوان فقد هرب إلى نصيبين ، فى الوقت الذى هرب فيه كل من سليمان بن عبدالجبار بن ارتق وفضائل ابن بديع إلى قلعة جعبر طرف صاحبها شهاب الدين مالك بن سالم العقيلى وجعل عماد الدين زنكى رياسة حلب لأبى الحسن على بن عبدالرزاق[3] .

أصبح عماد الدين زنكى بعد استيلائه على حلب ، وجها لوجه مع الصليبيين

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٥٠ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ٢٤١ ، ابن القلانس ، ص ٢١٨ .

(٢) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٣٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج١ ص ٣٩ ـــ ٤٠ ، الذهبى ، دول الاسلام ، جـ ٢ ، ص ٤٥ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٢ هـ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٥٠ ـــ ٦٥١ ، ابن الاثير ، الباهر ، ص ٣٨ ، ابن العديم زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٤٣ ، ابن القلانسي ، ص ٢١٨ ، ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٠٣ .

خصوصا بعد أن فقدت دمشق زعيمها الكبير ظهير الدين طغتكين فى تلك السنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م . وعمل عماد الدين على تقوية روابطه بأهل حلب ، فتزوج من احدى بنات رضوان وبنى بها فى حلب سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م . ويبدو أن زواج عماد الدين من ابنة رضوان وغيره من الزواج باميرات من بنات حكام المناطق التى يطمع فى الاستيلاء عليها كانت من سياسته لاعطاء نفسه حق التدخل فى شئون الاسر الحاكمة أو ليكتسب حق الوراثة فى الحكم فى تلك المناطق[١] .

وعلى الرغم من توثيق عماد الدين زنكى عرى الصداقة مع أسرة رضوان فى حلب ، فقد قدم إليه فى سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م من دمشق أحد الامراء الذين تمرسوا على مواجهة الصليبيين وحروبهم بعد أن استوحش من تاج الملوك يورى خليفة طغتكين ، ذلك هو الأمير سوار بن ايتكين الذى ولاه عماد الدين زنكى شحنكية حلب ، كما تولى مهمة مواجهة الصليبيين وغزوهم اثناء غياب عماد الدين زنكى عن حلب[٢] .

وفى حلب سمع عماد الدين زنكى بأنباء التحالف بين حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين وابن عمه داود بن سقمان وغيرهم من الامراء لاستعادة حران ونصيبين من عماد الدين زنكى ، فعاد على وجه السرعة من حلب صوب الجزيرة ، فالتقى بالاراتقة فى دارا سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م ومعهم صاحب آمد سعد الدولة بن ابراهيم ومعهم عشرون الف فارس ، بينما كان عدد عسكر عماد الدين لايزيد عن اربعة آلاف . واستطاع عماد الدين زنكى هزيمتهم عند دارا واستولى عليها وعلى سرجى الواقعة بين ماردين ونصيبين[٣] .

وأدرك عماد الدين زنكى قوة الاراتقة بديار بكر وماردين واتحاد كلمتهم ضده ، فأحب التقرب اليهم لاحداث الشقاق بين كل من حسام الدين تمرتاش فى ماردين وابن عمه داود بن سقمان فى حصن كيفا ، ولما كان حسام الدين اكثر مرونة من داود بن

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٤٤ ــ ٢٤٥ ، شاكر ابوزيد ، الحروب الصليبية والاسرة الزنكية ، ص ١٦٩ .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٤هـ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٤٥ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٦٤ ، ابن الاثير ، الباهر ، ص ٣٩ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٤هـ .

ودارا بلدة صغيرة بين نصيبين وماردين . وسروجى : حصن بين نصيبين وبلدة دنيسر . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

سقمان ، فقد تقرب إليه عماد الدين زنكى ، واستعان به ضد صاحب آمد سعد الدولة بن ابراهيم ، حليف الاراتقة فى دارا ، فقاما بحصار دارا ، فأرسل صاحبها إلى داود ابن سقمان بن ارتق صاحب حصن كيفا يستنجده فأمده بمساعدة كبيرة إلا أن الهزيمة كانت قد حلت بسعد الدولة ابراهيم صاحب آمد وبداود بن سقمان ووقع ابنه فى الأسر ، فعاد إلى بلاده بينما ظل عماد الدين وحسام الدين تمرتاش محاصرين لآمد فترة من الزمن ، ولكنهما عادا عنها سنة ٥٢٨هـ / ١١٣٣م « من غير بلوغ غرض »[٢] .

ولما أيس عماد الدين زنكى من الاستيلاء على آمد ، اتجه نحو قلعة الصور بديار بكر ، وكانت لداود بن سقمان فاستولى عليها فى تلك السنة ٥٢٨هـ / ١١٣٢م ، وسلمها إلى حسام الدين بن تمرتاش ليزيد من حدة التوتر والشقاق بينه وبين ابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان بن ارتق . ومن قلعة الصور سار عماد الدين زنكى إلى طنزه ، واستولى عليها ولكنه لم يسلمها إلى حسام الدين تمرتاش بل استبقاها لنفسه[١] .

وعلى الرغم من انشغال عماد الدين زنكى بنزاع الاراتقة ، فقد استطاع سنة ٥٢٩ / ١١٣٤م الاستيلاء على بعض المناطق التى كانت بيد حكام صغار كالرقة التى كانت بيد سعد الدولة المسيب بن مالك النميرى ، واستولى عليها وهو فى طريقه إلى دمشق[٢] . وفى السنة التالية ٥٣٠هـ / ١١٣٥م استولى عماد الدين زنكى على جبل جور وبعض المواقع الجزرية وسلمها إلى حليفه حسام الدين تمرتاش[٣] . ولم يقف عند هذا الحد ، ففى السنة التالية ٥٣١هـ / ١١٣٦م استولى على دقوقا الواقعة إلى الشرق

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٣ ، انظر ابن الاثير ، الباهر ، ص ٤٨ ، ابن القلانسي ، ص ٢٤٣ ، ابن ايبك ، كنز الدرر، جـ ٦ ص ٥١٢ ، عماد الدين الاصفهانى ، البستان الجامع ، حوادث سنة ٥٢٨هـ ، العظيمى ، تاريخ العظيمي حوادث سنة ٥٢٨هـ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ ــ ٢٥٤ ، ابن القلانسي ، ص ٢٤٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٥٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٣ .
وطنزة : بلد بجزيرة ابن عمر بديار بكر ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) ابن ايبك ، كنز الدرر ، جـ ٦ ، ص ٥٢٢ ، والرقة : مدينة مشهورة على الفرات كان بينها وبين حران ثلاثة ايام وهى معدودة من بلاد الجزيرة انظر ياقوت ، معجم البلدان .
ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٥٤ ، وجبل جور : اسم لكورة كبيرة بديار بكر من نواحى ارمينية بها قلاع وقرى كبيرة . انظر ياقوت معجم البلدان .

من بغداد[1] .

ورغم أن عماد الدين زنكى كان يسعى إلى تقوية روابط المودة بينه وبين حسام الدين تمرتاش ، إلا أن الخلاف قد أستحكم بينهما سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨م وذلك بسبب ماسعى إليه عماد الدين زنكى من الاستيلاء على بعض المدن والقلاع ، للتقوى بها ، تلك التى كانت بيد حليفه حسام الدين تمرتاش[2] . ولكن عماد الدين زنكى لم يرغب فى توسيع هوة الخلاف بينه وبين حليفه صاحب ماردين ، فأرسل فى نفس السنة صلاح الدين محمد الياغيسيانى للتفاوض معه فى عقد الصلح بينه وبين عماد الدين زنكى ونجح الياغيسيانى فى مسعاه وأسفرت المفاوضات عن عقد الصلح بين عماد الدين وتمرتاش ، على أن يسلم عماد الدين زنكى لتمرتاش دارا . ورغبة من عماد الدين زنكى فى توثيق عرا الصداقة بينه وبين حسام الدين تمرتاش طلب الزواج من ابنة تمرتاش ، ومد عماد الدين لحسام الدين تمرتاش يد المساعدة ضد ابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان بن أرتق اذ أخذ عماد الدين زنكى فى مطاردة داود بن سقمان فى وسط بلاده ، وكاد أن يقضى عليه لولا شدة البرد التى أجبرته على العودة إلى الموصل[3] .

وفى سنة ٥٣٤هـ / ١١٣٩م توجه عماد الدين زنكى إلى شهر زورالتى كانت تحت حكم قفجان بن ارسلان تاش التركانى ، وكان بها من التركمان مارغب عماد الدين فى الاستعانة بهم فى صد الصليبيين بالشام واستطاع الاستيلاء عليها ، وحصل منها على ماكان يرغب فيه من الاستعانة بتركمانها المعروفين بالاقدام والشجاعة فى الجهاد[4] .

---

(١) أنظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٥٤ ، ودقوقا : مدينة فى جهة بديار بالعراق ، تقع بين اربل وبغداد . انظر ياقوت ، معجم البلدان ، والحميرى ، الروض المعطار فى خبر الاقطار ص ٢٤٤ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٢٧١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٨٣ ــ ٨٤ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٧٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٧٦ ، عمادالدين خليل ، الامارات الارتقية ، ص ١٢١ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل جـ ١١ ، ص ٧٥ ــ ٧٦ ، ابن الاثير ، الباهر ، ص ٥٧ ــ ٥٨ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ٦٥ ، الذهبى ، دول الاسلام ، جـ ٢ ، ص ٥٤ ، ابن العبرى ، مختصر الدول ، ص ٢٠٦ ، سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان ، جـ ٨ ، ص ١٨٩ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سة ٥٣٥هـ . وشهرزور : كورة واسعة فى الجبال بين اربل وهمذان . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

وعلى الرغم من ان عماد الدين زنكى قد نجح فى توطيد علاقاته بحسام الدين تمرتاش ، ومد له يد العون ضد ابن عمه ركن الدولة داود صاحب حصن كيفا ، فان الاراتقة بماردين وحصن كيفا قد شعروا بالخطر الذى يتهددهم من جانب عماد الدين ، فسعوا إلى التفاوض فيما بينهم لعقد الصلح من أجل الوقوف فى وجه عماد الدين زنكى . وقد أسفرت المفاوضات عن عقد صلح بينهم فى سنة ٥٣٦هـ / ١١٤١م ، ولكن عماد الدين زنكى الذى اشتهر بالفطنة والذكاء ، استطاع أن يتقرب من داود بن سقمان بن أرتق فشمله هذا الصلح الذى تم بين الاراتقة ومعهم صاحب آمد . وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية لم تذكر شروط هذا الصلح ، فانه لايستبعد أن يكون قد نص على عدم اعتداء أى منهما على الآخر[١] .

وعلى الرغم من أن هذا الصلح الذى تم بين الاراتقة وصاحب آمد وعماد الدين زنكى قد حد من توسعات عماد الدين زنكى على حساب الاراتقة وصاحب آمد ، فان صاحب آمد الذى كان يخشى من قوة عماد الدين زنكى قد أعلن فى الخطبة ببلاده عن ولائه لعماد الدين زنكى[٢] . كما أشار ابن العديم إلى أن أولاد الاراتقة قد وصلوا لخدمة عماد الدين[٣] . كما أن هذا الصلح قد يسر لعماد الدين زنكى الاستيلاء على مزيد من الاراضى فى ديار بكر وهى التى لم تكن خاضعة للأراتقة . ففى سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م استولى على عدد من الحصون بديار بكر ، واستولى فى السنة نفسها على عانة والحديثة ، ونقل من كان بها من آل مهارش إلى الموصل « ورتب بها أصحابه »[٤] .

ولما عزم عماد الدين زنكى سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م على المسير إلى الرها لاستطلاع أحوالها ، توجه إلى حانى ، واستطاع الاستيلاء عليها من قرا أرسلان بن داود بن سقمان الذى يتولى حصن كيفا عقب وفاة والده فى تلك السنة ، كما فرض عماد الدين سيطرته على كثير من مناطق امارة حصن كيفا بشمال ديار بكر[٥] .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٨٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٧٦ ، ابن الاثير ، الباهر ، ص ٦٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٩٠ ، ابن ابيك ، كنز الدرر ، جـ ٦ ، ص ٥٣٧ ، انظر ايضا عمادالدين خليل ، الامارات الارتقية فى الشام والجزيرة ، ص ١٢٢ — ١٢٧ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٨٨

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٩٠ — ٩٢ ، انظر ابن القلانسي ص ٢٨٠ ، ابوالفدا ، المختصر ، ج ٣ ، ص ١٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ص ٢١٨ .

(٥) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٦٤ .

وحانى : مدينة بديار بكر ، انظر الاصطخرى ، المسالك والممالك ، ص ٥٣ ، وياقوت ، معجم البلدان .

وفى الوقت الذى استطاع فيه عماد الدين توسيع سلطانه باتجاه الشمال على حساب الامارات الارتقية وغيرها ، وإلى الغرب ناحية حلب ، وإلى الشرق ناحية العراق ، بقصد توحيد القوى الاسلامية لمواجهة الخطر الصليبى فى بلاد الشام والجزيرة ، فقد وجد أن المناطق الجبلية المحيطة بالموصل من الشمال والشرق ، لا تخلو من عناصر كردية غير خاضعة لنفوذه ، ورأى أن هؤلاء الاكراد ــ بحكم قربهم من الموصل ــ يعرفون مابها من القوة والضعف ، ولذلك قرر عماد الدين زنكى ضرورة اخضاع هؤلاء الاكراد لحكمه خصوصا وان عماد الدين زنكى صاحب المقالة التى نقلها ابن الاثير وهى : « ان البلاد كبستان عليه سياج فمن هو خارج السياج يهاب الدخول ، فاذا خرج منها من يدل على عورتها زالت الهيبة »[1] .

وكان عماد الدين زنكى قد شعر بخطر هؤلاء الاكراد فى سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م حين انهزم أمام الخليفة المسترشد بالله وجيوشه بالعراق ولجأ إلى نجم الدين أيوب والد صلاح الدين بتكريت وقدم له المساعدة حتى استطاع العودة إلى الموصل ، ولولا مساعدة نجم الدين ايوب لما استطاع العودة إلى بلاده[2] .

وفى طريقه إلى الموصل سنة ٥٢٨هـ / ١١٣٣م استولى عماد الدين زنكى على بعض قلاع الاكراد الحميدية كقلعة شوش والعقر وبذلك أمن أهل الموصل من غارات هؤلاء الاكراد فى تلك القلاع . وما أنزله عماد الدين زنكى بالاكراد الحميدية فى العقر وشوش أزعج بقية الاكراد . فما ان سمع أبو الهيجاء بن عبدالله صاحب قلعة أشب ــ أعظم قلاع الاكراد الهكارية ــ بتلك الاخبار حتى أرسل إلى عماد الدين زنكى من حمل إليه مالا كثيرا واستحلفه لنفسه ولاصحابه . وبعد موت أبى الهيجاء بن عبدالله سار عماد الدين زنكى إلى قلعة أشب سنة ٥٣٧هـ / ١١٤٢م فملكها وقتل مقدمى الاكراد

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ٧٩ .

(٢) أنظر مايلى ص ١٩٧ ــ ١٩٨ .

بها وعاد منها إلى الموصل[1] . وفى السنة نفسها استولى عماد الدين زنكى من الاكراد الهكارية على بعض قلاعهم كقلعة الجلاب التى كان الاكراد قد أكثروا فيها الفساد . وكدليل على اخضاع قبائل الاكراد الهكارية قام عماد الدين زنكى ببناء قلعة العمادية على أنقاض قلعة أشب[2] . هكذا يمكن القول بأن عماد الدين زنكى قد استطاع تحقيق المبدأ الذى رسمه لنفسه فى أن لايبقى فى وسط بلاده ماهو لغيره حتى انه قد ذهب ضحية هذا الهدف كما سنرى فيما بعد .

أما عن موقف الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية من عماد الدين زنكى بعد سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م ، فبعد أقل من سنة من ولاية عماد الدين زنكى للموصل سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م تعرض لمحاولة عزله عن اتابكية الموصل ، ذلك أن دبيس بن صدقة أمير الحلة كان قد وصل الى السلطان سنجر بن ملكشاه بخراسان سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م وتقرب إليه وحسن له المسير الى العراق والاستيلاء عليه ، وقبل السلطان سنجر هذه المشورة وسار من خراسان حتى بلغ الرى حيث استدعى ابن أخيه السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه لتصفية الخلافات القائمة بينهما واصلاح مابين دبيس بن صدقة والخليفة العباسى المسترشد بالله فلبى السلطان محمود بن محمد طلب عمه سنجر وحضر إلى الرى ، وبعد ان تم الاتفاق بينهما على ماطلبه سنجر عاد محمود إلى عاصمته بهمذان وبصحبته دبيس بن صدقة[3] .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ص ١٤ — ١٥ ، ابن الاثير ، الباهر ، ص ٤٨ ، ٦٤ ، ابن العديم ، زبدة ، الحلب ، جـ ٢ ص ٢٥٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٥٥ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ص ، ٨ ، والاكراد الحميدية هم احدى الطوائف الكردية التى كانت تسكن فى جبال الموصل الشرقية ، انظر ياقوت : معجم البلدان ، القلقشندى صبح الاعشى ، جـ ٤ ، ص ٣٧٣ .

والعقر : قلعة حصينة فى جبال الموصل تعرف بعقر الحميدية ، اهلها اكراد . وشوشى : قلعة عظيمة قرب عقر الحميدية من اعمال الموصل انظر ياقوت ، معجم البلدان . وقلعة أشب : لم يذكرها ياقوت فى معجمه . انظر ابن الاثير ، الباهر ، ص ٦٤ حاشية رقم ٣ .

والاكراد الهكارية : هم احدى الطوائف الكردية التى كانت تسكن قلعة اشب شرق الموصل . انظر المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ص ٤ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٥ ، ٩١ ، ابن الاثير ، الباهر ، ص ٦٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٩٠ ، سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان ، جـ ٨ ، ص ١٨٩ . وانظر ايضا عمادالدين خليل ، عماد الدين زنكى ، ١٠٦ حاشية رقم ٢٦ .

والجلاب : قرية كانت تقع على نهر جلاب المار بمدينة حران . انظر ياقوت معجم البلدان .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٥١ — ٦٥٢ ، الذهبى ، العبر ، جـ ٤ ، ص ٥٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ١٩٨ .

والرى : مدينة مشهورة من امهات المدن ، قصبة بلاد الجبال . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

ولما كانت سنة ٥٢٣هـ / ١١٢٩م قدم السلطان محمود بن محمد إلى بغداد ومعه دبيس بن صدقة ليصلح حاله من الخليفة المسترشد بالله ، ولكن الخليفة امتنع عن الاجابة إلى أن يولى دبيس بن صدقة شيئا من البلاد . ويضيف ابن الجوزى فى المنتظم أن السلطان محمود بن محمد أرسل إلى عماد الدين زنكى يطلب منه التخلى عن منصبه فى الموصل لاجل تسليمه إلى دبيس ابن صدقة[١] . ووصل عماد الدين زنكى إلى بغداد محملا بالهدايا الجليلة ، وأقام عند السلطان ثلاثة أيام سعى فيها إلى اقناع السلطان محمود بضرورة ابقائه بالموصل ، واخيرا اقتنع السلطان بضرورة اعادة عماد الدين زنكى إلى الموصل[٢] . ويبدو أن اقتناع السلطان محمود بن محمد باعادة عماد الدين زنكى إلى الموصل يرجع إلى رفض الخليفة العباسى لتولية دبيس بن صدقة ، ثم ماقدمه عماد الدين زنكى من الاموال إلى السلطان محمود بن محمد فى مقابل العدول عن تولية دبيس بن صدقة للموصل . ويضيف ابن الاثير سببا آخر هو وفاة زوجة السلطان محمود بن محمد ــ ابنة السلطان سنجر ــ فى تلك السنة ٥٢٣هـ ، وهى التى كانت تعنى بأمر دبيس بن صدقة وتدافع عنه . فلما ماتت انحل أمر دبيس[٣] .

وساءت علاقة عماد الدين زنكى مع الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية بعد وفاة السلطان محمود بن محمد سنة ٥٢٥هـ / ١١٣١م ففى تلك السنة أرسل عماد الدين زنكى إلى الخليفة العباسى المسترشد بالله يطلب منه اقامة الدعوة فى الخطبة لالب أرسلان بن محمود ، الا أن الخليفة اعتذر عن ذلك محتجا بأن السلطان محمود قد أوصى بأن تكون السلطنة من بعده لابنه داود ، وأنه لن يبت فى الامر إلا بعد موافقة السلطان سنجر بن ملكشاه ، سلطان سلاجقة خراسان وماوراء النهر باعتباره كبير الاسرة قائلا : « فانه عم القوم »[٤] .

اعتبر عماد الدين زنكى رفض الخليفة لطلبه اعلان اسم ألب أرسلان بن محمود بالخطبة ، اهانة له فساءت العلاقات فيما بينهما فى الوقت الذى قام فيه النزاع بين كل

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ١٠ ، ص ١١ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٥٤ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٥٤ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٣هـ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٤٣ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٥٥ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٤٤ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٦٩ ، انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٤٦ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ١٠ ، ص ٢٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٤٤ . ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص ٧٦ .

من الاخوين مسعود بن محمد وسلجوق شاه ابن محمد ، وكل منهما يريد السلطنة لنفسه . واستغل الملك مسعود بن محمد توتر العلاقات بين عماد الدين زنكى والخليفة العباسى المسترشد باللهّ ، فاستعان بعماد الدين زنكى ضد أخيه سلجوق شاه الذى كان قد وصل إلى بغداد وانضم إلى الخليفة المسترشد . وتردد عماد الدين زنكى فى تقديم المساعدة لمسعود بن محمد . غير أن تنازل مسعود عن بلدة اربل لعماد الدين زنكى دفعه إلى مساعدة مسعود ضد خصومه فخرج من الموصل صوب العراق ، بقصد نجدة مسعود ضد أخيه سلجوق والخليفة العباسى المسترشد باللهغير أن الهزيمة وقعت على عماد الدين زنكى سنة ٥٢٦هـ / ١١٣٢م مما دفعه إلى العودة إلى الموصل ولولا نجم الدين أيوب صاحب تكريت ، لما استطاع عماد الدين زنكى العودة إلى الموصل .[١] .

ولما علم السلطان مسعود بهزيمة عماد الدين زنكى وعودته إلى الموصل أرسل إلى الخليفة العباسى يخبره بقدوم السلطان سنجر ووصوله إلى الرى ، وأنه عازم على قصد العراق ، وعرض فى الوقت نفسه على الخليفة الاتفاق للوقوف فى وجه سنجر فوافق الخليفة المسترشد بالله وترددت الرسل بينهما فى الصلح ، فتم الصلح على أن تكون السلطنة لمسعود ويكون سلجوق شاه ولى عهده ، وتحالفوا على ذلك[٢] .. غير أن السلطان سنجر حين سمع بهذا الترتيب تقدم إلى العراق ومعه ابن أخيه الملك طُغرل بن محمد ملكشاه ، فلقى طلائع جيش مسعود وسلجوق شاه قريبا من الدينور واستطاع ان ينزل بهما هزيمة ساحقة فى سنة ٥٢٦هـ / ١١٣٢م ، استدعى على أثرها السلطان مسعود وعفى عنه ، وأعاده إلى كنجه واجلس الملك طغرل بن محمد فى السلطنة وخطب له فى جميع البلاد بينما عاد سنجر إلى خراسان[٣] .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٧٥ ــ ٦٧٦ ، ابن الاثير ، الباهر ، ص ٤٣ ــ ٤٤ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ١٠ ، ص ٢٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٠٣ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٣٠٩ . وكان هذا اول اتصال بين الزنكيين والايوبيين ، انظر ، ابو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٢٩ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٧٦ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٧٧ ــ ٦٧٨ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ١٠ ، ص ٢٦ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ٦ .

والدينور : مدينة من اعمال الجبل وهى كثيرة الثمار والزروع .

وكنجة : كانت مدينة عظيمة بين خوزستان وأصبهان ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

أما عماد الدين زنكى ، فقد حاول أن يستغل هذه الأوضاع المتردية بين السلاجقة فى النيل من الخليفة المسترشد ، الذى كان قد رفض الدعوة لألب أرسلان بن محمود ؛ وليأخذ بثأره على اثر الهزيمة التى لقيها على يد سلجوق شاه وقائده قراجه الساقى حليفى الخليفة المسترشد بالله ، حين خرج نجدة لمسعود بن محمد . فخرج للمرة الثانية فى هذه السنة ٥٢٦هـ / إلى العراق ومعه دبيس بن صدقة بقصد النيل من المسترشد بالله بحجة أن السلطان سنجر قد منح عماد الدين زنكى شحنكية بغداد ، بينما ادعى دبيس بن صدقة أن السلطان سنجر منحه ولاية الحلة . الا أن المسترشد بالله استطاع أن ينزل بهما هزيمة ساحقة بعقرقوف فى رجب من السنة المذكورة ، عاد بعدها عماد الدين إلى الموصل بينما سار دبيس بن صدقة إلى الحلة ، واستمر فى اثارة الفتن والقلاقل بالعراق[١] .

وهكذا لم يستطع عماد الدين زنكى النيل من الخليفة العباسى المسترشد بالله فى الوقت الذى عاد فيه النزاع على أشده بين السلاجقة ، اذ برز داود بن محمود بن محمد منازعا لطغرل بن محمد بتأييد من الخليفة المسترشد بالله والسلطان سنجر بن ملكشاه . ولكن السلطان مسعود بن محمد كان بكنجه ، وقدم إلى بغداد فاستقبله الخليفة والسلطان داود بن محمود بن محمد وخطب له ولداود من بعده وخلع عليهما من قبل الخليفة . ولكن السلطان مسعود استطاع ان يتتبع خصومه من البيت السلجوقى حتى غدا سلطانا على سلاجقة العراق وفارس بموافقة عمه سنجر ، بعد وفاة منافسه فى السلطنة طغرل بن محمد فى سنة ٥٢٧هـ / ١١٣٣م[٢] .

غير أن عماد الدين زنكى لم يسع إلى توثيق علاقاته بالسلطان مسعود ابن محمد ، بل على العكس سعى إلى تشكيل الاحلاف للوقوف فى وجهه لئلا يخلو وجه السلطان من شاغل ليتمكن هو من فتح البلاد والتمكن فى الملك[٣] . ومن هنا يمكن القول بأن

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٧٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٥١ العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٦هـ .

ـــ وعقرقوف : قرية من نواحى دجيل ، كان بينها وبين بغداد اربعة فراسخ ، انظر ، ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٨٢ ـــ ٦٨٦ ، ابن الجوزى ، المنتظم جـ ١٠ ، ص ٢٩ ، ابن القلانس ، ص ٢٣٨ ، ٢٤٣ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ص ١٤٥ ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ، ص ٢٥٠ .

(٣) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٦٥ .

عماد الدين زنكى قد خسر العلاقات الودية مع السلاجقة ، تلك العلاقة التى كان ينبغى عليه ان يحافظ عليها ، كما أنه أيضا سعى إلى هدم علاقاته الودية مع الخليفة العباسى المسترشد بالله على الرغم من انه كسب شهرة عظيمة كأمير كبير له وزنه فى النزاع بين السلاجقة أنفسهم أو بينهم وبين العباسيين ، كما أنه خرج من تلك الأزمة بالتعرف على عائلة نجم الدين أيوب حيث أفسح لهم المجال فى جهاد الصليبيين فيما بعد[1] .

حاول عماد الدين زنكى بعد عودته إلى الموصل الانصراف عن مشاكل بغداد والتفرغ لامر الجهاد ولكن الخليفة المسترشد لم ينس مابدر من عماد الدين زنكى من مواقف عدائية سابقة ضده كالاستعانة بدبيس بن صدقة . لذلك استغل الخليفة العباسى المسترشد بالله انضمام عدد من الامراء السلاجقة إليه نتيجة للخلاف بين السلاطين السلاجقة وأرسل سنة ٥٢٧هـ / ١١٣٣م إلى عماد الدين زنكى أحد رجاله يتهدده ويتوعده على ماكان منه تجاه سديد الدولة ابن الانبارى كاتب الانشاء عند الخليفة ، والذى كان الخليفة قد ارسله إلى دمشق سنة ٥٢٥هـ / ١١٣١م للتفاوض مع حكام دمشق من أسرة طغتكين فى أمر دبيس بن صدقة[2] ، ظنا من الخليفة بقوته وهيبته ، وقد زاد رسول الخليفة إلى عماد الدين فى الاغلاظ والتشديد « فقبض عليه عماد الدين وأهانه ولقيه مايكره » . فلمّا سمع الخليفة بذلك أرسل إلى السلطان مسعود بن محمد ، يعرفه الامر الذى جرى من عماد الدين ويعلمه بعزمه على المسير إلى الموصل لحرب زنكى . ويبدو أن السلطان مسعود قد وافق الخليفة على الامر ، اذ تجهز الخليفة بقواته التى بلغت نحو ثلاثين الف مقاتل خرج بها فى رمضان من السنة نفسها ٥٢٧هـ / ١١٣٣م إلى الموصل[3] .

ولما سمع عماد الدين زنكى بقرب وصول الخليفة إلى الموصل ، بذل أموالا كثيرة ليرجع عنه ، فلم يقبل الخليفة ، فرأى عماد الدين زنكى أن الخروج من الموصل أنجع له من البقاء بها ، ففارقها وترك بها نائبه نصير الدين جقر بينما نزل هو بظاهر سنجار . غير ان الاستعدادات التى أعدها نصير الدين جقر فى سبيل مواجهة الخليفة أجبرت

---

(١) انظر عمادالدين خليل ، عمادالدين زنكى ، ص ٥٤ .

(٢) عن اسر دبيس بن صدقة بيد حكام دمشق انظر مايلى ص ٢٥٧ ــ ٢٥٨

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٥ ، انظر ابن الاثير ، الباهر ، ص ٤٧ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ١٠ ص ٣٠ .

الخليفة على البقاء مدة ثلاثة شهور محاصراً لها « فلم يظفر الخليفة بشئ فعاد إلى بغداد »[١] . وكان سبب عودة الخليفة إلى بغداد قبل الاستيلاء على الموصل ماذكره ابن الاثير فى التاريخ الباهر من أن الخليفة عجز عن الاستيلاء عليها « فلو رأى امارة ظفر وفتح ، لم يرحل »[٢] ، وأضاف ابن الاثير فى الكامل ومن نقل عنه من المؤرخين اضافة هى أن سبب عودة الخليفة مابلغه من أن السلطان مسعود عزم على قصد العراق[٣] .

ولما عجز الخليفة العباسى المسترشد عن اقتحام الموصل سعى فى سنة ٥٢٨هـ / ١١٣٤م إلى اقرار الصلح مع عماد الدين « ووقع الاتفاق مع زنكى ووصلت رسله بالحمل والهدايا »[٤] . ويبدو ان الصلح الذى تم بينهما جاء نتيجة لعداوة كل منهما للسلطان مسعود بن محمد . فقد ساءت العلاقات بين الخليفة المسترشد بالله والسلطان مسعود بن محمد بسبب عدم تحمس الخليفة العباسى لقضايا السلطان ومحاربة المعارضين له . ثم أعقب ذلك لجؤ كثير من أمراء الطرفين إلى كل منهما ، ومأأحدثه هؤلاء الامراء من اثارة حقد كل منهما ضد صاحبه ، مما ادى إلى اتساع شقة الخلاف بينهما ، حتى اضطر المسترشد بالله إلى قطع الخطبة باسم السلطان مسعود بن محمد من بغداد[٥] . ولم يكتف الخليفة بهذا ، بل استدعى عماد الدين زنكى فى سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٥م وطلب منه الحضور إلى بغداد لاعلان الدعوة فى الخطبة لالب ارسلان بن محمود ، ولكن عماد الدين زنكى لم يستطع الحضور لانشغاله بحصار دمشق ولكنه أرسل نجدة عاجلة إلى الخليفة ضد خصمهما المشترك السلطان مسعود بن محمد[٦] . ولكن هذه النجدة لم تحل دون وقوع الخليفة فى أسر السلطان مسعود بن محمد فى شهر رمضان سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٥م وقتله فى ذى القعدة من السنة المذكورة

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٥٣ ، انظر ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ٧ .

(٢) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٤٨ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٦ ، انظر ايضا ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ١٠ ، ص ٣٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٥٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٥٣ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٨هـ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٠٤ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٧ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل جـ ١١ ص ١٩ ، ٢٤ — ٢٥ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ١٠ ، ص ٤١ — ٤٤ ، الذهبى ، العبر ، جـ ٤ ، ص ٧٥ ، عبدالنعيم حسنين ، دولة السلاجقة ، ص ١٠٧ ، عمادالدين خليل ، عمادالدين زنكى ، ص ٥٦ .

(٦) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٤٩ — ٥٠ .

خارج حدود بغداد[٣] . وبعد أن تخلص السلطان مسعود من الخليفة العباسى المسترشد بالله ، حاول التقرب من عماد الدين زنكى ليتمكن من القضاء عليه ، دون مشقة ، ولكنه فشل فى الأمر . وقد ذهب ضحية هذه المحاولة من قبل السلطان مسعود دبيس بن صدقة ، حيث قتله السلطان مسعود فى السنة المذكورة ٥٢٩هـ / ١١٣٥م[٤] .

حاول السلطان مسعود بن محمد ان يفرض سيطرته على خليفة بغداد الجديد (الراشد) مستغلا فى ذلك ماكان قد تم بينه وبين والده المسترشد بالله فتقدم فى السنة التالية ٥٣٠هـ / ١١٣٦م وطالب الخليفة الراشد بمبلغ أربعمائة الف دينار كان قد فرضها على والده فرفض الراشد تلبية رغبة السلطان مسعود تسليم المبلغ المذكور ، فما كان من السلطان إلا أن أوعز إلى شحنة بغداد بأن يقوم بهجوم على دار الخلافة ولكن الراشد استعد للموقف واستطاع اخراج الشحنة ومن معه من قوات السلطان « ونهب أهل بغداد دار السلطان »[١] .

ولما خاف الخليفة الراشد انتقام السلطان مسعود استدعى ولاة الاطراف ومنهم عماد الدين زنكى فى بغداد لمساعدته ضد السلطان مسعود ، فلما اجتمعوا فى بغداد سنة ٥٣٠هـ / ١١٣٦م تشاوروا فى الامر بشأن مواجهة السلطان مسعود اذا قدم بغداد فاتفق رايهم على قتاله ، ولم يقف الخليفة عند هذا الحد بل قطع الدعوة فى الخطبة للسلطان مسعود[٢] . فلما بلغ السلطان مسعود ذلك سار إلى بغداد وحاصرها مدة اثنين وخمسين يوما حتى ضاق الأمر على من بها ، فخرج الراشد إلى الجانب الغربى من بغداد وفيه عماد الدين زنكى ، وهناك حاول السلطان مسعود أن يضرب عصفورين بحجر واحد ــ خذلان الراشد وقتل زنكى ــ فقام بمكاتبة عماد الدين زنكى سرا وحلف له أن يقره على بلاده اذا رجع اليها وترك الراشد . وكاتب فى الوقت نفسه بعض الامراء ومناهم

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢٥ ــ ٢٨ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ١٠ ، ص ٤٥ ــ ٥٠ ، ابن القلانسي ، ص ٢٥٠ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، الاصفهانى ، دولة آل سلجوق ، ص ١٦٥ ــ ١٦٦ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ١٥٤ ، ١٥٧ ، عبدالنعيم حسنين ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ١٢٤ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٥٠ ، الاصفهانى ، دولة ال سلجوق ، ص ١٦٦ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ١٥٢ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٧ ، انظر ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ١٠ ، ص ٥٤ .

(٤) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٥١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٦٤ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ، ١٠ ص ٥٥ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٠هـ .

ورغبهم فى أن من قتل عماد الدين زنكى سيعطيه بلاده ، غير أن عماد الدين زنكى عرف هذه المؤامرة ، فغادر العراق متوجها إلى الموصل ومعه الخليفة الراشد[1] .

وما أن سمع السلطان مسعود بأنباء خروج الخليفة وعماد الدين زنكى من بغداد إلى الموصل حتى تقدم ودخل بغداد فى السنة نفسها ٥٣٠هـ / ١١٣٦م ، فجمع القضاة والفقهاء واستفتاهم فى خلافة الراشد فأفتوا تحت ضغط من السلطان بخلعه من الخلافة ، بعد أن أمضى فى الخلافة نحو احد عشر شهرا ، وطلب السلطان مسعود ان يتولى الخلافة أحد أبناء البيت العباسى فتولاها بعد الراشد عمه المقتفى لامر الله فى ذى الحجة من السنة المذكورة[2] .

أما عماد الدين زنكى فانه بعد مسيره من بغداد إلى الموصل اصطحب معه الخليفة الراشد بالله على الرغم مما كان قد بدر من الخليفة الراشد فى حق بعض رجال عماد الدين ، فوصلاها ونزل الخليفة بظاهر الموصل[3] .

لم تدم اقامة الخليفة الراشد بالموصل طويلا ، اذ أن عماد الدين زنكى رأى أنه لابد من اعادة العلاقات الطيبة مع السلطان مسعود بن محمد فعرض على الراشد فكرة ارسال الرسل إلى بغداد لتقصى حقائق الوضع هناك وانهاء حالة الحرب بين الطرفين ، فوافق الراشد وارسلا الرسل إلى بغداد[4] . فلما وصل رسل الموصل إلى بغداد استقبل رسول عماد الدين زنكى كمال الدين الشهرزورى بينما اعرض عن رسول الخليفة الراشد وسمعت رسالة زنكى وابلغ بخلع الراشد ومبايعة المقتفى ، وأعلن موافقته على ذلك مع اشتراطه على حكومة بغداد مايرضى به عماد الدين زنكى حيث قال « ولكن لابد لنا فى هذه الدعوة من نصيب لان امير المؤمنين قد حصلت له خلافة الله فى أرضه والسلطان قد استراح ممن كان يقصده ونحن بأى شئ نعود ؟ » فرفع قوله إلى السلطان مسعود بن

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٧ ــ ٤١ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٥٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٢٥٩ ــ ٢٦٠ ، العظيمى تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٠هـ ، ابن العبرى ، مختصر الدول ، ص ٢٠٤ ــ ٢٠٥ .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٠هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٤٢ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٥٣ ــ ٥٤ ، العماد الاصفهانى ، دولة آل سلجوق ، ص ١٦٧ ، ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٦٠ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ١١ ، ابن كثير ، البداية والنهاية جـ ١٢ ، ص ٢١٠ .

(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٥١ ــ ٥٢ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٠هـ .

(٤) انظر عمادالدين خليل ، عمادالدين زنكى ، ص ٦١ .

محمد فأمر الخليفة المقتفى بأن يعطى أتابك زنكى بعض المواقع الهامة بالعراق من خاص الخليفة ، وان يزاد فى القاب عماد الدين ، فأصبح بذلك لعماد الدين زنكى اقطاعات بالعراق[١] .

ولما عاد الشهرزورى إلى الموصل أبطل عماد الدين زنكى فى رجب من السنة التالية ٥٣١هـ / ١١٣٧م الدعوة للراشد واعلنها للمقتفى بأمر الله ، فسدت الابواب فى وجه الراشد ، الذى لم يجد بدا من مفارقة الموصل فى شهر رمضان من السنة المذكورة متوجها إلى خراسان ، حيث التحق بالسلطان داود بن محمد وظل ملازما له حتى توفى الراشد فى السنة التالية ٥٣٢هـ / ١١٣٨م[٢] . وبذلك اطمأن السلطان مسعود بن محمد إلى هذه الاجراءات وطلب من الخليفة المقتفى ارسال الخلع والتشريفات إلى عماد الدين زنكى خصوصا وانه فى تلك السنة ٥٣٢هـ / ١١٣٨م استطاع صد محاولات الصليبيين والبيزنطيين للاستيلاء على حلب وغيرها من بلاد الشام[٣] .

تحسنت العلاقات بين عماد الدين زنكى والسلطنة السلجوقية والخلافة العباسية . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الخليفة العباسى لم يكن شديد الطموح كما كان سلفاه المسترشد والراشد ، يضاف إلى ذلك أن عماد الدين زنكى كان مشغولا بأمر الصليبيين فى الشام وبأمر استكمال توحيد قوى الشام والجزيرة . ورغم ذلك فان الشكوك كانت تراود كلا من عماد الدين زنكى والسلطان السلجوقى مسعود بن محمد فى حسن نية كل منهما تجاه صاحبه ، ويدل على ذلك أن النجدة التى أرسلها السلطان مسعود بن محمد إلى عماد الدين زنكى سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٨م ضد الصليبيين والبيزنطيين لم تجهز الا بعد محاولات مضنية بذلها كمال الدين الشهرزورى للسلطان مسعود . ولم يسمح عماد الدين زنكى لقوات السلطان بدخول بلاد الشام ، خوفا من أن يتخذ السلطان من هذه النجدة ذريعة للتدخل فى شئونه[٤] .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٤٤ ــ ٤٥ ، انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢٦٣ .

(٣) انظر مايلى ، ص ٢٨٢ ــ ٢٨٣

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ص ٩٣ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٦٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٩٠ .

وعندما فرغ السلطان مسعود بن محمد من بعض مشاغله ومشاكله سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٤م عزم على المسير إلى عماد الدين زنكى بالموصل لتصفية مابينهما من احقاد وثارات قديمة بسبب الشكوك التى راودت السلطان مسعود من أن عماد الدين زنكى هو الذى دبر قتل الملك داود بن محمود من تلك السنة ٥٣٨هـ / ١١٤٤م . يضاف إلى ذلك أن عماد الدين زنكى كان وراء كل المؤامرات التى كانت تحاك ضد السلطان من أصحاب الاطراف « وكان ظنه فيه صادقا ، فانه كان يفعله لئلا يخلو وجه السلطان من شاغل ليتمكن هو من فتح البلاد »[١] .

ومن هنا وجد السلطان مسعود بن محمد مايوجب مسيره إلى الموصل فتجهز فى تلك السنة بكثير من العساكر للانتقام من عماد الدين زنكى . غير أن أخبار مسير السلطان إلى الموصل قد بلغت عماد الدين ، فأرسل رسالة إلى السلطان لعقد الصلح بينهما . وبعد مداولات ومشاورات تم الصلح بينهما على مائة ألف دينار تحمل إلى السلطان مسعود من عماد الدين ، وحضور عماد الدين إلى السلطان ليطأ بساطه ، ولكن عماد الدين زنكى اعتذر عن الشرط الأخير لانشغاله بأمر الصليبيين ، فعذره السلطان واشترط عليه فتح الرها[٢] . ويضيف ابن الاثير فى الباهر أن كثيرا من رجال السلطان قد نصحوه بعدم السير إلى الموصل ، لانه لايقدر على حفظها من الصليبيين « غير اتابكى زنكى »[٣] . وعلى الرغم من أن عماد الدين زنكى قد نجح فى اقناع السلطان بعدم الوصول إلى الموصل ، الا أنه شك فى أن هذا سيمس كرامة السلطان ومكانته بين رعاياه ، ولذلك فقد لجأ إلى حيلة ذكرها ابن واصل ، استطاع بها أن ينال رضى السلطان تتلخص فيمايلى « كان ولده الأكبر سيف الدين غازى لايزال فى خدمة السلطان مسعود سفرا وحضرا نائبا عن والده فى الخدمة فأرسل إليه يأمره بالهرب من السلطان مسعود إلى الموصل وأرسل إلى نائبه نصير الدين جقر بالموصل يأمره بمنع سيف الدين من الدخول إلى الموصل فمنعه نصير الدين جقر من الدخول إلى الموصل . ولما بلغ الخبر إلى والده أرسل إليه يأمره بالعودة إلى السلطان ، ولم يجتمع به ، وأرسل معه رسولا إلى السلطان

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٦٥ ، انظر الاصفهانى ، دولة آل سلجوق ، ص ١٧٩ ، ابن القلانسي ص ٢٧٧ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٩٣ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ١٠ ، ص ١٠٥ — ١٠٦ .

(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٦٥ .

يقول : ان ولدى هرب خوفا لما رأى تغير السلطان على ، وقد أعدته إلى الخدمة ولم اجتمع به فانه مملوكك والبلاد لك فحل هذا عند السلطان محلا عظيما »[1] .

هكذا نجح عماد الدين زنكى فى تهدئة خواطر السلطان حتى ثنى عزمه عن السير إلى الموصل سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٤م ولا يستبعد أن يكون عماد الدين زنكى وراء خروج اصحاب الأطراف على السلطان مسعود فى هذه السنة مما اضطر السلطان إلى التنازل عن بقية المبلغ الذى كان قد تم عليه الاتفاق سابقا بينهما ، ثم مدارة السلطان لعماد الدين زنكى ليقف إلى جانبه ضد الخارجين عن طاعته[2] . واخيرا فانه يمكن القول بأن الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية كانتا من العوائق التى عرقلت نشاط عماد الدين زنكى لافى سبيل توحيد الجبهة الاسلامية فحسب بل وفى وقوفه أمام الصليبيين . ولم تقدم له اية مساعدات عسكرية اللهم الا النجدة التى أرسلها السلطان مسعود بن محمد مع كمال الدين الشهرزورى سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٨م وقد رأى عماد الدين زنكى أن دخول هذه القوات إلى الشام سيسبب له متاعب من السلطان مسعود بن محمد فرفضها[3] . وإذا كانت هذه مبررات لعدم مد يد العون لعماد الدين زنكى أثناء قيام الفتن فى العراق سواء بين السلاجقة أنفسهم أو بين السلاجقة والخلافة العباسية فان خلافة بغداد المقهورة على أمرها والسلطنة السلجوقية المتدهورة غير محققتين تماما فى عرقلة سياسة عماد الدين زنكى فى بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين .

أما عن موقف حكام دمشق من أسرة طغتكين تجاه بعث فكرة الجهاد الاسلامى زمن عماد الدين زنكى ، فمن المعروف أن ظهير الدين طغتكين أسس له ولاسرته من بعده حكما مستقلا فى دمشق عقب وفاة دقاق بن تتش سنة ٤٩٧هـ / ١١٠٣م . وحكم طغتكين دمشق حتى وفاته سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م ، بذل خلال تلك السنوات كثيرا من الجهد والوقت لافى سبيل مواجهة الصليبيين والدفاع عن دمشق ، بل وفى مساعدة الولاة الفاطميين بمدن الساحل وولاة السلاجقة فى الموصل وحلب الذين تزعموا بعث فكرة الجهاد الاسلامى قبل عماد الدين زنكى . غير أنه بموت ظهير الدين طغتكين سنة

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ص ، ٩١ .

(٢) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٦٦ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ص ، ١٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ص ، ٢١٨ .

ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٥٨ .

٥٢٢هـ / ١١٢٨م ظهر فراغ كبير فى دمشق خاصة وفى بلاد الشام عامة ، مما جعل خلفائه من بعده عرضة للاطماع الصليبية والقوى الاسلامية الاخرى . فبعد استيلاء عماد الدين زنكى على حلب سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م لم يعد مستبعدا ان تراوده فكرة الاستيلاء على دمشق وتوحيد قواها مع قوة حلب وبلاد الجزيرة ، ولكن الظروف التى أجبرت عماد الدين زنكى على العودة الى العراق سنة ٥٢٣هـ / ١١٢٩م قد أخرت تنفيذ المسير إلى دمشق والبلاد التابعة لها كحمص وحماة وبعلبك وبصرى وبانياس[١] .

ولما عاد عماد الدين زنكى سنة ٥٢٣هـ / ١١٢٩م من بغداد إلى حلب بعد أن حصل على توقيع من السلطان محمود بن محمد بجميع البلاد الشامية ، انتهز فرصة وقوع بعض الحوادث السياسية التى قامت بها فرقة الاسماعيلية و محاولتهم تسليم دمشق إلى الصليبيين ، وقيامهم بتسليم بانياس إلى الصليبيين فى تبرير تدخله فى شئون حكام دمشق[٢] ، ولكنه رأى أنه من الصعب توجيه ضربة يستطيع بها الاستيلاء على دمشق قبل الاستيلاء على المدن والقلاع المحيطة بها وبخاصة مدينتى حماة وحمص الواقعتين على الطريق الرئيسى إلى دمشق[٣] . وكانت حماة بيد سونج بن تاج الملوك بورى ، بينما كانت حمص بيد صمصام الدين خير خان بن قراجه الذى كان عماد الدين زنكى قد وطد علاقته به منذ دخوله حلب سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م[٤] .

وبدأ عماد الدين زنكى فى تنفيذ خططه ومناوراته فى الاستيلاء على دمشق ، فأظهر أنه يعتزم القيام بجهاد الصليبيين فى بلاد الشام فكتب إلى تاج الملوك بورى وطلب منه النجدة . ولما كان تاج الملوك بورى يخشى من غدر عماد الدين زنكى فقد ارسل إليه من اخذ له العهود والمواثيق بعدم الغدر فأعطاه . وجرد بورى من دمشق خمسمائة من عسكره مع جماعة من الامراء وكتب إلى ولده سونج بحماه يأمره بالخروج بعسكره فساروا

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٥٤ ، عمادالدين خليل ، عمادالدين زنكى ، ص ١١٩ .

(٢) انظر ماسبق ، الفصل الاول ص ٦٨ — ١١٩ .

(٣) عمادالدين خليل ، عمادالدين زنكى ، ص ١١٩ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٤٣ .
وتاج الملوك بورى بن طغتكين تولى أمر دمشق بعد وفاة والده فى صفر سنة ٥٢٢ هـ وكانت سيرته حسنة تتبع الاسماعيلية ومن ناصرهم بدمشق حتى قضى عليهم ، ظل حاكماً لدمشق حتى مقتله سنة ٥٢٥هـ . انظر صلاح الدين المنجد ، ولاة دمشق فى العهد السلجوقى ، نصوص مستخرجة من تاريخ دمشق الكبير ، ص ٢١ .

سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠م حتى وصلوا إلى مخيم عماد الدين زنكى بحلب « فأحسن لقاءهم وبالغ فى الأكرام لهم » ولكن عماد الدين زنكى غدر بسونج بن بورى وألقى القبض عليه وعلى جماعة من مقدمى عسكره وعسكر دمشق وسجنهم بحلب ثم سار عماد الدين من يومه إلى حماه فاستولى عليها وسلمها إلى صاحب حمص ابن قراجه الذى كان قد أشار على عماد الدين زنكى بالقاء القبض على سونج . ثم ألقى القبض على ابن قراجه وسار إلى حمص ونازلها مدة أربعين يوما فلم يظفر منها بشئ وعاد إلى حلب ومنها إلى الموصل فى السنة نفسها ٥٢٤هـ / ١١٣٠م وبصحبته سونج بن بورى[١] .

وترددت الرسل بين عماد الدين زنكى وبورى بشأن اطلاق سراح ابنه سونج على أن يدفع لزنكى مبلغ خمسين الف دينار ، فلم يقبل عماد الدين . ولكنه حدث أنه وقع دبيس بن صدقة اسيرا فى يد تاج الملوك بورى سنة ٥٢٥هـ / ١١٣١م حين كان سائرا إلى صرخد فضل الطريق ووقع اسيرا بيد مكتوم بن حسان بن مسمار الكلبى زعيم بنى كلاب الذى سلمه الى تاج الملوك بورى . ولما سمع عماد الدين زنكى خبر أسر دبيس عند حكام دمشق أرسل إلى بورى فى طلب تسليمه اياه مع الخمسين الف دينار المقررة سابقا ، واطلاق سراح سونج ومن معه أو المسير إلى حصار دمشق إذا لم يلب طلبه « ففادى به تاج الملوك ابنه سونج لاتابك » وتم تبادل الاسرى بين الطرفين فى الثامن من ذى القعدة سنة ٥٢٥هـ / ١١٣١م فى مكان يسمى قارا[٢] .

وعلى الرغم من أن عماد الدين زنكى قد اقتطع حماه من املاك أسرة طغتكين حكام دمشق ، الا أنه لم يستطع مواصلة التضييق عليهم وذلك بسبب تغير الاوضاع فى العراق ، فالسلطان محمود بن محمد قد توفى سنة ٥٢٥هـ / ١١٣١م ، وعلاقة

---

(١) ابن القلانسي ص ٢٢٨ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٥٨ ــ ٦٥٩ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٣٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٤١ ، ٤٢ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٤هـ ، ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص ٩٤ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ٣ .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٥هـ ، انظر ابن القلانسى ص ٢٢٨ ، ٢٣٠ ــ ٢٣١ ، ابن الاثير الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٥٩ ــ ٦٦٨ ــ ٦٦٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٤٧ ــ ٢٤٩ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ٥ .

ــ وصرخد : بلد ملاصق لبلاد حوران من اعمال دمشق وهى من البلدان ذات القلاع الحصينة .

ــ وقارا : قرية كانت على قارعة الطريق بين حمص ودمشق . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

عماد الدين زنكى بالخليفة العباسى المسترشد بالله قد شابها التوتر ، واضطر عماد الدين إلى الانغماس فى الصراع الذى دار بين السلاجقة انفسهم وبين السلاجقة والخلافة العباسية عقب وفاة السلطان محمود . وافلتت من يد عماد الدين زنكى اكبر فرصة كان يمكن أن يستغلها للقضاء على أسرة طغتكين ، وتوحيد الجبهة الاسلامية وذلك عقب موت تاج الملوك بورى سنة ٥٢٦هـ / ١١٣٢م واستيلاء ابنه شمس الملوك اسماعيل على مقاليد الحكم فى دمشق[١] .

ولم يخسر عماد الدين زنكى تلك الفرصة فحسب ، بل ان حكام دمشق بزعامة اسماعيل بن بورى استطاعوا استعادة حماه منه فى السنة التالية سنة ٥٢٧هـ / ١١٣٣م نتيجة لانشغاله بأمر الخليفة العباسى المسترشد بالله ومدافعته ومنعه من الاستيلاء على الموصل[٢] . ولم يقف حكام دمشق عند هذا الحد من استعادة حماه بل استطاعوا استعادة بانياس من الصليبيين فى السنة نفسها[٣] . ولكن عماد الدين زنكى استطاع ان يسترد مكانته بعد أن فشل المسترشد بالله فى الاستيلاء على الموصل سنة ٥٢٨هـ / ١١٣٤م .

عاد عماد الدين زنكى مرة أخرى يفكر فى امر الاستيلاء على دمشق فى سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٥م مستغلا فى ذلك أن صاحب دمشق اسماعيل بن بورى قد ساءت سيرته بين سكان دمشق ، حتى انحل امره وضعفت دولته[٤] . ولما عرف شمس الملوك اسماعيل أن أمر دمشق سيفلت من يده سواء بيد كبار رجالات دمشق أو بيد عماد الدين زنكى ، بادر إلى مكاتبة عماد الدين زنكى فى السنة نفسها واطمعه فى تملك دمشق ، واستحثه أيضاً على سرعة الوصول إليه واشترط عليه معاقبة كل من يكره بدمشق من

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٦هـ ، ابن القلانسى ، ص ٢٣٣ ــ ٢٣٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٧٩ ــ ٦٨٠ ، الذهبى ، دول الاسلام ، جـ ٢ ، ص ٤٨ .
ــ وشمس الملوك اسماعيل بن يورى ولى أمر دمشق بعد مقتل والده بورى فى رجب سنة ٥٢٦هـ . وكان شهما شجاعا استطاع استرداد بانياس من الصليبيين ، ولكن سيرته ساءت بين رعاياه مما أجبر والدته على التخلص منه بمساعدة بعض رجال دمشق سنة ٥٢٩هـ . انظر صلاح الدين المنجد ولاة دمشق فى العهد السلجوق ، نصوص مستخرجة من تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر ، ص ٢٢ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٦ ــ ٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٥٣ .

(٣) ابن القلانسى ص ٢٣٧ ــ ٢٤١ ، الذهبى ، دول الاسلام ، جـ ٢ ، ص ٤٨ .

(٤) ابن القلانسى ، ص ٢٤٥ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ٨ .

الامراء والمقدمين والأعيان وحذره من أنه سوف يسلم دمشق للصليبيين فى حالة تأخره عن الوصول إلى دمشق[1] .

ويبدو أن شمس الملوك اسماعيل كان يهدف من وراء هذا العمل الخطير إلى معاقبة المعارضين له بدمشق إلا أنه ذهب ضحية هذا العمل بعد أن اكتشفه كبار الأمراء بدمشق حيث اتفقوا فيما بينهم على مشاورة والدته فى الأمر « فقلقت لذلك وامتعضت منه واستدعته وأنكرته .. فأمرت غلمانه بقتله ونودى بشعار أخيه شهاب الدين محمود بن بورى من بعده »[2] .

لم تكن هذه الحوادث بدمشق قد وصلت أخبارها إلى عماد الدين زنكى الذى بعث برسله ـــ حين عبر الفرات متوجها إلى دمشق ـــ لتقرير قواعد التسليم . ولكن رسله الذين أرسلهم إلى دمشق وجدوا بها الامور على غير ماكانوا يتوقعونه ، فعادوا وأخبروا عماد الدين بالوضع الجديد ولكنه لم يحفل بذلك وحدثته نفسه بالاستيلاء عليها « ظنا منه بأن الخلف يقع بين الامراء والمقدمين من الغلمان » فسار إليها وشدد عليها الحصار مرارا متعددة فلم يظفر بطائل اذ وجد قوة ظاهرة وشجاعة عظيمة من أهل دمشق واتفاقا على محاربته . وكان لمعين الدين أنر ـــ مملوك ظهير الدين طغتكين ومدبر دولة أولاده من بعده ـــ فى هذه النوبة قياما مشهودا فى الدفاع عن دمشق[3] .

ولما تعذر على عماد الدين زنكى الاستيلاء على دمشق عمد إلى طلب الصلح من معين الدين أنر وأمراء دمشق والدخول فى طاعته[4] . ولم يكتف بهذا بل طلب من أمراء دمشق أيضاً أن يسمحوا لشهاب الدين محمود بن بورى بالخروج من دمشق ومقابلة ولد السلطان محمود بن محمد واسمه ألب ارسلان الذى كان مع عماد الدين زنكى هاربا من عمه مسعود بن محمد ، فلم يوافق شهاب الدين محمود على ذلك بل سمح لاخيه

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٢٤٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٥٥ ـــ ٢٥٦ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢١ ، ٢٢ ، عمادالدين خليل ، عمادالدين زنكى ، ص ١٢١ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ٢٤٦ ـــ ٢٤٧ ، انظر ايضا ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢١ ـــ ٢٢ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ١٥٣ .

(٣) ابن القلانسى ص ٢٤٧ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٥٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٥٧ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢٨٦ .

(٤) ابن القلانسى ، ص ٢٤٨ .

بهرام شاه بن بورى بالخروج إلى عماد الدين زنكى[1] . ويبدو أن غرض عماد الدين زنكى من طلب خروج شهاب الدين محمود إليه هو القاء القبض عليه ليكون فى يده ورقة رابحة يستطيع بها مفاوضة حكام دمشق على التسليم ، إلا أن ذلك الامل لم يتحقق إذ أن حكام دمشق لم ينسوا وقتذاك مافعله عماد الدين زنكى بسونج بن بورى سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠م .

وعلى الرغم من أن عماد الدين زنكى لم يستطع الاستيلاء على دمشق فقد ظل محاصرا لها حتى وصل منكوب من قبل الخليفة المسترشد بالله سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م لطلب النجدة منه ضد السلطان مسعود بن محمد ، وطلب منه الخليفة تسوية أموره مع حكام دمشق ورفع الحصار عنهم والعودة إلى العراق ومناه بإقامة الخطبة لالب ارسلان بن محمود ليزيد من عزم عماد الدين على الانضمام إلى جانبه وترجيح كفته ضد خصومه السلاجقة[2] .

وما أن وصل رسول الخليفة المسترشد بالله واسمه بشر بن كريم الجزرى إلى عماد الدين زنكى وهو محاصر لدمشق حتى ضم إليه عماد الدين زنكى كمال الدين الشهرزورى وارسلهما إلى دمشق لمفاوضة حكامها بخصوص طلب الخليفة المسترشد بالله فى اقامة الخطبة بدمشق لالب ارسلان بن محمود ، فوافق حكام دمشق « وخطب للسلطان ارسلان على المنبر بأمر أمير المؤمنين » ولما تم ذلك عاد عماد الدين زنكى إلى حلب فى منتصف سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م [3].

ولما أيس عماد الدين زنكى من الاستيلاء على دمشق ، صرف همه إلى استعادة حمص بعد الحوادث التى تجددت بها سنة ٥٣٠هـ / ١١٣٥م ، ففى تلك السنة استرد شهاب الدين محمود حمص من اولاد خير خان بن قراجه وسلمها إلى الحاجب يوسف بن فيروز نيابة عن معين الدين أنر . فأوعز عماد الدين زنكى إلى نائبه فى حلب سوار بن اتيكين بالاغارة على حمص فشرع سوار فى جمع الجيوش وطلب المعونة من

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٢٤٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٥٨ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ١٠ ، ص ٤٣ .

(٣) ابن القلانسى ، ص ٢٤٨ ، انظر ابوالفدا ، المختصر جـ ٣ ص ٩ .

أهل حماة وتابع بمن معه الغارات على حمص ورعى زرعها ، الا أن شهاب الدين محمود ارسل إلى عماد الدين زنكى فى طلب الصلح فجرت فى ذلك مراسلات ومخاطبات اسفرت عن المهادنة والموادعة والمسالمة إلى أمد معلوم وأجل مفهوم « كما يقول ابن القلانس وبهذا الصلح كف سوار بن ايتكين عن مهاجمة حمص[١] .

غير أن رغبة عماد الدين زنكى فى الاستيلاء على حمص ودمشق من أسرة طغتكين قد جعلها من أكبر المهام التى أراد تنفيذها . لذلك فانه بعد أن فرغ من مشاكل بغداد أقبل على تجهيز حملة عسكرية فى شهر شعبان سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦م بقصد الاستيلاء على حمص التابعة لحكام دمشق . وسير عماد الدين زنكى صلاح الدين الياغيسيانى إلى حمص بعد أن حاصرها للتفاوض مع مستحفظها معين الدين أنر فى أمر التسليم دون اراقة الدماء . ورفض معين الدين أنر التسليم بحجة كون حمص لشهاب الدين محمود ، على الرغم من تهديد عماد الدين زنكى له وسرعان ما تجمع الصليبيون في بعرين « نجدة لحمص وغيلة لاتابك ، فرحل عن حمص ولقيهم تحت قلعة بعرين » بقصد انتزاعها منهم ، ولكنه خشى من غدر حكام دمشق ، فأقدم على عقد مهادنة وموادعة معهم لاجل مواجهة الصليبيين[٢] .

وبعد أن انتهى عماد الدين زنكى من أمر الحملة البيزنطية الصليبية التى استهدفت الاستيلاء على حلب وشيزر وغيرها من مناطق شمال الشام سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٧م[٣] ، عاد إلى محاولة الاستيلاء على حمص ودمشق فسار فى السنة نفسها من حلب إلى حماة ومنها إلى بعلبك وملك حصن المجدل ، وكان تابعا لصاحب دمشق . وخاف والى بانياس من قبل حكام دمشق فراسل عماد الدين زنكى ووعده بتسليم بانياس إليه . وواصل عماد الدين مسيره إلى حمص وشدد عليها الحصار ، وارسل إلى شهاب الدين محمود للتفاوض معه فى تسليم حمص له وتعويض حكام دمشق عنها

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٢٥٢ — ٢٥٣ ، انظر ايضا ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٨ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ١٠ .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣١هـ ، انظر القلانسيص ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٥٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٦٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ٧١ .

— وبعرين — اوبارين — بلد بين حمص والساحل . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) انظر مايلى ص ٢٨٢ — ٢٨٣

ببعرين واللكمة والحصن الشرقى ، وأن يتزوج بأمه ويزوجه ابنته معتقدا بذلك أنه إذا تزوجها « كان ذلك طريقا إلى تملكه دمشق » . فتزوج عماد الدين بوالدة شهاب الدين محمود وتسلم حمص مع قلعتها إلا أنه بعد زواجه منها خاب أمله فى الوصول إلى دمشق عن طريق هذه الزيجة لان والدة شهاب الدين محمود بعد زواجها فقدت مكانتها وسطوتها لدى حكام دمشق[1] .

وفى سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨م تم اغتيال شهاب الدين محمود بسبب سوء سيرته إذ اغتاله ثلاثة من غلمانه بدمشق ، ولكن القائمين بدمشق من الامراء كتبوا على وجه السرعة إلى أخيه جمال الدين محمد بن بورى يستدعونه من بعلبك . فحضر إلى دمشق واستولى على مقاليد السلطة ، وفوض أمر دولته إلى أنر[2] .

ولا يستبعد أن يكون معين الدين أنر قد سعى إلى تدبير اغتيال شهاب الدين محمود بن بورى ، بدليل الخطوة التى اتخذها جمال الدين محمد بن بورى فى تعيين أنر بعد دخوله إلى دمشق مباشرة . يضاف إلى ذلك ماسعى إليه أنر من ابعاد بهرام شاه أخى شهاب الدين محمود عن دمشق وانضمامه إلى عماد الدين زنكى[3] .

أدى حادث اغتيال شهاب الدين محمود إلى تدخل عماد الدين زنكى فى شئون دمشق مرة أخرى والعمل على انتزاعها من يد معين الدين أنر وجمال الدين محمد بن بورى . وقد ذكر المؤرخون أن زوجة عماد الدين زنكى زمرد خاتون قد وجدت على ولدها شهاب الدين محمود وجدا شديدا وحزنت عليه ، وأرسلت إلى زوجها عماد الدين زنكى وهو بالموصل تعرفه الحادثة وتطلب منه أن يقصد دمشق ويطالب بثأر ولدها . فأقبل عماد الدين زنكى ، وفى مقدمته الامير الحاجب صلاح الدين محمد الياغيسيانى فسار

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٥٥ ، انظر ابن القلانسى ، ص ٢٦٣ ، ٢٦٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٧٦ — ٧٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، القلانسى ص ٢٦٢ — ٢٦٣ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى حوادث سنة ٥٣٢ .
— وحصن المجدل : بلد طيب وحصين بالحابور . واللكمة : حصن بالساحل قرب عرقة . انظر ياقوت — معجم البلدان .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٣هـ ، ابن القلانسى ، ص ٢٦٨ — ٢٦٩ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١١ ، ص ٦٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٧٢ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ص ١٧٢ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٧٢ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٣هـ ، عمادالدين خليل ، عمادالدين زنكى ، ص ١٢٦ .

حتى عبر الفرات ، ودخل حلب فى أواخر سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨م ورحل منها إلى حماه . فلما علم من بدمشق بهذا الامر احتاطوا واستعدوا واستكثروا من الذخائر ولكن عماد الدين زنكى عدل عن المسير إلى دمشق وتوجه إلى بعلبك ، وراسل معين الدين بشأن تسليم بعلبك فرفض أنر تسليم بعلبك ، وضيق عماد الدين زنكى عليها بعد أن نصب عليها اربعة وعشرين منجنيقا ، حتى ضاق الامر على من بها فطلبوا الامان من عماد الدين زنكى فأمنهم وسلموا إلية القلعة فى شهر صفر من سنة ٥٣٤هـ / ١١٣٩م فلما نزلوا منها غدر بهم عماد الدين وملك بعلبك وجعل عليها نجم الدين ايوب والد صلاح الدين الايوبى . وأدت سياسة عماد الدين تجاه أهل بعلبك وما انزله بهم من العقاب إلى تصميم أهل المدن الاخرى على الدفاع عن بلادهم « لاسيما اهل دمشق فانهم قالوا : لو ملكنا لفعل بنا مثل فعله بهؤلاء فازدادوا نفورا وجدا فى محاربته »[1] . ولم يكتف معين الدين أنر بالاستعدادات العسكرية فى الدفاع عن دمشق بل انه سعى أيضا إلى أرسال أسامة بن منقذ إلى الوزير الفاطمى رضوان بن الوخشى الذى كان قد لجأ إلى عماد الدين زنكى وساعده على فتح بعلبك . واستطاع أسامة بن منقذ اقناع رضوان بمفارقة عماد الدين زنكى وحذره جانبه[2] .

بعد أن انتهى عماد الدين زنكى من أمر بعلبك وترميم ماتشعث فيها سار إلى دمشق فى السنة نفسها ٥٣٤هـ / ١١٣٩م فلما نزل قريبا من البقاع أرسل إلى صاحب دمشق وعرض عليه تسليم دمشق وتعويضه عنها ببعلبك وحمص فلم يجبه إلى ذلك ، فتقدم عماد الدين زنكى ونزل بظاهر دمشق وبدأت المناوشات بين الطرفين ثم تجددت المراسلات بين الطرفين فى الصلح وأجاب جمال الدين إلى تسليم دمشق ولكنه حصل مالم يكن فى حسبان عماد الدين زنكى إذ اشتد المرض بجمال الدين محمد حتى ادى الى وفاته فى شعبان من السنة نفسها ٥٣٤هـ / ١١٣٩م مما أطمعه فى الاستيلاء على

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٦٨ ، ٦٩ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحليب جـ ٢ ص ٢٧٢ ، ابن القلانسى ص ٢٦٩ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٤هـ .

(٢) أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٣٠ ــ ٣١ ، الازدى ، الدول المنقطعة ، ص ٩٩ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، حوادث سنة ٥٣٣هـ ٥٣٤هـ .

أما عن سبب وصول الوزير الفاطمى رضوان بن الوخشى الى بلاد الشام فلأن العلاقات قد ساءت بينه وبين الخليفة الحافظ مما اضطره الى الرحيل الى بلاد الشام والاستقرار طرف صاحب صرخد ، بقصد الاستعانة به ضد خصومه فى مصر . وقد حاول الانضمام الى عمادالدين زنكى ومساعدته من اجل الحصول على مساعدات من عمادالدين غير ان ذلك لم يتم بسبب السعى الذى سعى به أسامة بن منقذ بأمر من معين الدين أنر صاحب دمشق . انظر المصادر السابقة .

دمشق ، فعاود عماد الدين القتال مرة أخرى مستغلا فى ذلك وفاة صاحب دمشق وطمعا فى وقوع الاختلاف بين الامراء بدمشق . غير أن الامر كان بالضد اذ أن المقدمين فى دمشق سعوا إلى تولية ابنه مجير الدين أبق بن محمد ، ووقفوا فى وجه عماد الدين بكل قوة وصلابة[1] .

ولما كانت حالة أهل دمشق قد بلغت حدا من الضعف والخوف من الوقوع فى يد عماد الدين زنكى لشدة الحصار المضروب عليهم من عماد الدين ولصغر سن مجير الدين أبق لذلك كاتب معين الدين أنر الصليبيين وطلب منهم النجدة ضد عماد الدين على أن يسلمهم بانياس بعد استعادتها من زنكى ومبلغ عشرين الف دينار يؤديها لهم كل شهر . ولم يكتف بهذا بل انه خوف الصليبيين من عماد الدين زنكى وحذرهم من انه لو ملك دمشق فانه لن يبقى لهم معه فى الشام مقام . وعندما علم عماد الدين زنكى بما تم عليه الاتفاق بين أنر والصليبيين رفع الحصار عن دمشق وتوجه إلى حوران فى رمضان من السنة نفسها للقاء الصليبيين قبل وصولهم إلى دمشق ، غير أن الصليبيين حين علموا بتحركات زنكى ، لم يخرجوا من بلادهم فعاد عماد الدين إلى حصار دمشق فنزل شمال دمشق واحرق عدة قرى من المرج والغوطة ورحل عائداً إلى بلاده[2] . وحدث أثناء حصار عماد الدين لدمشق أن خرج والى بانياس من قبل عماد الدين زنكى فى عدة وافرة من أصحابه للاغارة على الصليبيين بصور ، وكان صاحب أنطاكية قد خرج منها فى الوقت نفسه باتجاه دمشق نجدة لها من عماد الدين زنكى . والتقى صاحب أنطاكية بوالى بانياس فأسره وقتله . فلما سمع معين الدين أنر بذلك خرج إلى بانياس وحاصرها وضيق عليها الحصار ومعه طائفة من الصليبيين

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٢٧٠ ــ ٢٧١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٧٢ ــ ٢٧٣ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٧٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢١٦ ، الذهبى ، العبر ، جـ ٤ ، ص ٩٣ ، زنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٣٦٤ .

ــ ومجيرالدين ابق هو ابوسعيد التركى المعروف بعضد الدولة ، ولد فى بعلبك وقدم الى دمشق مع ابيه محمد ، تولى حكم دمشق فى الثامن مع شعبان سنة ٥٣٤هـ عندما كان عمادالدين محاصرا لدمشق ، وكان ابق صغير السن حين تولى امر دمشق فظل تحت وصاية معين الدين أنر . انظر ، صلاح الدين المنجد ، ولاة دمشق فى العهد السلجوقى نصوص مستخرجة من تاريخ دمشق الكبير للحافظ ، ابن عساكر ، ص ٢٣ .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، جوادث سنة ٥٣٥هـ ، ابن القلانسى ، ص ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٧٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٧٣ ــ ٢٧٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٨٨ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٣٦٤ ــ ٣٦٧ ، وحوران ، كورة واسعة من اعمال دمشق من جهة القبلة ذات قرى كبيرة ومزارع كثيرة . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

« فأخذها وسلمها إلى الفرنج »[1] .

وما ان بلغ عماد الدين زنكى نبأ تسليم بانياس إلى الصليبيين حتى جمع جموعه وسار صوب بانياس لانتزاعها من يد الصليبيين . ولكنه اراد قبل ذلك الانتقام من حكام دمشق فخرج فى ذى القعدة من سنة ٥٣٤هـ / ١١٣٩م ، وسار حتى بلغ دمشق وقرب من سور البلد ففرق عساكره وأمرهم بالاغارة على المناطق المحيطة بدمشق كالغوطة وحوران والمرج بينما سار هو مع مجموعة من خواصه فنازل بهم دمشق سحرا ولم يشعر به أحد الا ان الذعر الذى أصاب اهل دمشق حمسهم على قتال عماد الدين ولم يمكنوه من البلد واجبروه على الانسحاب إلى مرج راهط لقلة من كان معه من الجند لان أغلب عساكره كان قد فرقهم فى البلاد المحيطة بدمشق . وفى مرج راهط اجتمع عماد الدين بأصحابه وقد امتلأت أيديهم بالغنائم ورحل عائدا الى بلاده[2] .

وهكذا لم يستطع عماد الدين الاستيلاء على دمشق حتى بعد أن جردها من البلاد التابعة لها كحمص وحماة وبعلبك وغيرها ، وذلك بسبب استماتة أهلها فى الدفاع عنها ، يضاف ذلك إلى مابذله معين الدين أنر فى سبيل الحفاظ عليها ومنعها من السقوط فى يد عماد الدين زنكى ، حتى أن معين الدين أنر لم يجد حرجا فى الاستعانة بالصليبيين ضد عماد الدين زنكى كما رأينا . ويمكن القول بأن حكام دمشق من أسرة طغتكين قد وقفوا حجر عثرة فى وجه عماد الدين زنكى الذى كان يهدف إلى توحيد الجبهة الاسلامية للوقوف فى وجه الصليبيين من أجل بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين والى تقويض الوجود الصليبى فى كل من الجزيرة وبلاد الشام[3] .

عماد الدين والصليبيون حتى قبيل سقوط الرها (٥٢١ ــ ٥٣٨هـ / ١١٢٧ ــ ١١٤٣م) :

مأأن تولى عماد الدين زنكى الموصل من سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م حتى أدرك مدى قوة

---

(١) ابن القلانسى ص ١٧٣ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ،ص ٧٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٨٨ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ٢٧٣ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١١ ، ص ٧٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٧٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٨٩ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ص ١٥ .
ــ ومرج راهط : مرج بنو حى دمشق وهو أشهر مروج بلاد الشام . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) انظر سعيد عبدالفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٥٧ ، حامد غنيم ابوسعيد ، الجبهة الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٥٤ ، عمادالدين خليل ، عمادالدين زنكى ، ص ١٦٦ .

الصليبيين وضعف المسلمين وتفرق كلمتهم . ولم يشأ أن يقاتلهم إلا بعد أن يتم استعداده باستكمال توحيد الجبهة الاسلامية فى الشام والجزيرة ، ليوفر لرعاياه مزيدا من الطمأنينة حتى تكون جبهته الداخلية قادرة على تحمل ماسيقع من حوادث فى المستقبل سواء كانت نصرا ام هزيمة فوقع فى السنة المذكورة (٥٢١هـ / ١١٢٧م) هدنة مع جوسلين Joceline صاحب الرها لمدة سنتين وذلك من اجل التفرغ للاستيلاء على مزيد من الاقاليم فى بلاد الشام والجزيرة التى لم تكن تحت يد الصليبيين ، وبهدف اصلاح ماافسده قادة الاتراك الذين كانت لهم مطامع شخصية ، ثم تولية هذه الاقاليم فى بلاد الشام والجزيرة لامراء يختارهم بنفسه ويرى مدى قدرتهم وشجاعتهم على مواجهة الصليبيين . وفى ذلك يقول ابن الاثير « وأرسل الى جوسلين صاحب الرها وغيرها من البلاد التى بيد الفرنج بالجزيرة وهادنه مدة يسيرة يعلم أنه يفرغ من الاستيلاء على مابقى من البلاد الشامية والجزيرة واصلاح شأنها والفراغ من اقطاع بلادها لجند يختبرهم ويعرف نصحهم وشجاعتهم »[١] .

وكان عماد الدين زنكى قبل توقيع الهدنة مع جوسلين قد تلقى نداء من أهل حران القريبة من الرها وسروج يطلبون منه القدوم إلى بلادهم فخاف عماد الدين زنكى من أن يصطدم بجوسلين صاحب الرها فاضطر إلى عقد الهدنة معه[٢] ، وكان جوسلين قد بلغ وقتذاك سنا لم يعد يسمح له بالمغامرات التى كان يقوم بها فى شبابه ، لذلك وافق على ماطلبه منه عماد الدين زنكى « فاستقرت قاعدة الصلح بينه (أى عماد الدين) وبين جوسلين على مااختاره »[٣] على أن أهم نتائج هذه الهدنة مع جوسلين انها سهلت لعماد الدين زنكى الوصول إلى حلب واستيلائه عليها فى السنة التالية ٥٢٢هـ / ١١٢٨م لأن الاستيلاء على حلب والقضاء على مابها من فوضى كان أهم اهداف عماد الدين زنكى ، وقطع استيلاء عماد الدين زنكى على حلب الامل امام الصليبيين فى الاستيلاء عليها مستقبلا[٤] .

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٣٧ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٤٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٣٦ .

(٢) ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٧٧ — ٧٨ .

(٣) ابن الاثير ، الباهر ص ٣٧ .

(٤) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٥٠ .

وبعد استيلاء عماد الدين زنكى على حلب سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م غادر بلاد الشام إلى بغداد لتسوية بعض الامور مع السلاجقة والخلافة العباسية عاد بعدها إلى بلاد الشام فى سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠م وأخذت أوضاعه فى الإستقرار خاصة بعد أن فرغ من أمر الامراء الارتقية بديار بكر والجزيرة وأمن ناحيتهم . كما قدم إلى عماد الدين من دمشق أحد الرجال الذين تمرسوا على حرب الصليبيين ذلك هو سوار بن ايتكين فولاه حلب وأعمالها . وكانت لابن ايتكين اليد الطوى فى حرب الصليبيين إلى جانب عماد الدين زنكى[١] . وأخذت اوضاع الصليبيين فى بلاد الشام والجزيرة فى التدهور حيث أن جوسلين الثانى صاحب الرها لم تعد عنده القدرة الفائقة على القيام بمغامرات ، ثم ان بوهمند الثانى صاحب انطاكية قتل فى سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠م فى لقاء له مع سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى مخلفا فى حكم انطاكية زوجته اليس ابنة بلدوين ملك بيت المقدس ، فأبدت العداوة للصليبيين ووقفت فى وجه والدها بلدوين محاولة منعه من دخول انطاكية . الا انها لم تستطع الصمود أمامه ، فدخل انطاكية وعاقب كثيرا من أنصارها وعفى عنها من القتل غير أنه اخذ منها انطاكية ووهب لها جبلة واللاذقية بينما عاد هو إلى بيت المقدس[٢] . وبوفاة بوهمند الثانى صاحب انطاكية يقول رنسيمان لقد انتهى دور الجيل القديم من زعماء الصليبيين وظهر جيل جديد من الرجال والنساء الذين لم يسعوا إلا إلى المحافظة على ماامتلكوه[٣] .

أما عماد الدين زنكى فانه بعد أن فرغ من أمر السلاجقة والخلافة العباسية وسيطر على بعض المدن والقلاع بمنطقة الجزيرة رأى انه لابد له من مواجهة الصليبيين عسكريا خصوصا وان الهدنة التى بينه وبين جوسلين قد انتهت وان الصليبيين قد استولوا على حصن القدموس من المسلمين أواخر سنة ٥٢٣هـ / ١١٢٩م[٤] . وأدرك عماد الدين زنكى أهمية حصن الاثارب ـــ الواقع بين حلب وأنطاكية ـــ وما كان يلقاه اهل حلب

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٤هـ ، ابن الاثير ، الباهر ، ص ٣٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٢٤٥ .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٤هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٦٦ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٤٦ ـــ ٢٤٧ العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٠١ ، عمادالدين خليل ، عمادالدين زنكى ، ص ١٣٩ .

(٣) ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢٩٢ ـــ ٢٩٧ ،

(٤) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٣هـ .

ممن به من الصليبيين . ويعلق ابن الاثير على ذلك بقوله « وكان اهل البلد (حلب) معهم (اى الصليبيين) فى ضر شديد وضيق كل يوم ، قد أغاروا عليهم ونهبوا أموالهم » . فأخذ عماد الدين زنكى فى الجمع والاحتشاد والتزود بكل انواع العتاد وخرج من حلب صوب الاثارب والصليبيون قد جمعوا به كل طاقاتهم حتى انهم اعتبروا أن هذه الوقعة مع عماد الدين زنكى سيكون لها مابعدها فأخذ فى حصار الاثارب ، ولم ينفرد بالرأى فى أمر المسلمين ، بل استشار رجاله فأشار عليه بعضهم العودة إلى حلب واستدراج الصليبيين ومهاجمتهم بعد تفرقهم . ولكن عماد الدين زنكى اعتبر هذه المشورة هزيمة للمسلمين وانها ستُطمع الصليبيين فى المسلمين . وصمم على لقائهم فتم ذلك بين الطرفين قريبا من الاثارب فى سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م وكان النصر إلى جانب المسلمين . واستولى عماد الدين زنكى على الاثارب ، ودك حصنها ، وحث رجاله على الفتك بالصليبيين » وقال : هذا أول مصاف عملناه معهم فلنذقهم من بأسنا مايبقى رعبه فى قلوبهم ، ففعلوا ماأمرهم » فأحدث ذلك فى الصليبيين مقتلة عظيمة[1] .

وهكذا تم تخريب حصن الاثارب فحقق عماد الدين زنكى أول انتصار له على الصليبيين . ومن الاثارب توجه عماد الدين زنكى الى قلعة حارم بالقرب من أنطاكية وهى بيد الصليبيين فضرب عليها حصارا شديداً حتى اضطر من بها من الصليبيين إلى بذل نصف دخلها لعماد الدين زنكى . ولأن الكثيرين من رجال عماد الدين زنكى قد تضرروا من المعركة التى تمت فى الاثارب ، فقد وافق عماد الدين على الهدنة مع الصليبيين ومناصفتهم فى دخل حارم[2] . ولم يكتف عماد الدين زنكى بما حققه من نصر على الصليبيين فى الاثارب وما فرضه عليهم من مناصفتهم فى بلد حارم بل قام هو ومن معه من عساكره بالاغارة على بلد عزاز ومعرة مصرين وتل باشر . ولعل عماد الدين قد أراد من

---

(١) ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٦٦٢ ــ ٦٦٣ ، انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٣٩ ــ ٤١ ، العظيمى تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٤هـ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٤٣ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ٣ ــ ٤ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٤٢ .

وحارم : حصن حصين وكورة جليلة تجاه انطاكية انظر ياقوت ، معجم البلدان .

وراء هذه الغارات الخاطفه اظهار جانب قوة المسلمين أمام الصليبيين[1] . وتأكد للمسلمين فى بلاد الشام قرب النصر ، بما حققه عماد الدين زنكى من الانتصارات على الصليبيين حتى انهم ارسلوا البشائر إلى معظم البلاد الاسلامية فى الوقت الذى اصبح فيه الصليبيون فى موقف المدافع بعد أن كانوا فى موقف المهاجم ضد المسلمين ، وعلموا عجزهم عن مواجهة عماد الدين زنكى « وصار قصاراهم حفظ مابأيديهم بعد ان كانوا قد طمعوا فى ملك الجميع »[2] . يضاف إلى ذلك أن هذه الانتصارات مهدت لعماد الدين الطريق الى الاستيلاء على معظم بلاد الشام الواقعة فى أيدى الصليبيين .

وتجدر الاشارة الى أنه على الرغم من الظروف التى تهيأت لعماد الدين زنكى بوفاة بلدوين الثانى ملك بيت المقدس سنة ٥٢٥هـ / ١١٣٠م وحصول الشقاق بين الصليبيين ، الا أنه لم يهتبل هذه الفرصة للقيام بعمليات عسكرية ضد الصليبيين الا فى وقت متأخر نظرا لانشغاله بالاوضاع التى تجددت فى بغداد عقب وفاة السلطان محمود بن محمد الذى توفى فى السنة نفسها ، ودخوله فى النزاع الذى نشب بين ابناء البيت السلجوقى على منصب السلطنة ، ثم تعرضه للحملة التى قام بها الخليفة العباسى المسترشد بالله على الموصل سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م . كما أن عماد الدين زنكى قد انشغل فى تلك الفترة بتوسيع قاعدة حكمه فى بلاد الجزيرة وديار بكر[3] . الا أن عماد الدين زنكى الذى وضع نصب عينيه مهمة الجهاد ضد الصليبيين لم يهمل هذه الناحية بل اوعز إلى نائبه فى حلب سوار بن ايتكين بالقيام بمهمة مواجهة الصليبيين فقام سوار فى سنة ٥٢٧هـ / ١١٣٢م بغزو الصليبيين فى تل باشر فقتل منهم خلقا

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٤٥ ، ابن واصل مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٤٠ ــ ٤٣ ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٤هـ .

وعزاز : بليدة صغيرة تقع شمال حلب . ومعرة مصرين : بليدة صغيرة وكورة بنواحى حلب وتعد من اعمالها بينها وبين حلب خمسة فراسخ .

وتل باشر : قلعة حصينة بشمال حلب بينها وبين حلب مسيرة يومان على الاقدام . انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٢) ابن الاثير الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٦٣ ، انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٤٢ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٠١ .

(٣) انظر ماسبق فى الحديث عن عمادالدين فى صفحات متعددة .

كثيرا[1] . ولم يقف سوار بن ايتكين عند هذا الحد بل استغل تدفق كثير من التركمان إلى بلاد الشام فى هذه السنة فوجههم إلى الاغارة على امارة طرابلس الصليبية ، فاستطاعوا النيل منها واوقعوا هزيمة ساحقة بالصليبيين بها . ولم تقتصر غاراتهم على امارة طرابلس بل استطاعوا هزيمة الصليبيين فى بعرين ــ فى تلك السنة ــ هزيمة كادت تؤدى الى سقوط هذا الحصن بأيديهم[2] .

ويمكن القول بأن تدفق هؤلاء التركمان إلى بلاد الشام قد جاء نتيجة لسماعهم بانتصارات عماد الدين زنكى على الصليبيين فى الاثارب سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠م وبما وصلهم من أخبار الانشقاق الذى حصل بين الصليبيين فى سنة ٥٢٧هـ / ١١٣٣م ، ثم رغبتهم الصادقة فى تلبية داعى الجهاد فى سبيل الله خصوصا وان هؤلاء التركمان قد عرفوا بتحمسهم الشديد للدفاع عن الدين ورغبتهم فى المغامرات والحصول على الغنائم والاسلاب[3] . كما لايستبعد ان يكون مجيء هؤلاء التركمان إلى بلاد الشام قد رفع الروح المعنوية لحكام دمشق حيث قاموا باستعادة بعض مناطق نفوذهم وانزلوا هزيمة بالصليبيين فى سنة ٥٢٨هـ / ١١٣٤م فى عكا والناصرة ، وطبرية ، مما أدى إلى انهاك قوى الصليبيين فى بيت المقدس وغيرها ، مما اضطرهم إلى عقد هدنة مع شمس الملوك اسماعيل صاحب دمشق فى تلك السنة . على أن ماحصل بالصليبيين فى هذه السنة من انقسام داخلى وهزائم متلاحقة من المسلمين قد سهل لعماد الدين زنكى ونائبه فى حلب مهمة استعادة بعض المعاقل كالمعرة وكفرطاب وزردنا التى كانت تحول دون وصول غارات المسلمين إلى انطاكية[4] ولم يقف سوار بن ايتكين نائب عماد الدين فى حلب عند هذا الحد بل استطاع فى سنة ٥٣٠هـ / ١١٣٥م ان يجمع اكبر عدد من التركمان

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٨ ، ابن القلانسى ص ٢٣٦ ، ابن العديم زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٥١ ــ ٢٥٢ . العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٧هـ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٠٤ .

(٢) ابن القلانسى ص ٢٤٠ ، ابن الاثير الكامل ، جـ ١١ ، ص ٧ ــ ٨ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ٨ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٨ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١١ ــ ١٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٥٤ ــ ٢٥٥ ، العظيمى تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٢٨هـ ، أبو الفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ٨ ــ ٩ ، ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ص ٩٩ .

وزردنا : بليدة صغيرة تقع شمال حلب . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

وغيرهم وقصد اللاذقية وهى بيد الصليبيين على غرة منهم ، وأنزل بهم هزيمة ساحقة أسفرت على حد قول ابن العديم عن وقوع سبعة آلاف من الصليبيين أسرى فى يد المسلمين ومائة الف رأس من الماشية ، وتخريب ونهب أكثر من مائة قرية[1] .

وفى سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦م وصل عماد الدين زنكى إلى حلب قادما من الموصل بقصد الاستيلاء على حمص ــ التى كان شمس الملوك اسماعيل بن بورى قد استعادها ممن استحفظهم عماد الدين عليها سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م[2] وغزو الصليبيين واضعا فى اعتباره الاستيلاء على حصن بعرين الذى وصفه ابن الاثير بأنه « من أمنع معاقل الفرنج و أحصنها »[3] . وكان الصليبيون قد خرجوا نجدة لاهل حمص من عماد الدين زنكى ، فلما علم بذلك رحل عن حمص واتجه الى بعرين فلما نزل عليها قاتلها فحشد الصليبيون فارسهم وراجلهم وساروا إلى بعرين بقصد ترحيل عماد الدين زنكى عنها ، فلقيهم وقاتلهم أشد قتال[4] . وكان سوار بن ايتكين قد التقى بطلائع الصليبيين فأوقع بهم هزيمة ساحقة اسفرت عن وقوع ريموند صاحب طرابلس فى الأسر بينما سعى فولك ملك بيت المقدس وجموع كثيرة من الصليبيين الى دخول حصن بعرين وهم على غاية من الضعف والخوف . واستغل عماد الدين زنكى ذلك وضرب حول بعرين حصارا شديدا منع عن الصليبيين الذين بداخل القلعة كل شئ حتى الاخبار من بلادهم ، الى أن نفذ ماعندهم من القوت فطلبوا الامان من عماد الدين زنكى ولكنه رفض فى بادئ الأمر . غير أن أنباء حشود الصليبيين والبيزنطيين قد بلغته فاضطر الى اجابتهم الى عقد الصلح وشرط عليهم تسليم حصن بعرين وتقديم مبلغ خمسين ألف دينار فأجابوه الى ذلك لعلمهم بعدم قدرتهم على صده ، ويأسهم من نجدة تصلهم . وطلبوا من عماد الدين اطلاق سراحهم « فأطلقهم وتسلم الحصن منهم وخلع على الملك فولك وأكرمه » وعادت جموع الصليبيين التى خرجت لنجدة ملك بيت المقدس الذى كان محصورا فى بعرين بقيادة ريموند دى بواتييه صاحب أنطاكية عند سماعهم بسقوط

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٦٠ ــ ٢٦١ ، انظر ابن القلانسى ، ص ٢٥٥ .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٧١ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٥١ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٦٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٧٣ .

بعرين فى يد عماد الدين زنكى[1] .

وهكذا استولى عماد الدين زنكى على حصن بعرين الذى كان من أضر البلاد على المسلمين اذ خرب أهله من الصليبيين البلاد الواقعة بين حماة وحلب . ولم تقتصر اهمية سقوط بعرين فى يد عماد الدين زنكى عند حد أسر زعماء الصليبيين بل أدى ذلك الى أن البلاد الواقعة بين حماة وحلب قد عمرت وعظم دخلها وأمن المسلمون على أنفسهم واموالهم على حد قول ابن الاثير[2]

أما عن الصليبيين فى انطاكية فانه بعد عودة ريموند عقب فشله فى انقاذ الملك فولك ملك بيت المقدس ، واستعادة حصن بعرين من عماد الدين زنكى سنة٥٣١هـ / ١١٣٧م ، فقد وجدوا الامبراطور البيزنطى حناكومنين قد نزل عليها وضايقها فى آخر تلك السنة . ولكن ريموند لم يشأ أن يدخل فى حرب مع الامبراطور البيزنطى اذ لايوجد بينهما تكافؤ فى القوات والعتاد . وأرسل ريموند الى الملك فولك ملك بيت المقدس يستشيره فى الأمر ، فأشار على ريموند بمصالحة الامبراطور البيزنطى حنا كومنين وعدم مجابهته وذلك من أجل الاستعانة به ضد عماد الدين زنكى فما كان من ريموند الا ان عقد صلحا مع الامبراطور البيزنطى[3] . ولم تشر المصادر التاريخية الاسلامية كابن القلانسي وابن الاثير وابن العديم الى بنود الصلح الذى تم بين ريموند صاحب أنطاكية والامبراطور حنا كومنين الا أن بعض المراجع الاجنبية والعربية قد أشارت إلى بعض بنود هذا الصلح كالاعتراف بسيادة الامبراطور على أنطاكية والاتفاق على احتلال مدن شمال الشام كحلب وشيزر وحمص وحماه ومنحها اقطاعا لريموند دى بواتييه ، واعادة النظام الكنسى البيزنطى الى ماكان عليه بأنطاكية قبيل مجئ الصليبيين الى بلاد الشام[4] .

---

(١) ابن القلانسى ص ٢٥٩ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٦١ — ٢٦٢ ، والحاشية رقم (١) بنفس الصفحة ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٣ ، ٥١ — ٥٢ ، ابن الأثير ، الباهر ص ٥٩ ، أبوالفدا ، المختصر جـ ٣ ، ص ١٢ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣١هـ ، الغزى ، نهر الذهب جـ ٣ ، ص ٨٩ — ٩٠ ، العينى ، الشرق الأوسط ، جـ ١ ، ص ٥١٢ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٥٢ .

(٣) ابن القلانسى ، ص ٢٥٨ ، ٢٦٣ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٣٤٠ — ٣٤١ ،

(٤) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٦٧ .
رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٣٤١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٦٨ ، عليه الجنزورى ، امارة الرها ، ص ٢٧٦ — ٢٧٧ ، Vasiliev, History of the Byzantine Empire, V.2,p.646.

وأصبح لزاما على الطرفين البيزنطى والصليبى بمقتضى هذا الصلح السير قدما لتنفيذ ماتم الاتفاق عليه من احتلال مدن شمال الشام على الرغم من أنهما قد عرفا مسبقا عجزهما عن استعادة بعرين من عماد الدين زنكى . حتى ان الامبراطور البيزنطى قبل أن يقوم بهجوم على املاك عماد الدين زنكى فى حلب أرسل فى آخر سنة ٥٣١هـ / ١١٣٧م رسلا اليه وهو مخيم بالقرب من حمص[١] . ويقول رنسيمان عن هذه السفارة انها توجهت الى عماد الدين زنكى لتوهمه أن البيزنطيين ليسوا راغبين فى أن يبادروا الى مهاجمته[٢] . غير أن عماد الدين زنكى أعاد رسول الامبراطور البيزنطى ومعه رسل يحملون الى الامبراطور هدية سنيه عبارة عن فهود وبزاة وصقور ، فعاد رسول عماد الدين اليه ومعه مندوب من قبل الامبراطور يحمل خبرا لعماد الدين مفاده أن الامبراطور مشغول بحرب الارمن[٣] . وعلى الرغم من تبادل المراسلات بين عماد الدين والامبراطور البيزنطى ، تلك المراسلات التى لم تنم عن حسن نية من قبل الامبراطور البيزنطى فان نائب عماد الدين بحلب (سوار بن ايتكين) قد استطاع أن يوقع بسرية بيزنطية كانت قد أغارت على أطراف حلب فى أواخر سنة ٥٣١هـ / ١١٣٧م[٤] .

ومع أن المصادر التاريخية العربية كمؤلفات ابن العديم وابن القلانسي لم تذكر أن عماد الدين قد عقد هدنة مع الصليبيين ولا حتى مع البيزنطيين اثناء المراسلات التى تمت بينه وبين الامبراطور البيزنطى حناكومنين سنة ٥٣١هـ / ١١٣٧م ، فان المصادر المذكورة قد ذكرت أن الصليبيين قد نقضوا الهدنة المعقودة بينهم وبين عماد الدين فى سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٨م ، وقبضوا على التجار والمسافرين من أهل حلب الموجودين بأنطاكية وبلاد الساحل وقد قدر عددهم ابن القلانسي بنحو خمسمائة رجل ، حتى لاتتسرب أخبار الحشود والاستعدادات التى حشدها الامبراطور والصليبيون بأنطاكية ضد عماد الدين زنكى[٥] . وما ان بلغت المسلمين أخبار القوات البيزنطية والصليبية وما أقدم

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٢٦٢ .

(٢) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ص ٣٤٣ .

(٣) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣١هـ . ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٦٣ .

(٤) ابن القلانسى ، ص ٢٦٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٢٦٣ ، تاريخ العظيمى حوادث سنة ٥٣١هـ .

(٥) ابن القلانسى ، ص ٢٦٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٦٤ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ ١ ، ص ٥٦٩ ، رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٣٤٤ .

عليه الامبراطور البيزنطى من الفتك برعايا المسلمين الموجودين فى أنطاكية وبلاد الساحل حتى تخوف أهل حلب من مباغتة الصليبيين والبيزنطيين لهم ، فشرعوا فى تحصين البلد بحفر الخنادق وتخزين المؤن استعدادا لما سيحل بهم من هجوم صليبى بيزنطى خصوصا وان عماد الدين زنكى بعيداً عنهم[١] .

وبعد أن استكمل الامبراطور البيزنطى كامل استعدادته وحشوده من البيزنطيين والصليبيين سار حتى بلغ قريبا من حلب فى شهر رجب سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٨م ونزل بمن معه على حصن بزاغة وضرب عليها حصارا شديدا . ولاستبسال اهلها فى الدفاع عنها ظل الامبراطور محاصرا لها مدة اسبوعين حتى اضطر من بها من المسلمين الى الاستسلام ، فغدر الامبراطور بأهلها واجبر بعضهم على اعتناق النصرانية . ولم يكتف بهذا بل ظل عشرة أيام أخرى يدخن على من بقى من سكانها فى المغارات حتى أهلكهم بالدخان[٢] . ويسرت المدة التى قضاها الامبراطور البيزنطى فى حصاره لحصن بزاغة لسكان حلب الاستعداد والتأهب للبيزنطيين والصليبيين خاصة وانه قد وصلهم بعض البيزنطيين الذين ضلوا طريقهم فأخبروا اهالى حلب بقدوم الامبراطور اليهم ، فتحرز الناس وتحفظوا وكاتبوا عماد الدين زنكى حينما كان بحمص ، فسير اليهم نائبه بحلب سيف الدين سوار ومعه خمسمائة فارس فى اربعة من الامراء فقويت بذلك نفوس أهل حلب[٣] .

ظن الامبراطور البيزنطى انه سيباغت حلب على غرة من أهلها ، فسار من بزاغة ومعه صاحب انطاكية والرها حتى وصل ارض الناعورة فى شهر شعبان من سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٨م ونزل على نهر قويق وبدأوا بشن هجوم واسع النطاق على حلب فتصدى لهم سوار بن ايتكين واهالى حلب فصدوهم ومنعوهم عن تحقيق مقصدهم وهو الاستيلاء على حلب . وأصيب من البيزنطيين فى هذا الحصار أحد قادتهم فانكفأوا الى مخيمهم وظلوا به أياما قليلة رحلوا بعدها الى الاثارب فخاف من بها من المسلمين وغادروها فسقطت بيد الصليبيين والبيزنطيين ووضعوا بها الاسرى الذين حصلوا عليهم من

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٦٣ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٢ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ٢٦٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٥٦ ، ابن الاثير ، الباهر ، ص ٥٥ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٢هـ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٦٥ .

بزاغة[1] . فنهض اليهم سوار بن ايتكين واستطاع اللحاق بهم واستخلص الاسرى الذين كانوا فى الاثارب « فسر اهل حلب بهذه النوبة سرورا عظيما » على حد قول ابن القلانس[2] . ولما علم الامبراطور البيزنطى حناكومنين بهذه الخطوة الجريئة من سوار بن ايتكين توجه الى معرة النعمان ، فاستولى عليها فى الوقت الذى سار فيه عماد الدين زنكى من حمص الى حماة ومنها الى سلميه ليكون قريبا من حلب[3] .

وعلى مايبدو فان الامبراطور البيزنطى قد تشكك فى قواته بعد أن فشل فى الاستيلاء على حلب ، وبعد أن وصلته أخبار استخلاص الاسرى المسلمين الذين كانوا فى الاثارب ، ولذلك رحل الامبراطور الى شيزر فى شهر شعبان من السنة نفسها ٥٣٢هـ / ١١٣٨م والتى كانت تحت حكم ابى العساكر سلطان بن على بن منقذ الكنانى[4] . ونازل الصليبيون والبيزنطيون شيزر وهم فى قوات كبيرة من الفرسان والرجالة ، ومعهم من السلاح والكراع مالا يحصيه الا الله ، ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقا . وكان سبب مسير الصليبيين والبيزنطيين الى شيزر ماذكره ابن الاثير « لانها لم تكن لزنكى فلا يكون له فى حفظها الاهتمام العظيم » غير ان امل هؤلاء الصليبيين والبيزنطيين قد خاب حين ارسل صاحبها الى عماد الدين زنكى يطلب النجدة والامداد ولكن عماد الدين زنكى لم يشأ ان يغامر بشن هجوم عام على البيزنطيين والصليبيين بسبب تفوقهم فى العدد والعدة ، ولذلك اكتفى بشن الغارات المباغته على الصليبيين والبيزنطيين للنيل منهم وانهاك قواهم « وكان كل يوم يسير الى شيزر هو وعساكره ويرسل سراياه فتأخذ من ظفرت به منهم »[5] .

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٢هـ .
والناعورة : بلدة صغيرة بين حلب وبالس .
ونهر قويق : نهر كان يخترق مدينة حلب ويخرج من قرية سبتات يمتد من حلب الى قنسرين . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن القلانسى ص ٢٦٥ — ٢٦٦ ، انظر ايضا ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٥٦ — ٥٧ ، الاصفهانى ، البستان الجامع ، حوادث سنة ٥٣٢هـ ، ابن ابيك ، كنز الدرر ، جـ ٦ ، ص ٥٢٨ — ٥٢٩ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٦٦ .
وسلميه : بليدة صغيرة من اعمال حماه . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٤) ابن القلانسى ، ص ٢٦٤ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٥٧ ، انظر ابن القلانسى ، ص ٢٦٤ ، اسامة ابن منقذ ، الاعتبار ، ص ١١٣ — ١١٤ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٢هـ . ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٧٩ .

ولم يكتف عماد الدين زنكى بشن الغارات على البيزنطيين والصليبيين بل سعى الى امداد شيزر بالرجال والسلاح وآلات الحرب لتقوية من بداخلها من المسلمين ، وسعى عماد الدين زنكى أيضا إلى تحطيم الروح المعنوية عند البيزنطيين والصليبيين ، فأرسل الى الامبراطور البيزنطى يقول له : « انكم قد تحصنتم منى بهذه الجبال فانزلوا منها الى الصحراء حتى نلتقى فان ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم وان ظفرتم بى استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها » . ولم يكن فى استطاعة عماد الدين مواجهة الصليبيين والبيزنطيين معا وانما كان يوهمهم بهذا القول وأشباهه ، فكان لهذه الخطة أثرها فى نفس الامبراطور البيزنطى الذى لم يصغ الى مشورة الصليبيين بلقاء عماد الدين زنكى خوفا من وصول نجدات له من الشرق الاسلامى[1] . وفى سبيل تفكيك وحدة الصليبيين والبيزنطيين لجأ عماد الدين زنكى الى حيلة أخرى سعى فيها الى اثارة الفرقة والتناحر بين صفوفهم حيث أخذ فى مراسلة الامبراطور البيزنطى حناكومنين وخوفه من انه لو فارق مكانه فى شيزر لتخلى عنه الصليبيون فى الوقت الذى أخذ فيه عماد الدين زنكى يرسل الرسل الى الصليبيين بالشام يخوفهم من الامبراطور وقال لهم : « ان ملك (اى الامبراطور) بالشام حصنا واحدا ملك بلادكم جميعا ، فاستشعر كل من صاحبه »[2] . ومن جهة أخرى فان عماد الدين زنكى لم يألُ جهدا فى طلب النجدة العسكرية من شتى أنحاء العالم الاسلامى فأرسل الى السلطان مسعود بن محمد ، كمال الدين الشهرزورى يطلب منه نجدة ضد الصليبيين والبيزنطيين ، ولكن السلطان مسعود لم يستجب لهذا الطلب فى بادئ الامر ، حتى لجأ مندوب عماد الدين زنكى الى السلطان ، باثارة حماس الناس فى بغداد وبما بذله من أموال كثيرة حتى اضطر السلطان الى تلبية رغبة رعاياه باعداد حملة عسكرية سيرها الى بلاد الشام بقصد تقديم المعونة لعماد الدين زنكى[3] .

ولعل أنباء مسير هذه الحملة التى أعدها السلطان مسعود قد بلغت الامبراطور البيزنطى حناكومنين مع مابلغه من أنباء تشير الى عبور قرة أرسلان ابن داود بن أرتق صاحب حصن كيفا فى جيش كبير من التركمان بلغ عدده على حد تعبير العظيمى نحو

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٥٧ ، انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٥٥ ــ ٥٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٧٩ ، ابن قاضى ، شهبه ، الكواكب الدرية ، ص ١٠٩ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٥٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٨٢ .

(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٦٢ ، عمادالدين خليل ، عمادالدين زنكى ، ص ١٤٦ .

عشرين ألف فارس نجدة للمسلمين بشيزر[1] وكذلك أنباء نهوض عساكر دمشق ، ثم مابلغه من أنباء غارات سلاجقة الروم بآسيا الصغرى على قونيه واستيلائهم على أذنه بايحاء من عماد الدين زنكى حتى يتحول اهتمام الامبراطور الى تلك الجهات ففت ذلك فى عضده[2] .

وهكذا فشل الامبراطور البيزنطى والصليبيين فى الاستيلاء على شيزر بعد حصار استمر أكثر من أربعة وعشرين يوما متواصلة بفضل الجهود الجبارة التى بذلها عماد الدين زنكى وبما امتازت به شيزر من المناعة الطبيعية وبسالة المدافعين عنها وتخاذل المقاتلين الصليبيين الذين كانوا مع الامبراطور البيزنطى ، على الرغم من الجهود الجبارة التى بذلها الامبراطور حناكومنين فى الاستيلاء على شيزر . واخيرا فى رمضان سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٨م أمر الامبراطور البيزنطى برفع الحصار عن شيزر وتوجه عائدا الى أنطاكية غاضباً دون تحقيق غرضه تاركا كثيرا من آلات الحصار والحرب التى استولى عليها عماد الدين زنكى وأرسلها الى حلب[3] . ومع أن المصادر التاريخية العربية قد ذكرت انسحاب الامبراطور البيزنطى الى أنطاكية سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٨م دون الوصول الى أى اتفاق بينه وبين أبى العساكر سلطان بن منقذ الكنانى الا أن وليم الصورى قد ذكر انه حدث فى ٢٠ مايو من السنة ١١٣٨م أن أمير شيزر كان قد أرسل يعرض على الامبراطور مقابل الانسحاب عن شيزر ان يهديه أجود أفراسه واثوابا من الحرير واثمن تحفتين بحوزته وهما مائدة مرصعة بالذهب والجواهر وصليب مطعم بالياقوت ، والاعتراف بالامبراطور سيدا أعلى ، وان يؤدى له الجزية كل سنة . فما كان من الامبراطور الذى وصل حدا من الكراهية للصليبيين الا قبول هذه العروض مع المحافظة على كرامته وكرامة جيشه ، وقرر الانسحاب الى أنطاكية[4] . وعلى أية حال فقد عاد الامبراطور الى أنطاكية يجر أذيال

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٢هـ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٢٦٦ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٦٧ ، العرينى ، الشرق الاوسط ، جـ ١ ، ص ٥١٦ .

وقونية : مدينة كانت من اعظم مدن الاسلام ببلاد الروم . واذنه : بلد من الثغور الاسلامية قرب المصيصه . انظر ياقوت . معجم البلدان .

(٣) ابن القلانسي ، ص ٢٦٦ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٥٨ ، رنيسمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٣٤٧ ، العرينى ، الشرق الاوسط ، جـ ١ ، ص ٥١٦ .

(٤) William of Tyre, History of deeds, Vol.2, pp.94-96, انظر رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ص ٢٤٧ ، العرينى ، الشرق الاوسط ، جـ ١ ، ص ٥١٦ .

الخيبة لأنه لم يحقق فى حملته هذه على بلاد الشام سوى ماحصل عليه من أموال ، وهدايا من امير شيزر ابو العساكر بن منقذ[1] .

ويمكن القول بأن فشل الامبراطور البيزنطي والصليبيين في الاستيلاء على شيزر كانت بداية النهاية للحملة العسكرية التي قام بها الامبراطور حناكومنين على بلاد الشام ، كما أدى هذا الفشل الى ان ذاع صيت عماد الدين زنكي وشهرته ، حتى أنه اعلن بعد رحيل الامبراطور الى أنطاكيه أنه في غير حاجة الى المساعدات العسكرية التي كان قد طلبها من السلطان مسعود بن محمد السلجوقي[2] . وكذلك بعث الى قرة ارسلان بن داود بن أرتق « يأمره بالعودة الى أبيه وأنه مستغن ولن يلتفت اليه » [3] .

وبعد انسحاب الامبراطور البيزنطي حناكومنين والصليبيين الى أنطاكية لم يقف عماد الدين زنكى مكتوف الايدى ، بل أرسل حاجبه صلاح الدين الياغيسياني الى كفر طاب واستطاع الاستيلاء عليها كما سار هو الى حصن عرقه التابع للصليبيين واستولى عليه عنوة وقهرا . ومع بداية سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٩م سار عماد الدين زنكى الى حصن بزاغة فاستولى عليه وقتل بعض من به من الصليبيين والبيزنطيين واستطاع ان يستولى على الاثارب فى شهر صفر من السنة نفسها ومنها سار الى الموصل[4] .

وخلال الفترة من ٥٣٤هـ / ١١٣٩م الى ٥٣٨هـ / ١١٤٣م انشغل عماد الدين زنكى باستكمال توحيد الجبهة الاسلامية وخصوصا الاستيلاء على دمشق ولكن نائبه فى حلب سوار من ايتكين وابنه علم الدين بن سوار قد استطاعا مقارعة الصليبيين فى بلاد الشام ، ففى سنة ٥٣٦هـ / ١١٤٢م قام الصليبيون بغارات على بلد سرمين وجبل السماق وكفر طاب ، ولكن علم الدين بن سوار استطاع ان يتصدى لهم وأغار على بلادهم حتى وصلت غاراته الى أنطاكية . كما استطاع لجه التركى — وهو أحد القادة الأتراك الذين نزحوا عن دمشق وانضموا الى خدمة عماد الدين زنكى — فى جماد الآخر سنة ٥٣٦هـ / ١١٤٢م ، ان يلحق بالصليبيين هزيمة ساحقة أسفرت عن قتل مالايقل

---

(١) عليه الجنزورى ، أمارة الرها ، ص ٢٨٥ .

(٢) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٦٣ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٧٣ ، العرينى ، الشرق الاوسط ، جـ ١ ، ص ٥١٧ .

(٣) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٢هـ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٦٩ — ٢٧٠ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٥٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٨٣ .

عن سبعمائة منهم[1] .

وفى سنة ٥٣٧هـ / ١١٤٣م حاول ريموند دى بواتييه صاحب أنطاكية وجوسلين صاحب الرها استغلال انشغال عماد الدين زنكى بأمر استكمال توحيد الجبهة الاسلامية فقاما بهجوم على حلب وبزاغة غير ان سوار بن ايتكين استطاع ان يتصدى لهما ، فصد ريموند عن حلب وحال بينه وبينها فى الوقت الذى عقد فيه من جوسلين صاحب الرها صلحا غير الصلح الذى كان عماد الدين زنكى قد عقده معه سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م أتاح لعماد الدين زنكى الاستمرار فى استكمال توحيد الجبهة الاسلامية[2] .

ولما كانت سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م استطاع عماد الدين زنكى المسير إلى اقليم شبختان بالجزيرة وفتح به كثيرا من القلاع التى كانت بيد الصليبيين والاراتقة[3] . وكان هدف عماد الدين زنكى من هذا العمل قطع الاتصال بين جوسلين صاحب الرها وبين الاراتقة فى ماردين وتكوين جبهة اسلامية على أنقاض الامارات والبلدان التى كانت بأيدى الصليبيين والامراء المسلمين الضعاف[4] .

كما استطاع النائب فى حلب سوار بن ايتكين مهاجمة معسكر للصليبيين عند جسر الحديد الى الشمال من أنطاكية . وفى السنة نفسها قام سوار بن ايتكين بمباغتة احدى القوافل التجارية الصليبية التى كانت تحمل كثيرا من الامتعة والاموال ، وتمكن من ابادة كافة أفراد الحامية التى خرجت لحمايتها[5] .

ويمكن القول أن ماقام به عماد الدين زنكى ونائبه فى حلب سوار بن ايتكين سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٤م قد مهد الطريق أمام عماد الدين زنكى للوصول الى الرها والاستيلاء عليها .

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٦هـ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٧٥ .
وجبل السماق : جبل عظيم من أعمال حلب الغربية . انظر ياقوت معجم البلدان .

(٢) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٧هـ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٧٧ ، ابن القلانسي ، ص ٢٧٦ .

(٣) انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٧٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ص ٩٤ ، العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٨هـ .

(٤) عمادالدين خليل ، عمادالدين زنكى ، ص ١٤٩ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٣٥

(٥) ابن القلانسي ، ص ٢٧٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٧٨ .

استيلاء عماد الدين زنكى على امارة الرها الصليبية ٥٣٩هـ / ١١٤٤م :

كانت امارة الرها الصليبية أولى الامارات التى تأسست فى الشرق الاسلامى سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م بزعامة بلدوين الاول الذى استمر فى حكم هذه الامارة حتى سنة ٤٩٤هـ / ١١٠٠م حين انتقل الى حكم بيت المقدس عقب وفاة جودفرى ملك بيت المقدس[١] . وقد تميزت الرها عن بقية الامارات الصليبية بموقعها فى الحوض الأوسط لنهر الفرات حيث تحملت عبء الدفاع عن بقية الامارات الصليبية فى بلاد الشام ، وذلك لقربها من الخلافة العباسية ثم لوقوفها فى وجه التركمان الذين كانت تعج بهم منطقة الجزيرة عقب التفكك الذى اصاب السلاجقة فى بلاد الشام والعراق عقب وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م[٢] .

ولم تقتصر أهمية الرها على موقعها الاستراتيجى وكونها خط الدفاع الأول عن بقية الامارات الصليبية فى بلاد الشام بل انها شكلت خطرا اساسيا على خطوط المواصلات الاسلامية بين بلاد الشام وآسيا الصغرى والعراق ومنطقة الجزيرة[٣] . ومما يوضح ذلك أن الحملة التى قام بها كربوقا صاحب الموصل سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٨م نجدة للمسلمين بأنطاكية قد تعطلت بعض الوقت حول الرها فى محاولة لانتزاعها من بلدوين الأول[٤] . وعلى الرغم من أن الرها لم تقع فى نطاق الاراضى المقدسة فى فلسطين فقد عدها الصليبيون من أشرف المدن عندهم بعد بيت المقدس وأنطاكية والقسطنطينية[٥] ، ومما زاد الرها أهمية موقعها فى اراضى خصبة كثيرة الخيرات وفيرة الثروات ساعدت امراء الرها على توسيع رقعتهم فامتدت امارة الرها الواقعة على ضفتى نهر الفرات من راوندان وعين ثاب غربا الى مشارق حران شرقا ومن بهنسى وكيسوم شمالا الى منبج جنوبا[٦] . واكتسبت

---

(١) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٤ ، ابن ابى الدم الحموى ، التاريخ المظفرى ، حوادث سنة ٤٩١هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٧٦ — ٢٧٧ ، ابن ابيك ، كنز الدرر ، جـ ٦ ، ص ٤٥٠ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٤١١ .

(٢) عبدالنعيم حسنين ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ٨٤ .

(٣) عليه الجنزورى ، امارة الرها ، ص ٣٤ .

(٤) انظر ماسبق الفصل الثانى ، ص ١٦٨ — ١٧٠ .

(٥) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٦٦ ، ابوالهيجاء ، تاريخ ابوالهيجاء ، حوادث سنة ٥٣٩هـ .

(٦) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٤٢٤ ، العرينى ، الشرق الاوسط ، جـ ١ ، ص ٤١٤ . وراوندان : قلعة حصينة وكورة قريبا من حلب . وعين ثاب : قلعة حصينة بين حلب وانطاكية وكانت تعرف باسم دلوك . وبهنس قلعة حصينة قرب مرعش وسميساط . وكيسوم : قرية من اعمال سميساط ، انظر ياقوت . معجم البلدان .

الرها اهمية بما تهيأ لها من حكام اتصفوا بالقوة والشجاعة استطاعت بهم الصمود فى وجه المقاومة الاسلامية ، على الرغم من أن الرها كانت تعانى من نقطتى ضعف واضحتين أحدهما الحدود الطبيعية اذ لاتوجد لها موانع طبيعية تحميها وتكسبها وقاية ومناعة ، وثانيها عدم وجود تجانس بين سكانها اذ كانوا خليطا من المسيحيين الشرقيين (السريان والارمن واليعاقبة) ومن الصليبيين الغربيين ، فضلا عن المسلمين الذين تركزوا فى مدن بكاملها كسروج والبيرة التى خضعت للصليبيين[1] .

ولم تقتصر أهمية الرها على الجانب الصليبى ، بل كانت فى نظر المسلمين من أهم المواقع التى يجب السيطرة عليها فقد ذكر ابن الاثير مكانتها فى بلاد الجزيرة بسبب موقعها بين الموصل وحلب ، أى بينها قاعدة عما فى شمال العراق وقاعدتها فى شمال الشام ، ولهذا .

ووصفها بانها من الديار الجزرية عينها ومن البلاد الاسلامية حصنها مما جعل القوى الاسلامية سواء فى العراق او الشام أو الجزيرة ترغب فى السيطرة عليها[2] .

أدرك عماد الدين زنكى — كغيره من حكام الموصل والجزيرة — أهمية الرها وماتشكله من اخطار جسيمة على المسلمين فى الجزيرة وشمال العراق لذلك نجد عماد الدين زنكى على الرغم من انشغاله بتوحيد الجبهة الاسلامية فى الشام والجزيرة ، وماتعرض له من صعوبات من الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية تقوى رغبته فى الاستيلاء على الرها ، تلك غاية لم تغب عن باله . يقول ابن القلانس « ولم يزل لها طالبا وفى تملكها راغبا ولانتهاز الفرصة فيها مترقبا لايبرح ذكرها وجائلا فى خلده وسره وامرها ماثلا فى خاطره وقلبه »[3] . ولذلك استغل عماد الدين زنكى الطروف التى مر بها الصليبيون فى بلاد الشام وسخرها لصالحه فى الهجوم على الرها . وقد رأينا فى الصفحات السابقة أن الحلف الذى تم بين الامبراطور البيزنطى حنا كومنين وصاحب أنطاكية سنة ٥٣١هـ / ١١٣٨م للاستيلاء على مدن الشام بمساعدة الصليبيين فى

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٤٢٤ ، العرينى ، الشرق الاوسط ، جـ ١ ص ٤١٤ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢٤ — ٢٦ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ٢٧٩ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٢٧٧ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ص ، ١٦ .

الرها وبيت المقدس قد باء بالفشل نتيجة للوقوف الشجاع الذى وقفه عماد الدين زنكى ونائبه فى حلب سوار ابن أيتكين لصد الصليبيين عن حلب وشيزر ، ونتيجة للخلافات التى وقعت بين البيزنطيين والصليبيين[١] . وبالاضافة الى ذلك فان خروج الامبراطور البيزنطى حناكومنين سنة ٥٣٧هـ / ١١٤٢م بقصد الاستيلاء على انطاكية وتحالفه مع جوسلين الثانى صاحب الرها ضد ريموند دى بواتيه صاحب أنطاكية قد زاد من النفور بين الصليبيين فى انطاكية والرها حتى ان كلا من صاحب انطاكية والرها رغب فى القضاء على الآخر[٢] . ولم تقف اوضاع الصليبيين عند هذا الحد من التدهور والإنحطاط ، فعلى الرغم من أن عماد الدين زنكى قد جرد امارة الرها من البلاد التابعة لها سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م ، فان أميرها جوسلين الثانى لم يتخذ من الاحتياطات مايكفل له صد عماد الدين زنكى عن الامارة بل ركن إلى الكسل والجبن والخداع والتآمر مع ميله الى الانغماس فى الفجور والاستهتار ورغبته فى الدعة والراحة ، حتى أنه اتخذ من تل باشر مقرا له ــ بخلاف من سبقه كجوسلين الاول وبلدوين دى بور ــ ليكون بعيدا عن الاضطرابات التى يثيرها أعداؤه بالرها[٣] . ومما زاد الصليبيين فى شمال الشام والرها ضعفا ونفورا فيما بينهم خلو بيت المقدس من ملك قوى الشخصية يستطيع ان يفرض سيطرته على صاحبى الرها وانطاكية ويصلح مابينهما لان وفاة فولك الانجوى ملك بيت المقدس سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م وتولى مقاليد السلطة فى بيت المقدس زوجته مليزاندا كوصية على ابنها القاصر بلدوين الثالث يعد نقطة تحول فى تاريخ التكتل الصليبى لانصراف تلك الزوجة الى عمل كل مامن شأنه ابقاء السلطة فى يديها والاستئثار بها دون ولدها وتغلب مطامعها الشخصية على المصالح الصليبى العام[٤] . يضاف الى ذلك عدم قدرتها على حسم النزاع القائم بين الامراء الصليبيين سواء فى أنطاكية والرها أو فى غيرهما[٥] . ومن الحوادث التى طرأت على الصليبيين فى بلاد الشام وكان لها أثر

---

(١) انظر ماسبق ص ٢٧٨ ــ ٢٨٠ .

(٢) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٣٥٥ ، ٣٧٨ ، العرينى الشرق الأوسط ، جـ ١ ، ص

(٣) انظر رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ص ، ٣٧٩ ، العرينى ، الشرق الاوسط ، جـ ١ ، ص ٤٣٠ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ .

(٤) العظيمى ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٥٣٨ هـ ، ابن القلانسي ، ص ٢٧٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٩٢ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ص ٣٧٥ ، حسن حبشي ، نور الدين محمود والصليبيون ، ص ٣٢ .

(٥) العرينى ، الشرق الاوسط جـ ، ١ ، ص ٤٢٩ ــ ٤٣٠ .

كبير عليهم وفاة الامبراطور البيزنطى حناكومنين ٥٣٨هـ / ١١٤٣م . وشعر الصليبيون بموجة من الفرع لهذا النبأ ، ولكن عماد الدين كان اشد فرحاً وسروراً اذ انه اطمأن الى عدم وصول نجدات للصليبيين من قبل الدولة البيزنطية[١] . يضاف الى ذلك ان الإنقسام كان قد نشب بين صفوف الفرسان الصليبيين بالرها خصوصا وانهم كانوا يشعرون بعدم الاستقرار لميل جوسلين الثانى الى الارمن وغيرهم من طوائف المسيحيين الشرقيين لان أمه كانت أرمينية[٢] . كل هذه الظروف ساعدت عماد الدين زنكى على اقتحام الرها فيما بعد .

ومن الطبيعى أن يستغل عماد الدين زنكى انصراف السلطان مسعود عن التفكير فى المسير الى الموصل سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م بعد ان بذل له عماد الدين زنكى كثيرا من الاموال بلغت على حد قول ابن الاثير مائة ألف دينار ، واشترط السلطان السلجوق على عماد الدين فتح الرها[٣] ويمكن القول بأن هذا الشرط الذى اشترطه السلطان مسعود على عماد الدين زنكى شجع عماد الدين على المسير الى الرها ليدرأ بذلك وصول السلطان مسعود بن محمد الى بلاده كما استغل عماد الدين زنكى الحلف الذى قام بين جوسلين الثانى أمير الرها وقرة ارسلان بن داود امير حصن كيفا سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م ذلك الحلف الذى قام أساسا فى وجه عماد الدين زنكى بعد ان جرد عماد الدين تلك الامارتين من بعض ممتلكاتهما[٤] .

أراد عماد الدين زنكى أن ينزل ضربته بالرها ، ولكنه أدرك أنه لن يستطيع اقتحام الرها اذا كان جوسلين وقواته بها ، خشية ان يجتمع بها من يناصره ، ولذلك لجأ عماد الدين الى خدعة حربية خدع بها أمير الرها جوسلين الثانى « فعدل الى اعمال الحيل والخداع » وأظهر أنه يريد الاستيلاء على ديار بكر وآمد فى الوقت الذى بث جواسيسه فى الرها لاستطلاع اخبارها اولا بأول . فلما رأى جوسلين انشغال عماد الدين بحرب اهل ديار بكر « ظن انه لافراغ له اليه وانه لايمكنه الاقدام عليه ففارق الرها الى بلاده الشامية » الواقعة غرب الفرات للراحة والاستجمام وتفقد احوالها ، بعد أن اطمأن

---

(١) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٣٥٩ .

(٢) عمادالدين خليل ، عمادالدين زنكى ، ص ١٥١ .

(٣) انظر ماسبق ، ص ٢٥٣ ــ ٢٥٤ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٧٦ ــ ٢٧٩ ، عمادالدين خليل ، الامارات الارتقية ، ص ٢٨٩ .

الى أن عماد الدين زنكى اصبح مشغولا عن امارته . وكان هدف عماد الدين زنكى أن يوهم جوسلين والصليبيين بالرها انه مشغول عن التفكير فى محاربتهم فى الوقت الذى لايزال فكره مشغولا بفتح الرها « فهو يخطبها وعلى غيرها يحوم ، ويطلبها وسواها يروم »[1] .

ووافى الجواسيس الذين أوكل اليهم عماد الدين زنكى مهمة مراقبة تحركات جوسلين الثانى بأخبار رحيل صاحب الرها الى تل باشر غربى الفرات سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م مع معظم قواته « فى جل رجاله واعيان حماته وابطاله » تاركا الرها دون مدافعين بل اوكل مهمة الدفاع عنها الى أهلها والى بعض الجنود المرتزقة[2] . حينئذ أمر عماد الدين زنكى بمكاتبة طوائف التركمان المتطوعة وامر عساكره بالتجهز والسير صوب الرها ، وهدد كل من يتخلف عنه فى السير إلى الرها ، وأعلن انه لايقبل عذر من اعتذر[3] ، فانهالت عليه جموع المسلمين من كل حدب وصوب وبادر بارسال كتيبة من جيشه بقيادة صلاح الدين الياغيسيانى . ومع ان المصادر العربية لم تذكر شيئا عن هذه الكتيبة فان رنسيمان يذكر ان صلاح الياغيسيانى قد ضل الطريق فى ليلة غزيرة المطر فلم يبلغ الرها الا بعد أن وصل اليها عماد الدين زنكى بجيشه الكثيف فى جمادى الآخرة ٥٣٩هـ / نوفمبر سنة ١١٤٤م[4] .

ولما تكاملت قوات عماد الدين زنكى سار بها الى الرها واحاط بها من جميع الجهات وحال بين من فيها وبين مايصل اليها من المسير والاقوات من خارجها . وشدد عليها الحصار حتى صور لنا ابن القلانس ان الطير فى السماء كان لا يستطيع الطيران فوق الرها خوفا من السهام . ولما شعر الصليبيون بالرها بخطورة الموقف استماتوا فى الدفاع عن مدينتهم ، ولكن عماد الدين زنكى أدرك أن من بها لن يستطيعوا الوقوف امام جيوشه الجبارة فأخذ فى مراسلة من بها من الصليبيين باذلا لهم الامن على نفوسهم

---

(١) ابن الاثير التاريخ الباهر ، ص ٦٧ ، انظر ايضا ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٩٨ ، ٩٩ ، ابن واصل مفرج الكروب ، جـ ١ ص ٩٣ ، النويرى ، نهاية الارب جـ ٢٥ ، حوادث ٥٣٩هـ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٧٨ ، عليه الجنزورى ، امارة الرها ، ص ٢٩٩ .

(٢) ابن القلانسي ص ٢٧٩ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ، ص ٣٧٩

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٧٨ ، ابن واصل مفرج الكروب جـ ١ ص ٩٣ .

(٤) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٣٧٩ ، عليه الجنزورى ، امارة الرها ، ص ٣٠١ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٣٥ .

وأموالهم مقابل تسليم الرها ، ورغبة منه فى عدم اراقة دماء المسلمين ولتسليم البلد دون خراب ودمار ، ولكن من بها من الصليبيين رفضوا التسليم « وامتنعوا عن الاذعان » لانهم كانوا يأملون فى وصول نجدات اليهم من اخوانهم الصليبيين فى أنطاكية وبيت المقدس او تل باشر[1] .

أمر عماد الدين زنكى رجاله بتشديد الحصار على الرها وطلب من رجاله الحلبيين العارفين بأسوار الرها البدء فى نقب الاسوار وهدمها فنقبوا عدة مواضع عرفوا أمرها الى أن وصلوا تحت الاسوار التى عليها الابراج وطلبوا من عماد الدين مشاهدة ماعملوه فأذن لهم بحرقها فوقعت الابراج بمن فيها من المدافعين ، ودخلت جيوش عماد الدين البلد فملكه عنوة وقهرا ، وذلك يوم السبت ٢٦ جمادى الآخرة ٥٣٩هـ / ٢٣ ديسمبر ١١٤٤م بعد حصار عنيف استمر ثمانية وعشرين يوما[2] .

وهكذا سقطت الرها أولى الامارات الصليبية بالشرق الاسلامى فى يد عماد الدين زنكى . فلما ملكها شرع رجاله فى النهب والسلب والقتل حتى امتلأت أيدى المسلمين من الغنائم والاسرى . ولكن عماد الدين زنكى على حد قول ابن الأثير أمر رجاله باعادة ماأخذ من أهلها من اثاث ومال وسبى ورجال وأطفال « فردوا عن آخرهم لم يفقد منهم الا الشاذ النادر » ولما كان عماد الدين زنكى قد أسف على خراب الرها فقد أمر بعمارة ماانهدم منها ورممه »[3] .

أما جوسلين الثانى أمير الرها الذى كان موجودا بتل باشر غرب الفرات فلم يذكر المؤرخون المسلمون كابن القلانس وابن العديم الاجراءات التى اتخذها لانقاذ الرها ، الا ان ابن الاثير ومن نقل عنه قد ذكر ان جوسلين عاد عند سماعه الخبر إلى شرق الفرات لعله يجد فرصة للوصول الى الرها ، او يرسل نجدة يحافظ بها على الرها من السقوط

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٢٧٩ ، انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٦٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٧٩ ، عليه الجنزورى ، امارة الرها ، ص ٣٠٢ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٣٤ ــ ٣٥ .

(٢) النويرى ، نهاية الارب ، جـ ٢٥ بحوادث سنة ٥٣٩هـ ، ابن القلانسي ، ص ٢٧٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٩٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٧٩ ، ابو الفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ١٧ ، الاصفهانى ، دولة آل سلجوق ، ص ١٨٧ ، ابن العبرى ، مختصر الدول ، ص ٢٠٦ ، العرينى ، الشرق الاوسط ، جـ ١ ، ص ٤٣٢ .

(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٦٩ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٧٩ ، ابن واصل مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٩٤ .

بيد عماد الدين زنكى « فحيل بينه وبين ذلك »[1] .

حاول جوسلين فى يأس قطع الامدادات التى تصل الى عماد الدين زنكى فى حلب فلم يستطع ، فركن الى ماسيبذله جيرانه من الصليبيين من مساعدات ، حيث أرسل على الفور الى أنطاكية وبيت المقدس يطلب المساعدة غير أن هذه المساعدات التى طلبها لم تستطع الوصول الى الرها ، اذ أن النجدة التى أرسلتها مليزاندا الوصية على بلدوين الثالث صاحب بيت المقدس قد استطاع عماد الدين زنكى أن يرسل لها قوة من المسلمين هزمتها قبل وصولها الى الرها . اما ريموند دى بواتييه صاحب انطاكية فلم يقدم اية مساعدة لجوسلين صاحب الرها مما مكن عماد الدين زنكى ــ الذى كانت امداداته تصله من كل جهة ــ من استرداد الرها[2] .

واذا كان هذا موقف الصليبيين فى أنطاكية وبيت المقدس ، فان أهل حران من المسلمين ورئيسهم جمال الدين ابو المعالى فضل الدين ماهان ، قد قاموا بدور رئيسى فى مساعدة عماد الدين زنكى للاستيلاء على الرها ، لما كان يلقاه اهل حران من شدة عظيمة وحصار مستمر من أهل الرها الصليبيين[3] . ولما تم لعماد الدين زنكى تصفية العناصر التى لايرغب فى وجودها بالرها عين عليها قائده المشهور زين الدين على كوجك ، وسار هو لاستكمال مابقى من البلاد التابعة للرها كسروج وغيرها فاستولى عليها ، بعد ان هرب منها كل من كان بها من الصليبيين[4] . ولشدة ماأصاب الصليبيين فى الرها من الذعر والخوف من عماد الدين زنكى فقد ذكر ابن القلانس انه مامن بلد يمر به عماد الدين بعد سقوط الرها الا سلم اليه فى الحال[5] . ولاستكمال مابقى من البلاد التابعة للرها ، توجه عماد الدين زنكى فى السنة نفسها ٥٣٩هـ / ١١٤٤م الى البيرة ــ وهى من امنع الحصون شرق الفرات ــ وكانت تابعة لجوسلين الثانى ، وضيق عليها وقارب فتحها ولكن أنباء مقتل نائبه فى الموصل نصير الدين جقر قد حالت بينه وبين فتحها ، اذ عاد عماد الدين زنكى على وجه السرعة الى الموصل غير أن أهل البيرة

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٦٩ ، انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٩٤ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٢٨٠ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٣٨٠ ــ ٣٨١ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٢٧٩ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٦٧ .

(٤) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٦٩ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ص ٣٨٢ ، العرينى ، الشرق الاوسط ، جـ ١ ، ص ٥٢٧ .

(٥) ابن القلانسي ، ص ٢٨٠ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٨٠

قد استبد بهم الخوف من عماد الدين زنكى فراسلوا حسام الدين تمرتاس صاحب ماردين وسلموها اليه فى أواخر السنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م . ومهما يكن من أمر فانها خرجت من يد الصليبيين الى المسلمين « خوفا من الشهيد عماد الدين أن يعود اليهم » كما يقول ابن الاثير[١] . ويبدو ان هدف الصليبيين من الاقدام على هذه الخطوة ان يوقعوا بين عماد الدين زنكى وحسام الدين تمرتاش[٢] . ولم يبق بيدجوسلين صاحب الرها غير عدد من الحصون المتناثرة غرب الفرات ببلاد الشام[٣] .

وفى سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م عزم عماد الدين زنكى على المسير الى دمشق للاستيلاء عليها لاستكمال توحيد الجبهة الاسلامية وللوقوف فى وجه التحالف البيزنطى الصليبى الذى تم بين الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين وريموند دى بواتييه صاحب أنطاكية . غير ان أهالى الرها قد حاولوا القيام بفتنه للاطاحة بحكم عماد الدين زنكى والعودة مرة أخرى الى حظيرة الصليبيين ولكن عماد الدين زنكى سار الى الرها من الموصل وعاقب كل من كانت له يد فى هذه المؤامرة « بالقتل والصلب والتشريد فى البلاد »[٤] .

ان استيلاء عماد الدين زنكي على امارة الرها ــ اولى المعاقل الصليبية في الشرق الاسلامي ــ والحصون التابعة لها شرق الفرات يعد من اهم اعماله البطولية التى قام بها ضد الصليبيين لما لهذا النصر من اصداء في الشرق والغرب . فقد تجدد الامل عند المسلمين بعد ان تحطمت اولى الامارات الصليبية التى قامت في قلب العالم الاسلامي حتى اعتبر ابن الاثير ان فتح الرها من اعظم الفتوح حيث يقول« ولم ينتفع المسلمون بمثله » أعاد لهم الثقة في انفسهم وأوضح للصليبيين مدى قدرة المسلمين على مجابهة القوى الصليبية في الشرق الاسلامي بالإضافة إلى أنه كان بمثابة بداية النهاية لبقية

---

(١) ابن الاثير التاريخ الباهر ص ٧٠ ــ ٧١ ، انظر ايضا ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٠٢ ، الاصفهانى دوله آل سلجوق ، ص ١٨٧ ــ ١٨٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ص ، ٩٦ ، حسن حبشي ، نور الدين محمود والصليبيون ، ص ٣٨ .

(٢) انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٧١ حاشية رقم (١) .

(٣) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ص ٣٨٥ ، أرنست باركر ، الحروب الصليبية ، ص ١٥٧ ، عليه الجنزورى ، امارة الرها ، ص ٣٠٨ .

(٤) ابن القلانسي ص ٢٨٢ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٨١ ، العرينى ، الشرق الاوسط ج ١ ، ص ٥٢٩ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٣٨٤ ــ ٣٨٥ .

الإمارات الصليبية فى الشرق الإسلامي[1] . ومن ناحية أخرى فقد رفع هذا النصر من مكانة عماد الدين زنكي عند المسلمين حتى جعل منه هذا النصر قائداً للمسلمين ومدافعا عن الدين ومجاهدا فى سبيل اعلاء كلمة الله ، فمدحه الشعراء وأرسل له الخليفة العباسى المقتفى لامر الله الخلع والهدايا وزاد فى ألقابه ونعوته كالملك المظفر وقاهر الكفرة المتمردين فزادت شهرته حتى طارّ فى الآفاق ذكره ، ودارت عنه الاحاديث فى شتى المحافل[2] .

أما بالنسبة للصليبيين فان سقوط الرها قد أدى الى اضعاف الروح المعنوية عندهم ، بالاضافة الى أن سقوط الرها كان اول ضربة عملية ضد القوة الصليبية فى الشام ودلت على ان « عقود الفرنج من ذلك الحين بدأت تنفسخ وامورها تنتسخ ومعاقلها تفرع ، وعقائلها تفترع » بعد أن انهارت دعامة من دعائم الصليبيين فى الشرق ، بعد أن كانوا يصولون ويجولون فى منطقة الجزيرة ، فتحطمت بذلك الحواجز التى أقامها الصليبيون فى تلك المنطقة . والى جانب ماسببه سقوط الرها من اضعاف الروح المعنوية عند الصليبيين ، تحقق افتقاد الثقة بين صفوفهم جميعا ، مما حدا بريموند دى بواتييه صاحب أنطاكية الذهاب الى القسطنطينية لطلب المساعدة من الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين خوفا من أن يحل به ماحل بالرها . ولم تقتصر هذه الصدمة التى ألمت بالصليبيين فى الشرق عليهم بل تعدتها الى المسيحيين فى غرب أوربا فنهضت حركة تدعو الى حملة صليبية ثانية ، ومن ناحية اخرى فان الصليبيين لم يستطيعوا القيام بعمل من شأنه استعادة الرها بسبب تدهور أوضاعهم الداخلية[3] .

وبعد أن قضى عماد الدين زنكى على المؤامرة التى قامت فى الرها ضد المسلمين سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م ساوره الشك فى عودة التحالف بين جوسلين الثانى امير الرها السابق وبين الاراتقة فى ديار بكر ، فعزم على مهاجمة الاراتقة فانتزع منهم بعض المواقع

---

(١) ابن الاثير التاريخ الباهر ، ص ٦٩ ، انظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢١٩ ، محمد محمد الشيخ ، الجهاد المقدس ، ص ٣٧٣ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٢٨٤ ، ابن الاثير ، الباهر ، ص ٧٠ — ٧١ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٥٢٧ ، عليه الجنزورى ، امارة الرها ، ص ٣٠٩ .

(٣) عمادالدين الاصفهانى ، دولة آل سلجوق ص ١٨٧ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٣٨ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٣٨٣ — ٣٨٥ ، العرينى ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية جـ ١ ، ص ٥٢٢ ، آرنست باركر ، الحروب الصليبية ، ص ١٥٧ .

الهامة لاستكمال توحيد الجبهة الاسلامية وقطع حبل الامل أمام الصليبيين فى وجود حليف لهم فى الجزيرة . وعندما تأكد عماد الدين زنكى من عدم عودة التحالف بين الأراتقه والصليبيين فى سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م سار الى قلعة جعبر (دوسر) الواقعة على نهر الفرات . وكان صاحبها عز الدين على بن مالك بن سالم بن مالك العقيلى كثير التلون والميل الى الصليبيين رغبة منه فى الاستيلاء عليها حتى لايبقى فى وسط بلاده ماهو ملك لغيره ، حتى وان كان قليل الاهمية ، للحزم الذى عنده والاحتياط[1] .

من هنا عزم عماد الدين زنكى على الاستيلاء على قلعة جعبر فأقام عليها وشدد حصاره عليها فى اواخر سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م . ولما رأى عماد الدين حصانة هذه القلعة كتب الى عز الدين على بن مالك صاحبها فى معنى تسليم قلعة جبر ، وقد فوض عماد الدين زنكى حسان المنبجى صاحب منبج فى ان يضمن لعلى بن مالك العقيلى الاقطاع الوافر والعطاء الكثير مقابل التسليم . ولكن صاحب قلعة جعبر رفض التسليم ، فعاد حسان واخبر عماد الدين زنكى بهذا فواصل حصاره للقلعة حتى شهر ربيع الاخر من السنة التالية ٥٤١هـ / ١١٤٦م . وبينما عماد الدين نائم ذات ليلة دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه بزعامة برنقش الزكوى الذى يذكر ابن القلانس انه من أصل افرنجى ، وفر هو ومن معه الى قلعة جعبر التى استبشر اهلها خيرا باستشهاد زنكى وأتاهم الفرح من حيث لم يحتسبوا[2] . وباستشهاد عماد الدين زنكى تلك السنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م افتقد العالم الاسلامى فى ذلك الحين شخصية من أهم الشخصيات التى تزعمت حركة بعث الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين ، والذى توج هذه الحركة بالاستيلاء على الرها . ولشدة مصاب المسلمين فى فقد عماد الدين فقد قيل انه بمقتل عماد الدين قتل المسلمون جميعا . وكان على ابنه نور الدين محمود ان يسير على خطى والده العظيم فى متابعة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين . وهو موضوع الفصل الرابع .

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٧٣ ، الاصفهانى ، دولة آل سلجوق ، ص ١٨٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٠٩ ، العرينى ، الشرق الاوسط ، جـ ١ ، ص ٥٢٩ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٢٨٢ ــ ٢٨٥ ، انظر ايضاً ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٧٤ ــ ٧٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٠٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٩٩ ــ ١٠٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٨١ ــ ٢٨٢ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ق ١ ، ص ٢٨ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ١٩٠ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢٧٨ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٣٨٥ ، العرينى ، الشرق الاوسط ، جـ ١ ، ص ٥٢٩ ــ ٥٣٠ .

الفصل الرابع

الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين فى عصر نور الدين محمود (٥٤١هـ ـ ٥٦٩هـ / ١١٤٦ ـ ١١٧٣م)

ـ تربية ونشأة نور الدين محمود فى ذروة عصر الجهاد الإسلامى

ـ نور الدين محمود والحملة الصليبية الثانية ٥٤٣هـ / ١١٤٨

ـ جهاد نور الدين محمود ضد الصليبيين بعد فشل الحملة الصليبية الثانية (٥٤٣ ـ ٥٦٥هـ / ١١٤٨ ـ ١١٦٩م)

ـ نور الدين محمود وتوحيد القوى الاسلامية فى بلاد الشام والجزيرة

ـ استيلاء نور الدين محمود على مصر ووضع الصليبيين بين شقى الرحى ـ (٥٥٩ ـ ٥٦٩هـ / ١١٦٣ ـ ١١٧٣م)

الفصل الرابع

الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فى عصر نور الدين محمود (٥٤١ ــ ٥٦٩هـ ١١٤٦ ــ ١١٧٣م)

تربية ونشأة نور الدين محمود فى ذروة عصر الجهاد الاسلامى :

فى الوقت الذى كان فيه عماد الدين زنكى ملازما لآقسنقر البرسقى صاحب حلب والموصل ، وبالتحديد فى سنة ٥١١هـ / ١١١٧م رزق بابنه نور الدين محمود . وفى تلك السنة توفى السلطان محمد بن ملكشاه ، وقام النزاع بين أولاده محمود ومسعود ، مما أدى الى دخول عماد الدين زنكى هذا النزاع[١] . وعلى الرغم من انشغال عماد الدين زنكى فى الفترة مابين سنتى ٥١١ ــ ٥٢١هـ / ١١١٧ ــ ١١٢٧م بالعديد من الاعمال السياسية والعسكرية التى قام بها بأمر من صاحب الموصل آقسنقر البرسقى ، فان كل ذلك لم يشغله عن تربية أولاده ، فقد خصص لتربيتهم على بن منصور السروجى الذى اشتهر ببراعته فى الادب وقرض الشعر وحسن الخط[٢] .

ونشأ نور الدين محمود ــ الذى كان والده يقدمه على اخوته لما رأى فيه من مخايل النجابة ــ تحت رعاية والده وتعلم القرآن الكريم والفروسية ، فنشأ على الخير والصلاح ، كما كان نور الدين محمود ملازما لوالده فى حله وترحاله . ولاشك أن ملازمة نور الدين محمود لوالده وهو فى مقتبل العمر قد أدت الى تكوين شخصيته منذ البداية تكوينا حسنا ، وجعل منه ذلك الرجل القوى الذى استطاع أن يخيب آمال الصليبيين ، حينما فكروا فى استرداد ماكان قد استولى عليه والده عماد الدين زنكى « فلما رأوا من نور الدين الجد فى أول أمره علموا بُعْدَ ماأملوه » كما يقول ابن العديم[٣] . واذا كانت ملازمة نور الدين محمود لوالده عماد الدين قد ساعدته على ان يكمل مارسمه والده ،

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٦٢ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ٥ ، ص ١٨٧ ، ابن كثير البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٧٧ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢١٤ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٣٣٩ ــ ٢٤٠ ، ابو المحاسن النجوم الزاهراة ، جـ ٦ ، ص ٧١ ، إبن قاضي ، شهبة الكواكب الدرية ص ١٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٧٨ ، عمادالدين خليل ، عماد الدين زنكى ص ١٧٢ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٢٩١ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٢٢ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ص ٧١ ، ابو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١١٩ .

ليس فقط فى جهاد الصليبيين ، بل وفى توحيد الجبهة الاسلامية ، فان دراسته للفقه والحديث على مذهب أبى حنيفة لم تصرفه عن تعزيز مكانة المذاهب السنية الأخرى ، فهو ملتزم به من غير تعصب منه ولا تمييز « بل الانصاف سجيته فى كل شي » . واذا كان نور الدين محمود حنفيا على مذهب ابى حنيفة ، فان المذهب الشافعى قد حظى فى عهده بالتعزيز والرعاية ، حيث أنشأ فى سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٧م مدرسة للشافعية بدمشق ، وفى العراق شرع سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م فى بناء مدرسة للشافعية[1] . ويبدو أن نور الدين محمود كان يهدف من وراء ذلك الى كسب ولاء العساكر التركمانية المتعصبة للمذهب السنى بالاضافة الى كسب رضى الخلافه العباسية التى كانت ترى فى تشجيع المذهب السنى مايعزز مكانتها امام خلافة الفاطميين الشيعية بالقاهرة .

وعقب وفاة عماد الدين زنكى سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م حدث انقسام بين صفوف المسلمين فى دولته ، فقد أخذ ألب أرسلان بن محمود بن محمد السلجوقى مجموعة من العساكر حاول العودة بها الى الموصل للاستيلاء عليها من زين الدين على كوجك نائب عماد الدين بالموصل . غير أن كلا من جمال الدين محمد الاصفهانى رئيس ديوان عماد الدين زنكى ، وصلاح الدين محمد الياغيسيانى امير حاجب عماد الدين أخلصا اشد الاخلاص فى تثبيت الملك لاولاد عماد الدين زنكى . وتناسا مابينهما من خلافات شخصية « وحلف كل واحد منهما لصاحبه » على الاخلاص فى تثبيت الملك لاولاد عماد الدين زنكى وكتبا الى زين الدين على كوجك وطلبا منه استدعاء سيف الدين غازى بن عماد الدين زنكى ، الذى كان موجودا بشهرزور ليتولى أمر الموصل ففعل فى الوقت الذى أوعزا فيه إلى نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى بالمسير الى حلب ، فاصطحب أسد الدين شيركوه وسارا الى حلب فملكها نور الدين محمود . أما جمال الدين الاصفهانى وصلاح الدين الياغيسيانى فقد ظلا بصحبة الملك ألب أرسلان ، وحسنا له الاشتغال بالشرب والمغنيات ، ولكنهما كانا يخافان منه ، فعرضا عليه فكرة مسير أحدهما الى حلب « لئلا يطمع الفرنج فى شيء منها » فوافق الملك ألب أرسلان على تسيير صلاح الدين الياغيسيانى الى حلب ، بينما ظل جمال الدين

---

(١) ابن الاثير التاريخ الباهر ، ص ١٦٥ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ص ٣٩٥ ، سبط الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٢٩٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٧٩ ، عمادالدين خليل ، نور الدين محمود ، ص ١٣٢ .

الاصفهانى الى جانب الملك ألب ارسلان . ولم يكتف الاصفهانى ببقائه الى جانب السلجوق بل هون عليه امر البلاد الشامية وحسن له المسير الى سنجار للاستيلاء عليها وذلك بهدف ابعاده عن مناطق نفوذ دولة زنكى ، فسار الملك الى سنجار بينما عاد جمال الدين الاصفهانى الى الموصل فجعله سيف الدين غازى وزيرا له[1] .

وهكذا نجح كل من صلاح الدين الياغيسيانى وجمال الدين الاصفهانى فى خداع ألب أرسلان بن محمود ، وابعاده عن املاك عماد الدين زنكى التى قسمت بين ولديه سيف الدين غازى الذى اتخذ الموصل عاصمة له وحكم القسم الشرقى من املاك والده ، فى حين اتخذ نور الدين محمود حلب عاصمة له وحكم القسم الغربى من دولة عماد الدين زنكى . وأدى هذا التقسيم لدولة عماد الدين الى أن اصبح نور الدين محمود مواجها للصليبيين فوقع على عاتقه مهمة جهاد الصليبيين فى بلاد الشام ، بالاضافة الى استكمال توحيد الجبهة الاسلامية فى الشام والجزيرة والتى كان والده عماد الدين زنكى قد بذل جل وقته وجهده وماله فى تحقيقها[2] .

واذا كان نور الدين محمود بن زنكى قد تحمل بحكم الموقع الجغرافى لدولته مهمة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فى بلاد الشام بالاضافة الى توحيد الجبهة الاسلامية ، فان موقع دولة اخيه سيف الدين غازى فى الموصل لاتقل اهمية عن ذلك ، فقد تحمل سيف الدين عازى عبء مواجهة القوات المتطلعة للوثوب على شرق المملكة الزنكية التى ورثها هو واخوه عن والدهما ، كالاكراد المقيمين حول الموصل ، والاراتقة فى ماردين وحصن كيفا ومطامع الخلافة العباسية فى بغداد والسلطنة السلجوقية . ويمكن القول ان هذا التقسيم لدولة عماد الدين زنكى قد اتاح لنور الدين محمود فى حلب وسيف الدين غازى فى الموصل فى ان يتخصص كل منهما فى عمل معين استطاعا به الحفاظ على تركة والدهما ، فسيف الدين غازى ورث عن والده الحروب والمشاكل الواقعة فى الجزيرة

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٨٥ ــ ٨٦ ، أنظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١١٢ ــ ١١٣ ، ابن القلانسي ص ٢٨٩ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ص ١١٩ ــ ١٢١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٨٩ ــ ٢٩٠ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ١٨ ــ ١٩ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٣٠ .

(٢) عمادالدين الاصفهانى ، تاريخ دولة ال سلجوق ، ص ١٨٧ ــ ١٩٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٠٩ ، ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص ١٥ ، محمد كرد على ، خطط الشام ، جـ ٢ ص ١٦ .

مع الاراقة والاكراد ، بينما استطاع نور الدين محمود أن يركز جهوده ونشاطه لا فى جهاد الصليبيين فحسب ، بل وفى توسيع مملكته على حساب الامارات الصليبية بعد أن أخذ طغيان الصليبيين فى التداعى عقب سقوط الرها[1] .

ـــ نور الدين محمود والحملة الصليبية الثانية : ٥٤٣هـ / ١١٤٨م :

بعد أن استقر نور الدين محمود بن زنكى فى حكم حلب فى ربيع الثانى سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م أخذ أعداء والده عماد الدين فى التطلع إلى استرجاع مافقدوه من املاك على يده ، سواء منهم المسلمين أو الصليبيين ظنا منهم بضعف نور الدين محمود[2] . وكانت اولى الاخطار التى تعرض لها نور الدين محمود من جانب الصليبيين ، هى من جوسلين الثانى صاحب الرها الذى كان مقيما بتل باشر غرب الفرات ، فما ان سمع بوفاة عماد الدين زنكى حتى راسل اهل الرها ـــ ومعظم اهلها من الارمن ـــ وحملهم على عصيان المسلمين وتسليم البلد اليه ، فأجابوه الى ذلك ، وسار فى عساكره الى الرها فى جمادى الآخر من نفس السنة ٥٤١هـ / ١١٤٦ واستطاع بمن معه من الصليبيين ان يتسلق أسوار المدينة فى الليل ، وبذلك تمكن من الاستيلاء عليها . ولكنه عجز عن الاستيلاء على القلعة التى كانت بيد الحامية الاسلامية ، على الرغم من ان جوسلين ومن معه من الارمن والصليبيين قد فتكوا بكثير من أهلها الذين استبسلوا فى الدفاع عنها[3] . أما الخطر الثانى الذى تعرض له نور الدين محمود من جانب الصليبيين فقد كان من جانب ريموند دى بواتييه صاحب انطاكية ، فقد استغل هو الآخر وفاة عماد الدين زنكى سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م وقام بغارة على البلاد التابعة لحلب ولكن نور الدين محمود استطاع صد المعتدين على حلب مستعينا فى ذلك

---

(١) انظر حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٤١ ـــ ٤٢ ، سعيد عاشور الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٥٩٧ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٣٤ ، آرنست باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٥٠ .

(٢) العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٣٥ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ٢٨٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١١٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٩٠ ، اما المؤرخون اللاتين ومن إقتبس عنهم فانهم يذكرون ان اهل الرها هم الذين راسلوا جوسلين الثانى وطلبوا منه القدوم الى الرها وتسليمها اليه انظر رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٣٨٧ ، ارنست باركر الحروب الصليبية ، ص ٧٢ ـــ ٧٣ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٥٩٨ العرينى الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٥٣٦ ، عليه الجنزورى ، امارة الرها الصليبية ، ص ٣١٥ .

بأسد الدين شيركوه الذى خرج لمطاردة الصليبيين بمن كان بحلب من العساكر الاسلامية[1] . ولما تمكن نور الدين محمود وقائده اسد الدين شيركوه من ابعاد خطر الصليبيين عن حلب ، طلب منهم التوجه معه الى الرها فى شهر جمادى الآخر من نفس السنة لاستعادتها من جوسلين الثانى . واجتمع معه من العساكر مايقرب من عشرة الاف فارس من التركمان يتقدمهم سيف الدين سوار ، فاغزوا السير صوب الرها قبل ان تصل الى جوسلين الثانى نجدة من الصليبيين . ولشدة رغبة نور الدين ومن معه من المسلمين للوصل الى الرها فى اقرب وقت ممكن ذكر ابن القلانس ان الدواب التى كانوا يركبونها قد وقفت فى الطريق من شدة التعب[2] . ولما اشرف نور الدين محمود على أبواب الرها التقى بجوسلين[3] الثانى ورجاله من الارمن وغيرهم ، فأوقع المسلمون بهم ، ووقع جوسلين بين شقى الرحى ، بين القوات الاسلامية فى قلعة الرها ، وقوات نور الدين محمود التى تحاصر المدينة من الخارج . وأدرك جوسلين انه لاسبيل له الى النجاة الا أنه استطاع بعد الحصار المرير الذى فرض عليه من التسلل ليلا الى خارج المدينة ، وولى هاربا الى تل باشر غرب الفرات ، بينما قتل بلدوين صاحب مرعش وكيسوم وكل من ظفر به المسلمون من نصارى الرها . وأخيرا تقرر اخراج كل سكان الرها المسيحيين وابعادهم الى المنفى جزاء لهم على خيانتهم وتعاونهم مع جوسلين « فخلت منهم ولم يبق بها الا القليل »[4] . وهكذا استطاع نور الدين محمود استعادة الرها من جوسلين الثانى فى شهر جمادى الآخرة من سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م ، فقطع بذلك على الصليبيين ماكانوا يأملونه عقب وفاة عماد الدين زنكى . ولم تتوقف اهمية استعادة نور الدين محمود للرها من الصليبيين على انها قطعت امامهم حبل الامل فى العودة مرة اخرى الى منطقة الجزيرة ، بل أدت الى رفع معنوية نور الدين محمود بين رعاياه من

---

(١) ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ق ١ ، ص ١٢٣ — ١٢٤ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٣٨٧ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٢٨٨ ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ص ١٢٥ .

(٣) جوسلين الثانى (Joscelin II.) تولى امارة الرها بعد وفاة ابيه جوسلين الاول سنة ٥٢٥هـ / ١١٣١م وظل فى حكم امارة الرها حتى سقوطها بيد عمادالدين زنكى سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م . انظر : ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٢٥ ، حاشية رقم ٣ .

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١١١ ، انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٨٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١١٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٩٠ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٣٨٧ ، العرينى الشرق الاوسط ، جـ ١ ص ٥٣٦ ، عليه الجنزورى ، امارة الرها ، ص ٣١٦ — ٣١٧ . ومرعش : مدينة فى الثغور بين الشام وبلاد الروم انظر ياقوت معجم البلدان .

المسلمين فى بلاد الشام بالاضافة الى انها مكنته من الحصول على منطقة نفوذ بالجزيرة التى كانت رائدة فى بعث فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين .[1]

لم يتوقف نور الدين محمود عند حد استعادة الرها من الصليبيين سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م ، بل رأى فى نفسه القدرة والكفاية ماجعله يفكر بغزو الصليبيين فى عقر دارهم مستغلا فى ذلك الخلافات التى حصلت بين حكام بيت المقدس الصليبيين ، وحكام دمشق من اسرة طغتكين ، فقام فى السنة التالية ٥٤٢هـ / ١١٤٧م بمحاربة الصليبيين ، وصرف همه الى منازلة ريموند دى بواتييه صاحب أنطاكية فاستطاع الدخول الى بلادهم ففتح ارتاح بالسيف ونهبها ، وفتح بعض الحصون التابعة لانطاكية وبذلك جرد انطاكية من البلاد التابعة لها من الشرق ، فتحول المد الى جانب نور الدين محمود ، وظهر بذلك فشل السياسة التى سار عليها ريموند صاحب انطاكية بعد أن فقد كثيرا من ممتلكاته التى سقطت بيد نور الدين محمود[2] .

وكان سقوط الرها بيد عماد الدين زنكى سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م قد أثار ثائرة الصليبيين لا فى بلاد الشام فحسب بل وفى اوربا ، لما كان للرها من أهمية فى نفوس الصليبيين من الناحية الاستراتيجية والدينية ، بالاضافة الى انها اول امارة صليبية قامت فى الشرق الاسلامى . واعتبروا سقوطها ايذانا بانهيار البناء الذى بناه الصليبيون طيلة نصف قرن من الزمان[3] . ولما كانت اوضاع الصليبيين فى بلاد الشام عقب سقوط الرها بيد عماد الدين زنكى لاتسمح لهم باستعادتها والوقوف فى وجه عماد الدين زنكى لما بينهم من الخلافات ، فانهم لم يستكينوا بل أرسلوا فى سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م رسلهم الى اوربا لاستنفارها وتاليب قواها لاسترداد الرها والقضاء على الزنكيين فكان نتيجة ذلك خروج الحملة الصليبية الثانية على رأس اثنين من زعماء اوربا هما كونراد الثالث امبراطور

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٢٨٨ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٢٥ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٣٧ ، عليه الجنزورى ، امارة الرها الصليبية ، ص ٣٣٠ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٢٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٩١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١١٢ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ص ١٩٥ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ١٩ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٣٨ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٣٩٢ . وأرتاح : حصن منيع من اعمال حلب . انظر ياقوت . معجم البلدان .

(٣) انظر ماسبق ، ص ٢٩٦ — ٢٩٨ .

المانيا ولويس السابع ملك فرنسا ولكن هذه الحملة لم تصل الى بلاد الشام الا بعد وفاة عماد الدين زنكى واستعادة نور الدين محمود للرها فى سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م[١]

وعلى اية حال فان وجود اكبر ملوك اوربا على راس هذه الحملة يدل على قوة الصدمة التى تعرضت لها اوربا على اثر سقوط الرها بيد المسلمين ، وعلى قوة التأثير التى قام بها دعاة هذه الحملة أمثال القديس برنارد والبابا يوجينوس[٢] . غير ان هذه الحملة على الرغم من كونها حملة نظامية ، فانها قد تعرضت لكثير من المتاعب والمشاكل قبل وصولها الى الشام لتحقيق هدفها وهو استعادة الرها والقضاء على الزنكيين . فروجر ملك صقلية اراد استغلال هذه الحملة لتحقيق مآربه في انطاكية واستعادتها من ريموند دي بواتييه فأدى ذلك الى رفض لويس السابع ملك فرنسا قبول العرض الذي تقدم به روجر ملك صقلية من تقديم المؤن والسفن لنقل الصليبيين الى الشام وذلك للقرابة بين ريموند صاحب انطاكية وزوجة لويس السابع . وادى ذلك الى تغيير مسار الحملة الى القسطنطينية ومنها الى آسيا الصغرى فبلاد الشام[٣] . اما الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين فلم يكن بأقل تحمسا من صاحبه ملك صقلية فى استعادة نفوذه على بلاد الشام ، وهذا ما دعاه الى فرض مطالبه على زعماء الحملة الصليبية الثانية بوجوب اعادة سيطرته على بلاد شمال الشام ولم يقف عند هذا الحد من فرض هيمنته وارادته على زعماء الحملة الصليبية الثانية بل عقد مع السلطان مسعود سلطان السلاجقة الروم فى تلك السنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧م اتفاقا للتعاون بينهما وحسن الجوار[٤] . وأدى ذلك إلى عدم قيام الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين بتقديم المساعدات لكونراد الثالث امبراطور المانيا ولويس السابع ملك فرنسا حين تعرضا لهجوم عنيف من سلاجقة الروم باسيا الصغرى ، مما أدى إلى فناء كثير من رجالهما[٥] .

هكذا خدمت الظروف نور الدين محمود خاصة والمسلمين فى بلاد الشام عامة ،

---

(١) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ص ٣٨٧ — ٣٩٧ ، ارنست بارکر ، الحروب الصليبية ، ص ٧٤ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ١٦٠٦ .

(٢) انظر رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٠٩ — ٤١٦ .

(٣) حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٥٠ .

(٤) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٢٨ ، ارنست بارکر ، الحروب الصليبية ، ص ٧٣ .

(٥) ابن القلانسي ، ص ٢٩٧ ، تامارا تاليوت رايس ، السلاجقة ، ص ٦٨ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٣١ ، آرنست بارکر ، الحروب الصليبية ، ص ٧٦ .

بما وقع لهذه الحملة من فناء وتشريد الكثير من رجالها المحاربين على يد سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ، بالاضافة الى ماحصل بين زعماء هذه الحملة والإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين من اختلاف حول السيادة على بلاد الشام ، أدى إلى أن كلا منهما اساء الظن فى صاحبه قبل وصول الحملة الى بلاد الشام . وقد تأكد سوء الظن هذا لدى زعماء الصليبيين حينما وقف الامبراطور البيزنطى موقف المتفرج حيال ماجرى للصليبيين من ضربات قاصمة على يد سلاجقة الروم[1] . واذا كانت الظروف التى تعرض لها زعماء الحملة الصليبية الثانية قد خدمت نور الدين محمود ، فان سكان دمشق الذين كانوا يرتجفون خوفا من مصيرهم المحتوم على يد زعماء الحملة الصليبية الثانية قد غمرهم الفرح والسرور وسكنت نفوسهم من الخوف عند سماعهم بما حل على هذه الحملة من الفناء والدمار على يد سلاجقة الروم بآسيا الصغرى على حد تعبير ابن القلانس[2] .

وأخيراً وصل لويس السابع ملك فرنسا وزوجته الى انطاكية فى أواخر سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٨م عن طريق آسيا الصغرى ، فقوبل كل من لويس وزوجته فى انطاكية بالتهليل والفرح العظيم ، اذ رأى ريموند دى بواتييه صاحب انطاكية فى هذه الحملة اداة طيبة فى استرداد اراضيه التى فقدها على يد نور الدين محمود ، وكان نور الدين محمود شديد الرغبة فى الاستيلاء على انطاكية او اضعافها حتى لا تكون مركز انطلاق للصليبيين والبيزنطيين للاغارة على املاكه فى حلب وشمال الشام[3] . ولشدة حماس ريموند صاحب انطاكية فى استغلال هذه الحملة لصالحه فقد أخذ يعدد لزعيمها لويس السابع ملك فرنسا مايهدد الامارات الصليبية من جراء وجود نور الدين محمود فى حلب وشمال الشام وسيطرته على الطرق المؤدية الى أنطاكية وبيت المقدس . واعتمادا على ماذكره وليم الصورى حول هذا الموضوع فقد ذكر أحد الباحثين المحدثين أن ريموند صاحب انطاكية كان محقا فى تفكيره الى حد بعيد ، لان الحملة الصليبية الثانية انما أتت الى بلاد الشام لاسترداد الرها والقضاء على القوة الزنكية فى شمال العراق والشام

---

(١) حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٥١ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ص ٥٥٨ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٢٩٧ ، انظر ايضا ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٣٣ — ١٣٤ .

(٣) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٤٧ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٥٢ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٦١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦١٢ — ٦١٧ .

وبالتالى تأمين الاوضاع الخاصة بامارة الرها وانطاكية[1] . ورفض لويس السابع ملك فرنسا تلبية رغبة ريموند صاحب انطاكية ومهاجمة نور الدين محمود فى حلب خشية ان يزج بنفسه وجيوشه فى مغامرة لايضمن نتائجها[2] . ولذلك فقد تنفس لويس السابع الصعداء حين وصل الى انطاكية بطريرك بيت المقدس فولشر فى ابريل من سنة ١١٤٨م لاعلام الملك لويس السابع بوصول الامبراطور كونراد الثالث الى بيت المقدس . وطلب البطريرك من الملك لويس السابع التوجه الى بيت المقدس ، فأعلن الملك الفرنسى صراحة لريموند صاحب أنطاكية انه انما حمل الصليب والسلاح دفاعا عن مملكة بيت المقدس وزيارة اماكنها المقدسة . وسار الى بيت المقدس دون ان يستأذن ريموند صاحب أنطاكية فوصلها فى سنة ٥٤٣هـ / ابريل ١١٤٨م وهناك وجد الامبراطور الألمانى كونراد الثالث فى انتظاره ، فتغيرت وجهة الحملة الصليبية الثانية واصبح نور الدين محمود بعيدا الى حد ما عن خطر هذه الحملة ، خصوصا وانه قد قتل من أفرادها أعدادا كثيرة[3] .

وفى بيت المقدس اجتمع لويس السابع مع كونراد الثالث مع مضيفهم الملك القاصر بلدوين الثالث ملك بيت المقدس ووالدته ميلسندا . على أن تغيير وجهة مسار الحملة الصليبية ووصول زعمائها الى بيت المقدس قد أدى الى انقسام الصليبيين فى بلاد الشام الى قسمين : القسم الأول ويمثله زعماء هذه الحملة مع ملك بيت المقدس ووالدته ، وهدف هذا القسم الاستيلاء على دمشق من أسرة طغتكين ، بهدف توسيع ممتلكات بيت المقدس وتعويض الصليبيين عما كانوا قد فشلوا فى تحقيقه سابقا ، رغم ان حكام دمشق من أسرة طغتكين كانوا حلفاء لملك بيت المقدس فى بعض الاحيان . أما القسم الثانى ويمثله صاحب أنطاكية وصاحب طرابلس وجوسلين الثانى صاحب الرها سابقا وهم يرون مواجهة نور الدين محمود فى حلب وشمال الشام والجزيرة أولى من الدخول فى مغامرات بجنوب الشام خصوصا وان خطر المسلمين بهذه المنطقة لايساوى خطر الزنكيين فى الشمال ، بسبب مسالمة حكام دمشق وضعف الفاطميين »[4] . غير

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦١٣ .

(٢) حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٥٣ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٤٩ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ٢٩٧ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٤٩ .

(٤) انظر حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٥٤ ــ ٥٥ ، ارنست باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٧٦ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٦٢ .

أن القسم الأول قد تغلب فى وجهة نظره على القسم الثانى وكان هذا من العوامل التى أدت الى فشل الحملة الصليبية الثانية . فما ان قضى الصليبيون القادمون من اوربا مفروض حجهم الباطل وعاد منهم من عاد الى بلاده ، دعت الملكة ميلسندا فى السنة نفسها ٥٤٣هـ / ١١٤٨م زعماء الحملة الى عقد اجتماع فى عكا للتشاور فى امر الخطة التى يجب السير عليها لاستغلال جموع الصليبيين فى توسيع رقعة مملكة بيت المقدس وبعد مناقشات ومداولات واختلاف فى الآراء استقر امرهم اخيرا على منازلة دمشق[١] .

وشرع الصليبيون فى شن هجومهم على دمشق فى ربيع الأول من سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م حيث قصدوا المنزل المعروف بمنازل العسكر ، فوجدوا به الماء مقطوعا فقصدوا ناحية المزة فخيموا عليها لقربها من الماء وشددوا الحصار على اهل البلد حتى ضعف امر المسلمين فتقدم الصليبيون بقيادة كونراد الثالث الى المكان المعروف بالميدان الاخضر[٢] . فاستظهر الصليبيون على المسلمين فى اليوم الأول من القتال وهو يوم السبت السادس من ربيع الأول من السنة المذكورة . وقتل من المسلمين قرابة المائتين من رجال العلم والدين ، وانتشر الصليبيون فى البساتين المحيطة بدمشق ، وشرعوا فى قطع الاشجار للتحصن بها وحاولوا فى اليوم الثانى شن هجوم مباغت على المسلمين ، ولكن معين الدين أنر ورجاله ابلوا بلاء حسنا فى الدفاع عن دمشق حتى استظهر المسلمون على الصليبيين[٣] . ولم يقتصر دفاع المسلمين عن دمشق على العساكر النظامية بل اشترك فى الدفاع عنها كل الرجال حتى الزهاد منهم والعباد ورجال الدين والعلماء المتطوعة الذين لارغبة لهم فى ذلك سوى الدفاع عن دمشق او الاستشهاد فى

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٢٩٨ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٣٤ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ١٩٧ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ص ٥٦٤ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٥٢ . أما رواية ابن الاثير فهى لاتذكر شيئا عن اختلاف اراء الصليبيين بل ذكر ان كونراد الثالث قد امر الصليبيين بالمسير الى دمشق ظنا منه بنفسه وقوته وكثرة رجاله . انظر ابن الاثير الكامل ، جـ ١١ ص ١٢٩ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٢٩٨ ــ ٢٩٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٢٩ ــ ١٣٠ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٨٨ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٣٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٩١ .

والمزة : قرية كبيرة غناء فى وسط بساتين دمشق . انظر ياقوت ، معجم البلدان . ومنازل العسكر : منطقة فسيحة كانت تتجمع فيها الجيوش التى تريد مهاجمة دمشق جنوبى دمشق ، . انظر ابوشامة ، الروضتين جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٩٩ ، حاشية رقم ٦ .

(٣) ابن القلانس ص ٢٩٩ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٥ ، ص ١٦٠ .

سبيل الله[1] .

لم تقتصر خطة معين الدين أنر — وزير جمال الدين ابق بن محمد بن بورى — ولا رجال دمشق المشهورين فى الدفاع عن دمشق على المواجهة العسكرية بل عملوا على طم الابار الواقعة امام الصليبيين بالاضافة الى مابذله معين الدين أنر من الاموال والجوائز المغرية لكل من يحضر راس أحد من الصليبيين ، وما قام به من ارسال الرسل الى اصحاب الاطراف يستصرخهم ويطلبهم النجدة . فوصل من جهة البقاع امدادات كثيرة من المسلمين أدت الى رفع الروح المعنوية عند المدافعين ، أجبرت الصليبيين على التراجع قليلا بعد مقتل كثير منهم[2] . غير أن معين الدين أنر وزير ابق خاف ان يكون تراجع الصليبيين مكيدة له فارسل الى سيف الدين غازى صاحب الموصل يستغيث به ويستنجده على الصليبيين ويسأله القدوم اليه ، فجمع سيف الدين غازى جيوشه وسار بها الى حمص ومعه اخوه نور الدين محمود صاحب حلب[3] .

ولما كان معين الدين أنر وجمال الدين أبق قبل هجوم الصليبيين على دمشق حلفاء لحكام بيت المقدس ، فإن سيف الدين غازى قد ساورته الشكوك فى حسن نية معين الدين أنر الحاكم الفعلى لدمشق ، فأرسل من قبله رسولا الى دمشق يخبر معين الدين أنر باستعداده لقتال الصليبيين ، على ان يتولى امر دمشق رجل من قبله على ان يردها اليه بعد احراز النصر على الصليبيين . ولكن معين الدين أنر اخذ يماطل سيف الدين غازى ولم يسارع الى تلبية رغبته خشية ان يستولى سيف الدين غازى على دمشق « لينظر مايكون من أمر الفرنج »[4] . وعلى اية حال فقد أشاع خروج

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٢٩٩ ، اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٩٤ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٨٩ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٣٥ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٢٩٩ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٣٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .
والبقاع : جمع بقعة ، موضع يقال له بقاع كلب قريب من دمشق وهو ارض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق فيها قرى كثيرة . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٨٩ — ٩٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١١٢ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٣٨ .

(٤) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٨٩ ، انظر ايضا ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٣٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١١٣ ، العينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٦٧ ، اما مؤرخ دمشق ابن القلانسي فلم يشر الى المراسلة التى تمت بين سيف الدين غازى ومعين الدين أنر ولا حتى عن مماطلة معين الدين أنر التى أتبعها تجاه سيف الدين غازى صاحب الموصل .

سيف الدين غازى وأخوه نور الدين محمود الى حمص نجدة لمعين الدين أنر الرعب بين صفوف الصليبيين ، لان سيف الدين غازى ارسل الى الصليبيين يهددهم ان لم يرحلوا عن دمشق ، فى الوقت الذى ارسل فيه معين الدين أنر الى الصليبيين بالشام ينذرهم بحضور سيف الدين غازى ويقول لهم محذرا « باى عقل تساعدون هؤلاء علينا وأنتم تعلمون انهم ان ملكوا مدينة دمشق اخذوا مابأيديكم من البلاد الساحلية ، وأما أنا ان رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته الى سيف الدين غازى ، وانتم تعلمون انه ان ملك دمشق لايبقى لكم معه مقام بالشام »[1] . ويضيف أبوشامة فى كتابه الروضتين ان معين الدين أنر بذل للصليبيين بالشام أن يسلم اليهم بانياس ان رحلوا الامبراطور الالمانى عن دمشق « فاجابوه الى ذلك وعلموا صدقه واجتمعوا بملك الالمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع امداده وانه ربما ملك دمشق فلا يبقى لهم مقام بالساحل فأجابهم الى الرحيل عن دمشق . فرحل ورحل فرنج الساحل وتسلموا حصن بانياس من معين الدين أنر وبقى معهم حتى فتحه نور الدين محمود رحمه الله »[2] .

هكذا وجدت رسالة معين الدين أنر صدى فى نفوس صليبيى بلاد الشام الذين لم يحصلوا على ماكانوا يرغبون فى تحقيقه باستعادة الرها والقضاء على الزنكيين ، مما دعاهم الى التهاون فى أمر مساعدة الامبراطور الالمانى فى حصاره لدمشق ، وهذا على مايبدو ماأجبره فى اليوم الخامس من حصاره لدمشق الى الانسحاب عنها فى العاشر من ربيع الأول سنة ٥٤٣هـ / الموافق ٢٨ يوليو سنة ١١٤٨م الى بيت المقدس هو وجموعه فى أسوأ حال وقلة رجال ، حيث أنزل المسلمون بهم قبل الانسحاب وبعده مذبحة هائلة اشار اليها ابن القلانسي ، على أن روائح جيفهم تكاد تصرع الطير فى الجو[3] .

بالاضافة الى اثر رسالة معين الدين أنر فى نفوس الصليبيين وما أدت اليه من تراجع الصليبيين عن مواصلة الحصار لدمشق ، فهناك عدة اسباب : منها ماشار اليه المؤرخون

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١١٣ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٣١ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٦٧ .

(٢) ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٣٨ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ٢٩٩ — ٣٠٠ ، انظر ايضا سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ١٩٨ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٦٠ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٥٧ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦١٨ العرينى الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٧٠ .

امثال ابن القلانسي حيث ذكر ان انسحاب الصليبيين عن دمشق جاء نتيجة الصمود الذى ابداه معين الدين أنر ، وما وصله من الامدادات وما تواتر لدى الصليبيين من أخبار العساكر الاسلامية « بالخفوف الى جهادهم والمسارعة الى استئصالهم ، فأيقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار » ، ثم ماحصل بين زعماء الصليبيين من شقاق حول مستقبل دمشق بعد الاستيلاء عليها[1] . أما السبب الثانى عن تراجع الصليبيين عن حصار دمشق فهو ماذكره بعض الباحثين نقلا عن المصادر الاوربية من ان بعض زعماء الحملة الصليبية الثانية المحاصرة لدمشق قد تلقى نصائح من بعض البارونات الشرقيين الذين تلقوا رشاوى مالية من معين الدين أنر تدعو الى الانسحاب بعيدا عن دمشق ، ثم وقوع الشجار فى المعسكر الصليبى حول مستقبل دمشق بعد الاستيلاء عليها فبينما طمع بلدوين الثالث ملك بيت المقدس ووالدته ميلسندا فى ان تصبح دمشق عند الاستيلاء عليها تابعة لمملكة بيت المقدس اذا ببعض الامراء الصليبيين يؤيدهم لويس السابع يطمعون فى الفوز بدمشق ليقيموا فيها امارة صليبية جديدة[2] . وبالاضافة الى ذلك فقد بذل ريموند دى بواتييه صاحب أنطاكية جهودا كبيرة كيما تحل الهزيمة بلويس السابع ملك فرنسا لعدم تلبيته رغبة ريموند فى توجيه الحملة الصليبية ضد نور الدين محمود زنكى فى حلب وشمال الشام حين قدومه الى انطاكية فى السنة الماضية[3] .

وفى الحقيقة ان زعماء الحملة الصليبية الثانية قد فشلوا فى تحقيق ادنى حد من هدفهم حين سعوا الى تحقيق رغبة بلدوين الثالث ملك بيت المقدس ووالدته ميلسندا بالهجوم على دمشق اذ أتاحوا لنور الدين محمود ابن زنكى فرصة ملائمة للتفكير الجدى فى السعى الى ضم دمشق فيما بعد ، بالاضافة الى أنهم فقدوا اكبر حليف لهم فى بلاد الشام ، والممثل فى أسرة طغتكين بدمشق . ولم تقف آثار فشل الصليبيين فى الإستيلاء على دمشق عند حد تدخل نور الدين محمود فى شئون دمشق بل ادت الى بث روح الشقاق بين الصليبيين والبيزنطيين من ناحية وبين الصليبيين فى بلاد الشام من

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٢٩٨ ــ ٢٩٩ ، انظر ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ٢٠ ، ابن أيبك ، كنز الدرر ، جـ ٦ ، ص ٥٥١ .

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦١٧ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٦٨ ، ٥٧٠ .

(٣) ارنست باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٧٦ .

ناحية أخرى[1] .

ولم تقتصر نتائج فشل الحملة الصليبية عند حد عدم تحقيق هدفها الاساسى فى استعادة الرها والقضاء على الزنكيين بل ان الصليبيين فى بلاد الشام قد تعرضوا لمطامع بعض زعماء الحملة الصليبية الثانية مما دعى صليبى بلاد الشام الى الاستعانة بنور الدين محمود ، ومعين الدين أنر ذلك أن معين الدين أنر ــ بعد أنسحاب الصليبيين عن دمشق توجه الى بعلبك ليكون قريبا من نور الدين محمود الذى كان موجودا بحمص ، فتم اللقاء بينهما فى أواخر شهر ربيع الآخر من سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م وعند اجتماعهما وصل اليهما كتاب من ريموند الثانى صاحب طرابلس يطلب منهما النجدة ضد برتراند[2] بن الفنسو صاحب طليطلة الذى تغلب على حصن العزيمة واظهر انه يريد الاستيلاء على طرابلس ، فسارا اليه مجدين وكتبا الى سيف الدين غازى وهو بحمص يطلبان منه المدد فأمدهما بفرقة عسكرية مع احد اصدقائه فحاصروا الحصن وبه ابن الفنسو ووالدته . وبعد حصار شديد استطاع المسلمون اقتحامه بعد تخريبه ووقع برتراند ووالدته فى أسر نور الدين محمود بن زنكى ونقلهما الى حلب[3] .

ويمكن القول ان استيلاء نور الدين محمود على حصن العزيمة كان آخر لقاء بين المسلمين وبقايا الحملة الصليبية الثانية التى خرجت الى بلاد الشام ، وفتحت بذلك صفحة جديدة لنور الدين محمود بن زنكى لافى جهاد الصليبيين فحسب بل وفى التدخل الفعلى فى شئون دمشق التى كانت تخضع لحكام من اسرة ظهير الدين طغتكين منذ سنة ٤٩٧هـ / ١١٠٣م .

---

(١) حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٥٥ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ص ٦١٦رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٦٢ ــ ٤٦٣ .

(٢) برتراند هو حفيد ريموند التولوزى .Raymond of Toulouse انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٣٣ حاشية رقم (٤) .

(٣) ابن القلانسي ، ص ٣٠٠ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٩٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٩٢ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٤٢ ــ ١٤٣ .

ـ جهاد نور الدين محمود ضد الصليبيين بعد فشل الحملة الصليبية الثانية : (٥٤٣ ـ ٥٦٥هـ / ١١٤٨ ـ ١١٦٩م) .

أدى فشل الحملة الصليبية الثانية وعودة زعماء اوربا الى بلادهم خائبين الى تصميم نور الدين محمود على مواصلة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين . ولكنه رأى ان اعادة الوحدة بين المسلمين يجب أن تبدأ بتعزيز المذهب السنى فهذا خير وسيلة لتحقيق النصر على الصليبيين[١] . ولذلك فقد قام بعد عودته الى حلب عقب فشل الحملة الصليبية الثانية وبالتحديد فى شهر رجب من سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م بابطال « حى على خير العمل » ومنع سب الصحابة وانكر ذلك انكارا شديدا فى حلب ، والبلاد التابعة لها . وساعده على ذلك جماعة من اهل حلب السنيين . وقد عظم هذا الامر على الاسماعيلية واهل التشيع وضاقت له صدورهم[٢] . ولذلك وجد ريموند دى بواتييه صاحب انطاكية الفرصة مواتية للاتصال بزعيم الاسماعيلية فى أفامية على بن وفا الكودى للنيل من نور الدين محمود بن زنكى[٣] . وقد استطاع ريموند فعلا ان يصد نور الدين محمود وان يمنعه من التدخل فى الاراضى التابعة لامارته بعد ان كان نور الدين محمود قد ظفر بعدد من الحصون والمعاقل الصليبية[٤] . ولم يقف صاحب انطاكية عند هذا الحد بل جمع الصليبيين وقصد نور الدين محمود على حين غفلة منه فنال من عسكره وأمتعته وانهزم نور الدين محمود وعسكره « وعاد الى حلب سالما فى عسكره لم يفقد منه الا النفر اليسير »[٥] . ولكن نور الدين محمود استطاع ان يأخذ بثأره فى نفس السنة (٥٤٣هـ / ١١٤٨م) حيث التقى بجموع الصليبيين الذين كانوا يريدون قصد حلب والبلاد التابعة لها ، فالتقى بهم عند بغراس وانزل بهم هزيمة ساحقة انجلت عن قتل كثير .. منهم واسر جماعة من مقدميهم ، بعث بعدها بكثير من الغنائم والاسرى الى اخيه سيف الدين غازى بالموصل وإلى الخليفة العباسى المقتفى لأمر بالله والسلطان السلجوقى مسعود بن محمد بن ملكشاه . وقد اكثر الشعراء من مدح نور الدين على أثر

---

(١) كلودكاهن ، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ص ٢٤٩ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٣٠١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٩٣ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٤٧ .

(٣) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٥٢٤ .

(٤) ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٤٣ .

(٥) ابن القلانسي ، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣ ، انظر ايضا ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ق ١ ، ص ١٤٣ .

هذه الموقعة[1] .

ويمكن القول ان نور الدين محمود بن زنكى اتخذ انطاكية هدفا لجهاده فمع مطلع سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م عقد مع جوسلين الثانى صاحب تل باشر هدنة مؤقتة لكى يتفرغ لامر انطاكية ، فى الوقت الذى بعث فيه نور الدين محمود الى معين الدين انر يعلمه ان صاحب انطاكية قد جمع الصليبيين بقصد الغارة بهم على حلب والبلاد التابعة لها وانه اى نور الدين قد برز فى عسكره الى ظاهر حلب للقاء صاحب أنطاكية ، وان الحاجة ماسة الى مساعدته . وجهز معين الدين أنر فرقة من رجاله لنجدة نور الدين محمود بالاضافة الى ماوصله من امدادات كثيرة من التركمان بالجزيرة وغيرها ، فتوجه نور الدين محمود بهذه الجموع التى بلغت اكثر من ستة الآف فارس الى انطاكية وقصد حصن حارم وهو للصليبيين ، فحصره وضرب ربضه ونهب سواده ثم رحل الى حصن انب حيث دارت هناك معركة بين المسلمين والصليبيين فى العاشر من شهر صفر من سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م اسفرت عن هزيمة الصليبيين وسقوط ريموند دى بواتيه صريعا فى هذه المعركة التى اظهر نور الدين فيها من الشجاعة والصبر ماتعجب الناس منه على الرغم من حداثة سنة[2] . وكان ريموند صاحب انطاكية كما وصف فى كتب المؤرخين المسلمين عاتيا من عتاه الفرنج وعظيما من عظمائهم مع اشتهاره بالهيبة وكثرة السطوة والتفانى فى الشر . وبموته خلت انطاكية من اشهر زعمائها غير ان والدته كونستانس

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٣٤ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٩١ ــ ٩٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٩٢ ، ابوشامة الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٤٣ . ابن واصل مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١١٤ ــ ١١٥ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٥٢٥ ، وبغراس : مدينة فى لحف جبل اللكام بينها وبين انطاكية اربعة فراسخ على يمين القاصد الى انطاكية من حلب ، انظر ياقوت ، معجم البلدان . ومما مدح به نورالدين محمود عقب هذه الوقعة قول الشاعر ابن القيسرانى حيث قال :

وكيف لا نثنى على عيشنا المحمود ... والسلطان محمود
وصارم الاسلام لاينثنى ... الا وشلو الكفر مقدود
مكارم لم تك موجودة ... الا ونور الدين موجود
وكم له من وقعة يومها ... عند الملوك الكفر مشهود

انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٣٤ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٣٠٤ ــ ٣٠٥ ، ابن الاثير التاريخ الباهر ، ص ٩١ ــ ٩٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٩٢ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٤٩ ــ ١٥٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١١٤ ــ ١١٥ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ٢٠ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ص ٥٢٦ .

وأنب : حصن من اعمال عزاز من نواحى حلب ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

تزوجت بأحد المغامرين الصليبيين الذى عرف فى كتب المؤرخين المسلمين باسم ارناط وهو المغامر رنودى شاتيون الذى لعب دورا كبيرا فى عهد صلاح الدين الايوبى[١] .

لم يكتف نور الدين محمود بما أنزله بالصليبيين فى أنب وأنطاكية من أسر وقتل زعماء الصليبيين بل تقدم فى نفس السنة الى أفامية واستولى عليها وعاد منها الى أرتاح وحارم وشحنها بالذخائر والمقاتلين . ولما اطمأن نور الدين محمود الى استتباب الامن والاوضاع فى البلاد التى استولى عليها من الصليبيين أسرع عائدا الى انطاكية التى خلت من زعمائها المدافعين عنها ، إلا ان الحال اقتضت مهادنة وموادعة من بها من الصليبيين . وتقرر أن يكون مايقرب من الاعمال الحلبية لنور الدين محمود وماقرب من انطاكية يكون للصليبيين ثم رحل عنها نور الدين إلى جهة اخرى[٢] . وبهذه الانتصارات التى احرزها نور الدين محمود على الصليبيين فى بغراس وانب جعلت منه فى نظر المسلمين بالشام المدافع الأول عن حقوق المسلمين فى تلك البلاد . وأدرك هو نفسه هذه الحقيقة ، ورأى انه لابد له فى المرحلة القادمة من الاعتماد على قاعدة صلبة تمكنه من مواصلة سيره الى توحيد قوى الشام والجزيرة وتصفية القوى المعارضة له فعمل على تشجيع المذهب السنى الذى يدين به كثير من التركمان الذين يشكلون اكبر قوة فى جيشه ، فبالاضافة الى تشتيت الاسماعيلية فقد عمل على بناء المدارس السنية التى تقربه من قلوب الناس ، كما اهتم بالعلماء والشعراء الذين عملوا فى نفسه الوقت على تأليب الناس ضد معارضيه فى دمشق وغيرها[٣] .

وفى سنة ٥٤٥هـ / ١١٥٠م وجه نور الدين محمود اهتمامه الى جوسلين الثانى صاحب تل باشر لانتهاء الهدنة المعقودة بينهما فى الوقت الذى تعرض فيه جوسلين لهجوم من الملك مسعود سلطان سلاجقة الروم وذلك بهدف الاستيلاء على بلاده الواقعة شمال حلب كتل باشر وعين تاب وغيرها من الحصون . فجمع نور الدين محمود

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٤٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٢١ ، العماد الاصفهانى ، دولة آل سلجوق ، ص ٢٠٧ ، ابن العبرى ، مختصر الدول ، ص ٢٠٧ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٨٤ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٢٢ — ٦٣٢ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٣٠٥ — ٣٠٦ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٠٠ — ١٠١ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ق ١ ، ص ١٥١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ص ١٢٢ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية جـ ١ ص ٥٧٧ — ٥٧٨ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٩٣ — ٢٩٤ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ص ٥٧٧ .

عساكره وسار الى بلاد جوسلين فالتقى به « فانهزم المسلمون وقتل منهم وأسر » . ولكن نور الدين محمود عزم على ان يأخذ بثأره وثأر رجاله ، فأخذ يفكر فى حيلة يستطيع بها القضاء على جوسلين خصوصا وانه ان قصده احتمى فى حصونه فاحضر نور الدين بعض أمراء التركمان وبذل لهم الرغائب من الاموال ان ظفروا بجوسلين فترصدوا له فلما خرج ذات مرة للصيد وذلك فى المحرم من السنة نفسها (٥٤٥هـ / ١١٥٠م) استطاع نفر من التركمان أسره ، وقد حاول ان يهبهم مايطلبونه من الأموال فى مقابل اطلاق سراحه ورغبوا الى ذلك ، ولكن نائب نور الدين محمود فى حلب ارسل لهم مجموعة من رجاله فكبسوهم واخذوا جوسلين حيا ، وحملوه الى نور الدين بحلب حيث قتل . ثم سار نور الدين محمود الى قلاعه فاستولى على عزاز ، وتل باشر وغيرها من الحصون التى كانت خاضعة لجوسلين[1] .

وعلى أية حال فان أسر جوسلين وقتله والاستيلاء على قلاعه وحصونه كان من أعظم الفتوحات التى حققها نور الدين محمود على الصليبيين ، فالى جانب حصول نور الدين محمود على مزيد من الحصون فان مقتل جوسلين الذي وصفه ابن الاثير بانه « كان شيطانا عاتيا من شياطين الفرنج » لايقل أهمية عن ذلك[2] . وبالاضافة الى ذلك فان تخلص نور الدين محمود من جوسلين الثانى قد جعل منطقة الجزيرة تحت حوزة المسلمين فى الوقت الذى خلت فيه منطقة شمال الشام من اشهر زعماء الصليبيين الذين ظلوا فترة من الزمن يصولون ويجولون ، دون مارادع لهم ، مما رجح كفة المسلمين على الصليبيين[3] .

وقد يتساءل الباحث عن موقف الصليبيين فى بلاد الشام بعد مقتل اشهر زعماء الصليبيين (ريموند دى بواتييه ، صاحب انطاكية وجوسلين الثانى صاحب تل باشر) . وللاجابة على هذا السؤال يمكن القول ان عبء الدفاع عن الصليبيين فى بلاد الشام قد

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٣١١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٠٣ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٨١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٢٣ ، العماد الاصفهانى ، دولة آل سلجوق ، ص ٢٠٧ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٧٦ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٥٢٧ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٠٢ ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٨٣ — ١٨٥ .

(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ص ٦٢٤ .

انتقل الى مملكة بيت المقدس حيث انعقدت الامال على بلدوين الثالث ووالدته ميلسندا خاصة ان امارة طرابلس الصليبية والخاضعة لريموند الثانى لم تستطع مد يد العون للصليبيين فى شمال الشام . فما كان من بلدوين الثالث ملك بيت المقدس الا ان جمع جموعه من الصليبيين فى سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م وسار بها نحو نور الدين محمود بدلوك حيث جرت بين الطرفين معركة انهزم فيها الصليبيون وقتل منهم واسر اكثرهم وعاد من سلم منهم الى بلادهم . ولم يكتف نور الدين محمود بما حققه فى دلوك واستيلائه على هذا الحصن ، بل توجه الى حصن انطرطوس فافتتحه وقتل من كان فيه من الصليبيين[١] .

وعلى الرغم من أن نور الدين محمود استطاع ان يجرد امارة انطاكية من البلاد التابعة لها ، بالاضافة الى استيلائه على ماتبقى من الحصون والقلاع التى كانت بيد جوسلين ، فانه قد خشى من الاستيلاء على انطاكية حتى لايؤدى ذلك الى تكاتف الصليبيين فى بلاد الشام والوقوف فى وجهه صفا واحدا . كما لايستبعد ان يكون نور الدين محمود قد حرص على عدم الاحتكاك بسلاجقة الروم بزعامة السلطان مسعود بن قلج ارسلان الذين حصلوا على نصيب وافر من البلاد التى كانت تابعة لامارة الرها ، مع افساح المجال للاراتقة فى حصن كيفا وماردين بالاستيلاء على بعض البلاد التى كانت تابعة لامارة الرها كسميساط ، وكركر ، وذلك بهدف الاستعانة بهم فى جهاده ضد الصليبيين من ناحية ومن ناحية اخرى قد يكون قصد من وراء ذلك الى الا يقوم الاراتقة وسلاجقة الروم بتقديم المساعدة لحكام دمشق من اسرة طغتكين حيث انصرف نور الدين فى السنتين التاليتين (٥٤٨ ــ ٥٤٩) الى محاولة الاستيلاء على دمشق ، حتى تم له ذلك فى سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٣م[٢] . وأدى استيلاء نور الدين على دمشق الى انقطاع الامل امام الصليبيين فى استعادة ماأصبح بحوزته من الاراضى التى كانت تابعة لامارة الرها وانطاكية ، خصوصا وأنه اصبح يسيطر على بلاد فسيحة تمتد من منطقة

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٣١٨ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١١ ، ص ١٦٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٠٣ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢١٥ ــ ٢١٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ص ١٢٥ .

ــ ودلوك : بليدة صغيرة من نواحى العواصم قريبا من انطرطوس . انظر ياقوت . معجم البلدان .

(٢) عن سقوط دمشق بيد نورالدين محمود سنة ٥٤٩هـ انظر مايلى ص ٣٥٦ ــ ٣٦٠ .

الجزيرة مرورا بشمال الشام الى وسطها بالاضافة الى انه ضيق عليهم حتى حصرهم تقريبا فى داخل المنطقة الجبلية الواقعة الى الغرب من الاردن ونهر العاصى[١] .

ومن الملاحظ انه على الرغم من الصدمة النفسية التى منى بها الصليبيون على اثر سقوط دمشق بيد نور الدين محمود ، فانه لم يقم باعمال عسكرية لاقتطاع بعض الاراضى التابعة لامارة انطاكية او مملكة بيت المقدس ، بل انصرف الى الاهتمام بالامور الادارية والحضارية والسعى لتعزيز المذهب السنى وعمارة الاستحكامات واسوار المدن[٢] . ولم يكتف نور الدين محمود بهذا بل سعى سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م الى تقرير الموادعة والصلح مع ملك بيت المقدس بلدوين الثالث لمدة سنتين . ويبدو ان نور الدين محمود قد لجأ إلى الموادعة فى تلك السنة بسبب خوفه من أن يغدر به أهل دمشق خصوصا وانهم حديثو عهد بحكمة بالاضافة الى انه حصل فى بعلبك مااوجب عليه إرسال قوة عسكرية اليها لعزل الوالى بها واستبداله بوال آخر[٣] .

وفى سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م سار نور الدين الى قلعة حارم التابعة لامارة انطاكية الصليبية ، فضيق الخناق على من بها من الصليبيين حتى اضطرهم الى مراسلته طالبين منه عقد صلح معه . وترددت المراسلات بين من بها من الصليبيين ونور الدين الى أن تم عقد الصلح على نصف اعمال حارم ترفع إليه[٤] وعلى مايبدو فإن لجوء نور الدين محمود إلى عقد الصاح مع الصليبيين على نصف أعمال حارم إنما كان بهدف الحصول على اموال ينفقها على مشاريعه فى حلب ودمشق وتسديد ماكان مقرر لبلدوين الثالث ملك بيت المقدس على دمشق من قطيعة يأخذها ، اذ أن نور الدين محمود وافق على مضض على دفع مبلغ ثمانية الاف دينار لبلدوين الثالث ملك بيت المقدس وهو المبلغ الذى كان مقررا على حكام دمشق السابقين من أسرة طغتكين[٥] .

---

(١) كلودكاهن ، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ص ٢٤٩ .

(٢) العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٦٠١ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ٣٣١ ، ابوشامة الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٥٠ ، ٢٥٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢٢٧ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٢٢٤ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢٥٠ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢٠٨ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٠٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٠٥ ــ ٣٠٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٢٧ ــ ١٢٨ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ص ٢٥٣ .

(٥) ابن القلانسي ص ٣٣٦ ــ ٣٣٧ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٤٧ ــ ٦٤٨ .

حاول الصليبيون التطاول على نور الدين محمود ، وظنوا ان استمراره فى مواصلة عقد الهدنة معهم انما هو عن ضعف واستكانة فجرتهم هذه الامانى الى نقض الهدنة مع نور الدين محمود واغاروا فى اواخر سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م على مجموعة من الرعاة التركمان والعرب الذين كانوا يرعون قطعان كثيرة من الأغنام والمواشى فى سهول بانياس فاستاقوها واسروا بعض رعاتها من التركمان والعرب وعادوا بها وبهم الى بلادهم « ظافرين غانمين آثمين »[١] . ويضيف ابوشامة ان سبب نقض الصليبيين للهدنة التى بينهم وبين نور الدين محمود انما كان بحكم وصول اعداد كثيرة من المراكب التى تحمل ايضا اعدادا كثيرة من الصليبيين القادمين من اوربا[٢] . غير ان نور الدين محمود صاحب الروح المتوثبة لقتال الصليبيين ماان وصلته اخبار هذه الحادثة وهو ببعلبك حتى قرر الاخذ بثأر المسلمين من الصليبيين ومما شجعه على ذلك ماوصله من انباء تفيد بان اخاه ناصر الدين امير ميران ويلقب ايضا نصرة الدين ، قد ظفر بقوة من الصليبيين قدر عددها بنحو سبعمائة فارس كانوا فى طريقهم الى بانياس فى ربيع الاول من سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م بمكان يسمى رأس الماء . وبالاضافة الى ذلك فقد وصلت لنور الدين محمود بشرى ثانية تفيد بان اسد الدين شيركوه قد اوقع بالصليبيين فى شمال الشام وهو فى طريقه الى دمشق بقصد الاجتماع بنور الدين محمود والاغارة على بانياس « والمضايقة لها والجهاد فى افتتاحها »[٣] .

وهكذا توفر لنور الدين محمود من الاسباب ماشجعه على الاخذ بثأر المسلمين والاغارة على بانياس والاستيلاء عليها سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م . فلما وصل أسد الدين شيركوه الى دمشق قادما من شمال الشام توجه نور الدين محمود بعد ان كثر جمعه من العساكر ومنهم العلماء ورجال الدين المتطوعة ، فنزل بهم على بانياس وضايقها حتى

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٣٣٧ ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٥٨ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ص ٦٠٤ .

(٢) ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٥٩ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ٣٣٩ ــ ٣٤٠ ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٦٨ ــ ٢٦٩ . وراس الماء : ميدان فسيح للحرب فى حوران ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٦٨ . حاشية رقم ٤ .

اضطر صاحبها الهنفرى Hanphary ومن معه من الصليبيين إلى الألتجاء داخل قلعتها . وحاول نور الدين محمود اقتحام القلعة ولكن نجدة صليبية وصلت الى بانياس من بيت المقدس « فاقتضت السياسة الاندفاع عنها » . ولكن الملك بلدوين الثالث قائد النجدة الصليبية لبانياس بعد ماشاهده من الخراب والدمار النازل بها اضطر الى التراجع عنها الى قرية الملاحة بين طبرية وبانياس . وهناك قابل نور الدين محمود ورجاله الصليبيين الذين تجمعوا مع بلدوين الثالث ملك بيت المقدس . ودارت بين نور الدين والصليبيين معركة استطاع فيها المسلمون هزيمة الصليبيين هزيمة ساحقة مما مكنهم من الاستيلاء على بانياس . وكان لهذه الوقعة أهميتها فقد بينت للصليبيين قوة نور الدين محمود وغيرت نظرتهم اليه . ثم انها رفعت من مكانته بين رعاياه وزادت من شهرته حيث مدحه الشعراء وتناقل المسلمون اخبار هذه الموقعة فى المشرق والمغرب[1] .

لم ينعم نور الدين محمود بهذا النصر الذى حققه على الصليبيين قريبا من بانياس بسبب ماأصاب بلاد الشام تلك السنة من زلازل شديدة اضطرته الى العودة الى دمشق . وعقد هدنة مع ملك بيت المقدس بلدوين الثالث بهدف التفرغ لاصلاح ماخربته الزلازل التى كان اشدها فى حمص وحماة وشيزر[2] . ولكن الصليبيين الذين عرفوا بالغدر والمكيدة ونقض العهود والمواثيق استغلوا ماأصاب البلاد الاسلامية من اضرار كبيرة من جراء الزلازل التى اصابتها ، فسعى بلدوين الثالث الى نقض الهدنة المعقودة بينه وبين نور الدين محمود وسعى الى جمع الصليبيين من أنطاكية وطرابلس فى محاولة منه للاستيلاء على ماكان نور الدين محمود قد اقتطعه من ايديهم . غير ان نور الدين محمود على الرغم مما اصاب بلاده من خسائر فادحة نهض فى عساكره للتصدى للصليبيين الذين أغاروا على بلدتى حمص وحماه فأوقع بهم وهزمهم . فأدى ذلك الى رفع الروح المعنوية عند المسلمين للتصدى للصليبيين مرة أخرى[3] .

ومع بداية سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٨م طمع الصليبيون فى الاستيلاء على حارم ،

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٣٤٠ ــ ٣٤٢ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٠٨ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٧٠ ــ ٢٧١ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٣٤٣ ــ ٣٤٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢٢٠ ــ ٢٢١ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٢٢٨ ، الذهبى ، دول الإسلام ، جـ ٢ ، ص ٦٨ .

(٣) ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٧٣ .

فشرعوا فى مضايقتها الى ان ملكوها بالسيف مستغلين فى ذلك ماأصاب المسلمين من اضرار عقب الخراب الذى اصاب البلاد الاسلامية من جراء الزلازل التى حدثت فى السنة الماضية ، بالاضافة الى انشغال نور الدين محمود بتوطيد مركزه واصلاح أمور حلب . ولكن نور الدين لم يغفل ماأقدم عليه الصليبيون ، فشد الرحال على وجه السرعة من حلب الى دمشق ليكون قريبا من اعدائه الصليبيين بعد أن زاد عبثهم وفسادهم فى الاعمال الحورانية ، وداريا ، فوصلها فى ربيع الاول من السنة « وشرع فى تدبير امر الاجناد والتأهب للجهاد »[1] .

وعلى مايبدو فان ماشجع نور الدين على التأهب لامر الجهاد بهذه السرعة ماوصله من اخبار الحملة العسكرية التى خرجت من مصر ، ومأأنزلته بالصليبيين من هزيمة ساحقة بعسقلان فى عهد الوزير الفاطمى الملك الصالح ابوالغارات طلائع بن رزيك . ومما يؤكد ذلك تلك القصيدة التى بعث بها الوزير الفاطمى الى اسامة بن منقذ صاحب كتاب الاعتبار الذى كان موجودا بدمشق، يشرح فيها ماحققته الحملة الفاطمية من انتصار ساحق على الصليبيين ويطلب من أسامة ان يحرض نور الدين على قتال الصليبيين[2] .

وحاول نور الدين ان يفيد من هذه الوقعة فتوجه الى احدى معاقل الصليبيين باقليم السواد فالتقى بالصليبيين على جسر الخشب جنوب دمشق بينها وبين منازل العسكر ، واتفق ان وقع الاختلاف بين بعض عساكره مما اضطر بعضهم الى التراجع والتفرق بعد الاجتماع وبقى نور الدين ثابتا بمكانه فى عدة يسيرة من شجعانه وغلمانه وابطال خواصه ولكنه اضطر اخيرا الى الانسحاب « وعاد الى مخيمه سالما فى جماعته ولام من كان السبب فى اندفاعه بين يدى الافرنج »[3] .

---

(١) ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٨٨ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٠٩ .
وداريا : قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة . انظر ياقوت . معجم البلدان .

(٢) وهذه ابيات من القصيدة التى بعث بها طلائع بن رزيك الى اسامة بن منقذ بدمشق :

فقولوا لنـور الديـن لافـل حده ... ولا حكمت فيه الليالى الغـواشم
تجهـز الى ارض العـدو ولا تهن ... وتظهر فتورا ان مضت منك حازم
فنحن على ماقد عهدتم نروعهـم ... ونحلـف جهـدا انـنـا لانسالم

انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٩٠ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٢٣٣ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ٣٥٢ ، أنظر العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٦١٢ .

ورأى ملك بيت المقدس بلدوين الثالث أن الفرصة سانحة لان يفرض على نور الدين محمود مايوده من شروط عقب خسارة نور الدين فى الحملة التى قام بها على الصليبيين فى اقليم السواد فراسل نور الدين محمود فى طلب الصلح والمهادنة « وترددت المراسلات بين الفريقين » فى هذا الشأن ، فلم يصغ نور الدين محمود الى ماطلبه منه بلدوين الثالث بل اقام فترة من الزمن فى محاولة منه للنيل من الصليبيين ولكنهم لم يعودوا الى منازلته مما اضطره الى العودة الى دمشق فوصلها فى شعبان من سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٨م[١] .

ولما لم يجد بلدوين الثالث ملك بيت المقدس سبيلا الى فرض سيطرته على نور الدين محمود ولا حتى استرجاع مافقده الصليبيون على يده وجه انظاره الى الاستعانة بالامبراطور البيزنطى مانويل كومنين (٥٣٧ ــ ٥٧٦هـ / ١١٤٣ / ١١٨٠م) للاستعانة به فى استعادة مافقده الصليبيون ببلاد الشام فوافق الامبراطور على هذه الدعوة من ملك بيت المقدس ظنا منه باستعادة مكانته فى انطاكية وشمال الشام[٢] . ولم تنته سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٨م حتى وصل الامبراطور البيزنطى بالغدد الكبير من الرجال الى مرج الديباج[٣] واستطاع ان يفتتح عددا من الحصون بعد ان عجز الاتراك السلاجقة عن صده على الرغم من الخسائر الفادحة التى انزلوها به . اما نور الدين محمود فانه ماان بلغته اخبار وصول الامبراطور البيزنطى الى انطاكية فى شهر ذى الحجة من السنة المذكورة حتى شرع فى مكاتبة « ولاة الاعمال والمعاقل لاعلامهم ماحدث من الروم وبحثهم على استعمال التيقظ والتأهب للجهاد فيهم والاستعداد للنكاية بمن يظفر به منهم »[٤] .

وفى أنطاكية تم اللقاء بين الامبراطور البيزنطى وبلدوين الثالث ملك بيت المقدس ، وتم عقد تحالف بين الطرفين ضد المسلمين فى أوائل سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٩م عرف

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٣٥٢ ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٠٠ .

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٥٢ ــ ٦٥٥ .

(٣) مرج الديباج : من المناطق الواقعة عند الحدود الاسلامية قريبا من المصيصة وهذا المرج من اشهر الوديان الواقعة بين الجبال . انظر ياقوت . معجم البلدان .

(٤) ابن القلانسي ، ص ٣٥٤ ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ص ٣٠٤ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٨٥ ــ ٨٦ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٦١٥ ــ ٦١٦ .

باسم تحالف المصيصة[1] . وعلى الرغم من هذا التحالف الذى تم بين الصليبيين والبيزنطيين للوقوف فى وجه المسلمين الا أن الامبراطور البيزنطى بدلا من القيام باية عملية عسكرية ضد نور الدين محمود فقد أرسل اليه فى السنة نفسها ٥٥٤هـ / ١١٥٩م هدية وتحفا من اثواب وديباج فعاد رسول الامبراطور الذى ارسله الى نور الدين محمود بمثلما حمل واكثر . ولا يستبعد ان تكون الهدية التى ارسلها الامبراطور البيزنطى الى نور الدين محمود خدعة له واستجلاء لموقفه بدليل ماذكره ابن القلانسي ، أن الاخبار وردت عقب ذلك الى دمشق تفيد بعزم الامبراطور على اجتياح شمال الشام كحمص وحماه وشيزر مما دعا نور الدين محمود للتوجه الى هذه البلاد « لاياس اهلها من استيحاشهم من شر الروم والافرنج » ولكن نور الدين محمود لم يرْ من الامبراطور البيزنطى ماينم عن رغبته فى الهجوم على البلاد المذكورة فتوجه الى حلب فى جمادى الآخرة من سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٩م حيث قدم عليه هناك ولاة الاطراف ومقدموها لمجاهدة احزاب الكفر والضلال « من الروم والافرنج »[2] . واخيرا بفضل من الله عز وجل لم يحدث لقاء بين المسلمين من جهة والصليبيين والبيزنطيين من جهة اخرى حيث عقدت المهادنة والموادعة مع الامبراطور البيزنطى « بحسن رأي ملك الروم ومعرفته ماتؤول اليه عواقب الحروب » بعد ان اشترط اطلاق سراح زعماء ومقدمى الصليبيين الذين فى حبس نور الدين محمود ، ثم رحل الامبراطور البيزنطى عقب الهدنة مع نور الدين عائدا الى بلاده مشكورا محمودا ، لم يؤذ أحداً من المسلمين . فاطمأنت نفوس المسلمين بعد انزعاجها[3] .

وعلى اية حال فان عودة الامبراطور البيزنطى الى بلاده دون الاشتباك مع المسلمين جاءت تصديقا لما ذكره رنسيمان بان خروج الامبراطور البيزنطى الى بلاد الشام وعودته دون الاشتباك مع المسلمين فى معركة حاسمة انما كان بهدف استعراض قواته امام الصليبيين فى بلاد الشام ، الذين كانوا قد بلغوا درجة من الضعف لاتمكنهم من استعادة مافقدوه على يد نور الدين محمود ففت ذلك فى عضد الصليبيين[4] . اما بالنسبة

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ١٠ ص ١٩٠ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٠٧ ، والمصيصه . مدينة من مدن ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم . انظر ياقوت . معجم البلدان .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٣٥٦ — ٣٥٨ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ٣٥٨ ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٠٨ .

(٤) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٧٢ .

للمسلمين فقد عدوا عودة الامبراطور البيزنطى الى بلاده دون الاشتباك معهم عين الحكمة والصواب من جانب الامبراطور وقد عبر ابن القلانسي عن الشعور الذى ساد المسلمين عقب عودة الامبراطور الى بلاده بقوله « فاطمأنت القلوب بعد انزعاجها وقلقها وآمنت عقيب خوفها وفرقها »[1] .

وهكذا فشل المسعى الذى سعى اليه بلدوين الثالث ملك بيت المقدس بقصد التحالف مع الامبراطور البيزنطى للنيل من نور الدين محمود فى حلب ، ودمشق وشمال الشام ، كما فشلت قبل ذلك الحملة الصليبية الثانية ٥٤٣هـ / ١١٤٨م . وعلم الصليبيون فى بلاد الشام انه لابد لهم من الاعتماد على انفسهم فى سبيل مواجهة نور الدين محمود والاستعانة بما عسى أن يقذفه البحر من حمم الصليبيين القادمين من اوربا الى بيت المقدس ، لاداء فريضة الحج[2] .

وفى سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٩م وجد الصليبيون الفرصة سانحة للاغارة على حوران والبلاد التابعة لدمشق مستغلين فى ذلك وجود نور الدين محمود فى حلب . فقام بلدوين الثالث بغارات على دمشق ، ولكن نور الدين محمود عاد الى دمشق لما بلغه من افساد الصليبيين فى بلد حوران وبصحبته أسد الدين شيركوه . فلما وصل نور الدين محمود الى دمشق فى السنة نفسها جهز اسد الدين شيركوه فى فرقة من العسكر للقيام بعملية مضادة على الصليبيين فسار اسد الدين ومعه اخوه نجم الدين ايوب الى صيدا « ولم يشعر الفرنج الا وهو قد عاد إلى بلد صيدا وقتل واسر عالما عظيما »[3] . وفى اطار جهاد نور الدين محمود ضد الصليبيين فقد قام مجد الدين بن الداية نائب نور الدين محمود فى حلب بغارة لغزو الصليبيين فى سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م فلقى جوسلين دى كورتناى صاحب الرها الذى يطلق عليه ابن العديم اسم « جوسلين بن جوسلين » فأخذه اسيرا الى حلب[4] . وفى السنة التالية ٥٥٦هـ / ١١٦١م استطاع نائب نور الدين محمود فى حلب مجد الدين ابن الداية ان ينصب كمينا لريجنالد شاتيون (ارناط) صاحب انطاكية فى الجومه عندما كان عائدا من غارته التى قام بها على المسلمين التركمان فى

---

(٣) ابن القلانسي ، ص ٣٥٨ .

(١) انظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٥٧ .

(٢) ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٠٦ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣١١ .

عين تاب بين مرعش ودلوك ، فوقع فى الاسر حيث حمله ابن الداية الى حلب ، وبقى بها اسيرا مدة ستة عشر عاما[1] .

هكذا كانت محاولات الصليبيين فى استعادة بعض مااخذه نور الدين محمود من ايديهم فاشله ، فبدلا من ان يستعيدوا شيئا من اراضيهم فقدوا اثنين من زعمائهم ، جوسلين كورتناى ، وريجنالد شاتيون حيث وقعا فى الاسر ، فخلت انطاكية وشمال الشام من زعمائها واصبحت مكشوفة تماما لنور الدين محمود . غير انه لم يقم ضدها بغارات حربية من اجل الاستيلاء عليها . وانصرف نور الدين عن الهجوم على انطاكية فى ذلك الوقت خوفا ان يستعدى ملك بيت المقدس بلدوين الثالث . وكان الملك بلدوين الثالث قد اصبح له حق الدفاع عن انطاكية وشمال الشام بعد وقوع صاحب انطاكية فى أسر المسلمين . ولما كانت بلدة حارم بين مد وجذر بين المسلمين والصليبيين فقد وجد نور الدين محمود الفرصة سانحة للاستيلاء عليها ، فجمع جموعه فى سنة ٥٥٧هـ / ١١٦٢م وسار صوبها وضرب الحصار حولها وجد فى قتال من بها من الصليبيين الا انهم قد امتنعوا عن التسليم . ولما علم الصليبيون فى انطاكية وغيرها بما فرضه نور الدين محمود على حارم ، جمعوا فارسهم وراجلهم وساروا نحو حارم . فلما قاربوها طلب منهم نور الدين محمود اللقاء ، فلم يجيبوه « وراسلوه وتلطفوا الحال معه ، فلما رأى انه لايمكنه اخذ الحصن عاد الى حلب »[2] .

ولما لم يتمكن نور الدين محمود من الاستيلاء على حارم فى سنة ٥٥٧هـ / ١١٦٢م ، فقد صمم فى السنة التالية ٥٥٨هـ / ١١٦٣م على ان يتوغل فى بلاد الصليبيين فنزل بالبقيعه تحت حصن الاكراد على قصد المسير ومنازلة الصليبيين بطرابلس . غير أن الصليبيين الذين كانوا متيقظين لتحركات نور الدين محمود قد اجتمعوا وأنزلوا بالمسلمين — على غرة من نور الدين محمود — هزيمة انسحب بعدها

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣١٢ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٥٦٥ — ٥٧٧ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٨٧ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٦٢٠ . والجومة : بلدة صغيرة من نواحى حلب . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢٥٨ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٣١٢ ، ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٢٤١ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣١٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٣٤ — ١٣٥ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٦٢١ .

نور الدين محمود الى حمص ، بعد ان كثر القتل والاسر فى المسلمين وخصوصا السوقة والغلمان . وأقام نور الدين محمود فى مكان قريب من مكان الوقعة ، على الرغم من معارضة بعض اصحابه ، ولكنه رفض الابتعاد عن الصليبيين وقال : « والله لا أستظل بجدار حتى آخذ بثأر الاسلام وثأرى »[1] .

ومن حمص ارسل نور الدين محمود رسله الى دمشق وحلب لاحضار الاموال والدواب والاسلحة وسائر ماتحتاج اليه العساكر وعاد لمنازلة الصليبيين الذين تقهقروا عن التقدم الى حمص قائلين « انه لم يفعل هذا الا وعنده من القوة مايمنعنا » ، ولذلك وجدوا ان مهادنة نور الدين محمود خيرا من منازلته ، فراسلوه وطلبوا منه المهادنة (فلم يجبهم اليها فتركوا عند الحصن من يحميه وعادوا الى بلادهم)[2] . أما نور الدين محمود فقد عاد الى حلب بعدما عجز الصليبيون عن منازلته . وعلى مايبدو فان عودة نور الدين محمود الى حلب لم تكن للاستكانة والابتعاد عن الصليبيين ، بل كانت عودته الى حلب للاستعداد للاخذ بثأره وثأر المسلمين ، بدليل قيامه فى سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٣م بالمسير الى بلاد الصليبيين لانتزاع حارم من ايديهم والاخذ بثأره مستغلا فى ذلك خلو بلاد الصليبيين منهم ، لان اكثرهم كان قد سار مع عمورى الأول ملك بيت المقدس الذى سار الى مصر ، نجدة لشاور ضد أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الايوبي . فأرسل نور الدين محمود الى اصحابه بحلب والموصل وغيرهما واستنجد بهم ، فاجتمعوا عنده بحلب . ولما بلغت اخبار المسلمين واجتماعهم بحلب الى الصليبيين اجتمعوا هم ايضا فى حدهم وحد يدهم وعدهم وعديدهم » يتقدمهم بوهمند الثالث صاحب انطاكية وريموند الثالث صاحب طرابلس وعامل بيزنطة على قليقيه « وجمعوا مالايقع عليه الاحصاء » ، وساروا صوب حارم التى وصلها نور الدين محمود . فلما وصل الصليبيون الى حارم انسحب نور الدين محمود الى ارتاح استدراجا لهم فى مكان فسيح ، فرحلوا خلفه حتى بلغوا قرية « عم » وهى قرية بين حلب وانطاكية وفيها التقى الجمعان ، ودارت رحى معركة عنيفة اسفرت عن هزيمة الصليبيين تكبدوا خلالها مايزيد

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢٩٤ ــ ٢٩٥ ، انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١١٦ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٢٤٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٤٦ .

(٢) ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣١٩ ــ ٣٢٠ ، انظر ابن العديم زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣١٣ ــ ٣١٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٣٥ ــ ١٣٧ .

عن عشرة آلاف قتيل ، ووقوع اعداد كثيرة من الاسرى فى ايدى المسلمين منهم صاحب انطاكية بوهمند الثالث وريموند الثالث صاحب طرابلس وعامل بيزنطة على قليقية وابن جوسلين[1] . ثم سار نور الدين محمود الى حارم فملكها فى الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٣م فى الوقت الذى بث نور الدين محمود سراياه الى انطاكية وواصلت سيرها حتى بلغت اللاذقية والسويداء . وقد احتفظ نور الدين محمود بجميع اسراه الذين أسرهم عدا بوهمند الثالث صاحب انطاكية فقد باعه نور الدين بمبلغ جزيل من المال وفكاك أسر جماعة من الاسرى المسلمين[2] . وعقب هذه الهزيمة التى منى بها الصليبيون والارمن والبيزنطيون ، أشار اصحاب نور الدين محمود عليه بالهجوم على انطاكية ولكنه رفض المسير اليها خشية ان يستعين من بها من الصليبيين بالامبراطور البيزنطى مانويل كومنين ويسلموها اليه فعندئذ يصعب على المسلمين منازلة الصليبيين فى اى مكان كان من بلاد الشام . وقال لاصحابه : « ان مجاورة بيمند أحب الي من مجاورة ملك الروم »[3] . وعلى مايبدو فان هذا القول الذى قاله نور الدين محمود لاصحابه كان وراء اطلاق سراح بوهمند الثالث صاحب انطاكية من الاسر كما سبق ذكره .

هكذا استطاع نور الدين محمود ان يأخذ بثأره وثأر المسلمين لما نزل بهم فى البقيعة تحت حصن الاكراد فى السنة الماضية سار بعدها نور الدين محمود الى دمشق ــ بعد أن اذن لعساكر الموصل وديار بكر بالعودة الى بلادهم ــ وبصحبته اخوه ناصر الدين أمير ميران الذى حضر معه وقعة حارم . ولما وصل نور الدين محمود الى دمشق جمع عساكره وسار بها صوب بانياس فى السنة نفسها ٥٥٩هـ / ١١٦٣م لعلمه بقلة من فيها من الصليبيين فنازلها وضيق عليها وقاتلها حتى فتحها عنوة وقهرا فى السنة التالية ٥٦٠هـ / ١١٦٤م ، ولم يكتف نور الدين محمود بهذا بل شاطر

---

(١) هو ثوروس الثانى (Thoros II) صاحب ارمينية ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٩ ، حاشية رقم (٤) .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٢٢ ــ ١٢٥ ، انظر ابن الاثير ، الكامل جـ ١١ ، ص ٣٠١ ــ ٣٠٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣١٨ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٩ ــ ٣٤٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية جـ ١٢ ، ص ٢٤٨ . والسويداء : بلدة مشهورة من نواحى حوران ، ودمشق على البحر المتوسط . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٢٥ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٠٣ ــ ٣٠٤ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٤٢ ، حاشية رقم (٢) .

الصليبيين على أعمال طبرية ، وقرروا له على الأعمال التى لم يشاطرهم عليها مالا يدفعونه كل سنة[1] . ويلاحظ ان هذه الانتصارات التى حققها نور الدين محمود فى بلاد الشام بحارم وبانياس لم تقتصر على اضعاف الصليبيين بالشام بل اجبرت ملك بيت المقدس عمورى الأول على عقد الصلح مع اسد الدين شيركوه فى مصر بقصد العودة الى الشام لمنع نور الدين محمود من الاستيلاء على بانياس ولكن الصليبيين لم يصلوا الى بلاد الشام الا وقد ملكها نور الدين محمود[2] .

واذا كان نور الدين محمود قد استطاع اجبار الصليبيين على العودة من مصر بطريق غير مباشر ، وذلك بما انزله باخوانهم فى بلاد الشام ، فانه لم يتوقف عن هذا الحد من منازلة الصليبيين فى وسط بلادهم ، ففى سنة ٥٦١هـ / ١١٦٥م استطاع الاستيلاء على حصن المنيطرة بالقرب من طرابلس[3] . وقد عمد نور الدين محمود فى المرحلة التالية الى المباغتة فى حروبه التالية مع الصليبيين ، دون ان يترك لهم المجال فى الاستعداد وملاقاته فى ميادين فسيحة . وبهذه الطريقة التى اتبعها نور الدين محمود فى حروبه مع الصليبيين استطاع فى السنة التالية ٥٦٢هـ / ١١٦٦م التوغل فى بلاد الصليبيين واستولى على كثير من حصونهم وخرب بلادهم . ثم سار الى بانياس وقصد قلعة هونين وهى للصليبيين من قلاعهم المنيعة قرب بيروت . فلما لم يستطيعوا الدفاع عنها احرقوها وخرجوا منها فوصلها نور الدين محمود واراد الدخول الى بيروت فتجدد فى العسكر خلف اوجب التفرق فعاد الى حمص[4] . وبالاضافة الى ذلك فقد اجبرت انتصارات نور الدين محمود فى سنتى ٥٦١هـ / ١١٦٥م و ٥٦٢هـ / ١١٦٦م عمورى الأول ملك بيت المقدس على الانسحاب مرة اخرى من مصر فى الوقت الذى

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٠٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٣٢١ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٣٠ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣١٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٤٣ ــ ١٤٦ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٥٦ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٢٢ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٣١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٢٢ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٤٨ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٥١ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٢٤ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٧٤ ــ ٣٧٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥٢ ــ ١٥٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٥٣ .

كان فيه فى مركز من القوة بحيث كان يمكنه الاستيلاء على الاسكندرية من صلاح الدين وأسد الدين شيركوه ، ولكنه اضطر الى قبول عقد الصلح معهما ليعود الى بلاد الشام لتدارك الاوضاع . وحين اشتدت وطأة الصليبيين والبيزنطيين فى حصارهم لدمياط سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م اوغل نور الدين محمود فى تخريب بلاد الصليبيين في الشام ، بالاضافة الى مازود به صلاح الدين من امدادات عسكرية يتلو بعضها بعضا ، اجبرت الصليبيين على العودة الى بلادهم لتفقدها[1] . ويمكن القول ان ماقام به نور الدين محمود من اعمال عسكرية فى اطار جهاد الصليبيين فى الفترة من ٥٥٩هـ / ١١٦٣م حتى ٥٦٥هـ / ١١٦٩م لايخرج عن كونه ضغط على زعماء بيت المقدس فى مجال التسابق بينه وبينهم فى الاستيلاء على مصر ، وقد نجح نور الدين محمود فعلا فى هذه السياسة التى كانت من أكبر العوامل على تراجع الصليبيين عن مصر .

ـ نور الدين محمود وتوحيد القوى الاسلامية فى الشام والجزيرة :

اذا كان نور الدين محمود بن زنكى قد ورث عن والده مقاومة الصليبيين فى بلاد الشام فقد ورث ايضا عبء ضم دمشق الى حلب لاستكمال توحيد القوى الاسلامية فى الشام والجزيرة . ولما كان حكام دمشق قد عانوا الامرين من عماد الدين زنكى قبل وفاته سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م فقد وجدوا الفرصة سانحة عقب ذلك وقاموا بحملة على بعلبك التى كان بها نجم الدين ايوب والد صلاح الدين الايوبى ، نائبا عن عماد الدين زنكى . وبعد حصار شديد اضطر نجم الدين الى التسليم ، وفى مقابل ذلك اشترط نجم الدين ايوب على حكام دمشق من اسرة طغتكين اعطاءه اموالا كثيرة وقرى عديدة من اعمال دمشق فوافقوا على ذلك وتسلموا منه بعلبك[2] . ولم ينزعج نور الدين محمود لهذه الخطوة التى قام بها حكام دمشق تجاه بعلبك وذلك لانشغاله بامر الصليبيين فى الرها واستعادتها منهم كما سبق ذكره . ولم يحاول نور الدين محمود ان يجابه حكام دمشق ويعاديهم منذ بداية حكمه ، بل نراه فى شوال من سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م يسعى الى توطيد علاقاته بهم . وقد توج ذلك بالزواج من ابنة معين الدين أنر المحرك الرئيسى

---

(١) انظر مايلى ، ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩

(٢) ابن القلانسي ، ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٢٨ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٢٥ .

لسياسة دمشق[1] . واذا كان معين الدين أنر يرى انه صرف انظار نور الدين محمود عما قام به حكام دمشق تجاه بعلبك التى كانت فى يد عماد الدين زنكى قبل وفاته ، فان نور الدين محمود قد وجد فى هذا الزواج سبيلا الى التدخل مستقبلا فى شؤون حكام دمشق عن طريق هذه الزيجة ، خصوصا وان العلاقات بين معين الدين أنر والصليبيين قد تدهورت عقب نقض بلدوين الثالث ملك بيت المقدس للهدنة التى بينه وبين معين الدين أنر . ولم يقف الصليبيون عند هذا الحد بل قدموا المساعدة لصاحب بصرى وصرخد المعروف باسم التونتاشى ، فاضطر معين الدين أنر الى طلب المساعدة والنجدة من نور الدين محمود ضد الصليبيين فى أواخر سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م[2] .

لم يقف معين الدين أنر وزير مجير الدين ابق صاحب دمشق عند حد الاستعانة بنور الدين محمود ضد الصليبيين وضد الخارجين عليه فى بصرى وصرخد ، بل تعداه الى ان معين الدين أنر طلب المساعدة فى سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م من نور الدين محمود واخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل ضد الصليبيين حينما قرروا مهاجمة دمشق والنيل منها[3] . على أن فشل سياسة معين الدين أنر تجاه الصليبيين ساعدت نور الدين محمود على التدخل فى شئون دمشق ، ففى سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٨م عقد معين الدين أنر مهادنة مع الصليبيين لمدة سنتين . ولما كان الصليبيون قد اتصفوا بالغدر والخيانة فقد استغلوا وفاة معين الدين أنر فى السنة نفسها (٥٤٤هـ / ١١٤٨م) ووقوع الفتنة التى وقعت بدمشق عقب ذلك ، فطمعوا فى التدخل فى شئون دمشق والافساد فى الاعمال الحورانية بالنهب والسلب[4] .

ووجد نور الدين محمود الفرصة سانحة للتدخل فى شئون دمشق مستغلا الفتنة التى وقعت بدمشق وماقام به الصليبيون من الاغارة على اطراف البلاد التابعة لدمشق فاراد ان يختبر نوايا حكام دمشق ــ مجير الدين ابق بن محمد بن بورى ووزيره مؤيد الدين بن الصوفى ــ فبعث إليهما يخبرهما انه قصد الصليبيين ويطلب منهم إمداده بالف من

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٢٨٨ ــ ٢٨٩ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٢٩ ، الذهبى ، دول الاسلام ، جـ ٢ ، ص ٥٨ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٢٨٩ ــ ٢٩٠ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٢٩ ــ ١٣٠ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٠٣ ــ ٦٠٤ .

(٣) انظر ماسبق ، ص ٣١٩ ــ ٣٢١ .

(٤) ابن القلانسي ، ص ٣٠٤ ــ ٣٠٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٤٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٢٢ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٤٩ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢٨٦ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ٢٢ .

عساكر دمشق . ولم ينتظهر نور الدين محمود الرد من حكام دمشق بل سار صوب الصليبيين بالاعمال الحورانية القريبة من دمشق فى الوقت الذى اختار فيه حكام دمشق بين تقديم المساعدة لنور الدين محمود الذى لايؤمن جانبه على دمشق وبين الاعراض عن ذلك بناء على المعاهدة التى بينهم وبين الصليبيين . فأخذوا فى مغالطة نور الدين محمود ، ولما عرف ذلك رحل ونزل غرب دمشق بينما ترك بقية قواته بحوران بقصد مضايقة دمشق وغزو الصليبيين . فأشار عليه بعض اصحابه بالعودة الى حلب وطلب المساعدة من اصحاب الاطراف ، وذلك لما بين حكام دمشق والصليبيين من الاتفاق على الوقوف فى وجهه . ولكن نور الدين محمود لم يحفل بهذا كله وقال « لا أنحرف عن جهادهم » ولم يقف عند هذا الحد من التصميم على جهاد الصليبيين وخذلان حكام دمشق له ، بل عمد الى الامر على عساكره بعدم العبث والفساد فى الضياع التابعه لدمشق ، وأمر رجاله بالاحسان الى الفلاحين استمالة لقلوبهم ، فاستبشر الناس خيرا بنور الدين خصوصا وان الأمطار قد هطلت على بلاد الشام التى كانت مجدبة وقالوا : « هذا ببركته وحسن معدلته وسيرته »[1] . وبهذه الطريقة التى اتبعها نور الدين محمود تجاه رعايا حوران والضياع التابعة لدمشق ، عرف انه أحدث فجوة بين حكام دمشق ورعاياهم ، فتقدم الى دمشق ونزل على جسر الخشب جنوب دمشق فى ذى الحجة من السنة ٥٤٤هـ / ١١٤٨م وارسل الى مجير الدين أبق ، والى وزيره مؤيد الدين بن الصوفى واخبرهما بهدفه من الوصول الى دمشق ومايرمى اليه من جهاد الصليبيين . ولكنهما ردا على نور الدين محمود ردا قبيحا حيث قالا له : « ليس بيننا وبينك الا السيف وهدداه بالاستعانة ضده بالصليبيين الذين كانوا بزعامة بلدوين الثالث قد ساروا الى جنوب فلسطين لعمارة غزة المواجهة للحامية المصرية فى عسقلان[2] .

وعلى الرغم من تأكيد نور الدين محمود على حكام دمشق بتقديم المساعدة له لجهاد الصليبيين والسعى الى ترحيلهم عن غزه ، فانه لم يشأ ان يدخل معهم فى حرب لاراقة دماء المسلمين فى الوقت الذى يذكر ابن القلانسي الى جانب ذلك ان نور الدين محمود قد ترك الزحف على دمشق بسبب كثرة الامطار التى هطلت عليها وماتصل به من اخبار دعته الى ذلك ، مع مابذله حكام دمشق من الطاعة واقامة الخطبة له على

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٣٠٨ ــ ٣٠٩ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٣٠٨ ــ ٣٠٩ ، انظر اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٠ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ٦٢ ــ ٦٣ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٨٧ .

منابر دمشق بعد الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي ، وضرب اسمه على السكة « ووقعت الايمان على ذلك » وكافأ نور الدين محمود مجير الدين ابق وخلع عليه خلعة كاملة وعلى وزيره مؤيد الدين بن الصوفي وجماعة من الاجناد والخواص وعاد الى حلب في المحرم من سنة ٥٤٥هـ / ١١٤٩م « بعد احكام ماقرر وتكميل مادبر »[١] .

هكذا نجح نور الدين محمود في فرض سيطرته على حكم دمشق دون اراقة دماء المسلمين بالاضافة الى ماحصل عليه من عطف الكثيرين من رعايا وعساكر دمشق ، نتيجة مابذله من العطايا والهبات وما ابداه من معاداة للصليبيين ونحوه تجاه المسلمين[٢] . وعلى مايبدو فان نور الدين محمود لم يكتف بما بذله له حكام دمشق من الطاعة بل اراد التحرش بهم لاختبار نواياهم من ناحية واظهار عجزهم امام رعاياهم من جهة اخرى فسمح في السنة نفسها ٥٤٥هـ / ١١٤٩م لمجموعة من عساكر التركمان بالقيام بغارة عسكرية على بصرى وصرخد التابعتين لحكومة دمشق[٣] .

وانشغل نور الدين محمود بامر الصليبيين في انطاكية والرها وشمال الشام عن القيام بمحاولة جديدة للاستيلاء على دمشق بقية سنة ٥٤٥هـ / ١١٤٩م ، ولما دخلت سنة ٥٤٦هـ / ١١٥٠م سار نور الدين محمود بقواته صوب دمشق في محاولة منه للحصول على موافقة من مجير الدين ابق ووزيره مؤيد الدين بن الصوفي على انضمامهما معه في جهاده ضد الصليبيين . ونزل قريبا من دمشق فاستغل رعاع الناس واوباشهم كثرة عساكر نور الدين محمود واخذوا في احداث الفوضى والافساد في زروع الناس وبساتينهم ، فحصدوها واستأصلوها . ولما رأى نور الدين محمود ماحل بأهل دمشق أخذ في مراسلة بعض سكانها البارزين بقصد الحصول منهم على موافقة بالانضمام إليه في جهاده ضد الصليبيين « فلم يعد الجواب اليه بما يرضاه ويوافق مبتغاه » . فأخذ في الزحف حتى قرب من البلد ، وبدأ مناوشة عساكر دمشق ومطاردتهم دون الاذن لعساكره بالالتحام معهم « تحرجا من اراقة الدماء » ولكن جهل حكام دمشق وغرورهم قد حملهم

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٣٠٩ ــ ٣١٠ ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٧٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٢٨ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٢٠٦ ، حسن حبشي ، نورالدين محمود والصليبيون ، جـ ١ ، ص ٦٥ ، العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ص ٥٨٩ .

(٢) ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٧٩ .

(٣) ابن القلانسي ص ٣١١ .

على الاستعانة ببلدوين الثالث ملك بيت المقدس ، فوصل الى دمشق فى قوة صغيرة فى الوقت الذى أخذ نور الدين محمود فى التراجع عن دمشق الى ناحية الزبدانى « استجرارا لهم » . ولم تكن نجدة الصليبيين التى وصلت الى دمشق من القوة والكثرة بحيث يطمئن حكام دمشق على مواجهة نور الدين محمود ، فتقرر الامر بين الصليبيين وحكام دمشق على مواصلة السير والنزول على حصن بصرى للاستيلاء عليه واستغلال أعماله[1] .

هكذا لم يجد حكام دمشق فى النجدة التى طلبوها من الصليبيين مايشفى غليلهم فى الايقاع بنور الدين محمود ، بل جنى هؤلاء الحكام على أنفسهم وعلى رعاياهم ماائقل كاهلهم من النفقات والاموال التى قطعوها على انفسهم للصليبيين كما ادت هذه الاستغاثة بالصليبيين الى سخط الكثيرين من الاجناد والاحداث الذين لم ينضموا الى العساكر الدمشقية النظامية ضد نور الدين محمود حين نازل دمشق فى ربيع الاول سنة ٥٤٦هـ / ١١٥٠م « فلم يظهر منهم الا اليسير ممن كان يخرج اولا » . وعلى الرغم من الموقف المتخاذل الذى وقفه حكام دمشق تجاه نور الدين محمود واستنجادهم ضده بالصليبيين فانه لم يقم ضدهم بغارة حربية لاقتحام دمشق والقضاء عليهم بل عمل على القيام بمناوشات « من غير زحف ولاشد ولا محاربة كما يذكر المؤرخ المعاصر ابن القلانسي[2] . ولاشك ان عدم قيام نور الدين محمود بغارة عسكرية شديدة على دمشق انما كان رغبة منه فى عدم اراقة دماء المسلمين حيث قال : « لاحاجة الى قتل المسلمين بايدى بعضهم بعضا » ورأى ان الاحتفاظ بهذه العساكر الدمشقية اولى من سحقها « ليكون بذل نفوسهم فى مجاهدة المشركين » . فلما شعر من بدمشق بهذه النية الحسنة من نور الدين محمود ترددت المراسلات بينهم وبين نور الدين محمود فى عقد الصلح بين الطرفين حتى تم فى يوم الخميس العاشر من شهر ربيع الاخر من السنة ٥٤٦هـ / ١١٥٠م . وعلى الرغم من ان ابن القلانسي صاحب هذه الرواية قد أشار الى أسماء الاشخاص الذين قاموا بالمفاوضات بين الطرفين فانه لم يذكر شيئا عن الشروط التى تم الاتفاق عليها . ولكن يتضح من سياق حديث ابن القلانسي والحوادث التى جرت عقب ذلك ان من ضمن شروط الصلح التى تم الاتفاق عليها طاعة حكام دمشق لنور الدين وان يكون مجير الدين ابق نائبا عن نور الدين محمود فى دمشق . وان يسير

---

(١) ابن القلانسيص ٣١٢ ــ ٣١٤ ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٠٠ ــ ٢٠١ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٣١٥ .

ابق الى حلب لاظهار حسن الطاعة والنيابة عن نور الدين محمود فى دمشق ، فتم ذلك فى رجب سنة ٥٤٦هـ / ١١٥٠م[١] .

كانت غارات نور الدين محمود على دمشق ومحاولاته الاستيلاء عليها لاتنم الا عن مقصد واحد وهو الاستعانة بعساكر دمشق ضد الصليبيين وقطع الصلة بين حكام دمشق وحكام بيت المقدس الصليبيين . فلما كانت سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م تذرع نور الدين محمود بعدة اسباب جعلته يفكر جديا فى الاستيلاء على دمشق والقضاء على اسرة طغتكين التى طالما تحالفت مع الصليبيين[٢] . ومن الاسباب التى دفعت نور الدين محمود الى ذلك ، أن دمشق وقفت حجر عثرة فى وجه نور الدين محمود ، ومنعته من تقديم المساعدة للفاطميين بعسقلان حيث استنجدوا به ضد الصليبيين عندما حاصروها حصارا شديدا مما ادى الى سقوطها بايديهم سنة ٥٤٨هـ .[٣] وقد ذكر أسامة بن منقذ فى مذكراته العذر الذى كان نور الدين محمود قد اعتذر به فى عدم قدرته على الذهاب الى عسقلان حيث قال نور الدين محمود لاسامة بن منقذ « يافلان اهل دمشق اعداء والافرنج اعداء ماآمن منهما اذا دخلت بينهما »[٤] . ولذلك فان نور الدين محمود قد تأسف اشد الاسف على عدم قدرته فى نجدة الفاطميين بعسقلان حيث يقول ابن واصل « وكان نور الدين لما نازل العدو عسقلان يتأسف اذ لايمكنه الوصول اليهم ومنعهم عنها بسبب توسط دمشق بينه وبينهم »[٥] . اما السبب الثانى الذى تذرع به نور الدين محمود للاستيلاء على دمشق فهو شعوره بالمسئولية تجاه رعايا دمشق من المسلمين ، فقد فرض الصليبيون على اهل دمشق قطيعة يأخذونها منها كل سنة خصوصا بعد استيلاء الصليبيين على عسقلان . واخيرا فان نور الدين محمود خاف ان تسقط دمشق بايدى الصليبيين لما بلغه مجير الدين أبق من المهانة والاحتقار عند رعاياه حتى انهم حبسوه هو ووزيره مؤيد الدين بن الصوفى[٦] . فلما رأى نور الدين محمود ذلك خاف ان

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٣١٧ .

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٤٢ .

(٣) ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٢١ .

(٤) اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٤ .

(٥) ابن و اصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٢٦ .

(٦) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٩٧ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٠٦ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٠٣ .

يملك الصليبيون دمشق « فلا يبق حينئذ للمسلمين بالشام مقام »[1] . وصمم على القيام بالاستيلاء على دمشق ، ولكنه عرف انه لن يستطيع الاستيلاء عليها بالقوة لكثرة عساكرها واعوانها . وخاف نور الدين محمود ان يستعيد صاحبها مجير الدين ابق بالصليبيين فيصعب حينئذ الاستيلاء عليها . من هنا لجأ نور الدين محمود الى اعمال الحيلة فى الامر ، ففرض على دمشق حصارا اقتصاديا ، منع عنها كل مايصلها من المؤن والغلات من شمال الشام فزادت الاسعار ، وخلت البلاد من الخلق الكثير وكثر الموت فى الناس . عندها سعى نور الدين محمود الى استغلال هذه الاوضاع المتردية بدمشق فأخذ فى مراسلة مجير الدين ابق واستمالته بالهدايا واظهر له المودة حتى وثق به . ولم يقف نور الدين محمود عند هذا الحد ، بل سعى الى اشعال نار الفتنة بين مجير الدين وكثيرا من امراء دمشق حتى تخلص ابق من بعض رجاله المخلصين[2] . فلما لم يبق عنده احد من الامراء سوى عطاء بن حفاظ السلمى وكان شهما شجاعا فوض ابق اليه امر دولته فسعى بينهما نور الدين محمود حتى تخلص منه مجير الدين ابق فى سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م . وبهذه الطريقة نجح نور الدين محمود فى الايقاع بين مجير الدين ابق ورجال دمشق حتى تخلص منهم ابق واصبح وحيدا عرضة للاخطار .[3]

والى جانب ماقام به نور الدين محمود من حسن السياسة والتدبير مع امراء دمشق فقد أوعز الى قائده المشهور اسد الدين شيركوه بمراسلة نجم الدين ايوب بدمشق ، وحرضه على مساعدته فى الاطاحة بمجير الدين أبق وتسهيل فتح دمشق . ولم يكتف نور الدين محمود بهذا بل سعى الى استمالة احداث دمشق وزناطرتها[4] وطلب منهم تسليم البلد اليه فأجابوه[5] . الا أن نور الدين محمود على الرغم من استكماله لجميع

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٩٧ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٣٢٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٠٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٢٧ ، سعيد عاشور ، الحصار الاقتصادى على مصر زمن الحروب الصليبية فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ١٥٣ .

(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٠٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٠٥ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٣٨ .

(٤) الزناطرة : طبقة من سكان المدن كانت مولعة بتحريك الفتن والقلاقل . انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٨٥ حاشية رقم ٥ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٩٨ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٠٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٢٧ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٣٨ — ٢٣٩ .

الاجراءات التى تكفل له الاستيلاء على دمشق فقد ارسل من قبله سفارة الى دمشق على راسها أسد الدين شيركوه ولكن ابق اهمل الخروج اليه ، لانه راى فى هذه السفارة اهانة له « وقال : ماهذه رسالة ، هذه مكيدة »[1] .

وما ان بلغ نور الدين محمود مالقيه اسد الدين شيركوه ومن معه من العساكر النورية من مجير الدين ابق ورجاله حتى عزم على المسير الى دمشق فسار اليها بعد ان انضم اليه اسد الدين شيركوه . ونزل يوم الاحد الثالث من صفر سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م شرق دمشق بجميع عساكره فخرج اليهم رجال دمشق ووقع القتال بين الطرفين . فلما كان يوم الاحد العاشر من صفر ثار اهل البلد لما نزل بهم من الغلاء وقلة الاقوات وانقطاع الواصلين بالغلات وفتحوا الباب الشرقى ودخله نور الدين محمود فسر الناس كافة بدخوله لما هم عليه من الجوع والخوف من منازلة الصليبيين الذين كان مجير الدين ابق قد أرسل اليهم لطلب النجدة ضد نور الدين محمود ، ووعدهم بتسليم بعلبك اليهم ان هم اجبروا نور الدين محمود على الانسحاب عن دمشق . فالى أن اجتمعوا وجاءوا بلغهم استيلاء نور الدين محمود عليها فعادوا بخفى حنين أما مجير الدين أبق فقد التجأ بقلعة دمشق وراسله نور الدين محمود وبذل له الاقطاع الكثير من جملته مدينة حمص . فلما احس ابق بالهزيمة وافق على تسليم القلعة وخرج الى نور الدين محمود فطيب قلبه ودخل نور الدين محمود القلعة وسقطت دمشق بيده ونادى بالامان لاهل البلد ، وأمر عساكره بعدم القيام بنهب الدور وغيرها . وفى دمشق احسن نور الدين محمود معاملة اهل دمشق وقدم لاماثل الرعية والفقهاء ماسرهم « وزاد فى إيناسهم وسرور نفوسهم وحسن النظر اليهم » فاكثروا الدعاء له والثناء عليه والشكر لله على ماصاروا فيه . ولم يقف عند

---

(١) ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٣٩ ، انظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٤٥ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٣٢٧ ــ ٣٢٨ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٠٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٩٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٠٥ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٣٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٢٧ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٨ ، ابن العبرى ، مختصر الدول ، ص ٢٠٨ .

اما مجير الدين ابق فقد تجهز وسار الى حمص وظل بها حتى حدثته نفسه بمراسلة اهل دمشق فى محاولة منه للعودة اليها . فلما علم نور الدين محمود نقله الى بالس فلم يرض بها ورحل عنها الى بغداد حيث ظل بها حتى توفى هناك سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م . انظر ابن الاثير فى التاريخ الباهر ، ص ١٠٨ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٢٧٧ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٨١ .

هذا الحد من الانعام على اهل دمشق والبلاد التابعة لها بل سعى الى ابطال المكوس المفروضة على بعض حاصلاتهم الزراعية واطلاق سراح من كان فى سجن ابق من رجالات دمشق المشهورين[1] .

هكذا استطاع نور الدين محمود الاستيلاء على دمشق سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م دون اراقة دماء المسلمين بحسن سياسته . وبسقوطها فى يده انقطع ملك بيت آل طغتكين بعد ان استمر فى حكم دمشق ماينوف عن ثلاث وخمسين سنة ، فحقق نور الدين محمود حلم والده عماد الدين زنكى . واسقط فى ايدى الصليبيين الذين كانوا يكرهون سقوطها بيده على حد قول ابن الاثير « وكان ابغض الاشياء الى الفرنج ان يملك نور الدين محمود دمشق »[2] . وبإستيلاء نور الدين محمود على دمشق اصبح جميع مابالشام من البلاد الاسلامية تحت سيطرته عدا شيزر التى سقطت بعد ذلك[3] . والواقع ان استيلاء نور الدين محمود على دمشق كان نقطة تحول فى تاريخ الحروب الصليبية اذ اتحدت بلاد الشام مع الجزيرة واصبحت تحت سيطرته . واذا كان استيلاء الصليبيين على عسقلان سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م « قد ادى الى سيطرتهم على ساحل بلاد الشام فان سقوط الشام فان سقوط دمشق بيد نور الدين محمود فى السنة التالية ٥٤٩هـ / ١١٥٤م قد جعل له السيطرة على وسط وشرق بلاد الشام والجزيرة وجعل الصليبيين على شفى حفرة من الانهيار . والى جانب ذلك فقد حقق نور الدين محمود باستيلائه على دمشق ماكان والده قد سعى الى تحقيقه ، بالاضافة الى ان ذلك قد تم جانبا كبيرا من توحيد الجبهة الاسلامية التى كان والده قد استشهد فى سبيلها سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م والتى كان قيامها بمثابة ضربة مميتة للصليبيين فى بلاد الشام ، لان سقوط دمشق بيد نور الدين محمود قد حطم الحاجز الذي كان يفصل بين حلب وبيت المقدس أو بالاحرى بين شمال الشام وجنوبه فاصبحت مملكة بيت المقدس فى متناول يد نور الدين محمود وتحت رحمته كما كانت الرها من قبل تحت رحمة حكام الموصل ، ومما زاد

---

(١) ابن القلانسي ص ٣٢٨ — ٣٢٩ ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ق ١ ، ص ٢٤١ ، الصفدى ، امراء دمشق فى الاسلام ص ١٤٧ — ١٤٨ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٣١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٤٥ — ٦٤٦ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٠٨ ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٣٧ . ابن ايبك ، كنز الدرر ، جـ ٦ ، ص ٥٦١ .

(٣) انظر مايلى ، ص ٣٦٢ — ٣٦٣

من اهمية سقوط دمشق بيد نور الدين محمود فى هذه الاونة ان الامارات الصليبية لم تكن بينها رابطة كتلك الرابطة التى حققها نور الدين محمود بين صفوف المسلمين فى الشام والجزيرة[١] .

ولم تقف اهمية سقوط دمشق بيد نور الدين محمود عند حد الصدمة النفسية التى منى بها الصليبيون وقطع الصلة بين اماراتهم بل تعدتها الى ان بعض البلاد التى كانت بايديهم قد سلموها الى نور الدين محمود عن طواعية خوفا من مسيره اليهم كما فعل الصليبيون الذين كانوا فى قلعة تل باشر سنة ٥٥٠هـ / ١١٥٥م[٢] .

ولم يبق فى بلاد الشام من المدن الاسلامية ماهو خارج عن سلطة نور الدين محمود بعد سقوط بعلبك فى يده سنة ٥٥٠هـ / ١١٥٥م سوى شيزر التى ظلت بيد بنى منقذ الكنانيين على الرغم من الظروف والتغيرات التى حصلت فى بلاد الشام اثناء الحروب الصليبية واختفاء الكثير من الاسر الحاكمة لبعض البلاد الاسلامية لشدة التماسك الذى كان يربط زعماء هذه الاسرة بالاضافة الى المناعة الطبيعية التى تمتعت بها شيزر[٣] .

ولم يلق نور الدين محمود بالا فى اول الامر لشيزر تلك الامارة المنيعة وذلك لانشغاله بامر الصليبيين والاهتمام بامر دمشق والاستيلاء عليها وعلى البلاد التابعة لها . والدليل على ذلك ان سلطان بن منقذ الملقب بابى العساكر حين طرد ابناء اخيه مرشد عقب وفاته سنة ٥٣١هـ / ١١٣٧م لجأ بعضهم فى وقت متأخر الى نور الدين محمود ، وطلبوا منه أن يأخذ لهم بثأرهم من عمهم سلطان الا ان نور الدين محمود لم يستجب لهم « لاشتغاله بجهاد الفرنج ولخوفه ان يسلم شيزر الى الفرنج » . ولكن سلطان بن منقذ كان من الحنكة والسياسة ماجعله يحافظ على امارته من السقوط بيد الصليبيين فى الوقت الذى انصرف فيه عن الاصطدام بنور الدين محمود الذى كان فى

---

(١) انظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٤٦ ــ ٦٤٧ ، العرينى : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٩٩ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٥٥١ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٩٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٢٧ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ٢٩ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢٢٠ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٥٠ .

نفسه منه أثر كما يذكر ابن الاثير[1] . الا ان وفاة اباالعساكر سلطان ابن منقذ سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م وتولي ابنه تاج الدولة ناصر الدين محمد الامر من بعده قد دعاه خوفه من نور الدين محمود الى مراسلة الصليبيين ، فبلغ ذلك نور الدين محمود ، فاشتد غيظه لصاحب شيزر وانتظر الفرصة المواتية للاستيلاء عليها ، ولكنه انشغل عنها فى تلك السنة بامر دمشق[2] .

ولما كانت سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م استغل نور الدين محمود ماأحدثته الزلازل فى حمص وحماه وشيزر من اضرار جسيمة كان اشدها فى شيزر التى انهدمت على صاحبها تاج الدولة ناصر الدين محمد وافراد اسرته . فأسرع نور الدين محمود اليها وملكها واضافها الى بلاده وعمرها وعمر أسوارها[3] . وباستيلاء نور الدين محمود على شيزر اصبحت بلاد الشام الاسلامية فى حوزته واكتمل توحيد القوى الاسلامية ، وقطع بذلك الامل على الصليبيين والبيزنطيين الذين كانوا يودون تثبيت نفوذهم وقوتهم فى حماة وحمص وشيزر بعد قدوم الامبراطور البيزنطى الى بلاد الشام فى اواخر سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٨م[4] . اما عن علاقة نور الدين محمود بالاراتقة فى حصن كيفا وماردين فانه بحكم تقسيم مملكة عماد الدين زنكى بين ولديه سيف الدين غازى ونور الدين محمود فقد تحمل سيف الدين غازى عبء استرجاع مااستولى عليه الاراتقة من املاك والده ولم يقف عند هذا الحد بل استطاع حصار ماردين نفسها « وفعل بها الافاعيل العظيمة » ، مما اضطر حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين الى طلب عقد الصلح بينه وبين سيف الدين غازى صاحب الموصل فى سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م . كما استغل سيف الدين غازى ضعف قرا ارسلان صاحب حصن كيفا واستعاد منه بعض الممتلكات التى كان قد استولى عليها عقب وفاة والده عماد الدين زنكى سنة ٥٤١هـ /

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١١٢ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢٢٠ ، اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٢٦ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١١٢ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢١٩ ــ ٢٢١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٠٧ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٢٢٩ . وكان اسامة بن منقذ قد رثى افراد اسرته حين تهدمت عليهم شيزر بابيات من الشعر كلها شعور طيب . انظر اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، مقدمة المحقق ، ص ض ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٦٦ .

(٤) انظر ماسبق ص ٣٣٩

١١٤٦م[١] .

وبدأت علاقة نور الدين محمود بالاراتقة عقب وفاة سيف الدين غازى سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م ، فعندما حاصر نور الدين محمود سنجار فى تلك السنة (٥٤٤هـ) طلب المساعدة من فخر الدين قرا ارسلان صاحب حصن كيفا ، فاجابه قرا ارسلان وسار على راس قواته الى سنجار مما رجح كفة نور الدين محمود ضد حكام الموصل[٢] . اما صاحب ماردين حسام الدين تمرتاش فقد وقف موقفاً محايدا من النزاع الذى قام بين نور الدين محمود واخيه قطب الدين مودود حول سنجار التزاما بالصلح الذى كان قد تم بينه وبين مودود سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م[٣] .

ويمكن القول ان العلاقات الودية التى تمت بين نور الدين محمود وقرا ارسلان صاحب حصن كيفا قد سهلت له العمل على توسيع امارته والحصول على نصيبه من تركة امارة الرها الصليبية . فقد استطاع فى سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١م الاستيلاء على بلدة كركر وبعض الحصون الاخرى فى الوقت الذى استطاع فيه حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين الاستيلاء على سميساط فى السنة المذكورة[٤] .

لم تقف علاقة نور الدين محمود بالاراتقة عند حد الاستعانة بهم ضد اخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل ولا حتى السماح لهم بتوسيع اماراتهم على انقاض الصليبيين فى الرها ، بل تعدتها الى ان الاراتقة انفسهم قد بذلوا من نفوسهم بالتضحية مع نور الدين محمود فى جهاده ضد الصليبيين ووضع كل امكانياتهم تحت تصرفه . ففى سنة ٥٥٠هـ / ١١٥٥م قدم فخر الدين قرا ارسلان الى حلب عقب سقوط دمشق بيد نور الدين محمود فى السنة الماضية لتهنئة نور الدين محمود بذلك ، فوقع ذلك منه

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٩٠ ــ ٩١ ، انظر سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٢٠٣ ، عمادالدين خليل ، الامارات الارتقية ص ١٣١ ــ ١٣٢ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٩٥ ــ ٩٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ، ص ١١٨ ــ ١٢٠ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٧٠ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢٨٦ ، .

(٣) عمادالدين خليل ، الامارات الارتقية ، ص ١٣٢ .

(٤) ابن القلانسي ، ص ٣١٥ ، عصام عبد الرؤوف ، بلاد الجزيرة ص ١٧٨ .

موقعا حسنا وقدم له ماجل قدره من الهدايا[1] . واذا كانت هذه الخطوة من قبل قرا ارسلان تجاه نور الدين محمود بمثابة النجاح لنور الدين محمود فى سبيل توحيد الجبهة الاسلامية فان الاستاذ عماد الدين خليل قد عدها ايضا بمثابة اخرج امارة حصن كيفا من العزلة الطويلة تجاه ماكان يجرى فى بلاد الشام زمن عماد الدين زنكى[2] . ولايستبعد بعد هذه الخطوة التى خطاها صاحب حصن كيفا تجاه نور الدين محمود ان يكون قرا ارسلان من ضمن اصحاب الاطراف والمعاقل الاسلامية التى كاتبها نور الدين محمود سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م بالاستعداد الى الوقوف صفا واحدا الى جانبه لجهاد الصليبيين . غير ان مرضه هذه السنة ووقوع الزلازل ببلاد الشام قد حال دون قيام نور الدين محمود بمنازلة الصليبيين وتحقيق غرضه[3] .

وفى اطار تحسن العلاقات بيد نور الدين محمود والاراتقة فانه لما عزم فى سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٣م على الأخذ بثأره من الصليبيين عما وقع عليه تحت حصن الاكراد فى العام الماضى ٥٥٨هـ / ١١٦٢م ، بعث الى فخر الدين قرار ارسلان صاحب حصن كيفا ونجم الدين ألبي صاحب ماردين[4] وطلب منهما المساعدة والمعاضدة ضد الصليبيين فقدما عليه وانضما الى قواته بحيث استطاع نور الدين محمود بمن معه من المسلمين هزيمة الصليبيين والاستيلاء على حصن حارم وغيره من بلاد الصليبيين[5] .

على ان العلاقات بين نور الدين محمود وفخر الدين قرا أرسلان لم تتأثر بمحاولة بعض الخصوم العمل على قطعها ، ففى سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٣م ، استغل ناصر الدين امير ميران شقيق نور الدين محمود العلاقات الطيبة بين نور الدين محمود وقرا ارسلان ، فلجأ ناصر الدين الى قرا ارسلان واستجار به من اخيه نور الدين محمود فأجاره ، ولكنه لم يشجعه على عصيان اخيه بل سعى فخر الدين قرا ارسلان الى اصلاح مابين

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٣٣٢ .

(٢) عمادالدين خليل ، الامارات الارتقية ، ص ٢٩٥ .

(٣) ابن القلانسي ، ص ٣٣٨ ، ٣٤٨ — ٣٤٩ .

(٤) كان حسام الدين تمرتاش قد توفى سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م بعد حكم استمر نيفا وثلاثين سنة فتولى امارة ماردين من بعده ابنه نجم الدين البى بن حسام الدين تمرتاش . انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٦٣ ، ابن القلانسي ، ص ٣٢٩ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ٢٦ .

(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٠٨ — ٣١٩ ، عصام عبدالرؤوف ، بلاد الجزيرة ص ١٧٧ .

الاخوين ، وعملا سويا على فتح بانياس هذه السنة[1] . ويمكن القول انه لولا رحابة صدر نور الدين محمود ورغبته الاكيدة فى لم شعث المسلمين لسعى الى الانتقام من فخر الدين قرا ارسلان واخيه ناصر الدين امير ميران ، ولكنه قبل شفاعة حليفه قرا ارسلان فى أخيه .

واذا كانت العلاقات بين نور الدين محمود وقرا ارسلان صاحب حصن كيفا قد زادت اواصرها وتعمقت من اجل الوقوف فى وجه الصليبيين فانها قد تعدت الى اكثر من ذلك . ففى سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٦م وحين اشتد مرض الموت بفخر الدين قرا ارسلان ارسل الى نور الدين محمود واوصاه بابنه نور الدين محمود بن قرا ارسلان . فلما توفى قرا ارسلان هذه السنة قام نور الدين محمود بنصرة ولده والدفاع عنه حتى ان قطب الدين مودود صاحب الموصل حينما حاول مهاجمة حصن كيفا بغية الاستيلاء عليها ، أرسل اليه نور الدين محمود بن زنكى وهدده فى حالة قيامه بهجوم على حصن كيفا ، فتراجع قطب الدين مودود عن الهجوم على حصن كيفا خوفا من أخيه[2] .

وعلى الرغم من وفاة حسام الدين تمرتاش سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م وفخر الدين قرا ارسلان سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٦م فان علاقة نور الدين محمود بالارتقة لم تنقطع ولم تقتصر عليهما ، ففى سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م قام شهاب الدين الياس بن ايلغازى صاحب البيرة بمساهمة فعالة فى جهاد الصليبيين حيث سار شهاب الدين هذه السنة على راس قوة من رجاله نحو المائتين من الرجال بقصد الاجتماع بنور الدين محمود وهو بعشترا[3] ، فصادف فى طريقه ثلاثمائة من الصليبيين بالقرب من بعلبك قد خرجوا من حصن الاكراد للاغارة على البلاد الاسلامية فى البقاع ، فتم اللقاء بينهما واقتتلوا قتالا شديدا ، وقع فيه عدد كبير من القتلى من الجانبين الا ان النصر كان حليف المسلمين حيث وقع بايديهم الكثير من الاسرى والغنائم ، ولم تقف هذه الحادثة حجر عثرة فى وجه شهاب الدين بن ايلغازى عن مواصلة سيره ومقابلة نور الدين محمود ، فقد سار الى

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٥٢ ، ابن واصل مفرج الكروب جـ ١ ، ص ١٣٠ ، حاشية رقم (٤) .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٢٩ ــ ٣٣٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥٣ ــ ١٥٤ .

(٣) عشترا : موضوع بحوران من اعمال دمشق . انظر ياقوت ، معجم البلدان ص ١٢٥ .

نور الدين محمود بعشترا فاحسن استقباله وسر بالنصر الذى حققه على الصليبيين[1] .

وكما كان فخر الدين قرا ارسلان حليفا مخلصا لنور الدين محمود مد له يد العون سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م ضد حكام الموصل عقب وفاة سيف الدين غازى فقد سار ابنه على نفس السياسة حيث انضم الى جانب نور الدين محمود سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م عندما توجه نور الدين محمود الى الموصل على اثر وفاة اخيه قطب الدين مودود سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م وذلك بهدف تصفية مشاكل الموصل وضمها الى جانبه ، وكان لانضمام نور الدين ابن قرا ارسلان الى جانب نور الدين محمود فى حملته على الموصل اثر فى ترجيح كفته على خصومه الذين اضطروا الى طلب الصلح واعلان الطاعة لنور الدين محمود بن زنكى . بعدها عاد نور الدين محمود الى حلب . بينما سار حليفه ابن قرا ارسلان الى مقر امارته فى حصن كيفا[2] .

وهكذا قدم الاراتقة فى حصن كيفا وماردين وحصن البيرة لنور الدين محمود بن زنكى كل مساعدة ممكنة ليس ضد الصليبيين فحسب بل وضد خصومه من البيت الزنكى فى الموصل ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل شكلوا فى عهد نور الدين محمود خط الدفاع الثانى او بالاحرى مركز الامدادات على حد قول احد الباحثين المحدثين ، فقد قدموا لنور الدين محمود المساعدات المالية والعسكرية خلال قتاله مع الصليبيين ، وغيرهم كحلفاء مخلصين وليسوا كاتباع خاضعين .[3]

على أن نور الدين محمود لم يتحرج ـــ على اثر ماحققه من انتصارات عسكرية على الصليبيين وماحققه من توحيد للجبهة الاسلامية فى الشام والجزيرة ـــ فى ان يطلب من الخليفة العباسى المستضئ بأمر الله سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م تقليدا له بما تحت يده من البلاد كمصر والشام وبلاد الجزيرة والموصل وما فى طاعته كديار بكر التى هى فى

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٥٣ ـــ ٣٥٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٨٨ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧١ ـــ ٤٧٢ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٥٢ ـــ ١٥٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٣٢ ، العرينى ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٨٥ .

(٣) عمادالدين خليل ، الامارات الارتقية ، ص ٢٩٢ .

حوزة الاراتقة ، ولذلك فانه لم يحصل من الاراتقة على معارضة[1] . بل نراهم فى السنة التالية ٥٦٩هـ / ١١٧٣م يلبون دعوة نور الدين محمود فى الوقوف الى جانبه لغزو الصليبيين فى بلاد الشام ومواصلة السير معه الى مصر[2] .

اما عن علاقة نور الدين محمود بحكام الموصل فقد تمثلت بوجه عام فى محاولة خلق جبهة اسلامية متحدة الاركان قوامها الموصل وحلب واعتبر نفسه مسئولا عن ذلك لانه ورث عن والده فى حلب مشكلة جهاد الصليبيين ، وهذا لايتم بنجاح الا بتوحيد الجبهة الاسلامية . ولكن اخاه سيف الدين غازى صاحب الموصل بحكم كبر سنه رأى انه لابد من فرض السيطرة على حلب الخاضعة لنور الدين محمود . ولذلك فقد سعى نور الدين محمود الى توطيد علاقاته باخيه سيف الدين غازى واجتمع به فى سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م على الخابور وتم الاتفاق بينهما على المحافظة على مملكة والدهما عماد الدين زنكى[3] . وقد ظلت العلاقات حسنة بين سيف الدين غازى ونور الدين محمود لم تشبها أية شائبة حتى وفاة سيف الدين غازى سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م وتولى الامر من بعده فى الموصل اخوه قطب الدين مودود وهو أصغر سنا من نور الدين محمود[4] .

وجد نور الدين محمود الفرصة مواتية للاستيلاء على بعض البلاد التابعة للموصل ، بقصد الحصول على اموال لتحسين اوضاعه الاقتصادية من ناحية ومساومة قطب الدين مودود على الانسحاب من البلاد التابعة له فى الشام كحمص والرحبة من جهة اخرى . وقد استطاع نور الدين محمود تحقيق ذلك حينما قام فى نفس السنة (٥٤٤هـ / ١١٤٩م) بحملة عسكرية استطاع بها الاستيلاء على سنجار التى كانت كمخباً لأموال والده التى خلفها عقب استشهاده سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م . ولم تقف اهمية استيلاء

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٩٥ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٦٢ . كان الخليفة العباسى المستضئ بأمر الله قد حكم فى بغداد مابين سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م حتى سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م ، وفى خلافته انقضت الدولة الفاطمية فى مصر ، انظر السيوطى ، تاريخ الخلفاء ص ٤٤٤ ــ ٤٤٧ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٤٠٢ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١١٢ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٢٤ ــ ١٣٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١١٥ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٩٢ ، ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٠٧ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢٨٦ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ٢٠ .

نور الدين محمود على سنجار عند حد حصوله على الاموال والذخائر بل تعدتها الى انه استطاع مساومة حكام الموصل بها على الانسحاب من حمص والرحبة فى بلاد الشام فحقق نور الدين محمود بذلك اهدافه التى سعى من أجلها فى حملته على سنجار[١] .

ظلت العلاقات حسنة بين نور الدين محمود واخيه قطب الدين مودود فى الموصل ، ولم تمدنا المصادر التى بين ايدينا مايدل على حصول اصطدام بينهما ، او حتى استعانة اى منهما بالاخر الا ماذكر ان نور الدين محمود حين الم به المرض فى اواخر سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٨م كتب الى أخيه قطب الدين مودود واخبره انه قد اختاره لان يتولى امر المسلمين من بعده[٢] . وفى سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٩م لبى قطب الدين مودود داعى الجهاد ضد الصليبيين والبيزنطيين حين كتب نور الدين محمود الى اصحاب الاطراف فى تلك السنة ، ولم يقف قطب الدين عند حد تلبية الدعوة ، بل سار من الموصل الى حلب . غير ان الهدنة التى عقدها نور الدين محمود مع الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين حالت دون الاشتباك الفعلى بين نور الدين محمود ومن إنضاف اليه من القوات الاسلامية من جهة والصليبيين من جهة اخرى[٣] . ولذلك فان نور الدين محمود قد اكرم وفادة اخيه وجميع العساكر الاسلامية التى قدمت الى بلاد الشام ، ووهبهم من الهدايا الكثيرة والخيول العربية والبغال الشئ الكثير[٤] .

الواقع ان الاخوين نور الدين محمود وقطب الدين مودود قد سارا فى طريق واحد وهو الوقوف فى وجه الصليبيين ، فلم ير نور الدين محمود اية عضاضة فى الاستعانة باخيه قطب الدين وعساكر الموصل للاخذ بثأره وثأر الاسلام بعد الهزيمة التى لحقت به سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٢م تحت حصن الاكراد . ولهذا فقد قدم قطب الدين مودود على راس عساكره وانضم تحت لواء اخيه نور الدين محمود حيث استطاعا فى السنة التالية ٥٥٩هـ / ١١٦٣م انزال هزيمة ساحقة بالصليبيين استطاعا بعدها الاستيلاء على حارم من الصليبيين[٥] . ولما كانت سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٥م عاد قطب الدين مودود الى

---

(١) انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٩٤ — ٩٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٣٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٩٦ — ٢٩٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١١٨ — ١٢٠ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٣٥٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٠٨ .

(٣) انظر ماسبق ، ص ٣٤٠ — ٣٤١ .

(٤) ابن القلانسي ، ص ٣٥٨ .

(٥) انظر ماسبق ، ص ٣٤٥ — ٣٤٦ .

حلب مرة اخرى لمساعدة نور الدين محمود وقد إستطاعا فعلا اجتياح الكثير من بلاد الصليبيين ، عاد بعدها قطب الدين مودود الى الموصل وعرج قبل عودته اليها على الرقة واخذها بعد ان تنازل له نور الدين محمود عنها[1] .

وهكذا ظلت العلاقات حسنة بين نور الدين محمود واخيه قطب الدين مودود حتى وفاة الاخير سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٨م مما صرف نور الدين محمود عن التفكير فى امر الموصل او المسير اليها للاستيلاء عليها ، لان قطب الدين مودود على حد قول ابن الاثير « كان حسن الاتفاق مع اخيه الملك العادل نور الدين ، كثير المساعدة له والانجاد بنفسه وعسكره وامواله . وكان يخطب له فى بلاده باختيار من غير خوف »[2] . وكان قطب الدين مودود قد اوصى بالملك من بعده لابنه الاكبر عماد الدين ، ولكنه عدل عن ذلك ــ تحت ضغط فخر الدين بن عبد المسيح ووالدة سيف الدين غازى ابن قطب الدين مودود ــ الى ابنه الاصغر سيف الدين غازى ، لان عماد الدين بن قطب الدين مودود كان طوع عمه نور الدين محمود ، وكان نور الدين محمود يكره فخر الدين بن عبد المسيح فما كان من عماد الدين الا ان رحل الى عمه نور الدين مستنصرا به لاخذ الملك لنفسه ، فسار نور الدين محمود فى المحرم من سنة ٥٦٦هـ / ١١٦٩م وعبر الفرات واستعاد فى طريقه الرقة والخابور ونصيبين ، وحاصر سنجار وملكها وسلمها الى عماد الدين ابن قطب الدين مودود . وعبر دجلة الى الجانب الشرقى ونزل على حصن نينوى فارسل فخر الدين عبد المسيح الى نور الدين محمود بشان تسليم بلد الموصل اليه على أن يقره بيد سيف الدين غازى ، وان يمنحه نور الدين محمود الامان له ولاهله ، فأجابه نور الدين محمود الى ذلك ، واشترط نور الدين على فخر الدين عبد المسيح ان يسير معه الى بلاد الشام ، فوافق وتسلم نور الدين محمود الموصل ، ودخل القلعة وامر بعمارة الجامع النورى وسلمها الى سيف الدين غازى على أن يكون سعد الدين كمشتكين نائبا عنه الموصل ، وأمر سيف الدين غازى بعدم التفرد بالامر عن سعد الدين كمشتكين ، عاد بعدها نور الدين محمود الى حلب بعد مضى اكثر من عشرين يوما وبرفقته فخر الدين بن

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٢٧ ــ ٣٢٨ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ص ٤٧٣ ، عصام عبدالرؤوف ، بلاد الجزيرة ص ١٧٨ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٤٩ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٦٣ ــ ٣٦٤ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧٢ ــ ٤٧٥ .

عبد المسيح[1] .

هكذا استطاع نور الدين الاستيلاء على الموصل فى الوقت المناسب دون اراقة دماء المسلمين . ولم يقف عند هذا الحد بل جعل من بها من الامراء طوع اختياره ، فأصبحت أملاك نور الدين محمود تمتد من الجزيرة فبلاد الشام الى مصر . ومايدل على خضوع الموصل لنور الدين محمود انه فى سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م عزم على غزو الصليبيين فى بلاد الشام والمسير الى مصر لتأديب صلاح الدين الايوبى ، فأرسل الى ابن أخيه فى الموصل وطلب منه القدوم الى حلب لمساعدته ، فما كان منه الا الموافقة على ذلك وخرج على راس عساكر الموصل وبصحبته سعد الدين كمشتكين ، الا أن خبر وفاة نور الدين محمود فى تلك السنة قد بلغه فعاد من طريقه الى الموصل[2] .

أما عن موقف الخلافة العباسية من جهود نور الدين محمود فى سبيل توحيد القوى الاسلامية فى بلاد الشام والجزيرة ومصر وجهاد الصليبيين فقد حرص نور الدين منذ البداية على أن تكون علاقته بالخلافة علاقة طيبة ، وكأنه فى حاجة ماسة الى مساندة الخلافة العباسية له . وتجنب سياسة والده عماد الدين زنكى فى استعداء الخليفة العباسى من اجل استرضاء السلاطين السلاجقة . ويمكن القول ان تجنب نور الدين محمود لسياسة والده عماد الدين زنكى تجاه الخلافة العباسية يرجع أيضاً الى ضعف السلطنة السلجوقية وانتعاش الخلافة العباسية فرغب نور الدين محمود فى إسترضاء جانب الخلافة لاضفاء روح الشرعية على اعماله العسكرية فى الشام والجزيرة[3] .

ولما كان نور الدين محمود قد رسم لنفسه سياسة تجاه الخلافة العباسية فلايستبعد ان يكون قد ادرك ان الخلافة العباسية قد بدأت عهدا جديدا وخصوصا فى عهد الخليفة العباسى المقتفى لامر الله (٥٣١ ــ ٥٥٥هـ / ١١٣٦ ــ ١١٦٠م) الذى وصفه

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٥٥ ، ٣٦٢ ــ ٣٦٥ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٤٦ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧٢ ــ ٤٧٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٢١ ــ ٣٢٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٨٨ ــ ١٩٦ ، البنداري ، البرق الشامى ، جـ ١ ، ص ٩٣ ــ ٩٤ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٢٨٢ .
نينوى : كانت قرية من قرى الموصل ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٧٥ ، ابن الوردى ، تتمة المختصر ، جـ ٣ ، ص ١٢٨ .

(٣) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٣٨ ، سعيد عاشور ، ظل الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية ، بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٦٤ ــ ٦٥ .

السيوطى بانه كان مبدأ صلاح الدولة العباسية حيث بدأت تهتم بشكل واضح بامر الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين بالاضافة الى انها املت فى نور الدين محمود مايحقق رغبتها فى الاطاحة بخلافة الفاطميين التى انتابها الضعف والتدهور فى منتصف القرن السادس الهجرى بعد ان كانت قد نازعت الخلافة العباسية سياسيا ومذهبيا فترة زمنية طويلة[١] .

وهكذا وافقت رغبة الخليفة العباسى المقتفى لامر الله اهداف نور الدين محمود فى توحيد الجبهة الاسلامية فى الشام والجزيرة ومواجهة الصليبيين ولذلك فقد تقرب نور الدين محمود من الخليفة العباسى ، فبعد ان هزم الصليبيين فى بغراس سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م ارسل الى الخليفة العباسى جملة من الغنائم والاسرى التى حصل عليها . ولم يكتف بهذا ، بل أرسل فى السنة التالية ٥٤٤هـ / ١١٤٩م جمجمة وذراع ريموند صاحب انطاكية بعد ان سقط صريعاً فى معركة أنب[٢] .

وعلى الرغم من اتفاق رغبة الخلافة العباسية مع اهداف نور الدين محمود ، فان سياسة الخلافة العباسية تجاه نور الدين محمود فى الشام كانت تتصف بنوع من الحذر خوفا من السلطان مسعود بن محمد ، ولكن وفاة الاخير سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م كان ايذانا باضمحلال امر السلاجقة وبدأ الخليفة العباسى المقتفى أمر الله يبدي اهتمامه بأمر الشام ومصر حتى ان السيوطى ذكر بان استيلاء نور الدين محمود على دمشق سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م كان بأمر من الخليفة العباسى المقتفى لامر الله[٣] . وأرسل الخليفة المقتفى الى نور الدين محمود عقب استيلائه على دمشق عهدا ببلاد الساحل ومصر واعمالها ، وأمره بالمسير الى مصر ولقبه بالملك العادل نور الدين[٤] .

لم يستطع نور الدين محمود تحقيق ماطلبه منه الخليفة العباسى المقتفى لامر الله

---

(١) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ٤٣٨ ــ ٤٣٩ ، سعيد عاشور ، ظل الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية ، فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٦٤ .

(٢) انظر ماسبق ، ص ٣٢٨ .

(٣) السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٣ ، انظر ابوالمحاسن النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٠٣ ، عبدالنعيم حسنين ، دولة السلاجقة ، ص ١٠٩ ، حسين أمين ، تاريخ العراق فى العصر السلجوق ، ص ١٢٥ .

(٤) عمادالدين الاصفهانى ، دولة آل سلجوق ، ص ٢١٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٣٢ ، السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٣٠١ ، سعيد عاشور ، ظل الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية ، ص ٦٦ .

بالتوجه الى مصر بعد استيلائه على دمشق سنة ٥٤٩هـ لانشغاله بامر الصليبيين ، واستكمال توحيد القوى الاسلامية فى الشام والجزيرة ، بينما ظلت العلاقات بين نور الدين محمود والخلافة العباسية طيبة لم تشبها اية شائبة ، حتى أن نور الدين محمود لم يتحرج فى ان يطلب من الخليفة المستنجد بالله النفقات والاسلحة لسد الثلمة ودفع الملمة على اثر الزلازل التى اجتاحت بلاد الشام سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م[١] .

وظلت علاقة نور الدين محمود بالخلافة العباسية على مايرام فى عهد الخليفة العباسى المستنجد بالله الذى خلف اباه المقتفى فى خلافة بغداد سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م واستمر فى الخلافة حتى وفاته سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م ولما توفى الخليفة العباسى المستنجد بالله سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م سعى نور الدين محمود الى توطيد علاقته بخليفته المستضئ بامر الله وحاول كل من الخليفة المستضئ ونور الدين محمود الاستفادة من الجانب الاخر ، فالخليفة العباسى استغل وصول نور الدين محمود سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠ الى الموصل ، فارسل اليه رسالة يعرفه فيها بخلافته ويطلب منه المبايعة فرحب بنور الدين بهذا وارسل من جانبه احد رجاله ليكون عند الخليفة العباسى نائبا عنه فى الخدمة الشريفة العزيزة[٢] . ويبدو ان ترحيب نور الدين محمود برسل الخليفة العباسى وموافقته على المبايعة للخليفة العباسى المستضئ بامر الله بهذه السرعة كان مرده الخوف من ان الخليفة العباسى سيعارض مشاريع نور الدين محمود التوسعية فى الموصل عقب وفاة اخيه قطب الدين مودود سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م . وقد تحققت مخاوف نور الدين محمود هذه عندما شدد حصاره على الموصل سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م فقد بلغه ان الخليفة المستضئ بامر الله قد عزم على المسير الى الموصل نجدة لسيف الدين غازى ، فما كان من نور الدين محمود الا ان بعث برسالة الى الخليفة يعرفه فيها ان سبب قدومه الى الموصل هو لاقرار الاوضاع بها باعتباره كبير العائلة الزنكية الحاكمة فى الموصل وحلب . فلما تأكد للخليفة العباسى حسن نية نور الدين محمود فى القضاء على الفوضى التى حصلت بالموصل عدل عن عزمه على المسير اليها بل

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٥٤ ــ ٣٥٥ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، جـ ٤ ، ق ١ ، ص ٩٦ ــ ٩٧ ، محمد ماهر حماده ، الوثائق السياسية والادارية فى عهد الفاطميين والاتابكية والايوبية ، ص ٢١٢ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٢٨٢ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٨٦ .

رغب فى ان يتقرب من نور الدين محمود وارسل اليه وهو يحاصر الموصل خلعة تكريما له واعترافا بقدره فلبسها نور الدين محمود ولكنه خلعها على ابن اخيه سيف الدين غازى بعد ان سلم اليه الموصل[1] . ولاشك ان الحاح نور الدين محمود على صلاح الدين بالاسراع فى الاطاحة بالخلافة الفاطمية فى مصر سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م واعلانها باسم الخليفة كان استجابة لرغبة الخلفاء العباسيين السنيين[2] . ولم تنقطع علاقة نور الدين محمود بالخلافة العباسية بعد تحقيق ماكان يرغب فيه خلفاء بنى العباسى فى الاطاحة بالفاطميين ، بل ظل وفيا للخلافة العباسية ببغداد ، ففى سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م ارسل الى الخليفة العباسى جملة من الهدايا والاسرى التى حصل عليها من البيزنطيين والصليبيين فى شمال الشام مع رسالة يبشر فيها الخليفة العباسى المستضئ بامر الله بما حققه من انتصارات على الصليبيين والبيزنطيين فى شمال الشام وما حققه قائد صلاح الدين من فتوحات فى بلاد النوبة بجنوب مصر[3] .

وهكذا يمكن القول بأن نور الدين محمود بهذه العلاقات الطيبة مع الخلافة العباسية وماسعى اليه فى تحقيق رغبتها قد ساعده فى تحقيق توحيد القوى الاسلامية فى بلاد الشام والجزيرة دون اية معارضة بل انه استطاع ان يضفى على أعماله العسكرية صبغة شرعية مكنته من مواصلة انتصاراته ضد خصومه سواء من الصليبيين او القوى الاسلامية المعارضة له . ولاشك فى أن الخلافة العباسية كانت وراء استكمال نور الدين محمود لتوحيد الجبهة الاسلامية فى مصر والشام والجزيرة ، بحيث استطاع فى النهاية وضع الصليبيين بين شقى الرحى بما كانت تشحذ به نور الدين محمود من قوة معنوية فى الاطاحة بالدولة الفاطمية الشيعية فى مصر .

استيلاء نور الدين محمود على مصر ووضع الصليبيين بين شقى الرحى :

سبق ان استعرضنا فى الفصل الثانى مظاهر واسباب ضعف الفاطميين فى مصر

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٦٤ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٥٤ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٩٦ ، سعيد عاشور ، ظل الخلافة العباسية فى الحركة الصليبية ، فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٦٦ .

(٢) انظر مايلى ، ص ٤١٣ ــ ٤١٤ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٨٧ ــ ٣٨٨ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٤٧ ــ ٥٤٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٣٧ ، محمد ماهر حماده ، الوثائق السياسية والادارية فى العهود الفاطمية ، والاتابكية الايوبية ، ص ٢١٣ ــ ٢١٤ .

وبلاد الشام فيما بين سنتى ٤٩٢ ــ ٥٢١هـ / ١٠٩٨ ــ ١١٢٧م عند الحديث عن القوى الاسلامية فى بلاد الشام والجزيرة قبل قيام الاسرة الزنكية ، الا ان الدولة الفاطمية سارت الى الهاوية من سئ الى أسوأ فى منتصف القرن السادس الهجرى . وقد تمثلت مظاهر ضعف الفاطميين فى العداء المستحكم بين الخلفاء ووزرائهم ، بسبب تسلط الوزراء على الخلفاء بطريقة العنف ، مع اهمال الوزراء شؤون النص فى الامامة للإبن الأكبر ، ولم يراعوا التعاليم الاسماعيلية فى تولية الخلفاء ، بل اصبح اختيار الخليفة فى يد الوزير ، ولم يكتف بعض الوزراء بهذا بل عملوا على احياء المذهب السنى[١] وعلى سبيل المثال فالوزير رضوان بن الوخشى وزير الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمى (٥٢٤هـ ــ ٥٤٤هـ) كان سنيا حسن الاعتقاد استبد بالوزارة وتحكم فى أمور الخليفة مما دعا الحافظ الى التخلص منه سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م بعد حروب طاحنة ذهب ضحيتها الكثير من الرعايا المصريين[٢] .

ولم يتوقف تسلط الوزراء واستبدادهم عند هذا الحد ، فبعد وفاة الخليفة الحافظ سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م تولى الخلافة الفاطمية ابنه الظافر بأمر الله بوصية منه[٣] . وفى خلافة الظافر (٥٤٤هـ ــ ٥٤٩هـ)التى لم تدم اكثر من اربع سنوات وسبعة اشهر تعاقب على منصب الوزراة ثلاثة وزراء كان اولهم نجم الدين بن مصال الذى لم تدم وزارته اكثر من اربعين يوما ، اذ ظهر له منافس اخر هو على بن السلار من اصل كردي ، اتى الى القاهرة من الاسكندرية ومعه ابن لزوجته يدعى عباس ابن ابى الفتوح الصنهاجى . وقد استطاعا اخراج ابن مصال من مصر فهرب الى صعيد مصر فى شعبان سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م وتولى ابن السلار وزارة الظافر وتلقب بالملك العادل شرف الاسلام[٤] ، وكان الخليفة الظافر كما يقول لبن الاثير « منحرف عنه كاره له مضمر له الشر » وهذا مادعاه الى محاولة التخلص منه فى سنة ٥٤٥هـ / ١١٥٠م بسبب استبداده بالامور دونه بالاضافة الى اعتناقه للمذهب

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٤٨ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ص ١٨٤ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢٣٦ ــ ٢٣٧ ، الازدى ، الدول المنقطعة ، ص ٩٩ ، محمد حمدى المناوى ، الوزارة والوزراء ، ص ١٤١ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٤٨ ــ ٤٩ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٤٢ ، ابن ظافر الازدى ، الدول المنقطعة ، ص ١٠٢ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٤٢ ــ ١٤٣ ، الازدى ، الدول المنقطعة ، قسم الفاطميين ، ص ١٠٦ ــ ١٠٧ . ابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ ٣ ، ص ٤١٦ ــ ٤١٧ .

السنى وتشجيع أهله[1] . ولما لم يستطع الخليفة الظافر التخلص من ابن السلار فانه لم يعدل عن تدبير المؤامرات ضده حتى استطاع فى سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م تدبير مؤامرة ادت الى الفتك بابن السلار بمساعدة عباس الصنهاجى ربيت بن السلار الذى كان بدوره يتحين الفرصة لتولى الوزارة الفاطمية ، وفعلا تقلدها بعد قتل ابن السلار ، وتلقب بلقب المظفر ركن الاسلام[2] . ويبدو أن اقدام الخليفة الفاطمى على هذه الخطوط وهى التآمر على ابن السلا ر وتولية الوزارة لربيبه عباس انما كان بهدف اصطناع رجل يمكن ان يكون طوع اختياره ولكن عباس لم يكن عند توليه الوزارة باحسن من سابقيه ــ فقد استبد بالامور عن الخليفة ، وفى عهده سقطت عسقلان بيد الصليبيين سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م وبسقوطها لم يبق للفاطميين ببلاد الشام اية ممتلكات ذات اهمية ولم يعد للفاطميين اى خطر على الصليبيين ، بعد ان اصبحوا فى درجة من الضعف والانحلال . وحرم الفاطميون من القاعدة البحرية فى عسقلان التى ظلوا يتمسكون بها على الرغم من الضعف الذى انتابهم ، الامر الذى جعل الخليفة الظافر يتذمر منه ويسعى الى تدبير مؤامرة للاطاحة به[3] . ولكن عباس اطلع على المؤامرة التى كان الخليفة الظافر يدبرها ضده مع ابنه نصر بن عباس فأسرع هو وفتك بالخليفة فى سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م . ولم يقف الوزير عباس عند هذا الحد بل اقدم على قتل اثنين من اخوة الخليفة هما يوسف ، وجبريل متهما اياهما بقتل الخليفة الظافر . واحضر عباس ابنا للظافر صغير السن له من العمر خمس سنوات اسمه عيسى ولقبه الفائز بنصر الله ودعا له ومكنه من الخلافة[4] .

أما الوزير عباس وابنه نصر اللذان ادميا قلوب اهل القصر فانه قد فسد مابينهما وبين الاسرة الفاطمية مما شجع بعض نساء القصر الفاطمى والمتعاطفين معهن من المصريين

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٤٢ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٣٢٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٤٢ ، اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٨ ــ ١٩ ، سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ، ص ٢٠١ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٤٢ ، اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٧ ــ ١٠ ، المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٥٧ ، سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ص ٢٠١ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٩١ ــ ١٩٢ ، اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٩ ــ ٢٨ ، الازدى ، الدول المنقطعة ، ص ١٠٥ ــ ١٠٦ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ١٢٨ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٣١ ، عبدالله سعيد الغامدى ، استرداد بيت المقدس فى عصر صلاح الدين ، رسالة ماجستير لم تطبع ص ٢٦ .

الى استدعاء طلائع بن رزيك والى الاشمونين فى صعيد مصر فسارع بن رزيك الى نجدتهم . وشعر عباس وابنه نصر بموقفهما الحرج ازاء غضب المصريين عامة وانه لاقبل لهما بالوقوف فى وجه طلائع ابن رزيك ولم يجدا لهما وسيلة للنجاة غير الهروب من القاهرة . فتأهبا وخرجا من القاهرة الى بلاد الشام وبصحبتهما اسامة بن منقذ مؤلف كتاب الاعتبار بقصد الاستنجاد بنور الدين محمود ولكنهم وقعوا فى كمين نصبه لهم الصليبيون الذين القوا القبض على عباس وابنه نصر وقتلوا الوزير عباس وبعثوا بابنه نصر الى القاهرة حيث قتل بايدى نساء القصر الفاطمى سنة ٥٥٠هـ / ١١٥٥م[١] .

أما طلائع بن رزيك فانه بمجرد خروج عباس وابنه نصر من مصر ، سارع الى دخول القاهرة فخلع عليه الخليفة خلعة الوز وتلقب بلقب الملك الصالح فارس المسلمين . ولم يكن بأعلى همة عمن سبقه فى ان يترفع عن التنكيل برعايا الفاطميين ، فقد اقدم على قتل وابادة كبار قادة الفاطميين وذوى الرأى فيهم . ولم يقف ابن رزيك عند هذا الحد ، فقد كان على غير مذهب العلويين الفاطميين ، فلم يرع النظم والتقاليد المتبعة فى اختيار الخليفة عند الفاطميين ، فعند وفاة الخليفة الفائز سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م ، احضر العاضد لدين الله وبايعه بالخلافة ولم يكن عمره يتجاوز الحادية عشر .[٢] .

لم يكتف طلائع بن رزيك باستبداده بالامر والاحتقار الذى كان يعامل به افراد القصر خاصة والمصريين عامة ــ حيث قال عند ماسمع ضجة الناس وفرحتهم بتوليه العاضد « وماعلموا اننى كنت من ساعة استعرضهم استعراض الغنم » على حد قول ابن الاثير[٣] . وسعى الى احكام قبضته على الخليفة فزوجه من ابنته فاصبح وزيره وصهره[٤] . وكان طلائع ابن رزيك يهدف من وراء هذا الزواج على مايبدو ان تنجب ابنته

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٣٣٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٩٣ ، اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٢٣ ــ ٢٤ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٢٢٠ ــ ٢٢١ ، الازدى ، الدول المنقطعة ، ص ١٠٩ ، ابوالمحاسن النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٣٣ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ٢٨ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٩٣ ، ٢٥٥ ، ٢٧٤ ــ ٢٧٥ ، الازدى ، الدولة المنقطعة ، ص ١١١ ــ ١١٢ ، المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٥٧ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٣٨ ــ ٣٣٩ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢٧٥ .

(٤) ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، جـ ٣ ، ص ٣٧ .

ابنا من الخليفة العاضد يكون بعده خليفة فتجتمع لبنى زريك الخلافة مع الملك[1] .

ظل طلائع بن رزيك فى الوزارة على هذا الاستبداد والتسلط حتى ظهر له بعض الامراء الذين ضجروا مماهم فيه من القهر والتسلط واستطاعوا قتله فى سنة ٥٥٦هـ / ١١٦٠م . وتقلد ابنه رزيك منصب الوزارة فخلع عليه العاضد ولقبه بالملك العادل مجد الاسلام فى نفس السنة ولكن وزارته لم تدم طويلا حيث ثار عليه ابو شجاع شاور بن مجير السعدى الذى كان واليا على الصعيد . وكان سبب ثورة شارو على رزيك ان الاخير حاول عزله عن ولاية الصعيد مخالفا بذلك وصية والده بعدم التعرض لشاور خوفا منه[2] .

وجد شاور الفرصة مواتية لتحقيق طموحاته فسار على راس قوة من رجاله صوب القاهرة ، وما ان علم به رزيك حتى شعر بالفشل وخيبة الامل فلم يجد له بدا من الهرب خارج القاهرة . ودخل شاور القاهرة بعد فشل رجال رزيك فى صده . وحضر بين يدى الخليفة العاضد ، فخلع عليه الوزارة ولقبه بلقب امير الجيوش فى سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٢م ، وأمر رجاله بمطاردة الوزير رزيك بن طلائع بن رزيك فاحضره وقتله بالقاهرة[3] .

لم يكن شاور هذا احسن حالا من غيره ، فقد أساء السيرة وعامل الخليفة باعمال قبيحة وتسلط على كبار الامراء واضطهدهم خوفا من منافستهم له . ولم تقف سوء سيرته عند حد تسلطه على الخليفة والامراء والفاطميين بل تعدتها حتى أخذ امر مصر فى وزارته فى الادبار على حد قول المقريزى[4] . وهذا مادعى بعض الولاة الفاطميين ـــ وعلى راسهم ابو الاشبال ضرعام بن عامر المنذري ـــ الى التآمر على شاور وابعاده عن الوزارة . وقد استطاع ضرغام بمن انضم حوله من الجند الكارهين لشاور اخراجه من القاهرة فى شهر رمضان سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٢م . ولكن شاور لم يخرج من القاهرة الى احدى الولايات المصرية لطلب النجدة ضد ضرعام بل خرج من مصر الى بلاد الشام لطلب

---

(١) جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية فى مصر ، ص ١٢٦ .

(٢) ابن واصل ، التاريخ الصالحى ، ورقة ١١ ب ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢٧٤ ـــ ٢٧٥ ، ٢٩٠ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ٢ ، ص ٤٣٩ ـــ ٤٤٣ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢٩٠ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣١ ، المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٥٧ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٢٥٤ ـــ ٢٥٩ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٣٨ .

(٤) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٢٥٩ .

النجدة من نور الدين محمود ، الذى كان يسعى الى توحيد الجبهة الاسلامية فى بلاد الشام للوقوف فى وجه الصليبيين . ولذلك فقد وجد نور الدين محمود الفرصة مواتية للتدخل فى شئون مصر وضمها الى الجبهة الاسلامية ، فسار الى تلبية طلب شاور ووعده بالمساعدة على ضرعام خصوصا وان نور الدين محمود ادرك مدى ماوصلت اليه الدولة الفاطمية فى مصر من تفكك وانحلال[1] . اما ابوالاشبال ضرغام فانه لم يكن باحسن حال من شاور ، فانه ماان تولى الوزارة الفاطمية حتى استبد بالامر وقتل عددا من الامراء المصريين فى وليمة اعدها لهم ليخلو له الجو من منافس ومنازع « فضعف أمر الدولة بهذا السبب حتى خرجت البلاد عن ايديهم »[2] .

هكذا أدى ضعف الخلافة واستبداد الوزراء وتعاقبهم ولجوء شاور الى نور الدين محمود بالشام الى تدخل نور الدين محمود والصليبيين فى شئون مصر الداخلية فكأن الاقدار يسرت لنور الدين محمود التدخل فى شئون مصر لتحقيق وحدة اسلامية بين الشام ومصر ووضع الصليبيين بين شقى الرحى كما سنرى فيما بعد .

ولم يقتصر ضعف الفاطميين فى مصر على استبداد الوزراء وضعف الخلفاء وتسلط هؤلاء الوزراء عليهم بل كانت هناك اسباب اخرى أدت الى ضعف الدولة الفاطمية ، فالازمات الاقتصادية التى كانت تحدث بين حين وآخر أدت الى اثارة الفوضى والشغب داخل البلاد والتى كانت تحدث من جراء انخفاض ماء النيل وما يصاحبها من غلاء فاحش كما حدث فى عهد الخليفة الحافظ لدين الله[3] . وعلى اية حال فان الازمات والكوارث التى كانت تحل بمصر لاتكاد تنفك حتى تعود ، فما كادت مصر تخرج من المجاعة التى حصلت فى عهد الخليفة الحافظ حتى وقعت مرة اخرى فى ازمة اقتصادية اخرى فى عهد الخليفة الفائز حيث ارتفعت الاسعار وقلت السلع فلحق الناس من جراء هذه الازمة شدة عظيمة[4] .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢٩١ ، المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٢ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ٢ ، ص ٤٤٤ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢٩٨ ، أنظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٢ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٢٦٢ — ٢٦٣ .

(٣) المقريزى ، اغاثة الامة ، ص ٢٦ — ٢٧ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ١٦٨ ، ١٧٦ — ١٧٧ .

(٤) ابن القلانسي ، ص ٣٣٦ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٢٢٩ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٨ .

ومما لاشك فيه ان هذه الازمات والمجاعات لم تقتصر على عامة الناس ولم يقتصر اثرها على مايصيب المصريين من جرائها من اضرار كبيرة بل كانت تؤدى الى تزايد اطماع القوى المجاورة لمصر كالصليبيين فى بيت المقدس ، ونور الدين محمود فى دمشق[1] . ولم تتوقف اسباب ضعف الفاطميين عند حد ماذكر بل ان فرق الجيش التى كان الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم ينشئونها لاتفتأ ان تقوم بينهما الحروب والفتن . وقد وصف اسامة بن منقذ فى كتابه الاعتبار ــ عند قدومه الى مصر ٥٣٩هـ / ١١٤٤م ــ ماكان هناك من فتن وحروب بين فرق الجيش كالجيوشية نسبة الى بدر الجمالى ، والريحانية التى تنسب الى الخليفة الحافظ دون ان يكون للخليفة قدرة على حسم الموقف او حتى التدخل بين هذه الفرق لانهاء النزاع بينها[2] .

ولم يفطن القائمون على السلطة فى مصر وقتذاك ماوصلت اليه بلادهم من الضعف والتدهور ولم يضعوا فى الحسبان ماحل بمعاقلهم فى بلاد الشام من دمار ادى الى خروجها من ايديهم الى الصليبيين . ولم يدرك الخلفاء ولا حتى الوزراء الذين عرفوا بالاستبداد والتسلط اهداف نور الدين محمود الذى كان يدرك مالمصر من اهمية فى استكمال توحيد الجبهة الاسلامية حتى اصبحت الامور تسير فى مصر الى الهاوية[3] .

وفى الحقيقة فان ضعف الفاطميين فى مصر لم يكن السبب الوحيد الذى حرك عند نور الدين محمود الرغبة فى غزوها بل كان يراقب عن كثب مطامع الصليبيين فى الاستيلاء عليها بعد ان راى امرهم اى الفاطميين ، فى بلاد الشام قد أخذ فى الانحسار . ولذلك فقد كان حريصا على ان يكون له حق السبق فى المسير اليها وقطع حبل الامل على الصليبيين خصوصا وانه كان قد تلقى من الخليفة العباسى سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م عهدا له ببلاد الشام ومصر[4] . فمن هنا اخذ نور الدين محمود يتطلع جديا الى الاستيلاء عليها لاتمام توحيد الجبهة الاسلامية من ناحية ومن ناحية اخرى ، الى احكام السيطرة على الصليبيين فى بيت المقدس وساحل بلاد الشام حيث

---

(١) كلودكاهن ، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ص ٢٤٩ .

(٢) اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٧٠٦ .

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٣٧ .

(٤) حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ١٠٢ ــ ١٠٣ .

قال : « وما قصدنا بفتحها الا فتح الساحل وقلع الكفار منه »[1] . وبالاضافة الى ذلك فان من الاسباب التى دفعت نور الدين محمود الى الرغبة فى غزو مصر ، العامل المذهبى فكما هو معلوم ان نور الدين محمود كان مذهبه مذهب الخلافة العباسية التى كانت تدين بالمذهب السنى ، فى حين أن الخلافة الفاطمية كانت شيعية ، وهذا بلاشك كفيل بدفع نور الدين محمود الى التفكير فى غزو مصر والقضاء على هذه الخلافة الشيعية لازالة الفرقة التى كانت تنشأ عن هذا الاختلاف المذهبى من ناحية ، والتقرب الى الخلافة العباسية السنية التى كانت قد منحته الحق فى ارض مصر سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م[2] من ناحية أخرى .

وفى هذه الظروف التى كان نور الدين محمود يتطلع فيها الى غزو مصر ، وصل اليه بدمشق سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٣م الوزير الفاطمى شاور بن مجير السعدى طالبا النجدة من نور الدين محمود على من سلب منه منصبه قهرا . ووعده مقابل مساعدته له ثلث دخل بيت المال الفاطمى سنويا بعد دفع رواتب الجند . وان يكون نائبا عن نور الدين بمصر اذا ماساعده فى التغلب على ضرغام[3] . ولم يكن نور الدين محمود بالرجل المتسرع المتهور الذى ينساق وراء الامانى والطموحات الزائفة ، بل كان عنده من الحنكة وبعد النظر ماجعله يتريث قليلا « يقدم الى هذا الغرض رجلا ويؤخر اخرى » حتى استخار الله فى الامر على ماهنالك من اخطار جسيمة ممثلة فى الصليبيين فى الساحل وبيت المقدس بالاضافة الى شكه فى اخلاص شاور .[4]

وعلى أية حال فقد جهز نور الدين محمود لهذا الغرض قائده أسد الدين شيركوه وامره بالمسير الى مصر بقصد نجدة شاور واعادته الى منصبه والتعرف على مصر واحوالها فسار شيركوه وشاور على راس الجيش فى جمادى الاولى سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٤م وسار معهم نور الدين محمود الى اطراف بلاده مما يلى الصليبيين بقصد اشغالهم عن التعرض لجيشه الذاهب الى مصر على الرغم من ان نور الدين محمود كان

---

(١) ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٣٦ .

(٢) سعيد عاشور ، مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ، ص ١٣ ، سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ، ص ٢٠٤ ــ ٢٠٥ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢٩٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٣٨ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ٣٣٢ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٤٦ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢٩٨ .

قد انهك الصليبيين فى بلاد الشام حتى لم يعد لهم مطامع هناك غير حفظ مابأيديهم من البلاد[1] . أما الوزير الفاطمى ضرغام الذى وصلته انباء الحشود التى حشدها نور الدين محمود لاعادة شاور الى الوزارة فقد عرف عجزه عن دفع شيركوه وشاور فلجأ الى عمورى ملك بيت المقدس وطلب منه المساعدة لصد شيركوه وشاور عن مصر . واعلن ضرغام لعمورى عن استعداده بابقاء رهائن من قبله فى بيت المقدس فى مقابل الوفاء بما وعده به من الاموال للصليبيين . ولكن الملك الصليبى عمورى لم ينهض لنجدة ضرغام بسبب ماتعرضت له بلاده من هجمات عنيفة من نور الدين محمود . ولذلك فقد عاد الى القاهرة صفر اليدين لم يحصل على ماكان يرغب فيه ، فى الوقت الذى اعد فيه شيركوه وشاور مسيرهما الى مصر حتى وصلا بلبيس . وهناك لقيهم ناصر الدين اخو ضرغام على راس جيش كبير من المصريين . ودارت بين الطرفين معركة انتهت بانتصار شيركوه ، سار بعدها الى القاهرة فدخلها فى جمادى الاخرة من السنة نفسها (٥٥٩هـ / ١١٦٤م) بعد مغادرة ضرغام لها[2] .

وهكذا تمكن اسد الدين شيركوه وشاور من القضاء على الوزير الفاطمى ضرغام ودخول القاهرة . وبدخول شاور القاهرة منتصرا تولى الوزارة فى رجب سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٤م فى الوقت الذى اقام فيه شيركوه بظاهر القاهرة طالبا ماكان شاور قد تعهد به على نفسه لنور الدين محمود . ولكن شاور ماان تمكن من الوزارة حتى تنكر لعهده وطلب من اسد الدين شيركوه مغادرة مصر . ولم يكتف بهذا بل هدد شيركوه بالصليبيين . ولكن شيركوه لم يجبه الى ذلك وكرر مطالبته بالاموال التى تعهد بها لنور الدين محمود ، فى الوقت الذى ارسل فرقة من جيشه الى بلبيس للاستيلاء عليها لتكون ورقة رابحة يستطيع بها مساومة شاور على دفع ماكان قد تعهد به لنور الدين محمود ولما علم شاور بذلك ادرك انه لن يستطيع اخراج شيركوه وابن اخيه صلاح الدين الايوبى اللذين اتخذا من بلبيس قاعدة انطلاق للهجوم على مصر ، لهذا لجأ الى

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٢١ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٣٦ ، ابوشامة ، الروضتين ، ٣٣٢ — ٣٣٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٣٨ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ١٠٤ — ١٠٥ ، العرينى ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٦٦٧ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢٩٩ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٣٨ — ١٣٩ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٢٦٦ — ٢٧٠ . وبلبيس : مدينة بمصر على طريق الشام بينها وبين الفسطاط عشرة فراسخ ، انظر ياقوت . معجم البلدان .

الصليبيين فى بيت المقدس وطلب منهم النجدة ضد شيركوه ، كما فعل ضرغام ، ووعد الصليبيين باكثر مما كان ضرغام قد وعدهم به . ولم يكتف شاور بما طلبه من نجدة عسكرية ضد شيركوه بل انه خوف الصليبيين من نور الدين محمود وحذرهم من امتلاكه مصر فسارعوا الى اجابته . وكان الصليبيون قد خافوا حينما وصلتهم انباء وصول قوات نور الدين محمود الى مصر « وايقنوا بالهلاك ان تم ملكه لها » على حد تعبير ابن الاثير .[1]

فرح الصليبيون بالطلب الذى وصلهم من شاور ، واعتبروه بمثابة دعوة للاستيلاء على مصر ، تلك التى كانوا قد اكتشفوا ضعفها فسارعوا الى تلبية شاور وطمعوا فيها بعد وقوع الاتفاق بينهم وبين شاور على مال كثير يحمله اليهم ، ان اخرجوا نور الدين وعساكره عن مصر[2] . ولما تم الاتفاق بين شاور والصليبيين على ماتعهد به شاور ، تجهز عمورى الاول ملك بيت المقدس مستعينا بما وصله من الحجاج المسيحيين الى بيت المقدس وسار هو بقواته الى مصر ، ولم يثنهم ماقام به نور الدين محمود من من غارات على اطراف بلادهم « لعلمهم ان الخطر فى مقامهم اذا ملك اسد الدين مصر » واتجهوا صوب بلبيس وضربوا عليها حصارا استمر ثلاثة اشهر عجزوا بعدها عن الاستيلاء عليها من اسد الدين شيركوه « وهو ممتنع بها مع أن سورها قصير جدا وليس لها خندق يحميها وهو يفاديهم القتال ويراوحهم فلم يبلغوا منه غرضا ولا نالوا منه شيئا » كما يقول ابن الاثير[3] . وفى الوقت نفسه بلغ عمورى الأول والصليبيين انتصارات نور الدين محمود فى حارم وبانياس « فحينئذ سقط فى ايديهم وارادوا العودة الى بلادهم ليحفظوها » فراسلوا اسد الدين شيركوه فى الصلح ، وتسليم مابيده لشاور ومفارقة مصر ، فاجابهم الى ذلك لانه على مايبدو لم يكن يعلم مافعله نور الدين محمود بالصليبيين فى بلاد الشام بالاضافة الى نقص الذخائر والاقوات عنده وضعف التحصينات فى بلبيس . وخرج من بلبيس فى ذى الحجة سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٤م وعاد الى بلاد الشام سالما فى نفسه وعسكره رغم ماتعرض له من اخطار جسيمة سواء من الصليبيين او الفاطميين وتبعه

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢٩٩ .

(٢) ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ص ٣٣٥ ، العرينى ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ص ٦٦٩ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٠٠ .

عموری عائدا الى بلاد الشام بايام قليلة[1] .

أمنا شاور الذى تقلد وزارة العاضد فانه لم يكن بالرجل الحصيف الذى يدرك ان خروج جيش شيركوه والصليبيين من مصر لم يكن محض ارادته وانما كان بسبب خوف كل منهما من الآخر . ولم يعمل على رتق ماانفتق فى مصر ، بل سعى الى الظلم وسفك الدماء — وكان كما وصفه ابو المحاسن « خبيثا سفاكا للدماء » — بالاضافة الى استبداده بالسلطة حتى انه لم يبق للعاضد معه أمر ولا نهى مما اضطر العاضد الى الإستعانة ضده بنور الدين سنة ٥٦٢هـ — ١١٦٧م[2] . ولذلك فإن النجدة التى طلبها العاضد من نور الدين محمود قد لقيت صدى فى نفسه لادراك نور الدين محمود ان ثروة مصر ربما يفيد منها الصليبيون خصوصا وانهم قد كشفوا مصر وعرفوها من حيث عرفها نور الدين محمود من ناحية الضعف والتفكك بالاضافة الى ان نور الدين محمود كانت فى قلبه من شاور حزازة لكونه غدر باسد الدين شيركوه واستنجد عليه بالصليبيين[3] .

وهكذا توفر لنور الدين محمود واسد الدين شيركوه مااطمعهما فى العودة اليها مرة اخرى ، فرغبة شيركوه الاكيدة فى العودة الى مصر والاستيلاء عليها اتفقت مع هدف نور الدين محمود فى القضاء على الخلافة الشيعية فى مصر التى طالما كان نور الدين محمود يلقى التأييد على ذلك من الخلافة العباسية السنية فى بغداد وذلك لتطويق الصليبيين فى بلاد الشام[4] .

وعلى الرغم من توفر العوامل المساعدة على تسيير حملة جديدة الى مصر ، فان نور الدين محمود كان كارها لذلك ، خوفا من حادث يتجدد على المسلمين فيضعف الاسلام . الا ان اصرار اسد الدين شيركوه على المسير الى مصر قد حرك همم

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٠٠ ، انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٢٢ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٦ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ص ٢٧٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٤٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣١٧ .

(٢) ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٤٧ — ٣٤٨ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢٣٤ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٣٦٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٤٨ ، ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص ١٦٩ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٤٨ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٢٤ ، انظر سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ص ٢٠٧ .

نور الدين فى إعداد حملة جديدة بلغ عدد رجالها ألفى فارس مع عدد من الامراء كان فى مقدمتهم صلاح الدين الايوبى . وغادرت الحملة دمشق فى ربيع الاول من سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٧م بقيادة اسد الدين شيركوه[١] . ولما كان اسد الدين شيركوه يخشى لقاء الصليبيين فقد سلك الطريق البرى وترك بلاد الصليبيين عن يمينه على الرغم من المتاعب التى تعرض لها . ودخل أرض مصر ولكنه لم يهاجم شاور بالقاهرة ــ لعلمه بقدوم الصليبيين ــ ولذلك فقد واصل سيره حتى وصل اطفيح ثم عبر النيل ونزل بالجيزة مقابل الفسطاط وعسكر بها[٢] .

أما شاور فانه لما علم بقدوم اسد الدين شيركوه الى مصر ، ارسل الى ملك بيت المقدس عمورى الاول يطلب منه النجدة ضد اسد الدين شيركوه فلم يتردد عمورى الاول فى اجابة شاور حيث اتى بجموعه من الصليبيين الى مصر على الصعب والذلول . فلما وصلوا الى مصر لقيهم شاور وانزلهم بالقاهرة ، وعلى الرغم من ان الصليبيين كانوا يطمعون فى السيطرة على مصر وابعاد نور-الدين محمود عنها ، فان عمورى الاول لم يكن متحمسا بدرجة كبيرة الى نجدة شاور بقدر ماكان يرغب فى الحصول على تعويضات مالية لتغطية خسارته فى هذه الحملة ، خصوصا وانه قد اوجس خيفة من شاور ، ولذلك فقد طلب عمورى من شاور الاتفاق على ما سيدفعه شاور لهم من المال قبل القيام باية عملية عسكرية ضد شيركوه ، فوافق شاور على ابرام اتفاق تمت بموجبه الموافقة على اعطاء الصليبيين اربعمائة الف دينار يدفع النصف منها مقدما وماتبقى يؤدى فى موعد يجرى تحديده فيمابعد[٣] .

أما اسد الدين شيركوه فقد مكث بالجيزة مايقرب من خمسين يوما ينتظر ماعسى ان يقوم به الصليبيون وشاور . فلما علم ماتم عليه الاتفاق بين الصليبيين وشاور وماهم عليه

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ص ٣٢٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٣٢٢ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٣ ، ٣٦٧ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٣٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ص ١٥٠ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٢٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥٠ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٣٧ .
واطفيح : بلد بالصعيد الادنى من ارض مصر على شاطئ النيل الشرقى . انظر ياقوت . معجم البلدان .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٢٤ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٤٩ ــ ١٥٠ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٠٢ ــ ٦٠٣ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٦٧٨ ــ ٦٧٩ .

من الكثرة ، اختبر نوايا اصحابه لمعرفة مايمكن ان يقدموه اذا اشتبك مع الفاطميين والصليبيين . فعرف ان اكثر رجاله لايرغبون فى اللقاء فى الوقت الذى اظهر فيه بعض رجاله مايوافق هواه بالالتحام مع الصليبيين والفاطميين لاطمعا فى هزيمة المصريين ، وانما خوفهم من نور الدين محمود ان يجردهم من اقطاعاتهم فى بلاد الشام[1] .

من هنا اختار اسد الدين شيركوه طريقا وسطا ، فلم يوافق الذين لايرغبون فى اللقاء ويرغبون فى العودة الى الشام ولم يوافق القلة الذين يرغبون فى اللقاء خوفا على اقطاعاتهم فى بلاد الشام وسار بجيشه متجها الى الصعيد حتى وصل الى مكان يعرف بالبابين وفى اثره شاور والصليبيون ولحقوا به هناك فى جمادى الاخرة من سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٧م . ودارت بين الطرفين معركة عنيفة اسفرت عن هزيمة شاور والصليبيين ووقع عدد من الصليبيين فى الاسر ، على الرغم من قلة عساكر شيركوه وكثرة عدوه ، حتى قال ابن الاثير فى هذا الصدد « وكان اعجب مايؤرخ به ان ألفى فارس يهزم عسكر مصر وفرنج الساحل »[2] .

لم يحاول اسد الدين شيركوه أن يغتنم هذه الفرصة ليعود الى القاهرة لمطاردة فلول الصليبيين والفاطميين ، بل اتجه شمالا صوب الاسكندرية التى وصفت بانها كانت مركز المعارضة للحكم الفاطمى لكثرة أنصار المذهب السنى بين سكانها . فما ان وصلها اسد الدين شيركوه حتى سلمها اهلها اليه « لميلهم الى مذهب السنة وكراهتهم لراى المصريين » ، فاستناب بها ابن اخيه صلاح الدين الايوبى بينما عاد هو الى الصعيد بجزء من جيشه[3] . ويبدو ان أسد الدين خاف من قيام الصليبيين وشاور بهجوم مباغت له ، ولذلك راى الا يحصر نفسه فى مكان ضيق ، يمكن معه القضاء عليه فى يسر وسهولة ، ورأى ان موارد الاسكندرية يمكن ان تنقطع فى حالة قيام الصليبيين وشاور بحصارها ، وهذا ماحصل فعلا . فبعد عودة الصليبيين وشاور الى القاهرة عقب وقعة البابين زحفوا نحو الاسكندرية ، وحاصروها برا ، فى الوقت الذى كان فيه الاسطول الصليبى قد شرع فى حصارها بحرا ، الامر الذى أجبر صلاح الدين الايوبى على طلب النجدة من عمه

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٢٣ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٤ — ٣٦٥ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٣٣ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥١ ، انظر رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٠٥ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ١١٥ .

اسد الدين شيركوه ، فما كان من الاخير الا ان ترك الصعيد وعاد على وجه السرعة الى الاسكندرية نجدة لابن اخيه صلاح الدين الذى كان قد ظهر منه واهل الاسكندرية الصبر والمثابرة فى حمايتها من السقوط بيد شاور والصليبيين[1] .

واخيرا استجاب كل من شيركوه والصليبيين لظروفه الخاصة ، فشيركوه الذى تفرقت عساكره بين الشمال والجنوب ، بالاضافة الى ماتعرض له رجاله فى الاسكندرية من قلة الاقوات نتيجة للحصار الذى فرض عليهم اكثر من اربعة شهور ، قد استجاب لعقد الصلح حين عرض عليه من قبل الصليبيين الذين كانوا هم الاخرين قد منوا بخسائر فادحة فى وقعة البابين . اما شروط الصلح التى اتفق عليها فتنص على : اولا رفع الحصار عن الاسكندرية واعادتها الى الفاطميين . ثانيا : يدفع شاور لاسد الدين شيركوه مبلغ خمسين الف دينار مضافة الى ماأخذه من البلاد التى استولى عليها . ثالثا : الا يقيم الصليبيون فى البلاد المصرية والا يتملكوا فيها قرية واحدة . ولما تمت موافقة الطرفين على شروط الصلح عاد اسد الدين شيركوه وصلاح الدين الى بلاد الشام فوصلاها فى ذى القعدة من سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٧م[2] .

ولما كان ميول شاور مع الصليبيين فانه بعد ان غادر شيركوه ارض مصر اتفق شاور معهم على ان يبقى لهم بالقاهرة شحنة او مندوبا ، وان تبقى لهم حامية صليبية فى القاهرة لحراستها من نور الدين محمود ، وان يقدم شاور للصليبيين مبلغا وقدرة مائة وستون الف دينار كتعويض عن خسائرهم . هذا والخليفة العاضد لايعلم شيئاً من الامور ، لان شاور قد حجب عليه ومنعه من الامور كلها[3] .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٢٦ ، ابن الاثير التاريخ الباهر ، ص ١٣٣ ــ ١٣٤ ، أبو شامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٦ ، ٣٧٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٢٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥١ ــ ١٥٢ ، العينى ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٦٨١ ، جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية فى مصر ، ص ١٢٨ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٢٦ ــ ٣٢٧ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٦ ــ ٣٧٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥١ ــ ١٥٢ ، حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ١١٦ .

(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٣٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥٢ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٥٠ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، جـ ١ ، ق ٤ ، ص ١٩ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٤ ، سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ، ص ٢١٠ .

ومرة اخرى يمكن القول ان خروج اسد الدين شيركوه والصليبيين من مصر جاء نتيجة خوف كل منهما من الاخر ، بالاضافة الى ان كلا منهما قد خرج من مصر بفكرة واحدة وهى ضعف مصر والرغبة فى الاستيلاء عليها . ومما شجع الصليبيين على العودة الى مصر انهم حصلوا قبل عودتهم الى الشام سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٧م على امتيازات جعلت من مصر شبه محمية لهم . الا أن هذا دفع نور الدين محمود واسد الدين شيركوه معا الى التفكير جديا فى الاستيلاء عليها وفى ذلك يقول ابو شامة « وقد انضم الى قوة الطمع فى البلاد ، شدة الخوف عليها من الفرنج »[١] .

وعلى مايبدو فان شدة خوف نور الدين محمود على الديار المصرية من الصليبيين هو علمه بوجود حامية لهم بمصر ، تلك الحامية التى كانت قد ارسلت الى الملك عمورى الاول تستدعيه لدخول مصر . ولكن الملك عمورى الاول الذى وصفه ابن الاثير « بانه لم يكن ملك الفرنج مذ خرجوا الى الشام مثله شجاعة ومكرا ودهاء » ، رفض فى بادئ الامر تلبية طلب الحامية الموجودة بمصر[٢] . ولكن عمورى عاد الى اجابة طلبهم حيث قالوا : « ان مصر لامانع لها ولا حافظ والى ان يصل الخبر الى نور الدين محمود ويجهز العساكر ويسيرهم الينا نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من امرها ، وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة فلايقدر عليها ، وكانوا قد عرفوا البلاد وانكشف لهم امرها فاجابهم الى ذلك على كره شديد »[٣] . ومما تجدر ملاحظته ان الملك عمورى الاول رفض تلبية الدعوة فى الدخول الى ارض مصر فى بادئ الامر لانه كان قد تلقى من الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين فى سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٧م ماينم عن رغبة الاخير فى تقديم المساعدة للصليبيين والحصول على موضع قدم فى ارض مصر . فما كان من عمورى الاول الا ان رد على الامبراطور البيزنطى يخبره عن رغبته فى الحصول على مساعدات عسكرية والموافقة على اقتسام ارض مصر[٤] . ولكن الملك عمورى الاول الذى وقع تحت ضغط كثير من رجاله لم ينتظر وصول نجدة الامبراطور البيزنطى ، بل تعجل بالمسير الى

---

(١) ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٧ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٣٧ .

(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٣٧ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ص ٣٣٥ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٣٩٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥٦ .

(٤) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦١٢ ــ ٦١٣ ، سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ، ص ٢١١ .

مصر حيث سار اليها على راس جيش كبير فنزل بلبيس واستولى عليها فى صفر من سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م ثم سار منها الى القاهرة طمعا منه فى الاستيلاء عليها ، الا ان الصليبيين قد واجهوا موقفا صلبا اعجزهم عن الاستيلاء عليها ، وكان اهلها قد استبسلوا فى الدفاع عنها خوفا من التعرض للمصير الذى تعرض له اهل بلبيس[١] . وعلى أية حال فان مسير الملك عمورى الى مصر دون انتظار ماكان قد وعد به من مساعدات عسكرية من الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين ، كان فى صالح نور الدين محمود ، اولا لانه لن يسكت على مسيرهم الى مصر ، لما كان يعقده عليها من امال فى تحقيق توحيد القوى الاسلامية فى الشام ومصر . ثانيا فبدلا من أنه كان سيواجه على ارض مصر الصليبيين والبيزنطيين فانه بعد هذه الخطوة من جانب الصليبيين فلن يواجه سوى الصليبيين فقط[٢] .

أما شاور الذى لم يكن على علم بمقدم الصليبيين حتى وصلوا ارض مصر ، فقد وقع فى موقف حرج امام رعاياه المصريين ، بسبب عدم قدرته على صد العدوان ، ولذلك فقد امر باشعال النار فى الفسطاط بعد ان نقل أهلها الى القاهرة[٣] . وعلى مايبدو فقد كان شاور يهدف من وراء هذه الخطوة الى حرمان الصليبيين من اموال وغنائم اهل الفسطاط بالاضافة الى رغبته فى وقوف اهل الفسطاط الى جانب سكان القاهرة للدفاع عنها ، وقد فت ذلك فى عضد الصليبيين عن مواصلة السير قدما[٤] .

وعلى الرغم من الخطوة التى اتخذها شاور فى صد الصليبيين عن الفسطاط الا ان موقفه قد وصل إلى حدٍ من الضعف والخوف ، فلجأ الى اعمال الحيلة فى الامر ، وارسل الى الملك الصليبى عمورى ، وذكره بالمودة التى كانت بينهما ، واوضح شاور انه على الرغم مما ارتكبه الصليبيون فى بلبيس فانه لايزال على محبته له ، ولولا خوفه من نور الدين محمود والمصريين لسلم البلاد اليه . ولم يكتف شاور بهذا ، بل اقترح على

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٣٧ — ١٣٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٢٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥٧ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، جـ ١ ، ق ٤ ، ص ٢٠ — ٢١ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٢٧٥ .

(٢) حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ١٢٠ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٣٦ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٩١ .

(٤) انظر ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٥٠ ، ابن الفرات تاريخ ابن الفرات ، جـ ١ ، ق ٤ ، ص ٢٤ .

نفسه بذل مائة الف دينار لعمورى الاول وان يعقد بينهما صلحا ، فوافق عمورى الاول على ذلك ، وطلب من شاور تعجيل بعض المال الذى تعهد بدفعه ، ففعل شاور واستقرت بينهما القاعدة على ذلك . وقال الصليبيون : « نأخذ المال فنتقوى به ونعاود البلاد بقوة لانبالى معها بنور الدين محمود »[1] .

شعر الخليفة العاضد ـــ الذى لم يبق له من الخلافه سوى الاسم والخطبة على حد قول أبى المحاسن ـــ بالمسئولية حين راى ماتتعرض له مصر من حصار شديد من الصليبيين ، وماقام به شاور من احراق البلاد وارهاق الناس بما لاطاقة لهم بدفعه من اجل ماتعهد به للصليبيين[2] ، فارسل الى نور الدين محمود يستعين به ويعرفه ضعف المسلمين عن مقاومة الصليبيين . ولم يكتف العاضد بهذه الاستغاثة ، بل وعد نور الدين محمود بثلث دخل بيت مال مصر ، وان يسمح لاسد الدين شيركوه بان يقيم نائبا عنه فى مصر خلاف مايستوجب لاسد الدين شيركوه وعساكره يكون خارجا عن الثلث المقرر لنور الدين محمود . ولم يتردد نور الدين محمود فى تجهيز قوة عسكرية كبيرة بقيادة أسد الدين شيركوه ، وابن اخيه صلاح الدين الايوبى . وزود الحملة بكل ماتحتاجه من المال والثياب والدواب والاسلحة . ولما تكامل تجهيز الحملة فى حلب بكل ماتحتاجه خرج بها نور الدين محمود الى دمشق فوصلت فى نهاية شهر صفر من السنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م . ومن دمشق خرج نور الدين محمود لتوديع أسد الدين شيركوه الذى واصل مسيره الى القاهرة ، فوصلها فى ربيع الثانى حيث رحب به المصريون والتفوا حوله ، مما اضطر شاور الى التنكر لما كان قد شرطه على نفسه للصليبيين من اموال . فلما لم يجد عمورى ملك بيت المقدس ماكان يتوقعه من حلفائه الفاطميين ، أدرك فشله فعاد الى الشام يجر اذيال الخيبة[3] .

وهكذا نجح اسد الدين شيركوه فى الوصول الى مصر التى فرح به اهلها ، واجريت عليه الجرايات العظيمة والاقامات الوافرة ، واستطاع الاجتماع بالخليفة العاضد ، الذى

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٣٧ ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٩١ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، جـ ١ ، ق ٤ ، ص ٢٥ .

(٢) ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ، ٣٥٠ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٣٨ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٣٩ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٩١ ـــ ٣٩٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٢٧ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٢٩٩ ـــ ٣٠٠ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، جـ ٤ ، ق ١ ، ص ٢٨ ـــ ٣٠ .

خلع عليه خلعة الوزارة ولقبه بالملك المنصور فى ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٩م مما زاد من هيبته فى نظر اعدائه[١] .

وعندما سمع نور الدين محمود بعودة الصليبيين الى بلاد الشام بدمشق امر بضرب البشائر فى البلاد وبث رسله فى الافاق ، مبشرين بخروج الصليبيين من مصر التى اعتبر نور الدين محمود فتحها فتحا جديدا وحفظها لسائر بلاد الشام وغيرها[٢] .

أما شاور فقد كتم مافى نفسه من غيظ لاسد الدين شيركوه وحاول الايقاع بينه وبين الصليبيين ، حيث طلب منه اللحاق بهم قبل وصولهم الى بلاد الشام ، لا حبا فى الانتقام من الصليبيين وانما بقصد ضرب الصليبيين بأسد الدين شيركوه ورجاله لاضعافهما معا . غير ان اسد الدين شيركوه رفض هذه الفكرة وعدها نوعا من الجنون . ومما زاد حنق شاور وغيظه لاسد الدين شيركوه ماعلمه من ان هوى العاضد قد مال عنه الى شيركوه ولكنه لم يتجاسر على اظهار مافى نفسه من الغيظ ، لعلمه بعجزه عن مقاومة اسد الدين شيركوه ولذلك فقد اخذ يماطل فيما كان قد تقرر وبذل لنور الدين محمود وعساكره وما كان قد وعد به الجند من اقطاعات . واخذ يتردد على اسد الدين شيركوه كل يوم وقد عزم على ان يقيم وليمة يدعو اليها شيركوه والامراء الذين معه ومن ثم يقبض عليهم ، غير ان ابنه الكامل بن شاور قد نهاه عن ذلك وقال : « والله لئن عزمت على هذا الامر لاعرفن شيركوه » فترك ماكان عزم عليه[٣] .

ولما لم يجد شاور سبيلا للنيل من اسد الدين شيركوه ارسل الى الصليبيين يستدعيهم مرة اخرى لمساعدته ولكن محاولته هذه باءت بالفشل فعاد يعمل على تدبير المؤامرات للقضاء على شيركوه وكبار رجاله . ولكن شيركوه عرف مايبيته له شاور من خيانه وامر رجاله الذين صمموا على قتله من الاقدام على هذه الخطوة . ولعل السبب فى ذلك خوف شيركوه من قيام فتنة فى مصر تؤدى الى اضاعة جهوده[٤] . غير ان رجال شيركوه الذين أصبحوا على قناعة من ان شاور هو سبب فساد الديار المصرية ، القوا

---

(١) ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٣٩٦ — ٣٩٧ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٣٨ — ٣٣٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٢٧ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٦١ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٣٩ — ٣٤٠ ، ابن واصل مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٦١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٦٩٩ — ٧٠٠ .

القبض عليه ، واحضروه الى شيركوه حيا ، فلما علم العاضد بالامر طلب من شيركوه قتله ، فقتله وانفذ راسه الى قصر الخليفة العاضد فى ربيع الاخر سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٩م[١] . وبمقتله انتهت حياة اخر وزير من الوزراء الفاطميين الذين جلبوا على مصر الكثير من المتاعب ، ولم يعد للصليبيين فى مصر من يناصرهم . ودخل شيركوه القاهرة فى موكب عظيم بعد مقتل شاور وسمع منشور الوزارة الذى اعلنه العاضد ، ففرح به شيركوه غاية الفرح ، ومضى الى دار الخلافة ولكن وزارة شيركوه للعاضد الخليفة الفاطمى لم تستمر سوى شهرين وخمسة ايام ، حيث توفى فى شهر جمادى الآخر سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٩م ، وخلفه ابن اخيه صلاح الدين الايوبى[٢] .

ومما هو جدير بالملاحظة فى وزارة شيركوه للخليفة الفاطمى العاضد ، ان نور الدين محمود الذى كان قد فرح فرحا شديدا بخروج الصليبيين من مصر ودخول اسد الدين شيركوه اليها ، قد كره تولى شيركوه لهذا المنصب ولم يستطع ان يخفى ذلك على اصحابه حيث ظهر على صفحات وجهه وفلتات لسانه . وقد برر ذلك ابوشامة ، حيث يقول : « وانما اقلقه ذلك كون اسد الدين وزيراً للعاضد فخاف من ميله الى القوم والى مذهبهم ، وان يفسد جنده عليه بذلك السبب »[٣] .

اما عن وزارة صلاح الدين الايوبى للخليفة العاضد ، فقد تولاها عقب وفاة عمه اسد الدين شيركوه سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٩م على غير رغبة من الامراء النورية الذين كانوا مع اسد الدين شيركوه فى مصر ، بينما مالت الامراء الاسدية الى صلاح الدين ، الا ان رغبة وموافقة الخليفة العاضد على تولية صلاح الدين الايوبى ، قد حسمت الموقف حين احضر صلاح الدين وقلده الوزارة ولقبه بالملك الناصر فى الخامس والعشرين من شهر جمادى الاخرة سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٩م ، ظنا من الخليفة العاضد الفاطمى ان صلاح الدين سيكون تحت سيطرته . لكن صلاح الدين لم يكد يتولى الوزارة ، حتى

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٤٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٦١ — ١٦٢ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٤٠ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٣٠٥ ، ابن ايبك ، كنز الدرر ، جـ ٧ ، ص ٣٦ ، العينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٧٠٥ ، وقد اورد ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٥٣ ، نصا لمنشور الوزارة الذى تلى على شيركوه .

(٣) ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٧ .

خيب آمال الخليفة العاضد ، والامراء الذين كانوا يكرهونه[1] .

وعلى أية حال فان صلاح الدين قد تقلد وزارة العاضد كنائب عن نور الدين محمود فى مصر ، وصارت الخطبة فى مصر للخليفة العاضد ، ومن بعده نور الدين فصلاح الدين . ولم ينظر نور الدين محمود الى صلاح الدين على انه اعلى مرتبة من الامراء النورية الذين كانوا بمصر ، حتى أن نور الدين محمود لم يفرده فى أى مكاتبة من المكاتبات التى كان يبعث بها اليه بمصر ، بل كان يكتب اليه بمصر مع جملة من الامراء[2] .

ولما كان كثير من الامراء النورية قد غادروا ارض مصر ضنا بنفوسهم عن خدمة صلاح الدين الايوبى ، فقد استغل هو الاخر شعور المصريين الذين احبوه فامر بالغاء المكوس الفاطمية التى كانت مفروضة عليهم . ولعل مما زاد الناس حبا له وتعلقا به ، ماقام به من تأسيس المدارس وتحصين المدن والموانى[3] . على الرغم من هذا فقد كانت هناك بعض العناصر التى استاءت من سياسة صلاح الدين الايوبى ومايقوم به فى ارض مصر ، فقد قام الطواشى المعروف باسم مؤتمن الخلافة بالاتصال بالصليبيين ، وطلب منهم مهاجمة مصر ، الا ان صلاح الدين استطاع ان يكتشف هذه المؤامرة قبل تدبيرها فى اواخر سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٩م وقبض على زعيم هذه المؤامرة وعلى أتباعه من السودان بحيث لم يبق منهم الا القليل[4] .

أما عن موقف صلاح الدين الايوبى — نائب نور الدين محمود فى مصر — من الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فانه لم يتهاون فى أمره — على الرغم من انه وزيراً لخليفة مصر ، ومايتطلبه هذا المنصب من مداراة الاعداء المحدقين به — لأنه يعتبر نفسه قائدا

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٤٤٣ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٤٢ — ١٤٣ ، البندارى ، سناء البرق الشامى ، جـ ١ ، ص ٨١ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤٣ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٤٣ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ص ٣٤٤ ، ٣٥٢ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤٣ — ٤٥٦ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٤١ — ٤٣ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٢٧٩ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٤٦ — ٣٤٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٧٦ — ١٧٨ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٣١٤ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٢١ ، ومؤتمن الخلافة كان احد خصي القصر الفاطمى ومن المتحكمين فيه ، قيل ان اسمه جوهر ، (انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥٠) .

لجيوش نور الدين محمود فى مصر ، ذلك البطل الذى أخذ على عاتقه مهمة الجهاد الاسلامى واخراج الصليبيين من مصر . ولما كان الصليبيون قد عجزوا عن الحصول على موطئ قدم بمصر ، فقد شعروا بالخطر المحدق بهم من الشمال والجنوب وعرفوا عجزهم عن اخراج جيش نور الدين محمود من مصر ، مما اضطرهم الى ارسال سفارات الى ملوك اوروبا والامبراطور البيزنطى لطلب المعونة العسكرية لاخراج جيش نور الدين محمود من مصر[١] .

لم يستطع ملوك اوربا تقديم اية مساعدة لعمورى الاول ملك بيت المقدس نظرا للخلافات والمنازعات التى كانت قائمة بينهم[٢] . اما الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين ، فقد اغتنم فرصة استنجاد الملك عمورى به فلبى الدعوة بهدف تحقيق ماكان يصبوا اليه من رغبة فى الحصول على جزء من ارض مصر . خصوصا وانه عرف ان عمورى الاول ملك بيت المقدس لم يفقد الامل فى استرداد مصر . فأمد الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين الصليبيين فى الشام بالمساعدات الكثيرة سواء من المال او الرجال او العتاد ، وهذا على مايبدو ماعناه ابن الاثير حين قال : فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح »[٣] .

ولم يكتف الامبراطور البيزنطى بما ارسله من المساعدات ، بل وجد الفرصة سانحة لتحقيق اطماعه فى مصر والنيل من نور الدين محمود وجيوشه فى مصر التى وضعت الصليبيين بين شقى الرحى ، فاعد حملة بحرية وصلت الى صور فى اواخر سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٩م حيث قابل رجالها ملك بيت المقدس عمورى الاول وجرى بينهم الاتفاق على المسير الى مصر يقول ابن الاثير : « واتعدوا للنزول على دمياط ظنا منهم انهم يملكونها ويتخذونها ظهرا يملكون به ديار مصر »[٤] .

ولما تم الاتفاق بين الصليبيين والبيزنطيين ، سار الاسطول البيزنطى من صور الى

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٥١ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٤٣ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٣١٥ ، رنسيمان ، تاريخ الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٢٠ ــ ٦٢١ .

(٢) انظر حسن حبشى ، نورالدين محمود والصليبيون ، ص ١٣٥ .

(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٤٣ .
ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٤٣

(٤) ودمياط : مدينة قديمة تقع بين تنيس ومصر بين البحر المتوسط ونهر النيل وصفها ياقوت بانها ثغر من ثغور الاسلام . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

عكا فى اواخر سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٩م ومنها واصل مسيره الى دمياط فوصلها فى صفر سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م . فى الوقت الذى سار فيه عمورى ملك بيت المقدس عن طريق الساحل حتى بلغ الفرما ومنها واصل سيره الى دمياط بواسطة السفن البيزنطيه . وكان الصليبيون والبيزنطيون قد اختاروا النزول على دمياط لسهولة وصول القاصد اليها من البر والبحر ، ولعلمهم انه اذا تم لهم الاستيلاء عليها حصل لهم مغرس قدم يأوون اليه[١] .

أما صلاح الدين الايوبى فلم يقف مكتوف الايدى تجاه مايجرى فى دمياط من الصليبيين والبيزنطيين . ولذلك فقد جهز حملة عسكرية كبيرة ، بقيادة قطب الدين خسرو الهذبانى ، وكان مقداماً مقدماً فى جيش صلاح الدين الايوبى وامره بالمسير الى دمياط بعد ان زوده بالمال والسلاح والرجال مع ماكان قبله من قوات عسكرية بقيادة ابن اخيه تقى الدين عمر ، وخاله شهاب الدين محمود الحارمى[٢] . اما صلاح الدين فلم يخرج الى دمياط بل ظل فى القاهرة ولعل سبب عدم خروجه الى دمياط خوفه من انقلاب يقوم

به بعض خصومه الكارهين له ، ولذلك ارسل الى نور الدين محمود يقول : « ان تاخرت عن دمياط ملكها الفرنج ، وان سرت اليها خلفنى المصريون فى اهلها واموالها بالشر ، وخرجوا عن طاعتى وساروا فى اثرى ، والفرنج من امامى ، فلايبقى لنا باقية ، فسير نور الدين العساكر اليه ارسالا يتلو بعضها بعضا ، ثم سار هو بنفسه الى بلاد الفرنج الشامية فنهبها وأغار عليها ، واستباحها ، فوصلهت الغارات الى مالم تكن تبغله من قبل »[٣] . ونتيجة لتضافر جهود نور الدين ــ تلك الجهود التى تمثلت فى المساعدات والامدادات التى ارسلها لصلاح الدين ، وماقام به من غزو الصليبيين فى بلاد الشام ونزوله على الكرك محاصرا له ــ مع ماقام به صلاح الدين الايوبى من امدادات عسكرية

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٥١ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٤٣ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٨٠ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٢٣ .

(٢) ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥٩ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٥١ ــ ٣٥٢ ، انظر ابوشامة ، الروضتين جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥٩ .

متواصلة ، اجبرت الصليبيين والبيزنطيين على التراجع عن دمياط[1] . وقد احسن ابن الاثير الوصف حين وصف الصليبيين والبيزنطيين بالنعامة التى خرجت تطلب قرنين فعادت بلا أذنين[2] .

سر نور الدين محمود والمسلمون بهذا النصر الذى منحهم الله اياه على الصليبيين والبيزنطيين فى مصر وارسل الى الخليفة العاضد يهنئه برحيل الصليبيين والبيزنطيين عن مصر ، ويثنى على الاتراك ، الذين كان العاضد قد شكا اليه شدة و طأتهم بالقاهرة ، ويعلمه « انه ماارسلهم واعتمد عليهم الا لعلمه بان قنطاريات الفرنج ليس لها الا سهام الاتراك وان الفرنج لايرعبون الا منهم ولولاهم لزاد طمعهم فى الديار المصرية وتحصلوا منها على الامنية »[3] .

الواقع ان عودة الصليبيين والبيزنطيين سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م خائبين فى الامر الذى قصدوا ، لم يقتصر على مالحق بهم من اضرار جسيمة فى الاموال والارواح ، بل تعدى ذلك الى انه وضع الصليبيين حقيقة بين شقى الرحى وقطع الامل عليهم فى العودة الى مصر زمنا طويلا . فصلاح الدين الايوبى لم تشغله الاوضاع الجديدة فى مصر عن سد الثلمة التى اشغلت نور الدين محمود سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م فى الموصل عن مواصلة الجهاد ، تلك السنة ، فقد خرج صلاح الدين الايوبى على راس قوة عسكرية كبيرة ، هاجم بها الطرف الجنوبى لمملكة بيت المقدس . فأغار على عسقلان والرملة ، وحصن الداروم ، الواقع فى اقصى الجنوب على ساحل البحر المتوسط ، وهجم على ربض غزة ونهبه . وهناك صادف الملك الصليبى عمورى الاول الذى سار الى هذه البلاد بقصد طرد صلاح الدين ، ونشبت بينهما معركة اشرف فيها عمورى على ان يقع اسيرا فى يد صلاح الدين ، الا ان كلا منهما عاد الى بلاده . ولم يكتف صلاح الدين الايوبى بهذه الخطوة الجريئة فى التوغل فى ارض الصليبيين ، بل امر بعد عودته الى مصر بعمل

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٤٤ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥٨ ، ٤٦٠ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ١٣ ، ص ٣١٦ .

والكرك : قلعة حصينة فى طرف بلاد الشام على جبل عال بين ايلة والبحر الاحمر وبيت المقدس . انظر ياقوت . معجم البلدان .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٥٢ .

(٣) ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٠ ، والقنطاريات : جمع قنطارية ، وهو نوع من السلاح على شكل رمح ، يصنع من الخشب ، ويعرف باليونانية باسم Kontariou انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٨٣ ، حاشية رقم ٢ .

مراكب بحرية حملها على الجمال فى البر حتى وصل بها الى أيلة ، فجمع قطع المراكب والقاها فى البحر ، وحصر ايلة برا وبحرا حتى فتحها فى ربيع الاخر سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م « واستباح اهلها ومافيها وعاد الى مصر » فى السادس والعشرين من جمادى الاولى من تلك السنة[١] .

وبعد أن أتم نور الدين محمود استكمال توحيد القوى الاسلامية فى الشام والجزيرة بالاستيلاء على الموصل سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م عقب وفاة أخيه قطب الدين مودود شرع فى ضم مصر الى حظيرة الخلافة العباسية وذلك بسبب الحاح الخليفة العباسى المستنجد بالله سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م على نور الدين بالاسراع فى اعلان الخطبة العباسية بمصر . ولذلك فقد ارسل نور الدين محمود الى صلاح الدين بمصر يخبره برغبته فى الاطاحة بالخلافة الفاطمية الشيعية . وقد عبر عن سبب رغبته هذه بقوله : « وهذا امر تجب المبادرة اليه لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت ، لاسيما وامام الوقت متطلع الى ذلك بكليته وهو عنده من اهم امنية »[١] . ولكن صلاح الدين الذى لم يكن بأقل تحمسا من سيده نور الدين تردد فى الاسراع بخلع العاضد خوفا من ان يصادف ذلك مقاومة داخلية فى مصر ، ولذلك فقد سار بخطى بطيئة فى الاطاحة بالخليفة العاضد واعادة مصر الى حظيرة الخلافة العباسية . فبدأ بتكوين جيش خاص يعتمد عليه لافى جهاد الصليبيين فحسب ، بل وفى القضاء على الفتن الداخلية ، كما سعى الى عزل قضاة مصر الشيعة ، وعين مكانهم قضاة شافعية[٢] . كما سعى الى نقض ماكان بيد الفاطميين من الاقطاعات ومنحها لعساكره الشاميين ، ليزيد من ولائهم له فى المستقبل[٣] . كما سعى الى ابطال المكوس والمظالم التى كانت تؤخذ من الناس وماكان يفرض على الحجاج من الضرائب ، كما غير بعض الدور التى كانت سجونا الى مدارس للشافعية والمالكية وقطع من الاذان « حى على خير العمل » وشرع فى تمهيد اسباب الخطبة لبنى العباس ، فاندرس بذلك مذهب الاسماعيلية بالكلية من الديار المصرية ، ولم يبق احد من اهل البلاد يمكنه التظاهر به[٤] . ومع ذلك فان صلاح الدين

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٦٥ ، انظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٩٩ ؛ ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٨٦ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٣٢٠ ؛ رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٣١ .

(٢) ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٥ — ٤٦٦ .

(٣) النويرى ، نهاية الارب ، جـ ٢٦ ، حوادث سنة ٥٦٥هـ ، المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٥٨ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٦٦ .

لم يستجب لامر نور الدين محمود وظل متخوفا من الاقدام على اسقاط الخلافة الفاطمية فى مصر ، معتذرا لنور الدين محمود فى ذلك بخوفه من ان يثور عليه الفاطميون الذين يميلون الى المذهب العلوى . ولكن يبدو ان سبب تخوف صلاح الدين من الاقدام على هذه الخطوة الكبيرة هو حرصه على ابقاء الخلافة الفاطمية فى صورتها الشكلية لاحساس صلاح الدين بتغير شعور نور الدين محمود نحوه فاراد ان يكون العاضد الى جانبه حتى اذا قصده نور الدين محمود امتنع منه بالعاضد وباهل مصر[1] . الا ان نور الدين محمود لم يصغ الى اعذار صلاح الدين بل شدد عليه فى سرعة الاطاحة بالفاطميين « والزمه الزاما لافسحة فيه » ولا موجب لمخالفته[2] .

واخيرا تجمع عند صلاح الدين الايوبى من الاسباب ماجعله يوافق على اعلان الخطبة فى القاهرة باسم المستضئ بأمر الله ، بعد ان خلت مصر من معاند ومنابذ رغبة منه فى كسب مزيد من التأييد إلى جانبه . فلما كانت اول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م دعى للمستضئ بأمر الله على منابر القاهرة . ولما كانت الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد واقامة الخطبة للمستضئ بامر الله العباسى ففعلوا ذلك « ولم ينتظح فيها عنزان »[3] . هذا فى الوقت الذى كان فيه الخليفة العاضد قد اشتد به مرضه ، ولم يخبره أحد من اهله بما فعله صلاح الدين الايوبى وقالوا : « ان عوفى فهو يعلم ، وان توفى فلا ينبغى ان نفجعه بمثل هذه الحادثة » . فمات بعد ثلاثة ايام من اعلان الخطبة العباسية فى القاهرة فى العاشر من المحرم سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م . وبموت العاضد انقرضت الدولة

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٦٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ٣٣٣ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٦٨ — ٣٦٩ ، انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٣٣ ، ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢١٥ .

(٣) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٥٦ ، انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٦٩ ، ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٣ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٤٤ ، العينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٧٢٤ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٩٩ .

الفاطمية بمصر بعد قرنين من الزمن[1] .

ولما تم لصلاح الدين تنفيذ مطالب نور الدين محمود فى الاطاحة بالفاطميين سير المبشرين الى بلاد الشام لاخبار نور الدين محمود . فلما وردت البشائر على نور الدين محمود بدمشق سر بذلك سرورا عظيما وكتب الى سائر الاطراف بالبشارة ، وندب القاضى شهاب الدين بن ابى عصرون بهذه البشرى العظيمة الى بغداد فوصل اليها فى اواخر شهر المحرم من السنة نفسها ، فظهر فى بغداد من الفرح والسرور مالا حد له ، فرد الخليفة العباسى المستضئ بأمر الله من جانبه بارسال الخلع والتشريفات والاعلام السود الى نور الدين محمود وصلاح الدين الايوبى ، وللخطباء بالديار المصرية[2] .

وفى الحقيقة فان عودة مصر الى حظيرة الخلافة العباسية أعادت للعالم الاسلامى وحدته المذهبية ، وغدت خلافة بغداد السنية هى السلطة الوحيدة التى يدين لها المسلمون بالولاء المذهبى ، وعادت للمسلمين وحدتهم بعد ان طال الشقاق بينهم زمنا طويلا ، وصاروا يدا واحدة لمواجهة الصليبيين[3] .

ومما تجدر الاشارة اليه أن الصليبيين الذين كانوا يظنون انه لابقاء لهم بالشام بعد ان عادت للعالم الاسلامى وحدته المذهبية ، اصبحوا فى منأى عن الخطر الذي كانوا يتوقعونه من نور الدين وصلاح الدين بسبب تجدد الخلاف السياسي بينهما وهو ماعبر عنه المؤرخون كابن الاثير وابن واصل بالوحشة بين نور الدين وصلاح الدين[4] . ويبدو ان اسباب هذه الوحشة هى اختلاف وجهات النظر بين نور الدين وصلاح الدين ، فنور الدين محمود اعتبر ان بلاد الشام الموضع الاساسى الذى يجب ان تجرى على ارضه منازلة الصليبيين ، وان مصر يجب ان تكون مصدر الدخل الذى يسد نفقات الجهاد فى الوقت الذى يرى فيه صلاح الدين باطنا انه لابد من تكوين قوة عسكرية فى

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٦٩ ، انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٥٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٢٠١ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٦٤ — ٢٦٥ ، ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص ٤٢ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٧١ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٥٦ ، ص ١٥٦ ، البندارى ، سنا البرق الشامى ، جـ ١ ، ص ١١٥ — ١١٦ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٤٧ ، السيوطى ، تاريخ الخلفاء ص ٤٤٥ .

(٣) انظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٩٩ ، سعيد عاشور ، مصر والشام زمن الايوبيين والمماليك ، ص ٢٨ — ٢٩ ، ارنست باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٧٩ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٧١ — ٣٧٢ ، ابن وصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٢٢١ .

مصر لتكون مركز الانطلاق الثانى فى مواجهة الصليبيين[1] .

وكان مبدأ الوحشة بينهما سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م ، ففى تلك السنة ارسل نور الدين محمود الى صلاح الدين يأمره باعداد حملة عسكرية والمسير بها الى الصليبيين فى بلاد الشام ، وقد حدد نور الدين محمود لصلاح الدين المكان الذى تجب محاصرته وهو حصن الكرك ، واخبر نور الدين محمود صلاح الدين بانه سيعد حملة عسكرية من قبله بقصد الاجتماع هناك على حرب الصليبيين والاستيلاء على بلادهم[2] . ولما لم يستطع صلاح الدين رفض ماطلبه منه نور الدين محمود ، فقد برز فى العشرين من محرم سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م ، واخبر نور الدين محمود بذلك . فلما اتى الخبر الى نور الدين وهو بدمشق رحل عنها الى الكرك ، واقام هناك ينتظر صلاح الدين . وبينما هو على هذه الحال أتاه كتاب صلاح الدين يعتذر فيه عن الوصول اليه بسبب اختلاف الاوضاع الداخلية بمصر « وانه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد اليها »[3] . ولكن نور الدين محمود لم يقبل عذر صلاح الدين هذا وعده من باب الاهمال فى جهاد الصليبيين ، وعزم على الوصول إلى مصر واخرج صلاح الدين منها . فلما بلغ صلاح الدين الايوبى ماعزم عليه نور الدين محمود جمع اهله وكبار رجاله واستشارهم فى الامر ، فمنهم من اشار عليه بالوقوف فى وجه نور الدين محمود اذا قدم الى مصر ، ومنهم من اشار عليه بضده ، والتقرب الى نور الدين محمود ، ومنهم والده نجم الدين ايوب وخاله شهاب الدين الحارمى ، حيث قالا له : « فاذا سمع نور الدين انك عازم على منعه عن البلاد جعلك اهم اموره واولاها بالقصد » ، وطلبا من صلاح الدين أن يكتب الى نور الدين محمود ففعل مااشارا به عليه « فلما راى نور الدين الامر هكذا عدل عن قصده »[4] .

وعلى اية حال فان صلاح الدين قد وعد نور الدين محمود على لسان مندوبه الذى ارسله الى دمشق سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م بغزو الصليبيين « فاستقرت القاعدة بينهما ان صلاح الدين يخرج من مصر ويسير نور الدين محمود من دمشق » . فلما استقرت

---

(١) العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٧٢٧ ــ ٧٢٨ .

(٢) ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥١٨ .

(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٥٨ .

(٤) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٥٩ ، انظر ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥١٨ ــ ٥١٩ .

بينهما القاعدة خرج صلاح الدين فى شوال من سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م وقصد بلاد الصليبيين فوصل الى الكرك وحاصره . وعندما سمع صلاح الدين بان نور الدين وصل الى قريب من الكرك ساورته الشكوك منه وخافه هو وجميع اهله ، واتفق رايهم على العودة الى مصر وترك الاجتماع بنور الدين خوفا منه . فلما عاد صلاح الدين الى مصر ، أرسل الى نور الدين يوضح له عن سبب رحيله عن الكرك وعودته الى مصر بانه كان قد استخلف اباه على البلاد ، وانه مريض ويخاف ان يحدث على والده حادث الموت ، فتخرج البلاد عن ايديهم[١] . ولكن نور الدين محمود عظم عليه ذلك ، وعلم المراد من العود ، الا انه لم يظهر لرسول صلاح الدين تأثره بل قال له : « حفظ مصر أهم عندنا من غيرها »[٢] .

هكذا أدت عودة صلاح الدين للمرة الثانية عن الكرك دون الاجتماع بنور الدين او على الاقل حصار الصليبيين حسب الاتفاق الذى كان قد تم بينه وبين نور الدين محمود الى بعد الشقة بين الطرفين . فلما كانت سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م عزم نور الدين محمود على المسير الى مصر لانتزاعها من يد صلاح الدين ، فأرسل الى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر ليتركها مع ابن اخيه سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود فى بلاد الشام لحمايتها من الصليبيين ، ويسير هو الى مصر . الا ان نور الدين محمود قد توفى قبل مسيره الى مصر تلك السنة ٥٦٩هـ / مايو ١١٧٤م وبذلك صار الميدان خاليا لصلاح الدين[٣] .

وكان على صلاح الدين أن يسير قدما على طريق عماد الدين زنكى ونور الدين محمود فى توحيد الجبهة الاسلامية والجهاد ضد الصليبيين وقد اصاب المؤرخ ابوشامة عندما قال : « ولو علم نور الدين ماادخره الله تعالى للاسلام من الفتوح الجليلة على يد صلاح الدين من بعده ، لقرت عينه فانه بنى على ماأسسه نور الدين محمود من جهاد المشركين ، وقام بذلك على أكمل الوجوه واتمها »[٤] .

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٤٨ — ٤٩ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٩٢ — ٣٩٣ .

(٣) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٦١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٣٤٠ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٥٥ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٧١١ ، سعيد عاشور ، مصر والشام ، زمن الايوبيين والمماليك ، ص ٢٩ .

(٤) ابوشامة ، الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٩ .

الخاتمـــة

بفضل من الله وتوفيقه إنتهى موضوع الرسالة التي قمت فيها بدراسة حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فى بلاد الشام والجزيرة قبل قيام الدولة الأيوبيه . وقد توصلت فى هذه الدراسة الى كثير من الحقائق التاريخية ، يأتى فى مقدمتها ان من اسباب نجاح الصليبيين فى تاسيس اماراتهم الاربع فى بلاد الشام والجزيرة هو عدم فهم المسلمين فى تلك البلاد لطبيعة الحركة الصليبية فى مبدأ أمرها وان مما ساعد على سوء هذا انشغال السلاجقة ــ بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م ــ بالفتن والمؤامرات والتنافس على النفوذ فى بلاد الشام والجزيرة ، اضافة الى انهيار نفوذ القبائل العربية التى كانت تشكل معظم القوة الضاربة فى بلاد الشام ، تلك القبائل التى لم تعد تهتم بوصول الصليبيين الى بلاد الشام طالما وقد فقدت نفوذها السياسى فى الشام والجزيرة لحساب الاتراك السلاجقة . ويضاف الى ذلك ان النزاع المذهبى بين السنة والشيعة فى بلاد الشام كان من العوائق التى أعيت زعماء السلاجقة والفاطميين عن الوقوف صفا واحدا فى وجه الغزو الصليبى .

كما برهنت الدراسة على أن طائفة الاسماعيلية أو الباطنية كانت عائقا قويا امام حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين بما اقدمت عليه هذه الطائفة المارقة من قتل واغتيال زعماء المسلمين الذين اخذوا على عاتقهم بعث فكرة الجهاد الاسلامى وحمل راية لوائه ضد الصليبيين ، أمثال شرف الدولة مودود صاحب الموصل سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣م وآقسنقر البرسقى صاحب الموصل سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م .

وأوضحت الدراسة أن الخلافة العباسية التى كانت تمثل رمز وحدة المسلمين السنيين فى ذلك الوقت كانت محط انظار المسلمين فى الشام والجزيرة ، بدليل الاستغاثات التى انطلقت تباعا من بلاد الشام الى بغداد مطالبة باسترداد بيت المقدس من براثن الصليبيين وحماية المسلمين الذين تعرضوا لمذابحهم . غير أن الخلافة رغم ذلك ، ورغم مكانتها الروحية لم تكن تملك من الامكانيات المادية والطاقات البشرية والعسكرية مايجعلها تبادر الى نجدة المسلمين وتحرير مقدساتهم . لذلك كانت الخلافة تحيل تلك الاستغاثات الى سلاطين السلاجقة ، ذوى القدرات العسكرية . وتجدر الاشارة هنا الى أن الخليفة العباسى المسترشد بالله بذل جهودا كثيرة للنهوض بالخلافة

العباسية واعادتها الى مكانتها اللائقة بها فى نفوس المسلمين ، غير انه ذهب ضحية محاولاته على يد السلاجقة ومن يدور فى فلكهم .

ومن الحقائق التاريخية التى توصلت اليها الدراسة ان الخلافة الفاطمية الشيعية فى مصر وعلى راسها الوزير الافضل بن بدر الجمالى لم تفهم طبيعة الحركة الصليبية شأنها فى ذلك شأن بقية القوى الاسلامية ، مما دعى هذا الوزير الى الاتصال بالصليبيين فى محاولة منه على اقتسام بلاد الشام مع الصليبيين ولم تشعر الخلافة الفاطمية بخطر الصليبيين وحقيقة أهدافهم الا بعد فوات الاوان ، الامر الذى أدى إلى فشل جميع المحاولات التى بذلها الافضل فى سبيل وقف الزحف الصليبى على بلاد الشام . وفقدت الخلافة الفاطمية جميع معاقلها ومدنها وموانئها فى سواحل بلاد الشام لحساب الصليبيين . كما ان الانقسام المذهبى بين الفاطميين وبقية القوى الاسلامية فى بلاد الشام والعراق حال كما سبق ذكره دون قيام تحالف اسلامى بين الجانبين للوقوف فى وجه الصليبيين صفا واحدا .

وأوضحت الدراسة والدلائل التاريخية ان فكرة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين قد انبعثت لاول مرة من منطقة الجزيرة دون سواها من بلدان الشرق الاسلامى ، لأسباب كثيرة منها ان التركمان اصبحوا فى تلك الفترة يشكلون السواد الاعظم لجيوش الامراء المسلمين فى منطقة الجزيرة مع ماعرف عنهم من البراعة والفروسية والحماس الدينى . بسبب حداثة عهدهم بالإسلام وحماستهم له إضافة إلى أنهم لم يستنفذوا قواهم فى حروب سابقة كالعرب مثلاً بالاضافة الى أن منطقة الجزيرة تعرضت قبل غيرها للخطر الصليبى عندما تأسست بها اولى الامارات الصليبية وهى امارة الرها الصليبية وماشتهرت به الجزيرة من موارد اقتصادية ضخمة ساعدت على مد المجاهدين بكل متطلبات القتال .

وأثبتت الدراسة ان اطماع الصليبيين فى بلاد الشام لم تقتصر عند حد تأسيس اماراتهم الصليبية فى الرها وانطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس ، بل امتدت اطماعهم الى التوسع فى بلاد المسلمين . ومما يدل على ذلك محاولتهم الفاشلة فى الاستيلاء على حران سنة ٤٩٧هـ / ١١٠٣م ، بهدف السيطرة على كل منطقة الجزيرة والعراق . ومحاولاتهم المتكررة للاستيلاء على حلب ودمشق . وقد أدت تلك الاطماع التوسعية للصليبيين الى بعث حركة الجهاد الاسلامى بعد ان شعر المسلمون بمدى الخطر الذى شكله الوجود الصليبى فى بلاد الشام والجزيرة .

وأوضحت الدراسة ايضا انه قد ظهر قبل عماد الدين زنكى العديد من القادة الذين عملوا على احياء فريضة الجهاد الاسلامى فى نفوس المسلمين وعلى رأس اولئك القادة جكرمش صاحب الموصل ، وسقمان بن أرتق ، اللذان استطاعا احباط اطماع الصليبيين عند حران سنة ٤٩٧هـ / ١١٠٣م عندما حاولوا التوسع فى منطقة الجزيرة .

كما برهنت الدراسة على ان القائد التركانى شرف الدولة مودود بن التونتكين كان على مايبدو اول زعيم ادرك اهمية توحيد القوى الاسلامية فى الجزيرة والشام ضد الصليبيين . ومن اجل ذلك عمل جاهدا على تحقيق ذلك الهدف وحاول الاستيلاء على الرها فى سنة ٥٠١هـ / ١١٠٦م ومقارعة الصليبيين فى وسط بلاد الشام سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣م . كما عمل نجم الدين ايلغازى فى سبيل توحيد القوى الاسلامية بالاستيلاء على حلب واتخاذه اياها مركز انطلاق ضد الصليبيين .

وبرهنت الدراسة على ان عماد الدين زنكى نشأ وتربى فى مجتمع عسكرى اخذت فيه فكرة الجهاد ضد الصليبيين تنمو بفضل ملازمته اولئك القادة امثال جكرمش ، ومودود وغيرهما ، بالاضافة الى انه وجد فى بلاد الشام والعراق والجزيرة فى عهده شعورا اسلاميا ينادى بضرورة اقامة جبهة اسلامية موحدة لاستخلاص المقدسات الاسلامية وحماية البلاد من خطر الصليبيين . وساعد ذلك عماد الدين زنكى على تحقيق طموحاته ورفع راية الجهاد ضد الصليبيين . ومما اوضحته الدراسة أن نشأة عماد الدين زنكى فى كنف العديد من زعماء قادة بعث فكرة الجهاد الاسلامى امثال كربوقا ، وآقسنقر البرسقى وملازمته لهم قد افادته سواء من خبراتهم أو أخطائهم مما أدى الى نجاحه فيما أخفق فى تحقيقه الزعماء السابقون ، وعلى سبيل المثال لم يدخل عماد الدين — كما فعل غيره من قادة الموصل — فى نزاع مباشر مع الصليبيين قبل تقوية جيوشه وتوطيد نفوذه فى منطقة الجزيرة ، فقد هادن عماد الدين زنكى الصليبيين فى بادئ الامر ووجه جهوده لتنظيم دولته وبناء جيوشه وتوسيع رقعة مملكته . كما انه عمل على اضفاء طابع الشرعية على فتوحاته فى بلاد الشام والجزيرة بما حصل عليه من تفويض وتقليد رسمى من السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية قبل استيلائه على حلب سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م والبلاد التابعة لها .

ومن النتائج التى توصل اليها البحث معرفة مدى ماكان يتمتع به عماد الدين زنكى

من دهاء وحنكة سياسية لافى اختيار الرجال الصالحين لادارة دولته فقط بل وفى معاملة خصومه من المسلمين . فمثلا عندما عجز عن اخضاع الاراتقة فى ماردين وحصن كيفا لجأ الى تفريق كلمتهم وتفتيت صفوفهم ، فدخلوا فى نزاع مع بعضهم البعض ، واصبح كل فريق يتقرب الى عماد الدين ، فأمن شرهم واستعان بهم لمحاربة الصليبيين . كما أن تقرب عماد الدين زنكى الى كثير من الاسر ذات النفوذ فى بلاد الشام والجزيرة عن طريق المصاهرة ، ساعده على التدخل فى شئون هذه الاسرة فى محاولة منه للقضاء عليها وضمها تحت لوائه .

ومن النتائج التى توصل اليها البحث ان عماد الدين زنكى عمل على توفير جميع الشروط اللازمة لتحقيق النصر على الصليبيين واسترداد الرها . فبالاضافة الى اختياره الوقت المناسب الذى كان فيه صاحب الرها جوسلين الثاني بعيدا عنها مع الكثير من أشهر رجاله البارزين فقد ارسل عماد الدين الجواسيس لمعرفة ادق التفاصيل عن الصليبيين في الرها ، مثل معرفة تحركاتهم وعدد قواتهم واسلحتهم ومؤنهم وغير ذلك . كما حشد الكثير من التركمان ذوي الخبرة في فنون الفروسية فضلا عن استخدام الخرسانيين والحلبيين لخبرتهم في معرفة مواضع النقوب في القلاع وحفر الخنادق وإضرام النيران في تحصينات العدو .

واخيرا استرد عماد الدين زنكي مدينة الرها وقضى على تلك الامارة الصليبية مما اعاد للمسلمين ثقتهم وزرع فيها الامل باسترداد بقية بلاد الشام من براثن الصليبيين .

ومن النتائج التي توصل اليها البحث انه على الرغم من انقسام مملكة عماد الدين زنكي عقب وفاته سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م بين ولديه نور الدين محمود في حلب وسيف الدين غازي في الموصل ، فان ذلك الانقسام لم يؤد الى نشوب النزاع بينهما كما حصل بين رضوان ودقاق ابنى تتش سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م بل خدم فى نهاية الامر قضية الجهاد ضد الصليبيين ، فتفرغ سيف الدين غازى لمشاكل الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية والاراتقة فى ماردين وحصن كيفا ، بينما ركز نور الدين محمود كل جهوده فى حمل راية الجهاد ضد الصليبيين ، بالاضافة الى جهوده فى سبيل توحيد الجبهة الاسلامية .

وبرهنت الدراسة على ان فشل الحملة الصليبية الثانية يعود بالدرجة الاولى الى تغيير

زعماء هذه الحملة لمسارها الذى خرجت من أجله وهو استرداد الرها والقضاء على نور الدين محمود ، اذ اتجهت الحملة الصليبية للاستيلاء على دمشق من خلفاء طغتكين الذين كانوا فى تحالف مع الصليبيين بدلا من الاتجاه الى حلب مركز الجهاد الاسلامى فى بلاد الشام ، ولم يقتصر فشل الحملة الصليبية الثانية على عودة زعمائها الى اوروبا يجرون أذيال الخيبة بل نبه نور الدين محمود الى أهمية الاستيلاء على دمشق وضمها الى مملكته وتمكن نور الدين محمود بن زنكى من اقامة جبهة قوية ضد الصليبيين فى بلاد الشام بعد استيلائه على دمشق سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٣م ، واعادة توحيد القوى الاسلامية فى بلاد الشام مع الجزيرة بعد انقسام دام فترة من الزمن . وترتب ايضا على استيلاء نور الدين محمود على دمشق سيطرته على جميع الحصون والقلاع الواقعة شرق نهر العاصى التى كانت خاضعة للصليبيين ، وتكوين جبهة اسلامية قوية فى بلاد الشام والجزيرة .

واخيرا فقد اتضح من الدراسة ادراك نور الدين محمود من البداية لاهمية موقع مصر ، ومائمثله من قوة بشرية واقتصادية سوف تكون عاملا حاسما فى مستقبل الجهاد ضد الصليبيين . لذلك بادر نور الدين محمود باحباط خطط الصليبيين للاستيلاء على مصر بارسال أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين فى حملات حربية متتابعة حتى تم لهما الاستيلاء عليها والقضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م واعادة الوحدة المذهبية للمسلمين ووضع الصليبيين بين شقى الرحى .

ومن النتائج التى توصلت اليها الدراسة ان استيلاء نور الدين محمود على مصر لم يتوقف عند حد القضاء على الخلافة الشيعية بها وقطع الامل على الصليبيين فى العودة اليها بل كان ذلك بمثابة القاعدة التى انطلق منها صلاح الدين الايوبى لتصفية الوجود الصليبى فى بلاد الشام .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

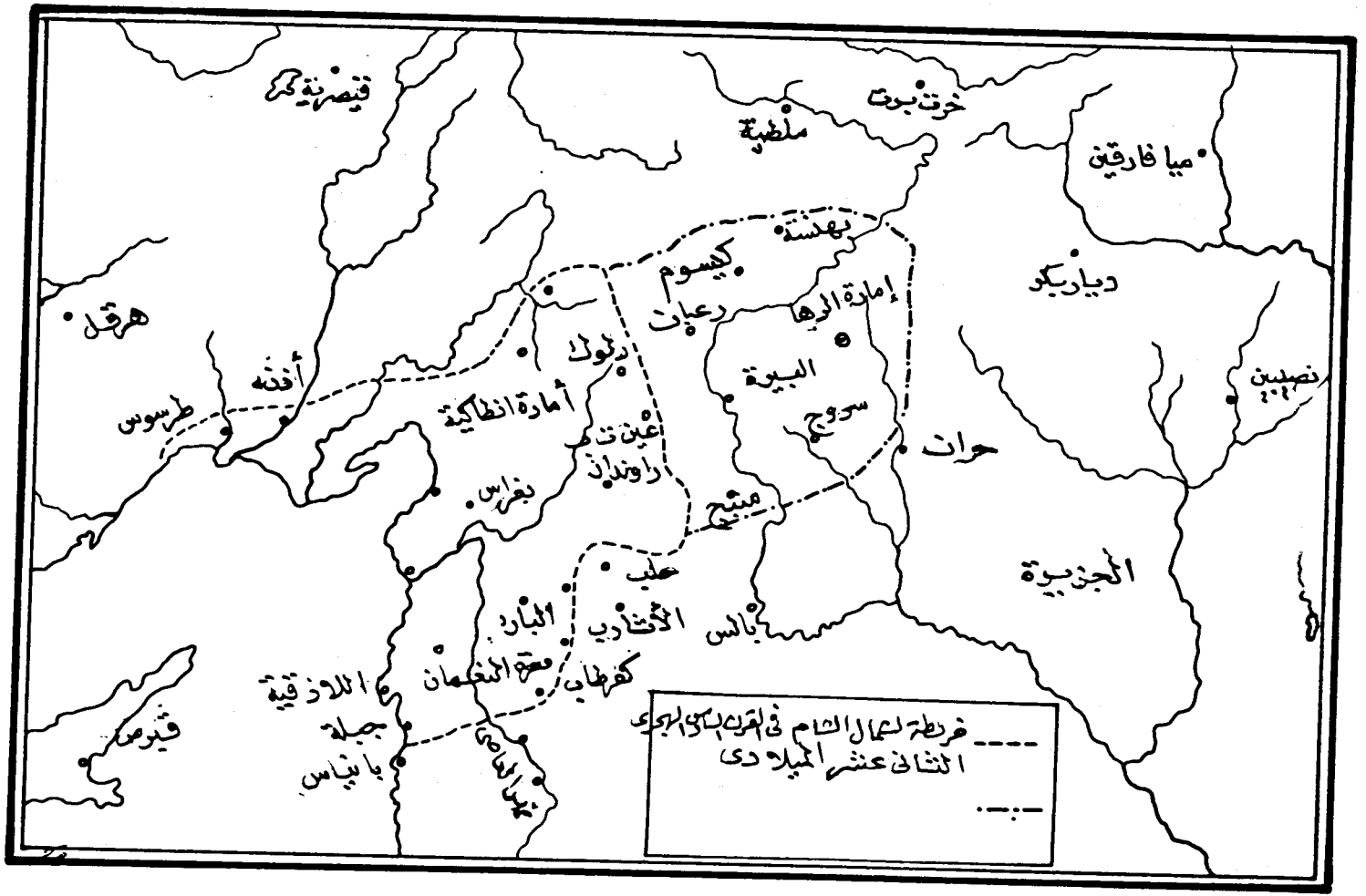
قيصرية كمخ
ملطية
خرت برت
ميا فارقين
تهلسنة
كيسوم
رعبان
إمارة الرها
ديار بكر
هرقل
أفنه
بلوك
البيرة
نصيبين
طرسوس
أمارة انطاكية
سروج
عين ت
راوندان
حران
بغراس
منبج
الجزيرة
حلب
البارد
الأثارب
بالس
اللاذقية
كفرطاب
جبلة
بانياس
قبرص
فرطة لشمال الشام فى القرن الثانى عشر الميلادى
الثانى عشر الميلادى

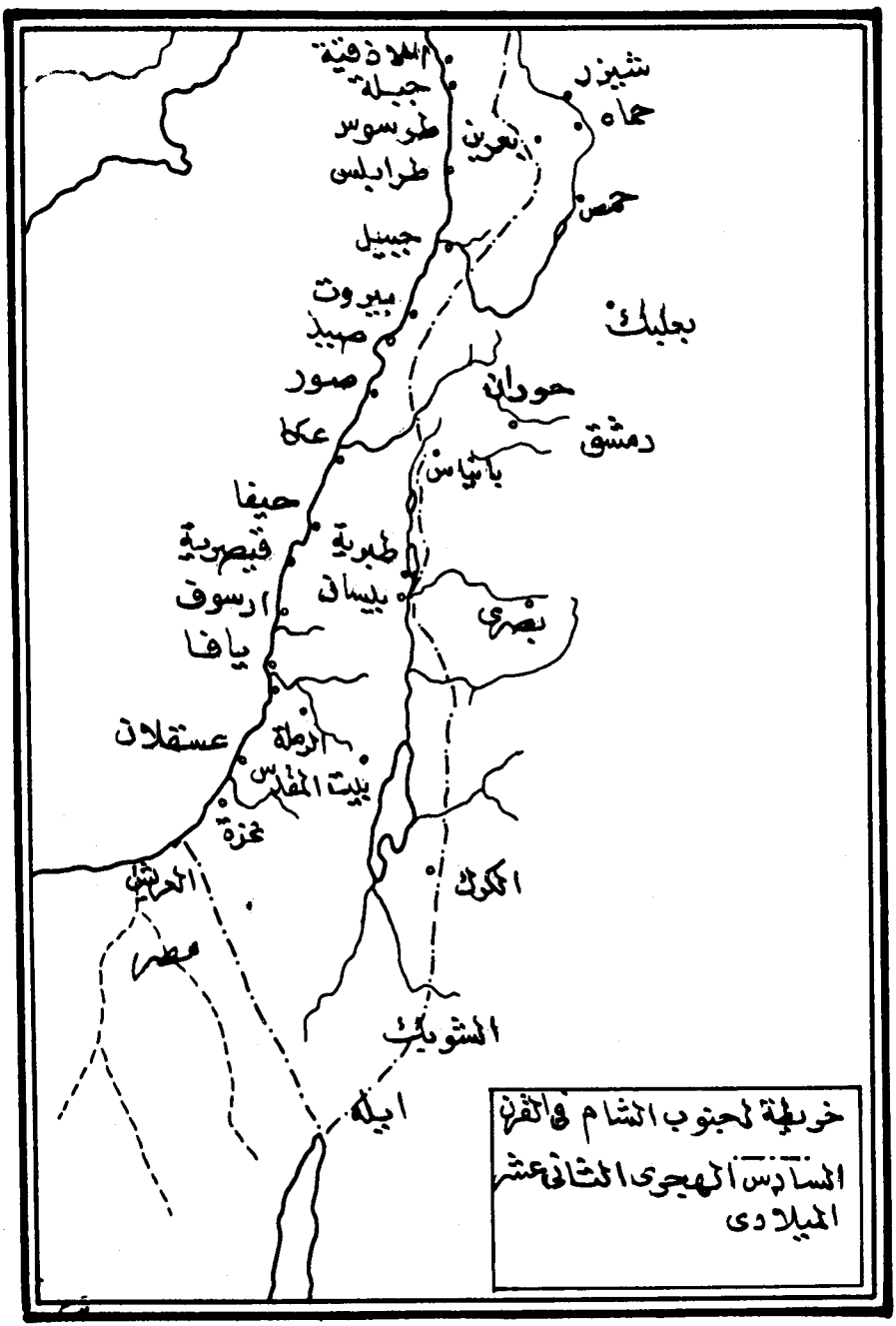
اللاذقية
جبلة
طرسوس
طرابلس
جبيل
بيروت
صيدا
صور
عكا
حيفا
قيصرية
ارسوف
يافا
عسقلان
الرملة
بيت المقدس
غزة
العريش
مصر
الشوبك
ايلة
شيزر
حماه
تعزين
حمص
بعلبك
حوران
دمشق
بانياس
طبرية
بيسان
نصرى
الكرك
خريطة لجنوب الشام فى القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى

أمارة الرها في أقصى اتساعها ، عن كتاب عليه الجنزوري ، امارة الرها الصليبية
طبعة ١٩٧٥م

الملاحق

الملحق الأول : ترجمة عماد الدين زنكى

(٤٨٠ ــ ٥٤١هـ / ١٠٨٧ ــ ١١٤٦م)

الملحق الثانى : استيلاء عماد الدين زنكى على حصن بعرين

سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦م

الملحق الثالث : استيلاء عماد الدين زنكى على امارة الرها

سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م

الملحق الرابع : الحملة الصليبية الثانية

سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م

الملحق الخامس : من سيرة نور الدين محمود بن زنكى

٥١١ ــ ٥٦٩هـ / ١١١٧ ــ ١١٧٣م

ترجمة عماد الدين زنكى[1]

(٤٨٠ ــ ٥٤١هـ / ١٠٨٧ ــ ١١٤٦م)

زنكى بن أق سنقر ابوالمظفر التركى ز ، وقيل آق سنقر بن القرغان من قبيلة « سابايو » وقيل ان أق سنقر كان مملوكا للسلطان ملكشاه .

ويعرف زنكى « بأتابك بن قسيم الدولة » لانه كان عنده ولدان للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، بالموصل يربيهما وكان مولده بحلب فى أيام ولاية أبيه سنة ٤٨٠هـ ، فربى بها ، وكان فى أول أمره مضافا الى أق سنقر البرسقى ، والبرسقى شحنة بغداد ، وولاه البصرة ، فلما عزل البرسقى عن شحنكية بغداد فارق البصرة وقصد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، فأكرمه ، وأقطعه البصرة ، وأعاده اليها فى سنة ٥١٨هـ ثم ترقت به الحال الى أن ملك الموصل فى سنة احدى وعشرين وخمسمائة .

وكان ختلغ أبه بحلب وأساء السيرة مع أهلها فحصروه وبالمدينة بدر الدولة سليمان بن عبدالجبار بن أرتق ، فأجمع رأى ختلغ أبه وسليمان على أن يسيرا إلى أنابك زنكى ويحكماه فيما يفعل ، فلم يوقع لواحد منهما بحلب ، وتوجه اليها فقدمها . وكان له أتراب بحلب ، من الحلبيين قد تربى بينهم فكانوا يميلون اليه لذلك ، فسلموا الى نائبه حلب فى شهر رمضان سنة احدى وعشرين وخمسمائة وتوجه اليها فتسلمها فى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة فى جمادى الآخرة . وتوجه بعد ذلك الى السلطان محمود وعاد فى سنة ثلاث وعشرين ، ومعه توقيع مجدد بولايته الجزيرتين ، والشام ، وحلب ، والشط ، وملك حمص وحماه ، وبعلبك ، والرقة ، ودارا ، وحران ، ورأس عين ، واشتغل بمحاربة الفرنج ، ففتح من أيديهم معرة النعمان ، وكفر طاب ، وبارين ، والأثارب ، وزردنا ، وتل اغدى ، وبزاغا ، وسروج ، والرها ، وكان له أثر عظيم فى نصرة الاسلام . وكف عادية الفرنج ، ومهد لمن بعده فتح البلاد ، بعد أن كان الفرنج قد ضايقوا مدينة حلب واستولوا على حصونها وأخذوا المناصفة من المسلمين الى بابها فأغاثهم الله

---

(١) ابن العديم ، بغية الطالب فى تاريخ حلب ، التراجم الخاصة بالسلاجقة ، نشر وتحقيق على سويم ، ص ٢٥١ ــ ٢٧٢ ، انظر ايضا ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ ٦ ، ورقة ٢٠٦أ ــ ٢١٥أ .

بزنكى ، وولده من بعده .

وكان زنكى ملكا عظيما شجاعا جبارا ، كثير العظمة ، والتجبر ، وهو مع ذلك يراعى أحوال الشرع وينقاد اليه ويكرم أهل العلم . وبلغنى (اى العظيمى) أنه كان اذا قيل له : « أما تخاف الله ؟ » خاف من ذلك ويتصاغر فى نفسه فأظهر الله تعالى سره المحمود فى ولده محمود .

استيلاء عماد الدين زنكى على حصن بعرين[1]
(٥٣١هـ / ١١٣٦م)

وفى شعبان منها ورد الخبر بأن عماد الدين أتابك بن آقسنقر توجه فى عسكره من ناحية الموصل ، وقطع الفرات فى العشر الاول منه ، ووصل الى حمص ، وكان تقدمه اليها صلاح الدين (الياغيسيانى) فى أوائل العسكر ، ونزلا عليها وضايقاها ، وفيها الامير معين الدين أنر واليها ، فراسله فى تسليمها فاحتج عليه بأنها للأمير شهاب الدين ، وأنه نائبه فيها ، فنصب الحرب عليها والمضايقة لها أياما ، ولم يحظ منها بطائل فرحل عنها فى العشرين من شوال من السنة ، ونزل على الحصن المعروف ببعرين لينتزعه من أيدى الافرنج . فلما عرفوا ذاك تجمعوا ونزلوا قريبا لحمايته ومعونة من فيه منهم ، فحين عرف عماد الدين خبرها كمن لهم كمينا والتقى الجمعان ، فانهزم فريق من الاتراك بين أيدى الافرنج ، وقتلوا منهم جماعة وافرة عند عودتهم الى منزل مخيمهم ، وظهر عليهم عماد الدين فى من كمن لهم من الكمناء ، وواقع الرجالة وملك الاثقال والسواد ، وحين قربوا من المخيم وشاهدوا مانزل عليهم وحل بهم انخذلوا وفشلوا ، وحمل عليهم عسكر عماد الدين فكسرهم ومحقهم قتلا وأسرا ، وحصل لهم من الغنائم الشئ الكثير من الكراع والسواد والاثاث ، وعاد عماد الدين الى حصن بعرين . وقد انهزم اليه ملكهم كندايا جور ومن يجامعه من مقدمى الافرنج وهم على غاية من الضعف والخوف ، فنزل عليهم وحصرهم فى الحصن المذكور ، ولم يزالوا على هذه الحال فى المضايقة والمحاربة الى أن نفد ماعندهم من القوت فأكلوا خيلهم . وتجمع من بقى من الافرنج فى بلادهم ومعاقلهم وانضموا الى ابن جوسلين ، وصاحب أنطاكية ، واحتشدوا وساروا طالبين نصرة المخذولين المحصورين فى حصن بعرين وتخليصهم مما هم فيه من الشدة والخوف والهلاك ، فحين قربوا من عسكر أتابك وصح الخبر عنده بذاك اقتضت الحال أن أمنهم وعاهدهم على مااقترحه عليهم من طاعته ، وقرر عليهم خمسين ألف دينار يحملونها اليه ، وأطلقهم وتسلم الحصن منهم ، وعاد من كان اجتمع لنصرتهم .

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٢٥٨ — ٢٥٩ .

استيلاء عماد الدين زنكى على أمارة الرها الصليبية[1]
(٥٣٩هـ / ١١٤٤م)

فى جمادى الاخر من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، فتح الشهيد رضى الله عنه مدينة الرها من الفرنج ، وكانت لجوسلين[2] عاتيهم وشيطانهم ، والمقدم على رجالتهم وفرسانهم ، وكلهم قد أذعن له بالنهاية فى الشجاعة ، فهم يخضعون له ببذل الطاعة . وكان مدة حصارها ثمانية وعشرين يوما ، وأعادها الى حكم الاسلام ، ونفذت فيها أحكام أهل الايمان ، وهذه الرها هى من أشرف المدن عند النصارى ، وأعظمها محلا ، وهى احدى الكراسى عندهم ، فأشرفها البيت المقدس ، ثم أنطاكية ، ثم رومية والقسطنطينية ، والرها ، وكان هذا فتح الفتوح حقا وأشبهها ببدر حقا ، من شهده فقد تمسك من الجهاد بأوثق سبب ، ولو عاصره الطائى[3] لعلم أنه أولى بقوله : السيف أصدق أنباء من الكتب ، لأن ضرر من بهذه المدينة من الفرنج على المسلمين لقربها عظيم ، وشرهم اليها جسيم . اذ كانت من الديار الجزرية عينها ، ومن البلاد الاسلامية حصنها ، وانضاف اليها عدة من البلاد فاتسعت مملكتهم ، واشتدت على أهلها وطأتهم ، فملكوا من نواحى ماردين الى الفرات ــ على طريق شبختان ــ عدة حصون ، كسروج ، والبيرة ، وجملين ، والموزر ، والقراوى ، وسن بن عطير وغير ذلك . وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر ، وماردين ، ونصيبين ، ورأس عين ، والرقة . أما حران فكانت معهم فى الخزى ، كل يوم قد صبحوها بالغارة ، فلما رأى الشهيد الحال هكذا ، أنف لدولته أن يترك من بالرها من الكفار يجوسون من مملكة الاسلام خلال الديار ، وكان يعلم أنه لاينال منها غرضا ، ولايمكنه أن يميل جوهر الكفار بها عرضا ، مادام بها جوسلين ، وفرسانه ، وجنوده وأعوانه ، وأنه متى قصدها محاصرا لها اجتمعت الفرنج لحفظها منه ، فعدل الى أعمال الحيل والخداع ، اذ كان أنجع فى هذه الحادثة من المصاع ، والرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثانى . فعدل عن

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٦٦ ــ ٧٠ .

(٢) هو جوسلين الثانى ابن جوسلين الاول .

(٣) هو الشاعر أبو تمام الطائى ، انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٦٧ ، حاشية رقم ٣ .

قصدها الى ماجاورها من ديار بكر التى بيد المسلمين ، كحانى ، وجبل جور ، وآمد على ماتقدم ذكره ، فكان يقاتل من بها قتالا فيه ابقاء وهو يسر حسوا فى ارتفاء ، فهو يخطبها وعلى غيرها يحوم ، ويطلبها وسواها يروم ، ووكل بها من يخبره بخلوه عرينها من آساده وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ، ظن أنه لافراغ له اليه ، وأنه لايمكنه الاقدام عليه ، ففارق الرها الى بلاده الشامية ليلاحظ أعماله ، ويتعهد ذخائره وأمواله فأتت الشهيد عيونه فأخبرته بمسيره مع عساكره وذويه ، وخلو البلد عن حافظة وحامية فحينئذ أمر بالنداء فى العساكر بالتجهيز والتشمير والجد فى السير ، ويهدد لمن عن صحبته تأخر ، وأعلمهم أنه لايقبل عذر من اعتذر ، وأقبل مسرعا كالسهم الصادر عن وتره والسيل الصائر الى مستقره ، وتبعته العساكر يتلو بعضها بعضا ، عازمين على أن يؤدوا من الجهاد سنة وفرضا ، وأقبلوا زمرا مجدين كقطع السحاب تحتها الجنائب ، وقد استعانوا على السرعة بركوب النجائب ، فلما علم من بها من العدو اقباله ، سرى الرعب فى أحشائهم ، واختلط الخوف بدمائهم وسقط فى أيديهم ، ورأوا انهم قد ضلوا وقالوا : (لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين)[1] ، فأبى الله الا أن ينتقم منهم بسيف الشهيد ، ويجمع فى جهنم بين الغائب منهم والشهيد ، جزاء بغيهم الشنيع ، وقتلهم الفظيع ، فصبه الله عليهم عذابا ، وساقه اليهم عقابا ، فضاقت عليهم الارض بما رحبت ، وضاقت عليهم نفوسهم ، ونكست لشدة هيبته رؤسهم ، ووافى البلد فى حده وحديده ، وعديده ، وبمواكبه المنصورة وجموعه المحشوره ، وبنوده المنشورة .... وزحف بهم نحو البلد يقدمه ، والشجاعة تقدمه ، فكادت الأرض تزلزل والنهار بسواد الليل يسربل ، وصار الفرنج مع علمهم بأنهم صائرون الى البوار يتهافتون الى القتال تهافت الفراش فى النار ، أخذا بقول من يقول :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد ... لنفسى حياة مثل أن أتقدما

فلما رأى الشهيد البلد ، رأى بلدا جمع بين الحصانة والحسن ، فراسل أهله يبذل لهم الامان ، والامن ، ليسلموه سليما من اخراب أسواره ، واخلاء دياره ، ضنا منه على

---

(١) سورة الاعراف ، آية ١٤٩ .

مثله ان يصبح خاويا على عرشه ، وان يلتحق سماؤه بفرشه فأبوا قبول الامان ، وامتنعوا عن الاذعان ، فاستخار الله تعالى فى قتاله ، وقدم الشجعان لنزاله ، ونصب المجانيق ، وقدم النقابين ، وألح على من به القتال ، خوفا أن يجتمع الفرنج فيزحزحونه عنه ويستنقذونه منه . وبلغ الخبر الى الفرنج فقاموا وقعدوا ، وأبرقوا وأرعدوا ، وجمعوا فارسهم وراجلهم ، وشابهم وكهلهم ، وحرصوا على السرعة خوف الفوات ، وعاد جوسلين عند سماعه الخبر الى شرق الفرات ، لعله يجد فرصة ليدخل اليها ، او يرسل نجدة يحافظ عليها ، فحيل بينه وبين ذلك ، وأنى يكون مايريد وخصمه الشهيد أتابك . ولم يزل الشهيد يزحف الى البلد مرة بعد اخرى حتى وصل النقابون الى سورها ، فنقبوه فألقوا النار فيه فأحرقوه ، وملك البلد عنوة وقهرا ، وأوسع كل مافيه نكالا وشرا ، فلما ملكها استباحها ، وأذل لقاحها ، ونكس صلبانها ، وأباد قسوسها ورهبانها ، وقتل شجعانها وفرسانها ، فهم معه قتيل وأسير ، وجريح وكسير ، وملأ الناس أيديهم من النهب والسبى من كل مال نفيس وغلام رائق ، وبكر كالظبى عاتق ، وأصابهم من النكال ماهو لهم عتيد (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد)[1] . ثم انه دخل البلد فراقه منظره وشاقه مخبره ، فأسف لمثله من الخراب ، وان يستولى عليه فى ملكه البوار والتباب ، ورأى ان أخربه وأخلاه من أهله غير مستحسن من مثله ، فأمر باعادة ماأخذ منه من أثاث ومال وسبى ورجال وجوار وأطفال ، فردوا عن آخرهم لم يفقد منهم الا الشاذ النادر ، فعاد البلد عامرا بعد ان كان داثرا ، وآهلا وآمنا بعد أن كان للذئاب والخامع[2] مسكنا ، ورتب فيه من العساكر من يحفظه ، وسار عنه فاستولى على ماكان بيد الفرنج من هذه الناحية من المدن والحصون والقرايا ، كسروج وغيرها وأخلى الديار الجزرية من معرة الفرنج وشرهم وأراح أهلها من كيدهم ، وحزهم ، واصبح أهلها بعد الخوف آمنين ، وعلى مهاد الأمن وادعين ، وأجفل الكفر وحزبه بين يدى الايمان وأهله ، وهم على آثارهم يكسعون أدبارهم ، ويوحشون منهم ديارهم ، والكفرة يجدون فى الهرب خوف العطب ، وكلهم من الرعب لاه ذاهل ، ومنادى التوحيد ينادى : جاء الحق وزهق الباطل . وألقى الاسلام بهذه البلاد جرانه وبث فيها أنصاره وأعوانه ، وصدق وعد الله فى قوله (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى

---

(١) سورة هود ، آية ١٠٢ .

(٢) الخامع هو الضبع ، انظر ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٦٩ ، حاشية رقم (٥) .

الارض)[1] . فهى لهم الى يوم العرض . وكان فتحا عظيما لم ينتفع المسلمون بمثله ، وطار فى الافاق ذكره ، وطاب بها نشره ، وسارت به الرفاق ، وامتلأت به المحافل فى الافاق ، وشهده خلق كثير من الصالحين والاولياء ، واستبشر به الابرار والاصفياء . حكى لى جماعة أعرف صلاحهم انهم رأوا يوم فتح الرها الشيخ ابا عبدالله بن على بن مهران الفقيه الشافعى ، وكان من العلماء العاملين ، والزاهدين فى الدنيا المنقطعين عنها ، وله الكرامات الظاهرة ، ذكروا عنه أنه غاب عنهم فى زاويته يوم ذلك ، ثم خرج عليهم مستبشر مسرور عنده من الارتياح مالم يروه أبدا ، فلما قعد معهم قال لهم : حدثنى بعض اخواننا ، أن أتابك زنكى فتح مدينة الرها ، وأنه شهد معها فتحها يومنا هذا ، ثم قال : مايضرك يازنكى مافعلت بعد اليوم ، وبقى يردد هذا القول مرارا ، فضبطوا ذلك اليوم فكان يوم الفتح ، ثم ان نفرا من الاجناد حضروا عند هذا الشيخ وقالوا له : منذ رأيناك على السور تكبر أيقنا بالفتح وهو ينكر حضوره ، وهم يقسمون أنهم رأوه عيانا ، وحكى لى أيضا بعض العلماء بالاخبار والانساب ــ وهو أعلم من رأيت بها ــ قال : كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرها وكان بها بعض العلماء الصالحين من المغاربة من المسلمين ذكر اسمه وأنسيته ، وكان الملك يحضره ويكرمه ويرجع الى قوله ، ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين ، فلما كان الوقت الذى فتحت فيه الرها قد سير هذا ملك الفرنج جيشا فى البحر الى أفريقية ، فنهبوا وأغاروا و أسروا ، وجاءت الاخبار الى الملك وهو جالس ، وعنده هذا العالم المغربى ، وقد نعس وهو شبه النائم فأيقظه الملك ، وقال له : يافقيه قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت ، أين كان محمد عن نصرهم . فقال : كان قد حضر فتح الرها ، فتضاحك من عنده من الفرنج . فقال لهم الملك : لاتضحكوا ، فوالله ماقال عن غير علم ، واشتد هذا على الملك . فلم يمض غير قليل ، حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين ، فأنساهم شدة هذا الوهن ، رجاء ذلك الخبر ، لعلو منزلة الرها عند النصرانية . وحكى أيضا غير واحد ممن أثق به أن رجلا من الصالحين قال : رأيت الشهيد بعد مقتله فى المنام فى أحسن حال ، فقلت له : مافعل الله بك . فقال : غفر لى فقلت : بماذا ؟ فقال : بفتح الرها .

---

(١) سورة النور ، آية ٥٥ .

الحملة الصليبية الثانية سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م[1]

وأولها يوم الجمعة الحادى والعشرين من أيار ، والشمس فى الجوزاء . وفى أوائلها تواترت الاخبار من سائر الجهات بوصول مراكب الافرنج المقدم ذكرهم الى ساحل البحر ، وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية ، صور وعكا واجماعهم مع من كان بها من الافرنج ، ويقال انهم بعد مافنى منهم بالقتل والمرض والجوع تقدير مائه الف عنان . وقصدوا بيت المقدس وقضوا مفروض حجهم ، وعاد بعد ذلك من عاد الى بلادهم فى البحر . وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلق العظيم ، وهلك من ملوكهم من هلك ، وبقى المان أكبر ملوكهم ومن هو دونه ، واختلفت الاراء بينهم فيما يقصدون منازلته من البلاد الاسلامية ، والاعمال الشامية الى أن استقرت الحال بينهم على منازلة مدينة دمشق ، وحدثتهم نفوسهم الخبيثة بملكتها وتبايعوا ضياعها وجهاتها . وتواصلت الاخبار بذلك وشرع متولى امرها معين الدين أنر فى التأهب والاستعداد لحربهم ، ورفع شرهم وتحصين مايخشى من الجهات وترتيب الرجال فى المسالك والمنافذ وقطع مجارى الميرة الى منازلهم وطم الآبار وعفى المناهل ، وصرفوا أعنتهم الى ناحية دمشق فى حشدهم وحدهم و حديدهم فى الخلق الكثير على مايقال تقدير الخمسين من الخيل والرجال ومعهم من السواد والجمال والابقار ماكثروا به العدد الكثير ، ودنوا من البلد ، وقصدوا المنزل المعروف بمنازل العساكر فصادفوا الماء معدوما فيه مقطوعا عنه ، فقصدوا ناحية المزة فخيموا عليها لقربها من الماء ، وزحفوا اليه بخيلهم و رجلهم . ووقف المسلمون بازائهم فى يوم السبت السادس من شهر ربيع الأول سنة ٤٣ ونشبت الحرب بين الفريقين ، واجتمع عليهم من الأجناد والاتراك القتال واحداث البلد والمطوعة ، والغزاة الجم الغفير ، واشتجر القتل بينهم واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة الاعداد والعدد وغلبوا على الماء وانتشروا فى البساتين وخيموا فيها وقربوا من البلد وحصلوا منه بمكان لم يتمكن احد من العساكر قديما ولا حديثا منه . واستشهد فى هذا اليوم الفقيه الامام يوسف الغندلاوى المالكى رحمه الله قريب الربوة على الماء لوقوفه فى وجوههم ، وترك

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٢٩٧ ــ ٣٠١ .

وشرعوا فى قطع الاشجار والتحصين بها وهدم القناطر وباتوا تلك الليلة على هذه الحال ، وقد لحق الناس من الارتياع لهول ماشاهدوه والروع بما عاينوه ماضعفت به القلوب وحرجت معه الصدور ، وباكروا الظهور اليهم فى غدر ذلك اليوم وهو يوم الاحد تاليه ، وزحفوا اليهم ووقع الطراد بينهم واستظهر المسلمون عليهم ، واكثروا القتل والجراح فيهم . وأبلى الامير معين الدين أنر فى حربهم بلاء حسنا ، وظهر من شجاعته وصبره وبسالته مالم يشهد فى غيره ، بحيث لايني فى ذياتهم ولا يغشى عن جهادهم ، ولم تزل رحى الحرب دائرة بينهم ، وخيل الكفار محجمة عن الحملة المعروفة لهم الى أن تتهيأ الفرصة لهم الى أن مالت الشمس الى الغروب ، وأقبل الليل وطلبت النفوس الراحة وعاد كل منهم الى مكانه ، وبات الجند بازائهم وأهل البلد على اسوارهم للحرب والاحتياط وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم .

وكانت المكاتبات قد نفذت الى ولاة الاطراف بالاستصراخ والاستنجاد ، وحصلت خيل التركمان تتواصل ورجاله الاطراف تتتابع . وباكرهم المسلمون وقد قويت نفسهم وزال روعهم . وثبتوا بازائهم ، وأطلقوا فيهم السهام ونبل الجراح ، بحيث تتبع فى مخيمهم فى راجل او فارس أو فرس او جمل .

ووصل فى هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجالة كثيرة من الرماة ، فزادت بهم العدة وتضاعفت العدة ، وانفصل كل فريق الى مستقره هذا اليوم وباكروهم من غدة يوم الثلاثاء كالبزاة الى تعاقيب الجبل والشواهين الى قطار الحجل وأحاطوا بهم فى مخيمهم وحول مجثمهم ، وقد تحصنوا بأشجار البساتين وأفسدوها رشقا بالنشاب وحذفا بالأحجار . وقد أحجموا عن البروز وخافوا وفشلوا ، ولم يظهر منهم أحد وظن بهم أنهم يعملون مكيدة ويدبرون حيلة ، ولم يظهر منهم الا النفر اليسير من الخيل والرجل على سبيل المكاردة والمناوشة خوفا من المهاجنة الى أن يجدوا لحملتهم مجالا أو يجدون لفرهم احتيالا ، وليس يدنو منهم أحد الا صرع برشقة أو طعنة ، وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الاحداث والضياع ، وجعلوا يرصدونهم فى المسالك وقد انثنوا ، فيقتلون من ظفروا به ويحضرون رؤوسهم لطلب الجوائز عنها ، وحصل من رؤوسهم العديد الكثيرة .

وتواترت اليهم أخبار العساكر الاسلامية بالخفوف الى جهادهم والمسارعة الى استئصالهم فأيقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار واعملوا الاراء بينهم ، فلم يجدوا لنفوسهم

الرجوع عنهم اتباعا لاوامر الله تعالى فى كتابه الكريم ، وكذلك عبدالرحمن الحلحولى الزاهد رحمه الله جرى أمره هذا المجرى .

خلاصا من الشبكة التى حصلوا فيها والهوة التى القوا بنفوسهم اليها غير الرحيل سحرا يوم الاربعاء التالى مجفلين ، والهرب مخذولين مغلولين ، وحين عرف المسلمون ذلك وباتت لهم آثارهم فى الرجيل برزوا لهم فى بكرة هذا اليوم وسارعوا نحوهم فى آثارهم بالسهام ، بحيث قتلوا فى أعقابهم من الرجال والخيول والدواب العدد الكثير ، ووجد فى آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم وفاخر خيولهم مالا عدد له ولا حصر يلحقه ، بحيث لها أرائح من جيفهم تكاد تصرع الطيور فى الجو ، وكانوا قد أحرقوا الربوة والقبة الممدودة فى تلك الليلة ، واستبشر الناس بهذه النعمة التى أسبغها الله عليهم ، وأكثروا من الشكر له تعالى ماأولاهم من اجابة دعائهم الذى واصلوه فى أيام هذه الشدة فلله على ذلك الحمد والشكر .

واتفق عقيب هذه الرحمة اجتماع معين الدين مع نور الدين صاحب حلب عند قربة من دمشق للانجاد لها فى أواخر شهر ربيع الاخر من السنة ، وأنهما قصدا الحصن المجاور لطرابلس المعروف ...[1] وفيه ولد الملك الفنش أحد ملوك الافرنج المقدم ذكرهم . كان هلك بناحية عكا ومعه والدته وجماعة وافرة من خواصه وأبطاله ووجوه رجاله ، فأحاطوا به وهجموا عليه ، وقد كان وصل الى العسكرين النورى والمعينى فريقة تناهز الالف فارس من عسكر سيف الدين غازى ابن أتابك ، ونشبت الحرب بينهم ، فقتل أكثر من كان فيه وأسر وأخذ ولد الملك المذكور وأمه ونهب مافيه من العدد والخيول والاثاث ، وعاد عسكر سيف الدين غازى الى مخيمه بحمص ونور الدين عائدا الى حلب ومعه ولد الملك وأمه ، ومن أسر معهما وانكفأ معين الدين الى دمشق .

---

(١) وفى الكامل لابن الاثير : حصن عرقة . انظر ابن القلانسي ، ص ٣٠٠ ، حاشية رقم (٢) .

من سيرة نور الدين محمود بن زنكى[1]
(٥١١ ــ ٥٦٩هـ / ١١١٧ ــ ١١٧٣م)

قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه الى يومنا هذا فلم أر بها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز ، ملكا أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا أكثر تحريا للعدل والانصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها واحسان يوليه ، وانعام يسديه . وقد تقدم من أحواله فى مملكته مايستدل به على ماذكرناه . ونحن نذكر ههنا ماتعلم به محله في أمر دنياه وأخراه ، فلو كان فى أمة لافتخرت به ، فكيف فى بيت واحد .

فأما زهده وعبادته وعلمه ، فانه كان مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها ، لايأكل ولايلبس ولا يتصرف فيما يخصه ، الا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين . أحضر الفقهاء واستفتاهم فى أخذ مايحل له من ذلك ، فأخذ ماأفتوه بحله ولم يتعده الى غيره البتة . ولم يلبس قط ماحرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة . ومنع شرب الخمر وبيعها فى جميع بلاده ، ومن ادخالها الى بلد ما ، وكان يحد شاربها الحد الشرعى ، وكل الناس عنده فيه سواء .

حدثنى صديق لنا بدمشق كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين أنر ، زوجة نور الدين ووزيرها . قال : كان نور الدين اذا جاء اليها يجلس فى المكان المختص به ، وتقوم فى خدمته لاتتقدم اليه الا أن يأذن لها فى أخذ ثيابه عنه ، ثم تعتزل عنه الى المكان الذى يختص بها ، وينفرد هو تارة يطالع رقاع أصحاب الاشغال ، أو مطالعة كتاب أتاه ويجيب عنه . وكان يصلى فيطيل الصلاة ، وله أوراد فى النهار ، فاذا جاء الليل وصلى العشاء نام ، ثم يستيقظ نصف الليل ويقوم الى الوضوء والصلاة والدعاء الى بكرة ، ثم يظهر للركوب ويشتغل بمهام الدولة .

قال : وانها قلت عليها النفقة ، ولم يكفها ماكان قد قرره لها ، فأرسلتنى اليه اطلب منه زيادة فى وظيفتها فلما قلت له ذلك تنكر و احمر وجهه ، ثم قال : من أين أعطيها ،

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٦٣ ــ ١٦٦ .

أما يكفيها مالها والله لا أخوض نار جهنم فى هواها ، ان كانت تظن ان الذى بيدى من الاموال هى لي فبئس الظن ، انما هى أموال المسلمين ومرصدة لمصالحهم ، ومعدة لفتق ان كان من عدو الاسلام ، وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها . ثم قال : لى بمدينة حمص ثلاث دكاكين ملكا قد وهبتها اياها فلتأخذها . قال : وكان يحصل منها قدر قليل .

وكان رحمه الله لايفعل فعلا الا بنية حسنة . كان رجل بالجزيرة من الصالحين كثير العبادة والورع ، شديد الانقطاع عن الناس ، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله ويرجع الى قوله ويعتقد فيه اعتقادا حسنا ، فبلغه ان نور الدين يدمن اللعب بالكرة ، فكتب اليه يقول له : ماكنت أظن انك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينيه . فكتب اليه نور الدين بخط يده يقول له : والله ماحملنى على اللعب بالكرة ، واللهو والبطر ، انما نحن فى ثغر والعدو قريب منا ، وبينا نحن جلوس اذ يقع الصوت فنركب فى الطلب ولا يمكننا ايضا ملازمة الجهاد ليلا ونهارا ، شتاء وصيفا ، اذ لابد من الراحة للجند ، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما لاقدرة لها على ادمان السير فى الطلب ، ولا معرفة لها ايضا بسرعة الانعطاف فى الكر والفر فى المعركة ، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب ، فيذهب جمامها وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها فى الحرب ، فهذا والله هو الذى يبعثنى على اللعب بالكرة . فانظر الى هذا الملك المعدوم النظير ، الذى يقل فى اصحاب الزوايا المنقطعين الى العبادة مثله ، فان من يجئ الى اللعب ويفعله بنية صالحة ، حتى يصير من أعظم العبادات واكثر القربات ، يقل فى العالم مثله ، وفيه دليل على انه كان لايفعل شيئا الا بنية صالحة ، وهى افعال العلماء الصالحين العاملين .

وحكى لى عنه ، أنه حمل اليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة فلم يحضرها عنده فوصفت له فلم يلتفت اليها وبينما هم معه فى حديثها واذا قد جاءه رجل صوفى فأمر بها له ، فقيل له انها لاتصلح لهذا الرجل ، ولو اعطى غيرها لكان انفع له . فقال : اعطوها له ، فانى أرجو ان اعوض عنها فى الاخرة ، فسلمت اليه ، فسار بها الى بغداد فباعها بستمائة دينار أميرى او سبعمائة دينار ، أنا أشك انها كانت تساوى أكثر .

وحكى لنا الامير بهاء الدين على بن الشكرى رحمه الله تعالى ـــ وكان خصيصا لخدمته قد صحبه من الصبا وأنس به وله معه انبساط ـــ قلت : كنت معه يوما فى

الميدان بالرها نسير والشمس فى ظهورنا ، فكلما سرنا تقدمنا ظلنا ، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا ، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه فقال لى : اتدرى لأى شئ أجرى فرسى والتفت ورائى قلت : لا . قال قد شبهت مانحن فيه بالدنيا ، تهرب ممن طلبها وتطلب من هرب منها . وكان رحمه الله يصلى كثيرا من الليل ، ويدعو ويستغفر ويقرأ ولايزال كذلك الى أن يركب .

جمع الشجاعة والخشوعة لربه ماأحسن المحراب فى المحراب

وكان عارفا بالفقة على مذهب الامام أبى حنيفة ، ليس عنده فيه تعصب ، بل الانصاف سجيته فى كل شئ . وسمع الحديث وأسمعه طلبا للاجر . وعلى الحقيقة فهو الذى جدد للملوك اتباع سنة العدل والانصاف ، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك ، فانهم كانوا قبله كالجاهلية ، همة أحدهم بطنه وفرجه ، لايعرف معروفا ولاينكر منكرا ، حتى جاء الله بدولته فوقف مع اوامر الشرع ونواهيه ، وألزم بذلك أتباعه وذويه ، فاقتدى به غيره منهم ، واستحيوا أن يظهر عنهم ماكانوا يفعلونه . « ومن سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة » فان قال قائل : كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة وتجبى اليه الاموال الكثيرة ، فليذكر نبى الله سليمان بن داود عليه السلام مع اتساع ملكه وهو سيد الزاهدين فى زمانه ، ونبينا محمد ﷺ عليه وسلم قد حكم على حضرموت ، واليمن ، والحجاز ، وجزيرة العرب جميعها من حدود الشام الى العراق ، وهو على الحقيقة سيد الزاهدين . وانما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لاخلو اليد عنها .

وأما عدله فانه كان من أحسن الملوك سيرة ، وأعدلهم حكما . فمن عدله أنه لم يترك فى بلد من بلاده ضريبة لا مكسا ولا عشرا ، بل أطلقها جميعها فى بلاد الشام والجزيرة جميعا ، والموصل وأعمالها ، وديار مصر وغيرها مما حكم عليه . وكان المكس فى مصر يوخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون دينارا ، فأطلقها ، وهذا لم تتسع له نفس غيره . وكان يتحرى العدل ، وينصف المظلوم من الظالم كائنا من كان ، القوى والضعيف عنده فى الحق سواء ، فكان يسمع شكوى المظلوم ، ويتولى كشف حاله بنفسه ، ولا يكل ذلك الى حاجب ولا أمير ، فلا جرم أن سار ذكره فى شرق الأرض وغربها .

المصادر والمراجع

اولا : المصادر المخطوطة والمطبوعة

ـــ ابن أبى الدم الحموى (ابواسحاق ابراهيم بن عبد الله ، ت ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م) التاريخ المظفرى . مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت الرقم ٩٦٦ تاريخ .

ـــ ابن ابى الهيجاء (ت ٥٨٩هـ / ١١٩٣م) تاريخ ابن ابى الهيجاء ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت الرقم ٩٤٥ .

ـــ ابن الاثير الجزرى (ابوالحسن بن ابى الكرم محمد بن عبد الكريم الشيبانى الملقب بعز الدين ، ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) .

١ ـــ الكامل فى التاريخ ، ط ليدن ١٨٥١ ـــ ١٨٧٦م .

٢ ـــ التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ، تحقيق عبد القادر طليمات ، ط . القاهرة ١٩٦٣م .

ـــ ابن حوقل (ابوالقاسم محمد بن على ، ت ق ٤ هـ / ١٠م) صورة الارض ، ط ليدن ، ١٩٣٩م .

ـــ ابن ايبك الداوادارى (ابوبكر عبد الله بن ايبك ، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م)

١ ـــ كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السادس وعنوانه الدرة المضيئة فى اخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط . القاهرة ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م .

٢ ـــ درر التيجان وغرر تواريخ الزمان ، مخطوط بالمكتبة السليمانية ، باستامبول ، برقم ٩١٣ .

ـــ ابن تغرى بردى (جمال الدين ابوالحسن يوسف بن تغرى بردى الاتابكى ، ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) .

١ ـــ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، الاجزاء ٥ ، ٦ ، ط القاهرة ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .

٢ ـــ المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمركز البحث العلمى بجامعة ام القرى بمكة المكرمة .

ـــ ابن جبير (أبوالحسن بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى البلنسى ، ت ٦١٤هـ) .

رحلة ابن جبير ، ط بيروت ١٩٦٤م .
ـــ ابن الجوزى (أبوالفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن على ، ت ٥٩٧هـ / ١٠٢١م) .
المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، الأجزاء ٩ ، ١٠ ، ط حيدر أباد ١٣٥٩هـ .
ـــ ابن حيوس (أبو الفتيان محمد بن سلطان بن محمد ، ت ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م) .
ديوان ابن حيوس ، جزآن ، تحقيق ونشر خليل مردم بك ، ط دمشق ١٣٧١هـ / ١٩٥١م) .
ـــ ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ، ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م .
العبر وديوان المبتدأ والخبر ، الجزء الخامس ، ط بيروت ١٩٥٧م ـــ ١٩٥٨م) .
ـــ ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر ، ت ٦٨١هـ / ١٢٨٤م) .
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٨ أجزاء .
تحقيق احسان عباس ، ط بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .
ـــ ابن شاكر الكتبى (محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن ، ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) عيون التواريخ ، جـ ١٣ ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، تحت الرقم ١٨٤٠ تاريخ .
ـــ ابن الشحنة (ابوالوليد محب الدين محمد بن محمد الحلبى ، ت ٨١٥هـ / ١٤١٤م) روض المناظر فى علم الاوائل والاواخر ، مخطوط بمكتبة السليمانية فى استامبول تحت الرقم ٨٧٠ .
ـــ ابن شداد (بهاء الدين يوسف بن رافع ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م) .
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط القاهرة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م .
ـــ ابن شداد (عز الدين بن أبى عبد الله محمد بن على بن ابراهيم الحلبى ، ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) .
الاعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، جـ ٣ خاص بتاريخ لبنان والأردن وفلسطين ، تحقيق سامى دهان ، ط دمشق ، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م .
ـــ ابن الصيرفى (أبوالقاسم على بن منجب بن سليمان ، ت ٥٥٠هـ / ١١٦٠م) .

الاشارة الى من نال الوزارة ، تحقيق عبد الله مخلص ، ط القاهرة ١٩٢٤م .
ــ ابن طباطبا (محمد بن على المعروف بابن الطقطقا ، ت ٧٠٩هـ) . الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، ط بيروت ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م .
ــ ابن ظافر الأزدى (جمال الدين على بن ظافر ، ت ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م) . أخبار الدول المنقطعة ، القسم الخاص بالفاطميين ، تحقيق أندريه فريه ، ط القاهرة ١٩٧٢م .
ــ ابن ظهيرة (أبو السعادات جلال الدين محمد بن محمد بن الحسين بن ظهيرة المخزومى ، ت ٨٦١هـ / ١٤٥٦م) .
الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى السقا ، وكامل المهندس ، ط القاهرة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩ .
ــ ابن العبرى (غريغوريوس أبوالفرج بن هرون المعروف بابن العبرى ، ت ٦٦٠هـ / ١٢٨٦) .
تاريخ مختصر الدول ، ط بيروت ١٨٩٠م .
ــ ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله ت ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م) .
١ ــ بغية الطلب فى تاريخ حلب ، ٨ أجزاء ، مخطوط فى مكتبة أحمد الثالث باستامبول تحت الرقم ٢٩٢٥ وهناك التراجم الخاصة بالسلاجقة مطبوع نشر وتحقيق على سويم ، جـ ١ ط . انقرة ١٩٦٩م .
٢ ــ زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، جزآن ، تحقيق سامى دهان ، ط دمشق ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م .
ــ ابن عساكر (أبوالقاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعى ، ت ٥٧١هـ) .
تاريخ مدينة دمشق أو التاريخ الكبير ، الأجزاء ٢ ، ٣ ، ٥ تهذيب وترتيب عبد القادر بدران ، ط دمشق ١٩٧٩م .
ــ ابن العماد الحنبلى (أبوالفرج عبد الحى بن على بن محمد ، ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م) .
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، الأجزاء ٣ ، ٤ ، ط بيروت بدون تاريخ .
ــ ابن العمرانى (محمد بن على بن محمد ، ت ٥٨٠هـ / ١١٨٤م) .
الأنباء فى تاريخ الخلفا ، تحقيق قاسم السمرائى ، ط ليدن ، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م .

— ابن الفرات (ناصر الدين محمد عبد الرحيم ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٥م) .
تاريخ ابن الفرات ، المجلد الرابع فى جزئين ، تحقيق حسن محمد الشماغ ، ط البصرة ، ١٩٦٧ — ١٩٦٩م .

— ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أحمد بن يحى بن فضل الله ، ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) .
مسالك الابصار فى الممالك والامصار ، مخطوط بمكتبة أحمد الثالث باستامبول تحت الرقم ٢٧٩٧ .

— ابن قاضى شهبة (بدر الدين محمد بن ابى بكر ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م).
الكواكب الدرية فى السيرة النوريه تحقيق محمود زايد ، ط بيروت ١٣٩١هـ / ١٩٧١م .

— ابن القلانسي (أبو يعلى حمزه بن القلانسي ، ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) .
ذيل تاريخ دمشق ، ط بيروت ، ١٩٠٨م .

— ابن كثير (عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير القرشى ، ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ط بيروت ، ١٩٧٧م .

— ابن ميسر (محمد بن على بن يوسف ، ت ٦٧٧هـ / ١٢٧٥م) .
أخبار مصر ، ج ٢ ، تصحيح هنرى ماسيه ، ط القاهرة ، ١٩١٩م .

— ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ، ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) .
١ — التاريخ الصالحى ، مخطوط بمكتبة فاتح تحت الرقم ٤٢٢٤ وبالمكتبة السليمانية باستامبول .

٢ — مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب الأجزاء الأول ، الثانى ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط القاهرة ١٩٥٣ — ١٩٥٧م وهناك الجزء الرابع تحقيق حسنين محمد ربيع ، ط القاهرة ١٩٧٢م .

— ابن الوردى (زين الدين عمر بن المظفر بن ابى الفوارس ، ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) . (تاريخ ابن الوردى) تتمة المختصر فى اخبار البشر ، تحقيق احمد رفعت البدراوى ، ط . بيروت ، ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م .

— ابوشامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسى ، ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م) الروضتين فى اخبار الدولتين جـ ١ فى قسمين ، تحقيق محمد حلمى

احمد ، ط القاهرة ، ١٩٥٦م .
ـــ ابوالفدا (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماه ، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م)
١ ـــ المختصر فى اخبار البشر ، جـ ٢ ، ٣ ط . بيروت ، بدون تاريخ .
٢ ـــ تقويم البلدان ، ط . باريس ، ١٨٤٠م .
ـــ الاربلى (عبد الرحمن بن سنبط بن قنيتو الاربلى ، ت ٧١٧هـ / ١٣١٧م)
خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك ، تصحيح مكى السيد جاسم ، ط . بغداد ، ١٩٦٤م .
ـــ أسامة بن منقذ ، (اسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ ، ت ٥٨٤هـ / ١١٩٢م .
الاعتبار ، تحقيق فيليب حتي ، ط . برنستون ١٩٣٠م .
ـــ الاصطخرى (ابواسحاق محمد بن ابراهيم الفارسى ، ت ٣٤٦هـ) .
المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسينى ، مراجعة محمد شفيق غربال ، ط القاهرة ، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م .
ـــ الاصفهانى (عماد الدين محمد بن محمد بن حامد المشهور بالعماد الكاتب ، ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) .
١ ـــ تاريخ دول آل سلجوق ، اختصار الفتح بن على بن محمد البندارى ، ط . بيروت ، ١٩٧٨م .
٢ ـــ خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء الشام ، تحقيق شكرى فيصل ، جزآن ، ط . دمشق ١٣٧٥هـ / ١٣٧٨م .
ـــ الأصفهانى (عماد الدين القاضى محمد بن محمد ، ت بعد سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٧م البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ، مخطوط بمكتبة أحمد الثالث باستامبول تحت الرقم ٢٩٥٩ .
ـــ البندارى (قوام الدين الفتح بن على البندارى ، ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م) سناء البرق الشامى ، القسم الأول ، تحقيق رمضان ششن ، ط بيروت ، ١٩٧٠م .
ـــ الحسينى (أبوالحسن بن على بن أبى الفوارس ناصر بن على) اخبار الدولة السلجوقية ، نشر محمد اقبال ، ط لا هور ، ١٩٣٣م .

— الحموى (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموى ، ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) .
١ — معجم البلدان ، خمسة أجزاء ، ط بيروت ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧ .
٢ — معجم الأدباء ، تصحيح د . س مرجليوت ، ط القاهرة ، ١٩٢٤م .
— الحنبلى (مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العليمى ، ت ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م .
الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ط بيروت ، ١٩٧٣م .
— الذهبى (شمس الدين محمد بن احمد بن قايماز ، ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) .
١ — دول الاسلام ، جـ ٢ ، تحقيق فهيم شلتوت ومصطفى ابراهيم ، ط القاهرة ، ١٩٧٤م .
٢ — العبر فى خبر من غبر أربعة أجزاء .
الأجزاء الأول والرابع تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط الكويت ١٩٦٠م ، ١٩٦٣م .
والأجزاء الثانى والثالث تحقيق فؤاد السيد ، ط الكويت ، ١٩٦١م .
٣ — تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام ، مخطوط بمكتبة احمد الثالث باستامبول تحت الرقم ٢٩١٧ .
— الراوندى (محمد بن على بن سليمان ، ت ٦٠٣هـ / ١٢٠٦م) راحة الصدور وآية السرور ، ترجمة عبد النعيم حسنين وآخرون ، ط القاهرة ، ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م .
— سبط ابن الجوزى (أبو المظفر يوسف بن قزاوغلى ، ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، جـ ١٢ ، ١٣ ، مخطوط بمكتبة احمد الثالث باستامبول تحت الرقم ٢٩٠٧ ، والجزء الثامن من هذا الكتاب مطبوع ، ط حيدر أباد سنة ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م .
— السبكى (عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى ، ت ٧٧١هـ / ١٣٧٠م) .
طبقات الشافعية الكبرى الأجزاء السادس والثامن ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحى ، ط القاهرة بدون تاريخ .
— السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٢م) الضوء اللامع لاهل القرن التاسع ، جـ ٢ ، ط القاهرة ، ١٩٣٦م .
— السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد ، ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)

١ ــ تاريخ الخلفا ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، ط القاهرة ، ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م .
٢ ــ حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، جـ ٢ ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، ط القاهرة ، ١٩٦٨م .
ــ الشهرستانى (أبوالفتح محمد بن عبد الكريم ، ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م) .
الملل والنحل ، تقديم واعداد عبد اللطيف محمد العبد ، ط القاهرة ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .
ــ صالح بن يحيى (صالح بن يحيى بن الحسن ، ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٩م) .
تاريخ بيروت ، ط بيروت ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .
ــ الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك ، ت ٨٦٤هـ / ١٣٦٣م) .
١ ــ تحفة ذوى الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والأمراء والنواب ، مخطوط فى المكتبة التيمورية تحت رقم ٢١٠٢ تاريخ ، ويوجد نسخة مصوره على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، تحت الرقم ١٥٢تاريخ .
٢ ــ أمراء دمشق فى الاسلام ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط دمشق ، ١٩٥٥م .
٣ ــ الوافى بالوفيات ، ط قسبادن بالمانيا ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .
ــ العصامى المكى (عبد الملك بن حسين ، ت ١١١١هـ) .
سمط النجوم العوالى فى أنباء الأوائل والتوالى ، جـ ٣ ، ط بغداد بدون تاريخ .
ــ العظيمى (محمد بن على بن محمد ، ت بعد سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٣م)
تاريخ العظيمى ، نشر كلودكاهن C.Cahen فى :
Journal Asiatique, (1938) P.P. 353-448.
ــ العينى (بدر الدين أبو محمد بن أحمد بن موسى ت . ٨٥٥هـ / ١٤٥١م)
١ ــ السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ، تحقيق فهيم شلتوت ط القاهرة ، ١٩٦٦م .
٢ ــ عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، جـ ١١ ، مخطوط على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت الرقم ٣٣٤ / ٢ .
ــ الفارقى (أحمد بن يوسف بن على بن الأزرق ، ت ٥٩٠هـ / ١٠٩٤م) .

تاريخ الفارق ، أو الدولة المروانية ، تحقيق بدوى عبد اللطيف ، ط بيروت ، ١٩٧٤م .

— القرمانى (أبوالعباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقى ، ت ١١٠٩هـ / ١٦١٠م) أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ ، ط بغداد ، ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥م .

— القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود ، ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) .

آثار البلاد وأخبار العباد ، ط بيروت ، ١٩٦٠م .

— القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على ، ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)

١ — صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ١٤جزء ، ط القاهرة ، ١٩١٩ — ١٩٢٢م .

٢ — مآثر الأنافة فى معالم الخلافة ، جـ ١ ، تحقيق عبد الستار احمد فرج ، ط الكويت ، ١٩٦٤م .

٣ — نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، تحقيق ابراهيم الابيارى ، ط القاهرة ١٩٥٩م .

٤ — قلائد الجمان فى التعريف بعرب الزمان ، تحقيق ابراهيم الابيارى ، ط القاهرة ، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م .

— المقريزى (تقى الدين احمد بن على بن عبد القادر ، ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)

١ — اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا ، ثلاثة اجزاء ، الجزء الأول تحقيق جمال الدين الشيال ، ط القاهرة سنة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

الاجزاء الثانى والثالث تحقيق محمد حلمى احمد ، ط القاهرة ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧١م .

٢ — اغاثة الامة بكشف الغمة ، ط القاهرة ، ١٩٥٦م .

٣ — السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة جـ ١ ، ق ١ ، ط القاهرة ، ١٩٥٦م .

٤ — المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جزآن ، ط القاهرة ١٢٧٠هـ .

٥ — البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق عبد المجيد عابدين ، ط القاهرة ، ١٩٦١م .

— مؤلف مجهول :

أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة حسن حبشى ، ط القاهرة ، ١٩٥٨م .
ـــ المؤيد فى الدين (هبة الله بن موسى بن داود الشيرازى ، ت ٤٧٠هـ / ١٠٧٨م) سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة ، تحقيق محمد كامل حسين ، ط القاهرة ، ١٩٤٩م .
ـــ ناصر خسرو (أبو معين الدين القبادياني المروزى ، ت ٤٨١هـ / ١٠٨٧م) سفر نامة ، رحلة ناصر خسرو ، ترجمة الدكتور يحى الخشاب ، ط بيروت ، ١٩٧٠م .
ـــ النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) . نهاية الارب فى فنون الأدب ، جـ ٢١ ، ٢٥ ، ٢٦ مخطوط بمكتبة أحمد الثالث باستامبول تحت الرقم ١٣٦٩ .
ـــ اليافعى (أبو محمد عبد الله بن أسعد بن على بن سليمان ، (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٧م) مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، ط بيروت ، ١٩٧٠م .

ثانيا : المراجع العربية والمترجمة

ـــ ابراهيم خليل ، كربوقا صاحب الموصل ودورة فى مقاومة الصليبيين ، مجلة المؤرخ العربى ، العدد الخامس ، ١٩٧٤م ، ص ٩٥ ـــ ١١١ .

ـــ أحمد أحمد بدوى :

الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، ط القاهرة ١٩٧٢م .

ـــ أحمد رمضان محمد :

المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ، ط القاهرة ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

ـــ أحمد السعيد سليمان :

تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة ، جزآن ، ط القاهرة ، ١٩٧٢م .

ـــ أحمد كمال الدين حلمى :

السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ط الكويت ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .

ـــ أحمد مختار العبادى :

التاريخ العباسى والفاطمى ، ط بيروت ، ١٩٧١م .

ـــ باركر (آرنست) :

الحروب الصليبية ، ترجمة السيد باز العرينى ، ط بيروت ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

ـــ بدرى محمد فهد :

تاريخ العراق فى العصر السلجوق ، ط بغداد ، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م .

ـــ حامد غنيم أبو سعيد :

الجبهة الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ط القاهرة ، ١٩٧١م .

ـــ حسن ابراهيم حسن :

تاريخ الاسلام السياسى ،جـ ٤ ، ط القاهرة ، ١٩٦٧م .

ـــ حسن الباشا :

الألقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، ط القاهرة ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

ـــ حسن حبشى :

١ ــ الحرب الصليبية الأولى ، ط القاهرة ، ١٩٥٨م .
٢ ــ نور الدين محمود والصليبيون ، ط بغداد ، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م .
ــ حسين أمين :
تاريخ العراق فى العصر السلجوق ، ط . بغداد ، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م .
ــ خاشع المعاضيدى :
الحياة السياسية فى بلاد الشام خلال العصر الفاطمى (٣٥٩ ــ ٥٦٧هـ / ٩٦٩ ــ ١٩٧١م) ، ط بغداد ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .
ــ رايس (تامارا تالبوت) :
السلاجقة ، تاريخهم وحضارتهم ، ترجمة لطفى الخولى ، وابراهيم الداقوقى ، ط بغداد ، ١٩٦٨م .
ــ رنسيمان (ستيفن) :
تاريخ الحروب الصليبية ، ٣ أجزاء ، ترجمة السيد الباز العرينى ، ط بيروت ، ١٩٦٨م .
ــ سعيد عبد الفتاح عاشور :
١ ــ الحركة الصليبية جزآن ، ط ، القاهرة ، ١٩٧٨م .
٢ ــ مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ، ط بيروت ، ١٩٧٢م .
٣ ــ بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ط بيروت ، ١٩٧٧م .
٤ ــ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، ط القاهرة ، ١٩٧٦م .
ــ سهيل زكار :
مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ، ط بيروت ، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م .
ــ السيد الباز العرينى :
١ ــ الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ط القاهرة ، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م .
٢ ــ مؤرخو الحروب الصليبية ، ط القاهرة ، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م .
ــ السيد عبد العزيز سالم :
طرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى ، ط الاسكندرية ، ١٩٦٧م .
ــ شاكر أحمد ابو زيد :
الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ، ط بيروت بدون تاريخ .

ـــ شاكر مصطفى :

التاريخ العربى والمؤرخون ، دراسة فى تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله فى الاسلام ، جزءان ، ط بيروت ، ١٩٧٩ ـــ ١٩٨٠م .

ـــ صابر محمد دياب :

سياسة الدول الاسلامية فى حوض البحر المتوسط من أوائل القرن الثانى الهجرى حتى نهاية العصر الفاطمى ، ط القاهرة ، ١٩٧٣م .

ـــ صلاح الدين البحيرى :

الاعداد المعنوى للحروب الصليبية المضادة ، المجلة التاريخية ، المصرية ، العدد ٢١ (١٩٧٤م) ص ١١٧ ـــ ١٣٤ .

ـــ صلاح الدين المنجد :

ولاة دمشق فى العهد السلجوقى (نصوص مستخرجة من تاريخ مدينة دمشق الكبير لمؤلفه ابن عساكر ، ط بيروت ، ١٩٧٥م .

ـــ الطباخ الحلبي :

أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ط حلب ١٩٢٣م .

ـــ عبد الله سعيد الغامدى :

استرداد بيت المقدس زمن صلاح الدين ، رسالة ماجستير لم تطبع جامعة ام القرى بمكة المكرمة ، باشراف الدكتور حسنين محمد ربيع ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

ـــ عبد المنعم ماجد :

١ ـــ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، ط بيروت ١٩٦٦م .

٢ ـــ ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، ط الاسكندرية ، ١٩٦٨م .

ـــ عبد النعيم حسنين :

١ ـــ سلاجقة ايران والعراق ، ط القاهرة ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .

٢ ـــ دولة السلاجقة ، ط القاهرة ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .

ـــ عصام الدين عبد الرؤوف :

بلاد الجزيرة فى أواخر العصر العباسى ، ط القاهرة ، ١٩٧٥ .

ـــ علية الجنزورى :

أمارة الرها الصليبية ، ط القاهرة .

ـ على محمد الغامدى :
بلاد الشام قبل الغزو الصليبى ، (٤٦٣ ـ ٤٩١هـ / ١٠٧٠ ـ ١٠٩٨م) رسالة ماجستير لم تطبع جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، باشراف الدكتور حسنين محمد ربيع ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
ـ عماد الدين خليل :
١ ـ عماد الدين زنكى ، بيروت ١٣٩١هـ .
٢ ـ الامارات الارتقية ، ط بيروت ١٣٩٧هـ .
ـ الغزى كامل حسين محمد مصطفى الحلبى :
نهر الذهب فى تاريخ حلب ، جـ٣ ، ط حلب ، ١٣٤٥هـ / ١٩٣٦م .
ـ فاضل مهدى بيارى :
السياسة السلجوقية فى العراق ، مجلة المؤرخ العربى ، العدد الثامن عشر (١٩٨١م) ص ٩٧ ـ ١٠١ .
ـ فيليب حتى :
تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، جـ ٢ ، ترجمة كمال اليازجى ، ط بيروت ، ١٩٥٩ .
ـ كارل بروكلمان :
تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه أمين ، ط بيروت ، ١٩٧٧م .
ـ كلود كاهن :
تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ترجمة بدر الدين القاسم ، ط بيروت ، ١٩٧٧م .
ـ لين بول (ستانلى) :
الدول الاسلامية ، ترجمة محمد صبحى ، ط دمشق بدون تاريخ .
ـ محمد جمال الدين سرور :
١ ـ النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق فى القرنين الرابع والخامس الهجرى ، ط القاهرة ، ١٩٦٤م .
٢ ـ سياسة الفاطميين الخارجية ، ط القاهرة ، ١٩٦٤م .
٣ ـ الدولة الفاطمية فى مصر ، ط القاهرة ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .

— محمد حمدى المناوى :

الوزاره والوزراء فى العصر الفاطمى ، ط القاهرة ، ١٩٧٠م .

— محمد صالح القزاز :

الحياة السياسية فى العراق فى العصر العباسى الاخير ، ط النجف ، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م .

— محمد كرد على :

خطط الشام ، جـ ١ ، ط بيروت ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .

— محمد ماهر حماده :

الوثائق السياسية والادراية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية ، ط بيروت ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

— محمد محمد مرسي الشيخ :

الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها ، ط القاهرة ١٩٧٤م

— مونروند (مكسيموس) :

تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق ، الدعوة إلى حرب الصليب ، ترجمة كيرو كيرو مظلوم ، جزآن ، ط القدس ، ١٨٦٥م .

— نظير حسان سعداوى :

١ — المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ، ط القاهرة ، ١٩٦٢م .

٢ — جيش مصر زمن صلاح الدين ، ط القاهرة ، ١٩٥٩م .

— يوسف كركوش الحلى :

تاريخ الحله ، القسم الاول فى الحياة السياسية ، ط النجف ، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م .

ثالثا : قائمة المراجع الاجنبية

- The Cambridge History of Islame, Vol.lA London, 1970.
- The Cambridge Medievel 'History, Vol.4, (The Byzantine Empire) London, 1964.
- Dozy. (R.) Supplement aux Dictionnaires Arabes, 2Toms, Paris, 1967.
- The Encyclopaedia of Islam, (New Edtion), London, 1960.
- Gibb, H.A.R., The Damascus Chtonicle of the Crusades, London, 1967.
- Lavoix, (Henre)

Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bebliotheque Nationale, Vol.III, (Egypte Et syrie), Paris 1896.

- Vasiliev (A.A)

Aistory of the By Zantine Empire, Vol,2, Madison, 1929.

- Zakkar, (Suhayl).

The Emirate of Aleppo (1004-1094), Beirut 1971.

- William of Tyre:

A History of Deed's Done Beyond the Sea, 2vols. Translated and Annotated by Emily Babcock, and A. Krey, New York, 1943.